

تأليف

عبد الستار الشيخ

الطّبعَة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


الحافظ الذهبي



هـٰـذَا الرَّجُـل

* «أما أستاذنا أبو عبد الله فبحر لا نظير له، وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة، إمام الوجود حفظاً، وذَهَبُ العصر معنىً ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جمعت له الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها».

[تلميذه تاج الدين السبكي]

* «حافظ لا يُجارى، ولافظ لا يُبارى، أتقن الحديث ورجاله ونظر عِلَلَه وأحواله، وعرَّف تراجم الناس، وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس، ذهنٌ يتوقَّد ذكاؤه ويصح إلى الذهب نسبته وانتماؤه... لم أجد عنده جمودَ المحدِّثين، ولا كَوْدَنة النَّقَلة، بل هو فقيه النظر، له دُربة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات».

[تلميذه صلاح الدين الصفدي]

* «الإمام العلامة، شيخ المحدثين، قدوة الحفاظ والقراء، محدث الشام ومؤرخه ومفيده». «جرَّح وعدَّل، وفرّع وأصَّل، وصحَّح وعلَّل، واستدرك وأفاد، وانتقى واختصر كثيراً من تواليف المتقدمين والمتأخرين، وصنف الكتب المفيدة السائرة في الآفاق».

[تلميذه الحافظ الحسيني]

* «الشيخ الإمام، الحافظ الهُمَام، مفيد الشام، ومؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين وإمام المعدِّلين والمجرِّحين... وكان آية

في نقد الرجال، عمدة في الجرح والتعديل، عالماً بالتفريع والتأصيل، إماماً في القراءات، فقيهاً في النظريات».

[الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي]

* «مهر في فن الحديث، وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة، حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً ورغب الناس في تواليفه، ورحلوا إليه بسببها».

[الحافظ ابن حجر العسقلاني]

* «خرّج وصحّح، وعدَّل ورجَّح، وأتقنَ هذه الصناعة، وفاق فيها فنعمت البضاعة، فهو الإمام سيِّد الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، إمام المحدثين، قدوة الناقدين».

[المحدث المؤرخ سبط ابن حجر]

* «والذي أقوله: إن المحدثين عيال الآن في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة: المزي والذهبي والعراقي وابن حجر».

[الحافظ السيوطي]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمد لله الحَكَم العدل، العلي الكبير، اللطيف الخبير، السميع البصير، خالق الإنسان، ومنزل القرآن، ومجري الفلك ومالك الملك، له الحمد على نعمه السابغة، الظاهرة والباطنة.

والصلاة والسلام على رسوله محمد، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، بعثه الله بالآيات البينات، والخوارق النيِّرات، فقام بتبليغ الرسالة، ونهض بتبيين الوحي، فدل الناسَ على سبيل النجاة، وتركهم على المحجة البيضاء.

ورضي الله عن أصحابه أساتذة البشرية، الأطهار الأخيار، الكرام الأبرار، رهبان الليل وفرسان النهار، حملوا الرسالة وأدوا الأمانة على الوجه الأكمل. وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

أما بعد:

فإن المتتبع للجهود الجبارة التي قام بها أئمة الحديث لخدمة السنة الشريفة، ليقف وقفة إكبار وإعجاب، واحترام وتقدير، وتعظيم وتبجيل، لأولئك الجهابذة الذين قدموا لأمتهم أعمالاً شاهقة باهرة، تعتبر في مقاييس البشر ضرباً من الخيال.

فلقد كانوا يَصلون الليل بالنهار، ويقطعون الفيافي والقفار ويرحلون إلى أصقاع الأرض، لسماع الحديث، والقراءة على العلماء، ومذاكرة النقاد، ومباحثة الحفاظ، حتى قال سعيد بن المسيب: «إن كنت

لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد»[1]. يحمل أحدهم زاده، ويمتطي ظهر راحلته، ولربما اكتفى برجليه، واصطحب قلمه ومحبرته، واستحضر قلبه واستجمع فكره، وألقى السمع إلى المحدث المُمْلِي، ليحفظ أو يدوّن حديث رسول الله ﷺ. ويتكاثر الحضور حتى كان يجتمع في المجلس الواحد من أصحاب المحابر من يكتب نحو عشرة آلاف إنسان[2]! وكان علماء الحديث من الكثرة بحيث إنه توفي سنة (٦٩٩ هـ) في دمشق وجبل قاسيون فقط أكثر من مئة نفس من شيوخ الحديث[3].

وكانوا يعتمدون في الطلب والحفظ ـ غالباً ـ على ذاكرتهم، وكثرة مراجعتهم للحديث ومذاكرتهم له، ولما سئل عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت ٢٩٠ هـ): كم سمعتَ من أبيك؟ قال: مئة ألف وبضعة عشر ألفاً. وقال: كل شيء أقول: قال أبي، فقد سمعته مرتين وثلاثة، وأقله مرة»[4]. وعندما دخل داود بن يحيى على الحافظ محمد بن علي البغدادي الملقب «قِرْطِمَة» (ت ٢٩٠ هـ)، قال له قرطمة: ترى هذه الكتب! خذ أيها شئتَ حتى أقرأ. فقال داود: كتاب الأشربة. فجعل يسرد من آخر الباب إلى أوله، حتى قرأه كله[5]! وكان الحافظ البارع أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر المنكدري القرشي (ت ٣١٤ هـ) يقول: «أناظر في ثلاث مئة ألف حديث»[6].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/٥٥ ـ ٥٦.

(٢) انظر مثلاً: تذكرة الحفاظ ٢/٦٢١، ٦٩٣، ٣/٨٢٥.

(٣) العبر في خبر من عبر: ٣/٣٩٥.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٢/٦٦٥ ـ ٦٦٦، سير أعلام النبلاء ١٣/٥٢٠.

(٥) تذكرة الحفاظ: ٢/٧٤٥.

(٦) المرجع السابق: ٣/٧٩٤.

وما نال القوم ذلك إلا بالجد والاجتهاد، والطلب المتواصل، والسهر المستمر، والمذاكرة الدؤوبة، والانصراف للعلم بكليتهم. يقول الحافظ الناقد ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ): «كنا بمصرَ سبعة أشهر، لم نأكل فيها مَرَقة، كل نهارنا مقسَّم لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة. قال: فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: هو عـليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا، فاشتريناه، فلما صِرنا إلى البيت، حضر وقت مجلس، فلم يمكنا إصلاحه، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكادَ أن يتغير، فأكلناه نيئاً، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه. ثم قال: لا يُستطاع العلم براحة الجسد»[1].

وجاء عن الحافظ المجوِّد المؤتَمَن بن أحمد بن علي السّاجي (ت ٥٠٧ هـ) أنه قرأ كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» للرامهرمزي في مجلس واحد[2]، قراءة بحث وإتقان، وهو في «مصطلح الحديث» ويقع في (٤٦٥) صفحة!

وكان طلبهم العلم خالصاً لوجه الله، وقرنوه بالعمل، ولا خير في علم لا ينفع صاحبه! يقول الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ): «إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يُعَدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً»[3].

لذا ترى هؤلاء قد قسموا الليل ثلاثاً: فثلث للعلم، وثلث للعبادة، وثلث للنوم. وقد ذكروا في سيرة الإمام المجتهد الحافظ تقي الدين

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٦٦، تذكرة الحفاظ ٣/٨٣٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٩/٣١٠.

(٣) معجم شيوخ الذهبي: ص ٥٠٥.

محمد بن علي بن وهب الشهير بابن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ) أنه كان «شديد الخوف، دائم الذكر، لا ينام الليل إلا قليلاً، ويقطعه فيما بين مطالعة وتلاوة وذكر وتهجد، حتى صار السهر له عادة، وأوقاته كلها معمورة»[١]. بل جاء في سيرة الحافظ النسّابة أبي بكر محمد بن موسى الحازمي المتوفى سنة (٥٨٤) شاباً عن ست وثلاثين سنة، فيما يرويه ابن النجار قال: «سمعت أبا القاسم المقرىء جارنا يقول ــ وكان صالحاً ــ : كان الحازميُّ رحمه الله في رباط البَدِيع، فكان يدخل بيته في كل ليلة، ويطالع ويكتب إلى طلوع الفجر، فقال البديع للخادم: لا تدفع إليه الليلة بزراً للسِّراج، لعلّه يستريح الليلة. قال: فلما جَنَّ الليلِ، اعتذر إليه الخادم لأجلِ انقطاع البزر، فدخل بيته، وصفَّ قدميه يصلّي، ويتلو، إلى أن طلع الفجر، وكان الشيخ قد خرج ليعرف خبره، فوجده في الصلاة»[٢]!!

ومن مظاهر إخلاصهم أنهم ما تكسبوا بالعلم، بل أنفقوا في سبيله الأموال الطائلة، وشكروا الله تعالى على أن وفّقهم لخدمة السنة النبوية. قال هشام بن عُبيد الله الرَّازي (ت ٢٢١ هـ): «لقيت ألفاً وسبع مئة شيخ: أصغرهم عبد الرزاق، وخرج مني في طلب العلم سبع مئة ألف درهم»[٣]. وذكروا في سيرة الحافظ أبي مسلم الكجي (ت ٢٩٢ هـ) ــ صاحب «السنن» ــ أنه لما فرغ العلماء من سماع «سننه» منه، عمل لهم مأدبة أنفق فيها ألف دينار[٤].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١٤٨٢/٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٦٩/٢١، تذكرة الحفاظ: ١٣٦٤/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٤٧/١٠، ميزان الاعتدال: ٣٠٠/٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٤٢٥/١٣، تذكرة الحفاظ: ٦٢١/٢.

لكل ذلك أكبرهم الحكام، واحترموهم ووقروهم، وهابوا سطوتهم، وخافوا كلمتهم، كما أحبهم العامة، وبجّلوهم، واتبعوهم. يروي الضياء المقدسي في سيرة الحافظ العَلَم عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجَمَّاعيلي ثم الدمشقي الصالحي (ت ٦٠٠ هـ)، فيقول: «كان الحافظ بأصبهان يخرج، فيصطف الناس في السوق ينظرون إليه، ولو أقام بأصبهان مدة، وأراد أن يملكها لملكها... وكنا بمصر نخرج معه للجمعة، فلا نقدر نمشي معه من زحمة الناس، يتبركون به، ويجتمعون حوله»(١).

لأجل ذلك بارك الله لهم في أعمارهم وأوقاتهم، وحباهم قلباً واعياً، وفكراً وقاداً وذكاءً باهراً، وأكرمهم بنعمة الحفظ وقلة النسيان. فهذا الإمام ابن الحافظ أبو بكر بن أبي داود السجستاني (ت ٣١٦ هـ) يقول: «حدثت من حفظي بأصبهان بستة وثلاثين ألفاً، ألزموني الوهم فيها في سبعة أحاديث، فلما انصرفت وجدتُ في كتابي خمسة منها على ما كنت حدثتهم به»(٢).

وكانت ثمرة تلك الجهود المضنية، والعمل الدؤوب، والطلب المتواصل، تلك المصنفات العظيمة التي حفظت أصل الإسلام الثاني، ونقلت للأمة سنة نبيّها ﷺ طاهرة نقية، مصفاة منقاة، ونفت عنها الشوائب التي حاولت التعلق بها، وذلك بفضل الله الذي سخر لها حماة الحديث وفرسان الرواية وحفاظ الآثار. فصنفوا كتب الحديث المروية بالأسانيد المتصلة إلى المعصوم ﷺ، وتفننوا في ذلك: فجمعوا الصحاح والسُّنَن، والمسانيد والمستخرجات والمنتقيات والمستدركات، والأطراف والأجزاء، والثنائيات والثلاثيات حتى العشاريات والعوالي

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/١٣٧٧، سير أعلام النبلاء: ٢١/٤٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٢٤، تذكرة الحفاظ: ٢/٧٦٩.

والبلدانيات، وغيرها. وأفردوا الأحاديث الضعيفة بمصنفات، وكذا الواهية والموضوعة، والمشتهرة على الألسنة، وأحاديث الأحكام، والآثار المروية عن الصحابة والتابعين. وألّفوا في مصطلح الحديث، والرحلة في طلبه، وآداب رواته وحملتِه. وصنفوا في علم الرجال بشتى فنونه: المؤتلِف والمختلِف، والمتفِق والمفترِق، والألقاب والكنى والأنساب، وتراجم رواة الحديث متقيدين بكتب مخصوصة كالكتب الستة، أو غيرها، ومنهم من لم يتقيد فصنف في الثقات، والضعفاء، والمجروحين، وترجموا لأعيان المحدثين، وذكروا طرفاً من سيرهم، ورتبوهم على الطبقات حسب اللقيا، منذ عصر الصحابة حتى عصر المصنِّف.

وهكذا تكونت عند أمتنا هذه الموسوعة الضخمة، الهائلة العجيبة الفريدة، التي غايتها خدمة الكَلِم النبوي العالي الغالي، وحفظه من كل ما يشوبه.

ونحن في هذا الكتاب نتناول سيرة واحد من أولئك الأئمة الأكابر، قد نذر نفسه لخدمة دينه، وبذل مهجته وأنفق حياته في طلب العلم والتصنيف فيه، مبتغياً وجه الله، وقاصداً النصح للمسلمين، فكان ـ بحق ـ واحداً من فرسان الحديث النبوي وحجة عمدة في الرجال، وركناً ركيناً في التصنيف في التاريخ الإسلامي.

لقد قضى الذهبي حياته في الرحلة والطلب، والخطابة والتدريس، والتصنيف والتأليف فأثرى المكتبة الإسلامية بعامة، والحديثية والتاريخية بخاصة «بتآليفه الذهبية» التي أصبحت عمدة من جاء بعده، اختصاراً وانتقاءً، وتذييلاً وتعقيباً، ونقلاً واقتباساً، ومطالعة ومدارسة، يفزعون إلى آرائه، ويحتجون بأقواله، ويعتزون بنقل مباحثه وتقريراته.

ونال الذهبي بذلك مكانة رفيعة عند الأئمة، وأثنى عليه علماء الأمة وأفرادها، ووضعوه في المحل الأعلى والمقام الأسنى، وهو به حقيق، وباقتعاده جدير.

وعلى الرغم من تلك المكانة السامقة، والشهرة السائرة، التي تبوأها الذهبي في الفكر الإسلامي عموماً، والحديثي والتأريخي خصوصاً؛ فإن شيئاً من الهضم قد لحق به من جهة ترجمته، والاهتمام بتدوين سيرته، وتفصيل أحواله، وذكر فضائله، ودراسة شخصيته ومصنفاته ومنهجه. فإن ما كتب عنه لا يليق بمقامه باعتباره إماماً كبيراً، إذ إنه لا يتعدى صفحات قليلة سطرها تلامذته ومعاصروه، وجاء من بعدهم فردّدوا ـ غالباً ـ ما كتبه الأوّلون. وكان حرياً بتلامذته أن يصنفوا في سيرته على غرار ما فعل ـ مثلاً ـ السخاوي في «الجواهر والدرر» حيث ترجم لشيخه ابن حجر ترجمة وافية مفصلة جداً.

وفي عصرنا ظهرت بعض الدراسات المنهجية، فمنها كتاب «منهج الذهبي وموارده في ميزان الاعتدال» لقاسم علي سعد، ولم أقف عليه. وقبله صدر كتاب «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام» للدكتور بشار عواد معروف، قدم فيه دراسة جادة، جيدة ومفيدة، فجلّى كثيراً من جوانب حياة الذهبي الشخصية والعلمية وآثاره الكتابية. لكننا وجدنا كتابه هذا بعيداً عن أيدي جمهرة الناس، ولعلّ ذلك راجع إلى ما انطبع به من تخصص ـ وهذا لا يغض من قيمته ـ وبخاصة في نصفه الثاني، وهو في ذلك معذور، حسب مقتضيات بحثه. ولكن لا بدّ ـ والحالة هذه ـ من تعميم الفائدة لتشمل الأعم الأغلب من طبقات القراء وطلبة العلم، هذا فضلاً عن أن جوانب كثيرة من شخصية الذهبي جاء الحديث فيه عنها مقتضباً، وبعضها بإشارة عابرة، وهي بحاجة إلى تجلية ومزيد بيان. زد على ذلك ما فاته من ذكر شيء كثير من تصانيفه.

وكتابنا هذا يتناول مختلف جوانب شخصية الإمام، بتفصيل دون الإسهاب وفوق الإيجاز، ويجلو نواحي حياته الشخصية والعلمية، بصورة متكاملة لا يطغى فيها جانب على غيره، وجعلته في أربعة عشر فصلاً، كل فصل منها واضح السمات، محدد المعالم.

ـ تناولت في «الفصل الأول» العصر الذي عاش فيه الذهبي، وألقيت الضوء على المهم من ذلك، من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية.

ـ وفي «الفصل الثاني» فصَّلت القول في أخباره الشخصية: اسمه ونسبه وولادته، وأسلافه ونشأته، وعناية عائلته به، وأسرته وأولاده.

ـ وخصصت «الفصل الثالث» للكلام عن طلبه العلم، ورحلاته، ومسموعاته، واستمراره في الطلب والمطالعة طيلة حياته.

ـ وتكلمت في «الفصل الرابع» عن شيوخه وأقرانه، والتعريف بأعيانهم.

ـ وأما «الفصل الخامس» فقد أوسعت الكلام فيه، وبحثت في العلوم التي برع فيها الإمام، فتحدثت عن الذهبي قارئاً مُجَوِّداً، ومحدثاً جِهْبِذاً، ومؤرخاً بارعاً، وفقيهاً متبعاً، ولغوياً أديباً. وجلوت كثيراً من الغموض الذي لحق هذا الجانب المهم في شخصية إمامنا رحمه الله.

ـ وأفردت «الفصل السادس» لدراسة «الذهبي الناقد الكبير»، وأطلتُ الحديث فيه، لأنه يمثل أبرز ميزات هذا العَلَم، وحددت المعالم الرئيسة فيه، وناقشت الانتقادات التي وجهت إليه في هذا المجال، مما رُمِي به من تعصب على الأشاعرة، و بغض للمتصوفة، وإجحاف في

تراجمه رجال المذاهب الأربعة، وأَبَنْتُ وجه الحق في ذلك، فاستغرق الفصل خمساً وستين صفحة.

ـ وتناولت في «الفصل السابع» الحديث عن المناصب التي تولاها الذهبي، وهي: الإقراء، والخطابة، ومشيخة عدد من دور الحديث الشهيرة.

ـ وبحثت في «الفصل الثامن» في عوامل تكوين شخصيته، ومنهجه.

ـ وخصصت «الفصل التاسع» للحديث عن عقيدته السلفية، وفصَّلت القول فيه وأطلت بعض الشيء لأهمية ذلك من جهة، ولأن الكلام في هذا الجانب جاء ـ عند غيرنا ـ عابراً لا يتعدى بضعة أسطر على الأكثر، من جهة ثانية.

ـ وفي «الفصل العاشر» تحدثت عن أخلاقه وعبادته.

ـ وتناولت في «الفصل الحادي عشر» الحديث عن تلامذته، وترجمتُ أكابر الآخذين عنه.

ـ وفي «الفصل الثاني عشر» تكلمت عن مكانته العلمية، وآراء العلماء فيه.

وكثير من هذه الفصول جاء الحديث فيها ـ عند غيرنا ـ منساباً غير محدد المعالم، فضلاً عن أن بعضها لم ينل إلا الإشارة العابرة.

ـ أما «الفصل الثالث عشر» فقد جاء حافلاً، وقد خصصته لدراسة مصنفات الإمام: قيمتها، ومجالاتها، ونواحي الإبداع فيها، والتعريف بها.

وقد بلغ عدد مصنفاته عند الدكتور بشار عوّاد (٢١٤) أثراً، وفي

مقدمته لسير أعلام النبلاء (٢١٥) مؤلفاً، أسقطنا منها (٤) تصانيف، لأمور رجحناها، واعتبارات قوية رأيناها. وقد استدرك عليه الأستاذ قاسم سعد (٣٧) مصنَّفاً، اثنان منها لا يصح فيهما الاستدراك عليه، وقد وقفنا على أكثر ما جاء في رسالته «صفحات في ترجمة الحافظ الذهبي»، لكننا استفدنا منها في مواضع. وقد مَنّ الله سبحانه عليَّ بأن وقفتُ على تواليف أخرى للذهبي، فكانت محصلة ما في بحثنا (٢٧٠) أثراً.

- وأخيراً تناولت في «الفصل الخامس عشر» وفاة الذهبي ومراثيه.

ولقد بذلتُ في هذا البحث جهدي، واستفرغتُ فيه ما عندي، وأنا معترف بأن الفكر يكبو، والقلم يسهو، إذ إن الخطأ والزلل من لوازم البشر. فمن رأى فيه عيباً فليصْلِحْهُ، أو يَغُضَّ الطرْف عنه، وإن تكرّم فَلْيُسْدِ إليّ بالنصيحة، ثم بعد هذا وذاك فليدْعُ لي بالقبول والمغفرة.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

اللّهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، وانفعني به وقارئه وناشره يوم الدين. اللّهم آمين.

عبد الستار الشيخ

* * *

الفصل الأول

عصر الحافظ الذهبي

عاش الحافظ الذهبي في الربع الأخير من القرن السابع الهجري وحتى منتصف القرن الثامن، وفي هذه الحقبة من الزمن كانت الشام ــ مع مصر ــ تحت سيادة المماليك وسنلقي الضوء على ذلك العصر الذي عاش فيه الإمام، فنتناوله من عدة نواحٍ:

الناحية السياسية:

بعد احتضار دولة الأيوبيين، دبّ النزاع بين ملوكهم، وقامت بينهم الحروب ــ وبخاصة في مصر والشام ــ وسعى كل منهم إلى تعزيز جانبه وإكثار جنده؛ فلجأ كل حاكم إلى شراء المماليك، والاعتناء بتدريبهم وتنشئتهم. وسرعان ما ساعدت الأحداث على بروز المماليك، وتنامي شوكتهم، حتى صارت لهم كلمة مسموعة، وتأثير فاعل في مجريات الأمور، وتمكنوا من إقامة دولتهم على أنقاض دولة الأيوبيين في مصر والشام.

وهؤلاء المماليك كانوا على قسمين:

المماليك البحرية: وسموا بذلك لأن الملك نجم الدين أيوب اختار جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم. وامتد حكمهم ما بين سنتي (٦٤٨ ــ ٧٨٤ هـ/ ١٢٥٠ ــ ١٣٨١م) وكوّنوا دولة قوية، خاضت معارك ظافرة، وتمكنت من كبح جماح المغول وإيقاف تقدمهم، وتصفية الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

ودالَتْ دولتهم لتأتي دولة المماليك الجراكسة أو «البرجية»: وأصل تسميتهم جاءت من أن السلطان المنصور قلاوون أكثر من شراء المماليك الجركس، وعني بتربيتهم في «أبراج القلعة»؛ فلصق بهم اسم البرجية. وامتد عهدهم ما بين سنتي (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م).

أما من الناحية الاجتماعية:

فقد كانت الحياة في عصر سلاطين المماليك صاخبة نشطة، مليئة بالحيوية والحركة، والعقيدة الإسلامية هي السائدة، وأحكام الله نافذة، ولها قداسة واحترام. وحرص السلاطين على إنشاء المرافق العامة كالخانات والمستشفيات والحمامات وغيرها. وكان الناس يشاركون في الاحتفالات بالمناسبات العامة، وكثُرَت المناسبات الدينية، وبولغ فيها حتى صارت ميزة لتلك الحقبة من الزمن. ولم يخلُ ذلك العصر من العسف والظلم وإرهاق الناس بالضرائب التي لاقوا منها العنت، وكذلك وجد التفاوت الطبقي حيث طبقة الأمراء والمماليك، وطبقة العلماء من قضاة ومدرسين في المدارس والمساجد، ثم طبقة التجار والصناع، وآخر طبقات المجتمع هم سواد الشعب من فلاحين وحرفيين وأمثالهم، وهؤلاء كانت حياتهم أقرب للبؤس والحرمان منها للسعة والجِدَة.

وأما من الناحية الاقتصادية:

فقد أولى المماليك الزراعة عناية جيدة، وأنشؤوا لذلك الجسور، وشقوا الترع وارتقت الصناعة رقياً كبيراً، كالأقمشة والصناعات المعدنية والخشبية والخزف والزجاج، وتبوأت التجارة المقام الأول، فقد سُدَّت معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، بسبب حركة المغول التوسعية، ولم يبق آمناً سوى طريق البحر ومصر. وقد أدرك سلاطين المماليك ذلك، فيسروا له السبل. كما نشطت التجارة الداخلية،

وانتشرت الأسواق الكبرى، مع إحكام الرقابة على ذلك. لكن ساءت المعاملة في عصر المماليك الجراكسة، فضاق التجار بذلك ذرعاً، واكتُشف «رأس الرجاء الصالح» وتدهور دور مصر التجاري.

وعلى صعيد الحياة الدينية:

بقي في زمان المماليك بقايا للرفض هو امتداد لجذور «الدولة العبيدية» التي دك آخر قلاعها البطل صلاح الدين. وانتهت آثارهم ـ أو كادت ـ في أواخر عهد المماليك.

وكان من ميزات ذلك العصر كثرة المنشآت الدينية، والحرص على تشييد المساجد، وقلَّ سلطان إلا ونال شرف ذلك العمل البار. على أن أبرز ظاهرة هي انتشار التصوف في أرجاء البلاد، وظهر بينهم كثير من المشعوذين الذين أثروا على العوام تأثيراً كبيراً، بل عمل الحكام المماليك على الاهتمام بهم، وبنوا لهم الخانقاوات، ووقفوا الأوقاف عليها. وانتشر الجهل والاعتقاد بالخرافات والمغيبات بين العوام، وتقديس الأشياخ والاعتقاد فيهم، وطلب النذور عند قبورهم.

وشهدت دمشق نزاعاً مذهبياً وعقائدياً حاداً، كان الحكام المماليك يتدخلون فيه في كثير من الأحيان، فيناصرون فئة على أخرى. وكان النزاع العقائدي بين الحنابلة والأشاعرة مضطرماً. وبقدر ما ولَّد هذا التعصب من تمزق في المجتمع، فإنه ولّد في الوقت نفسه نشاطاً علمياً واضحاً في هذا المضمار، تمثّل في الكتب الكثيرة التي وضعت فيه، كما ظهر تحيز واضح في كثير من كتابات العصر.

أما الحالة العلمية:

فقد شهد ذلك العصر حركة علمية ضخمة واسعة شاملة، فبعد الكوارث التي حلّت ببغداد على يد المغول، وبالأندلس على يد الصليبيين، توجهت أنظار العلماء إلى مصر والشام، فكانت دمشق مركزاً

كبيراً من مراكز الحياة الفكرية العلمية، كما صارت مصر «محل سكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء» كما يقول السيوطي. وشعر العلماء بالعبء الكبير الملقى على عاتقهم بعد الخسارة الفادحة التي لحقت بالمكتبة الإسلامية، فتسابقوا في التصنيف والتأليف في شتى العلوم. وساعدهم على ذلك اهتمام سلاطين المماليك بإنشاء المؤسسات العلمية من مكاتب ومدارس وخوانق ومعاهد للتعليم، التي تلقى فيها الدروس في مختلف التخصصات: كالتفسير، والحديث، والقراءات، والفقه وأصوله، والعربية وعلومها، والتأريخ، والجغرافيا، والطب، والفلك، وغير ذلك. وكان التركيز منصباً على العلوم الشرعية. فكان يُخصص لكل مدرسة مدرسون، وتلحق بها خزانة كتب، ووقفوا عليها الأوقاف الغنية، وقرروا الرواتب للأشياخ والطلاب، كما وفروا السكن للجميع.

ومن أبرز تلك المدارس في مصر: الظاهرية القديمة، والمنصورية، والناصرية، والصاحبية البهائية، والمنكوتمرية، والجمالية، والمحمودية، والجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص الذي كانت فيه سنة (٧٤٩ هـ) بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه.

وفي الشام: كانت هناك المدرسة الناصرية، والعادلية، والأشرفية، والعمرية، وغير ذلك مما استوعب الكلام عليه النعيمي في «الدارس». وكان في الجامع الأموي بدمشق ثلاثة وسبعون متصدراً لإقراء القرآن، وعدد من الحلقات في علوم الفقه والحديث، وغيرها.

وقد لمع في تلك الحقبة أعلام أفذاذ من العلماء في مختلف صنوف العلم والمعرفة.

ففي القرآن وعلومه: كان هناك من ألف في التفسير والقراءات، مع

التصدي للتدريس والإقراء في المساجد والمدارس، ومن أولئك: أبو عبد الله القرطبي المفسر الكبير (ت ٦٧١ هـ) والمقرىء المفسر موفق الدين الكَوَاشي (ت ٦٨٠ هـ)، والمقرىء المفسر عز الدين الفاروثي (ت ٦٩٤ هـ) وابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في تفسير سور متفرقة، وأبو حيّان الأندلسي نحوي عصره ومفسره ومقرئه (ت ٧٤٥ هـ)، والمفسر الشهير ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ). ومن المقرئين: شيخ الإقراء ببعلبك محمد بن أبي العلاء (ت ٦٩٥ هـ)، والمقرىء النحوي خطيب جامع دمشق أحمد بن إبراهيم بن سباع (ت ٧٠٥ هـ)، والدِّلاصي شيخ الإقراء بالحرم (ت ٧٢١ هـ)، وشيخ القرّاء إبراهيم بن عمر الجَعْبري (ت ٧٣٢ هـ)، والمقرىء المجوِّد ابن بَصْخَان (ت ٧٤٣ هـ)، وأحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي المعروف بالسمين (ت ٧٥٦ هـ).

وفي الحديث وعلومه: نجد قائمة طويلة من أساطين هذا العلم العزيز، الذين أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفات جليلة، منهم: الحافظ المجتهد أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) والإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ)، والحافظ الزاهد جمال الدين ابن الظاهري (ت ٦٩٦ هـ)، والإمام الحافظ أحمد بن فَرْح الإشبيلي (ت ٦٩٩ هـ)، والحافظ المجتهد ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ)، والحافظ شرف الدين الدمياطي (ت ٧٠٥ هـ)، والحافظ سعد الدين الحارثي (ت ٧١١ هـ)، والحافظ عثمان بن محمد التَّوْزَري (ت ٧١٣ هـ)، ومُسْنِد الشام سليمان بن حمزة المقدسي (ت ٧١٥ هـ)، وعالم المغرب ابن رُشيد (ت ٧٢١ هـ)، وشيخ الإسلام رضي الدين الطبري (ت ٧٢٢ هـ) ومسنِد الشام البهاء ابن عساكر (ت ٧٢٣ هـ)، وابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، ومسنِد الدنيا الحَجَّار (ت ٧٣٠ هـ)، وبدر الدين ابن جماعة (ت ٧٣٣ هـ)، وابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ)، والحافظ علم الدين البِرزالي (ت ٧٣٩ هـ)، ومسندة

الشام زينب المقدسية (ت ٧٤٠ هـ)، والحافظ المِزّي (ت ٧٤٢ هـ)، والحافظ ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤ هـ)، والحافظ المقرىء الوادي آشي (ت ٧٤٩ هـ)، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، والحافظ العلائي (ت ٧٦١ هـ)، والحافظ عبد الله بن يوسف الزَّيْلَعي (ت ٧٦٢ هـ)، ومُغَلْطاي (ت ٧٦٢ هـ).

وفي الفقه وأصوله نبغ أئمة أعلام في مختلف المذاهب:

ـ فمن الأحناف: الفقيه البارع عمر بن محمد الخَبَّازي (ت ٦٩١ هـ)، وابن النحَّاس محمد بن يعقوب الحلبي (ت ٦٩٥ هـ) أحد أساطين المذهب، وابن التركماني (ت ٧٣١ هـ)، وعثمان بن علي الزَّيْلَعي (ت ٧٤٣ هـ)، وعمر بن إسحاق الغزنوي (ت ٧٧٣ هـ).

ـ ومن المالكية: محمد بن أحمد البكري الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ)، وعيسى بن مسعود الزَّواوي (ت ٧٤٣ هـ)، وخليل بن إسحاق الجندي (ت ٧٦٧ هـ).

ـ ومن الشافعية: محمد بن الحسين بن رزين الشافعي (ت ٦٨٠ هـ)، وشيخ الإسلام الفزاري (ت ٦٩٠ هـ) وأحمد بن أحمد بن نعمة الشافعي (ت ٦٩٤ هـ)، وابن الرِّفْعَة (ت ٧١٠ هـ)، وشرف الدين البارزي (ت ٧٣٨ هـ)، وتقي الدين السُّبْكي (ت ٧٥٦ هـ)، والإسنوي (ت ٧٧٢ هـ).

ـ ومن الحنابلة: الشهاب ابن تيمية عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (ت ٦٨٢ هـ)، وأبو الفرج عبد الرحمٰن بن قدامة (ت ٦٨٢ هـ)، وابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، ومحمد بن مفلح (ت ٧٦٣ هـ). وغيرهم.

وأما علم التاريخ فكان من أبرز علوم ذلك العصر: فقد لمعت فيه كوكبة من عباقرة المؤرخين اكتسبوا مكانة مرموقة بين المسهِمين في

الفكر التأريخي الإسلامي، من أمثال: ابن خَلِّكان (ت ٦٨١ هـ) وكمال الدين ابن الفُوَطي (ت ٧٢٣ هـ)، وقطب الدين اليونيني (ت ٧٢٦ هـ)، والملك المؤيد (ت ٧٣٢ هـ)، وابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ)، وقطب الدين الحلبي (ت ٧٣٥ هـ)، وعلم الدين البِرْزالي (ت ٧٣٩ هـ)، ومحمد بن إبراهيم ابن الجزري (ت ٧٣٩ هـ)، والأُدْفُوي (ت ٧٤٨ هـ)، وابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ)، وصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ)، وشمس الدين الحسيني (ت ٧٦٥ هـ)، واليافعي (ت ٧٦٨ هـ)، والتاج السُّبْكي (ت ٧٧١ هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، وابن رافع السلاَّمي (ت ٧٧٤ هـ)، وبدر الدين الزَّرْكَشي (ت ٧٧٤ هـ)، وابن أبي الوفاء القرشي (ت ٧٧٥ هـ). فكتبوا في أحداث التاريخ، والسير، والتراجم، والطبقات، وصنفوا فيها مؤلفات ضخمة.

وفي علم الجغرافيا والطبيعة والحساب والفلك كان هناك:

أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَري (ت ٧٤٩ هـ) وهو إمام الجغرافيا والإسطرلاب. وعالم الفلك والهندسة والحساب علي بن إبراهيم الأنصاري الموقت المعروف بابن الشاطر (ت ٧٧٧ هـ). وغيرهما.

وفي العربية وعلومها:

عمر بن إسماعيل الربعي الشاعر المفلق (ت ٦٨٩ هـ)، وحجة العرب ابن النحاس (ت ٦٩٨ هـ)، والعلامة النَّحْوي محمد بن أبي الفتح الحنبلي (ت ٧٠٩ هـ)، وابن منظور (ت ٧١١ هـ)، والنحوي اللغوي الأديب محمد بن حسن بن سباع الجذامي (ت ٧٢٠ هـ)، وشهاب الدين محمود بن سَلْمان الحلبي (ت ٧٢٥ هـ)، والعلامة المحدث شيخ النحاة أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الجياني الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، وصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، وسيبويه زمانه جمال الدين ابن هشام (ت ٧٦١ هـ)، والشاعر ابن نباتة

المصري (ت ٧٦٨ هـ)، وبهاء الدين ابن عقيل (ت ٧٦٩ هـ)، وغيرهم كثير[١].

في هذه البيئة ولد الإمام الذهبي، وتفتحت عيناه على ما فيها من عقائد ومذاهب، وما يضطرم فيها من أفكار، ومظاهر الحياة الدينية والاجتماعية، وما تضج به من حركة علمية خلّفت آثاراً ضخمة. بيد أنه كان يرجع فكره إلى الصورة الباهرة للعصور الأولى التي امتازت بكثرة العلماء، وسعة الرحلة في طلب العلم، مع العمل والزهد والإخلاص، بصورة لا مثيل لها. ويقارن ذلك بالعصر الذي يعيشه، فيجد البون شاسعاً، فيعبر عما في نفسه بين الحين والآخر كلما وجد الفرصة مناسبة، مما يعطي بعض ملامح ذلك العهد، من رجل عاصره وكان أحد أعيانه. فتراه يقول:

«وقد قَلَّ من يعتني بالآثار وحَمَلتها في هذا الوقت في مشارق الأرض ومغاربها، على رأس السبع مئة: أما المشرق وأقاليمه فغلق الباب وانقطع الخطاب، والله المستعان. وأما المغرب وما بقي من جزيرة الأندلس فيندر من يعتني بالرواية كما ينبغي فضلاً عن الدراية»[٢]!!

يقول الذهبي هذا لما علمه مما كان عليه المحدثون في عصر الرواية والرحلة، حيث كان يحضر مجلس المحدث عشرة آلاف نفس من أصحاب المحابر يكتبون الحديث.

---

(١) مصادر هذا الفصل: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ٢٥ ـ ٢٧، ١٦٥، ١٦٩، ٢٤١ ـ ٢٤٩، ٢٨٣ ـ ٢٩٩. البداية والنهاية ١٤/٢٨، ٣٨، ٤٩. شذرات الذهب: الجزء ٥ و٦. الدارس: الجزء ١ و٢. معرفة القراء للذهبي ٢/٦٨٥ ـ ٧٥٥. العبر في خبر من عبر ٣/٣٢٦ ـ ٤٠٨. ذيلاه للذهبي والحسيني ٤/٣ ـ ٢٠٧. تذكرة الحفاظ ٤/١٤٦٠ ـ ١٥٠٨. ذيول التذكرة ١٣ ـ ١٥٣.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/١٤٨٥.

وذكر في ترجمة الحافظ إسحاق بن بهلول (ت ٢٥٢ هـ) أنه حدث من حفظه ببغداد بأكثر من خمسين ألف حديث! ثم قال الذهبي معقباً: «كذا فليكن الحفظ، وإلا فلا! قَنِعنا اليوم بالاسم بلا جسم، فلو رأى الناس في وقتنا من يروي ألف حديث بأسانيدها حِفظاً لانْبَهروا له»[1].

ويرثي لقلة العلم والعلماء والعمل في عصره فيقول: «وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليل، في أناس قليل، ما أقلَّ من يعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا الله ونعم الوكيل»[2].

بل سجّل ما هو أبلغ من ذلك بكثير، فقال في ترجمة الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي (ت ٢٨٠ هـ): «فعلى علم الحديث وعلمائه ليبكِ مَنْ كان باكياً، فقد عاد الإسلام المحض غريباً كما بدأ، فَلْيَسْعَ امرؤ في فكاك رقبته من النار، فلا حول ولا قوة إلا بالله»[3].

ويصف الذهبي ما كان يراه من علماء عصره، وضيقهم بالمناظرة العلمية، فيقول في ترجمة الموفق ابن قدامة: «قال الضياء: كان الموفق لا يُناظر أحداً إلا وهو يتبسَّم. قلت[4]: بل أكثر من عاينا لا يُناظر أحداً إلا وَيَنْسَمُّ»[5]!!

لذا كان الإمام الذهبي دائم التطلع إلى أئمة القرون الأولى، الذين ملؤوا الدنيا بالعلم والعمل، وضجت بهم أكناف الأرض في حواضر العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، ولقد عبّر عن ذلك فقال في ترجمة الإمام المحدث القاسم بن عثمان شيخ الصوفية، المعروف بالجُوْعِيّ (ت ٢٤٨ هـ): «كان زاهدَ الوقت: هذا الجوعيُّ بدمشق، والسَّريُّ السَّقَطِيُّ ببغداد، وأحمدُ بن حرب بنيسابور، وذو النون بمصر،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٠.
(٢) تذكرة الحفاظ ٣/١٠٣١.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٢٣.
(٤) القائل هو الذهبي.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢٢/١٧٠.

ومحمدُ بن أسْلَم بطوس. وأين مثل هؤلاء السادة؟! ما يملأ عيني إلا التراب، أو من تحت التراب»[1]!!

هذه هي البيئة التي ولد الذهبي فيها، وعاش أحداثها، وأخذ عن علمائها، ورحل في بلدانها، فكيف كانت بداية حياته ونشأته، وما العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته، وما هي العلوم التي برع فيها، والآثار التي خلّفها، وما منهجه في ذلك؟ كل هذا ستتناوله ـ بإذن الله تعالى ـ بشيء من التفصيل في هذه الصفحات، والله المستعان.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٧٩.

الفَصْلُ الثَّانِي

أَخْبَارُهُ الشَّخْصِيَّة

اسمه، ونسبه ونسبته وولادته[1]:

هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز ابن الشيخ عبد الله، التُّرْكماني، الفارقي، ثم الدمشقي، الشافعي[2]، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي.

والفارقي: نسبة إلى «مَيَّافارقين»[3] أشهر مدن ديار بكر. فهو تركماني فارقي الأصل، دمشقي المولد والوفاة.

ولد ثالث شهر ربيع الآخر سنة (٦٧٣ هـ) في قرية كَفْربَطْنَا[4].

أسـلافـه:

يبدو أن جد الذهبي «عثمان» هو أول من سكن دمشق من أجداد الإمام الذهبي، أما جد أبيه «قايماز» فقد قضى حياته في «ميَّافارقين»

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٤، ٣٤٧ ـ ٣٤٨، طبقات الحفاظ: ٥٢١، الرد الوافر: ٦٦، البدر الطالع: ٢/١١٠، فهرس الفهارس: ١/٤١٧، الرسالة المستطرفة: ٢١، ذيل العبر للحسيني: ٤/١٤٨، معجم شيوخ الذهبي: ٥٤٣، طبقات ابن قاضي شهبة: ٣/٥٦، معرفة القراء الكبار: ٢/٦٨٧، شذرات الذهب: ٦/١٥٤.

(٢) هكذا ساق الذهبي اسمه ونسبه في معجم شيوخه: ١٣، والمعجم المختص: ٩٧، وقد أجمعت مصادر ترجمته على ذلك. انظر الحاشية السابقة.

(٣) ومكانها الآن قرية صغيرة في تركيا تسمى «سافا».

(٤) قرية من قرى غوطة دمشق الشرقية، وهي عامرة إلى الآن. وتبعد عن دمشق بضعة كيلومترات.

وتوفي بها سنة (٦٦١ هـ). ويمكن فهم ذلك من تصرف الذهبي لما ترجم لهما، فهو عندما ترجم لجدّ أبيه لم يذكر في نسبته أنه دمشقي بل قال: الفارقي، بخلاف ما ذكره في ترجمة جده حيث نصّ على أنه فارقي ثم دمشقي.

قال في ترجمة جد أبيه: «قايْماز ابن الشيخ عبد الله التركماني الفارقي، جد أبي. قال لي ابن عم والدي علي بن فارس النجّار: توفي جدنا عن مئة وتسع سنين. قلت: عُمِّرَ وأضرَّ بأخَرَة، وتوفي سنة إحدى وستين وست مئة» وكان قد حج[1].

وترجم لجده فقال: «عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني، الفارقي ثم الدمشقي، النجار، أبو أحمد فخر الدين. رجل أمي، حسن اليقين بالله، والله يغفر له. سمعت الشيخ أبا الحسن العطار يقول لي: كان جدك الفخر يسأل الله أن يتوفاه ليلة الجمعة، فأعطاه الله ذلك. قلت شهدتُ دفنه بسفح قاسيون عقيب الجمعة، في سنة ثلاث وثمانين»[2].

فجدّه هذا لم يكن له حظ من العلم، قد اتخذ من النجارة حرفة له يتكسب منها. ويبدو أنه هو الذي قدم إلى دمشق فاتخذها سكناً له، وبها توفي سنة (٦٨٣ هـ)، وهو في عشر السبعين كما قال الذهبي[3].

أما والده شهاب الدين أحمد:

فقد ولد سنة (٦٤١ هـ)، وعدل عن حرفة أبيه إلى صنعة الذهب المدقوق، فبرع بها، وعرف بالذهبي، وطلب العلم وسمع صحيح البخاري، وحج في أواخر عمره، وكان يقوم من الليل. وقد حصل من صنعته مالاً وفيراً، صرفه في وجوه الخير. وبوأه علمه وتدينه وغناه مكاناً مرموقاً جعل خلقاً من أهل دمشق يشيعونه يوم وفاته رحمه الله.

---

(١) أهل المئة فصاعداً: ١٣٧، معجم الشيوخ: ٣٤٦. (٢ و٣) معجم الشيوخ: ٣٤٦.

قال الذهبي في ترجمة أبيه: «أحمد بن عثمان بن قايماز ابن الشيخ عبد الله التركماني، الفارقي الأصل ثم الدمشقي، شهاب الدين الذهبي، والدي أحسن الله جزاءه. ولد سنة إحدى وأربعين وست مئة تقريباً. وبرع في دق الذهب، وحصَّل منه ما أعتق منه خمس رقاب. وسمع «الصحيح» في سنة ست وستين وست مئة من المقداد القيسي. وحج في أواخر عمره، كان يقوم من الليل.

وتوفي في آخر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وست مئة، ليلة الجمعة، وصلّى عليه الخلق، يؤمهم قاضي القضاة ابن جماعة»[١].

وكان قد تزوج من ابنة رجل موصِلي الأصل عرف بغناه، هو علم الدين سنجر الذي قال فيه الذهبي: «سَنْجر بن عبد الله، أبو بكر الموصلي، علم الدين مولى ابن عطاف الحمصي. مات سنة ثمانين وست مئة وهو في عشر الستين. كان خيِّراً عاقلاً، مديراً للمناشير بديوان الجيش المنصور، أوصى إلى أبي ـ رحمهما الله ـ وخلف خمسة عشر ألفاً»[٢].

نسبته «الذهبي» و «ابن الذهبي»:

ـ اشتهر وصف إمامنا أبي عبد الله بـ «الذهبي»، والواقع أن هذا الوصف لأبيه «أحمد» الذي برع في صنعة الذهب المدقوق. والباحث المتتبع يجد أن الحافظ أبا عبد الله كان يعبر دائماً عن نفسه بقوله: «ابن الذهبي»، ويكتب هذه النسبة في مؤلفاته وإجازاته والسماعات التي بخطه، ولم يخالف ذلك إلا مرة واحدة حينما رحل إلى مصر فعرّف نفسه لابن دقيق العيد بـ «الذهبي»[٣].

---

(١) معجم الشيوخ: ٥٧، ٦١٧ ـ ٦١٨ ترجمة المقداد القيسي.

(٢) المرجع السابق: ٢٢١.

(٣) شذرات الذهب: ٦/١٥٤.

ومن المواضع التي عبر فيها عن نفسه بقوله «ابن الذهبي»:

قوله في معجم شيوخه: «أما بعد: فهذا معجم العبد المسكين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ابن الشيخ عبد الله التركماني ثم الدمشقي، ابن الذهبي...»[1].

وفي نسخة من كتابه «معرفة القراء الكبار» قرئت عليه قراءة محررة محبرة متقنة، أثبت خطه في آخرها فقال: «وكتبه محمد بن أحمد بن عثمان ابن الذهبي مؤلف الكتاب سامحه الله وعفا عنه»[2].

وقال في خاتمة كتابه «المغني في الضعفاء»: «جمعه محمد بن الذهبي العبد الضعيف الخطّاء»[3].

وجاء مثل ذلك في «سير أعلام النبلاء» في مواضع كثيرة[4]، وكذا في «تذكرة الحفاظ»[5].

ـ كما نسبه غيره إلى ذلك مثل تلميذه سعيد بن عبد الله الدِّهْلي، وسبط ابن العجمي في مقدمة كتابه «نَثْل الهِميان في معيار الميزان»، وابن ناصر الدين في «الرد الوافر» في مواضع منه[6].

ـ بيد أنه عرف أيضاً بـ «الذهبي» عند بعض معاصريه مثل:

---

(١) معجم الشيوخ: ١٣.

(٢) معرفة القرّاء: ١/١٦.

(٣) المغني في الضعفاء: ٢/٥١١.

(٤) مثلاً: ٧/٣٧، ٩/٥٠٤، ١٣/٥٨٧، ١٥/٥٤٦، ٢٢/٣٩٣.

(٥) مثلاً: ٢/٦٩٩، ٣/٨٩٦، ٩٢١، ٩٩٢، ٤/١٤٦٠. وقد ساق العلّامة عبد الفتاح أبو غدة أمثلة كثيرة على ذلك، انظر: أربع رسائل في علوم الحديث: ٣٨ ـ ٤٣ كما ذكر قاسم سعد في رسالته «صفحات» أمثلة أخرى، انظر: ص ١٠ ـ ١١ منها. وذكرنا هنا بعضاً مما لم يذكراه.

(٦) الرد الوافر: ٤٧، ٤٩، ٦٦، ٧٣.

الصلاح الصفدي، وتاج الدين السبكي، والحسيني، وابن كثير[1]. واشتهر بها فيما بعد، كما نجد ذلك عند ابن ناصر الدين في «الرد الوافر» في مواضع كثيرة منه، وابن قاضي شهبة، وابن العماد الحنبلي، وغيرهم[2].

نشأة الإمام الذهبي:

يظهر من تراجم والد الذهبي وأجداده أنهم كانوا أهل تقى وصلاح، وعبادة ونسك، فأبوه «كان يقوم من الليل، ويعتق الرقاب»، وجده كان «حسن اليقين بالله»، وخاله علي بن سنجر «كان ذا مروءة وكدّ على عياله وخوف من الله». كذلك كان كل من حوله يحب العلم ويطلبه، ويحرص عليه. فأخذ الذهبي عنهم، وتأدب بأدبهم، وقرأ عليهم، وسمع منهم:

ـ فأبوه سمع «صحيح البخاري» سنة (٦٦٦ هـ) من المقداد بن هبة الله القيسي. وقد ذكر الذهبي أنه قرأ على أبيه، فقال: «قرأت على والدي أحمد بن عثمان، أخبركم المقداد بن هبة الله...». وقال في ترجمة المقداد: «وله كتب وأجزاء وأثبات، وفيه خير وعدالة. أجاز لنا، وحدثنا عنه والدي والمِزِّي....»[3].

ـ وعمته ست الأهل بنت عثمان بن قايماز ـ وهي أمه من

---

(١) الوافي بالوفيات: ١٦٣/٢، طبقات الشافعية الكبرى: ١٠٠/٩، ذيل تذكرة الحفاظ: ٣٤، البداية والنهاية: ٢٢٥/١٤.

(٢) الرد الوافر: ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٨٤، ١٠٠، ١١٥، ١١٦، ١٤٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٠، ١٧٣، ١٧٥، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٨. طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٥٦/٣، شذرات الذهب: ١٥٣/٦.

(٣) معجم الشيوخ: ٥٧، ٦١٨، المعجم المختص: ٢٨٢.

الرضاعة ـ قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليسر، وجمال الدين ابن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة آخرين، وسمعت من عمر ابن القواس وغيره.

وقد أشار الذهبي إلى أنه أخذ عنها، فقال في ترجمتها من «معجم شيوخه»: «أخبرتنا عمتي ستيت عن ابن أبي اليسر عن الخشوعي... عن أبي موسى قال: كنت أنا وأبو الدرداء عند النبي ﷺ فقال: (من حَفِظ ما بين فُقْمَيْهِ دخل الجنة). هذا حديث غريب فرد، قرأته عليها لابني أبي هريرة»[1].

ـ وكان جده عثمان يعتني بنطقه، ويدربه على التعبير السليم، فيطلب إليه تكرار بعض العبارات التي فيها حرف الراء، ويدمن ذلك ويواظب عليه، ليستقيم لسانه. قال الذهبي في ترجمته: «وكان ـ رحمة الله عليه ـ يدميني في النطق بالراء، فيقول: قُل: جرة براً، جرة جواً»[2].

ـ كذلك فإن جده لأمه علم الدين سنجر كان يعتني به ـ وهو لا يزال ابن خمس سنوات ـ فيصطحبه معه، ويسمعه بعض أخبار الدولة، من ذلك قول الذهبي في ترجمته: «سمعت جدي لأمي علم الدين سَنْجَر وسئل في سنة ثمان وسبعين والبشائر تضرب، فقال: تسلطن السلطان الملك الكامل سُنْقُر الأشقر اليوم. وكنت في تلك الأيام يأخذني معه إلى القلعة»[3].

---

(١) معجم الشيوخ: ٢٢٨ ـ ٢٢٩. ونص الحديث: (من حفظ ما بين فقميه ورجليه دخل الجنة). المستدرك: ٣٥٨/٤، مسند أحمد: ٣٩٨/٤. ومعنى فُقْمَيْه: لَحْيَيْه، يريد: من حفظ لسانه وفرجه.

(٢) معجم الشيوخ: ٣٤٦.

(٣) المرجع السابق: ٢٢١.

ـ وخاله علي كان من طلبة العلم، ورحل للسماع من الشيوخ، وهو أكبر من الذهبي بخمس عشرة سنة، وقد روى عنه الذهبي في معجم شيوخه، فقال في ترجمته: «.. أخبرنا خالي علي ابن العَلَم أنا محمد بن إسماعيل.... عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة، طعمها طيب وريحها طيب). وساق الحديث»[1].

وابن خاله إسماعيل بن علي بن سَنجر طلب العلم «فسمع من عمر ابن القوّاس» معجم «ابن جُمَيْع، ومن أحمد ابن عساكر، وحدَّث». توفي سنة (٧٦١ هـ)[2].

ـ وكان زوج خالته أحمد بن عبد الغني بن عبد الكافي الأنصاري الذهبي، المعروف بابن الحرستاني، قد سمع الحديث ورواه، فسمع من عثمان ابن خطيب القرافة والعماد ابن الحرستاني، وكان حافظاً للقرآن، كثير التلاوة، مات بمصر سنة (٧٠٠ هـ). وقد سمع منه الذهبي وساق من طريقه حديثاً في معجمه[3].

ـ وأبوه من الرضاعة إبراهيم بن داود بن سليمان موفق الدين العطار الدمشقي، كان له عناية بالعلم والرواية، وأخذ عنه الذهبي. قال في ترجمته: «سمع في الحج من ابن النِّصِيبي «كتاب الشمائل» أخذت عنه منه...»[4].

---

(١) المرجع السابق: ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٢) الوفيات لابن رافع: ٢/٢٣٢.

(٣) معجم الشيوخ: ٥٢.

(٤) معجم الشيوخ: ١٠٧. وابن النصيبي هذا من جملة شيوخ حلب (ت ٦٩٢ هـ)، وقد أجاز للذهبي قديماً سنة (٦٧٣ هـ)، وله ترجمة في معجمه: ص ٧٤.

ـ وأخوه من الرضاعة داود بن إبراهيم كان فقيهاً عالماً، رحل في طلب العلم وسماع الحديث، وقد سمع منه الذهبي، وترجم له في «المعجم المختص» فقال: «سمع الكثير، ونسخ كتباً كباراً، وله أثبات وأصول. . . حدّثنا عن ابن أبي الخير وغيره. وله أجزاء عالية، وفيه تعبد وخير»[1]. وقال في «معجمه»: «وقرأ القرآن وتفقه، وجوّد الخط، ونسخ الكثير، وولي بعد أخيه مشيخة الحديث بالقليجية. وكان رفيقي إلى مصر، فسمعت منه بالرملة، وسمع معي يسيراً من الأَبَرْقُوهي»[2]. توفي سنة (٧٥٢ هـ) ودفن بقاسيون[3].

وأما أخوه الآخر من الرضاعة علاء الدين أبو الحسن العطار، فقد كان فقيهاً محدثاً، مفتياً علامة، زاهداً متألهاً، صحب الإمام النووي، وتفقه عليه، وكان يلقب «بمختصر النووي». وقد انتفع الذهبي به، وأحسن إليه باستجازته له كبار مشيخة العصر. وترجم له الذهبي في مواضع كثيرة من كتبه، فقال:

«علي بن إبراهيم بن داود، الإمام الفقيه، المفتي الزاهد، المحدث بقية السلف، علاء الدين أبو الحسن العطار الدمشقي الشافعي. ولد سنة أربع وخمسين وست مئة. وسمع من ابن عبد الدائم، وابن أبي اليسر، وعبد الوهاب ابن الناصح، وخلق كثير. وتفقه على الشيخ محيي الدين النواوي. وسمع وكتب الكثير، وحدّث ودرَّس. . . خرَّجتُ له معجماً في مجلد. مرض زماناً بالفالج، وكان يُحمل في محفة، انتفعت به، وأحسن إلي باستجازته لي كبار المشيخة.

---

(١) المعجم المختص: ٩٤.

(٢) معجم الشيوخ: ١٩٠.

(٣) الوفيات لابن رافع: ١٤٣/٢ ـ ١٤٤، ذيل العبر للحسيني: ١٥٨/٤ ـ ١٥٩، الدارس: ٤٣٥/١، ٥٧١.

مات في أول ذي الحجة سنة أربع وعشرين وسبع مئة»[1].

عناية عائلته به:

وهكذا فقد نشأ الذهبي في عائلة متدينة متعبدة، وكان لكثيرٍ من أفرادها حظ جيد من العلم. وطبيعي أن تعتني هذه العائلة بابنها وتنشئه على الأخلاق الفاضلة، والمكارم والمحاسن، وتنأى به عما يشين سيرته وأخلاقه. فتأدب الفتى بآداب من حوله، واقتدى بهم، فكان ثمرة طيبة لتلك الدوحة المباركة الفاضلة.

كما أثرت عائلته إلى حد بعيد في تكوين شخصيته العلمية على أسس متينة، وقد تجلى ذلك بأخذ الإمام عن كثير ممن حوله من أقاربه، وسماعه منهم، وأيضاً في حرصهم على ترغيبه بالعلم وطلبه. وقد تمثل ذلك بإسراع أخيه العلامة العلاء ابن العطار في استجازته كبار مشيخة عصره لأخيه من الرضاعة محمد ابن الذهبي في سنة مولده (٦٧٣ هـ)، وهذا ما عبّر عنه الذهبي نفسه بقوله: «انتفعت به، وأحسن إليَّ باستجازته لي كبار المشيخة».

فمنهم من دمشق أحمد بن عبد القادر بن حسّان أبو العباس العامري الدمشقي (ت ٦٧٣ هـ)[2]. وأمين الدين عبد الصمد بن عبد الوهاب ابن عساكر الدمشقي (ت ٦٨٦ هـ)[3]. والإمام الحافظ محمد بن علي بن محمود أبو حامد ابن الصابوني الدمشقي، شيخ دار

---

(١) المعجم المختص: ١٥٦ ــ ١٥٧. وترجم له في: ذيل العبر: ٤/٧١، تذكرة الحفاظ: ٤/١٥٠٤، معجم الشيوخ: ٣٥٢.

(٢) معجم الشيوخ: ٥٢.

(٣) المرجع السابق: ٣١٤.

الحديث النورية (ت ٦٨٠ هـ)[١]. والإمام المحدث يحيى بن أبي منصور ابن الصيرفي (ت ٦٧٨ هـ)[٢].

ومن حلب: أحمد بن محمد بن عبد القاهر أبو العباس الحلبي ابن النصيبي (ت ٦٩٢ هـ)[٣].

ومن مكة: الإمام محب الدين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري، شيخ الحرم ومحدثه ومفتيه (ت ٦٩٤ هـ)[٤]. وأبو المعالي محمد بن محمد بن أحمد القسطلاني المكي (ت ٧٠٤ هـ)[٥]. وأبو الفضل أحمد بن محمد الكِناني الدمياطي، وإبراهيم بن يعقوب الطبري المكي، وعثمان بن موسى الطائي إمام الحنابلة بالحَطِيم من مكة، وعلي بن صالح الهاشمي المكي خطيب مكة، وغيرهم[٦].

ومن المدينة النبوية: كافور بن عبد الله الطواشي[٧].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن الذين أجازوا الذهبي في سنة (٦٧٣ هـ) «جمع جم». وقال في ترجمة العلاء ابن العطار: «وهو الذي استجاز للذهبي سنة مولده، فانتفع الذهبي بعد ذلك بهذه الإجازة انتفاعاً شديداً»[٨].

---

(١) معجم الشيوخ: ٥٤٢، المعجم المختص ٢٤٩.
(٢) معجم الشيوخ: ٦٤٨، المعجم المختص ١١١.
(٣) معجم الشيوخ: ٧٤.
(٤) معجم الشيوخ: ٣٧، المعجم المختص: ٢٢.
(٥) معجم الشيوخ: ٥٥٨.
(٦) معجم الشيوخ: ٧٧، ١٢٨، ٣٤٨، ٣٦٨، وانظر: ٤٥٩، ٦٥٣.
(٧) معجم الشيوخ: ٤٣٩.
(٨) الدرر الكامنة: ٣/٦.

وقال الشوكاني: «وأجاز له في سنة مولده جماعة بعناية أخيه من الرضاع»[1].

●● وتوجه الطفل بعناية أهله إلى أحد المؤدِّبين، وهو علاء الدين علي بن محمد الحلبي المعروف بالبصبص، ومكث عنده مدة طويلة. وقد وصفه الذهبي بقوله: «كان من أحسن الناس خطاً، وأخبرهم بتعليم الصبيان. أقمتُ في مكتبه أربعة أعوام، وتعلَّم عنده خلائق... مات في حدود سنة تسعين وست مئة»[2].

ثم مضى إلى المقرىء الصالح مسعود بن عبد الله، فلقَّنَه جميع القرآن العظيم، ثم قرأ عليه نحواً من أربعين ختمة. وقد ترجم له الذهبي في «معجمه» فقال: «وكان خَيِّراً متواضعاً، لقن خلقاً، وكان إمام مسجد بالشاغُور. مات في سنة (٧٢٠ هـ) وله ست وثمانون سنة»[3].

●● وكان الذهبي الفتى مولعاً بالعلم، محباً له، فأخذ يتردد على مجالس الشيوخ، وحلقات المحدثين، يدل على ذلك ما جاء في ترجمته للشيخ العلامة محمد بن عمر بن مكي الشافعي، حيث يقول: «... وأفتى وناظر، وبرع في العلم، وكان أحد الأذكياء. جلست إليه، وأول ما سمعت كلامه في سنة ثلاث وثمانين وست مئة، وسمعت منه في «صحيح مسلم» بدار الحديث»[4].

وفي سنة (٦٩٠ هـ) ــ وعمره آنئذٍ ١٧ سنة ــ قدم إلى دمشق الفقيه العالم المقرىء عز الدين الفاروثي؛ فَخَفّ الذهبي إليه، وسلّم

---

(١) البدر الطالع: ٢/١١٠.

(٢) معجم الشيوخ: ٣٨٥.

(٣) معجم الشيوخ: ٦١٦. والشاغور: أحد أحياء دمشق حرسها الله.

(٤) معجم الشيوخ: ٥٥٢. وعمر الذهبي إذ ذاك عشر سنوات.

عليه وحدثه، وهو وإن لم يُقْضَ له أن يأخذ عنه شيئاً[1] ، لكن ذلك يدل على حبه للعلم والعلماء منذ الصغر، ومعرفته بأخبارهم وأعيانهم، كما يظهر جلياً من موقفه هذا.

كذلك كان يتتبع الكتب النافعة، والتصانيف المفيدة، نلمح هذا من خلال ما ذكره في ترجمة علي بن المفضل الاسكندرانيّ، فيقول: «له تصانيف مفيدة، رأيتُ له في سنة ست وثمانين وست مئة كتاباً في الصيام بأسانيده»[2] . وعمر الفتى عندئذٍ (١٣) سنة.

أسـرتـه:

تزوج الذهبي بامرأة صالحة من أهل بلدته، أنجبت له عدة أولاد، وتوفيت بعده بثمان سنوات ترجم لها تلميذه الحافظ تقي الدين ابن رافع فقال في وفيات سنة (٧٥٦ هـ): «وفي ليلة الاثنين الثاني عشر من شوال منها توفيت الشيخة الصالحة أم عبد الله ابنة محمد بن نصر الله بن عمر بن القمر، من أهل كَفْر بَطْنَا ـ زوج شيخنا الحافظ الذهبي ـ بدمشق، وصُلِّي عليها من الغد، ودُفنت بمقابر باب الصغير. سمعت من ست الأهل بنت علوان «عوالي» طِرَاد»[3].

وقد رزق الذهبي بثلاثة أولاد، هم:

١ ـ ابنته أَمَة العزيز أم سلمة: وهي أكبرهم، وقد أجاز لها غير واحد باستدعاء والدها، منهم: شيخ المستنصرية المحدث المقرىء رشيد الدين محمد بن عبد الله بن عمر البغدادي (ت ٧٠٧). قال

---

(١) معرفة القرّاء: ٢/٦٩٢.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٣٩١.

(٣) الوفيات: ٢/١٨٨ ـ ١٨٩. وترجم لها ابن حجر في «الدرر»: ٣/٢٢٨، وفيها: «فاطمة بنت محمد بن نصر الله بن القمر الدمشقية».

الذهبي: «وأجاز لنا مروياته غير مرة، أولها في سنة خمس وتسعين وست مئة، وأجاز لبنتي أم سلمة»[1]. والعالم الصالح عبد الرحمٰن بن مخلوف الربعي الاسكندراني (ت ٧٢٢ هـ)، قال الذهبي: «سمعتُ منه، أجاز لولديّ عبد الرحمٰن وأمة العزيز»[2].

وتزوجت في حياة أبيها، وأنجبت عبد القادر بن محمد بن علي المشهور بابن القمر الدمشقي (ت ٨٠٣ هـ)[3].

٢ ـ ابنه أبو الدرداء عبد الله: هو أوسط إخوته، ولد سنة (٧٠٨ هـ)، وأسمعه أبوه من خلق كثير. توفي سنة (٧٥٤ هـ)[4].

٣ ـ ابنه شهاب الدين أبو هريرة عبد الرحمٰن: أصغر إخوته، كان مسنِدَ الشام في عصره، توفي سنة (٧٩٩ هـ) عن (٨١) سنة.

وخلّف أبو هريرة هذا ولداً اسمه محمد، سمع مع جده، وتوفي سنة (٨٠٣ هـ)[5].

وقد كان لأولاده وحفيده وسبطه حظ وافر من العلم، واشتهر بعضهم حتى أخذ عنهم أعيان العلماء، ويعود الفضل في هذا للإمام الذهبي الذي حرص عليهم، واعتنى بهم، ودربهم حتى تخرجوا به وبغيره. فكان يهتبل كل فرصة لتحقيق ذلك سواء باستدعاء الإجازات لهم، أو بإسماعهم معه على العلماء، أو بالقراءة عليهم، أو التصنيف لهم، أو إجازتهم رواية كتبه.

---

(١) معجم الشيوخ: ٥٠٧.

(٢) المرجع السابق: ٣٠٥.

(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ١٩١، إنباء الغمر: ٤/٢٩٠.

(٤) الدرر الكامنة: ٢/٢٨٦.

(٥) ذيول تذكرة الحفاظ: ١٩٢، إنباء الغمر: ٤/٣٢٧.

يظهر ذلك من خلال ما سطره في «معجم شيوخه»، ومن أمثلة ذلك[1]:

ـ قوله في ترجمة أحمد بن أبي طالب البغدادي الزاهد المجاور: «أجاز لي ولابني عبد الله من مكة مروياته».

ـ وفي ترجمة الفقيه أحمد بن أبي العافية، ساق بسنده حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب). وعقب بقوله: «هذا حديث صالح الإسناد عالٍ، سمعه أولادي مثلي».

ـ وفي ترجمة شيخته المباركة الخيِّرة أسماء بنت محمد بن عبد الرحيم، قال: «سمعتُ منها مع ابني عبد الرحمٰن نسخة أبي مسهِر وجزءَ ابن عرفة، وغيرهما».

ـ وفي ترجمة حبيبة بنت أبي بكر عبد الرحمٰن المقدسية، قال «أجازت لحفيدي محمد بن عبد الرحمٰن».

ـ وقال في ترجمة نجم الدين عبدالله بن منصور الأنباري: «وأجاز لي مروياته، ثم بقي حتى أجاز لولديّ عبدالله وأم سلمة في سنة عشر وسبع مئة».

ـ وقال في ترجمة عبد الرحمٰن بن أحمد بن عمر المقدسي: «أخبرنا عبد الرحمٰن بن أحمد ـ وابني أبو هريرة يسمع ـ أخبرنا محمد بن عبد الله السلمي. . .».

ـ وفي ترجمة عبد الرحمٰن بن عبد الواحد الصالحي الحنبلي، قال:

---

(١) معجم الشيوخ: ٩٢، ٩٥، ١٥٠، ١٧٧، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٩٣، ٣١٩، ٤٢٤، ٤٨٠.

«سمعت منه نسخة أبي مُسْهِر، وجزء الفراتي، مع ابني عبد الرحمٰن».

ـ وقال في ترجمة عبد العزيز بن محمد ابن جماعة: «قرأت عليه أحاديث من «الخِلَعِيَّات» لابني، وانتقيتُ عليه جزءاً».

ـ وفي ترجمة محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء الصالحي، يقول: «سمعت منه مع ولدي عبد الرحمٰن جزء ابن عرفة، وجزء ابن فيل، والبطاقة، والجمعة، ونسخة إبراهيم بن سعد، وجزء الفراتي، ونسخة أبي مُسهِر، وجزء الكسائي».

ـ وقال[1] في ترجمة الشيخ غانم بن أحمد الأصبهاني: «حدث عنه: ابنُ عساكر، والسمعانيُّ، وداود بن مَعْمَر، وآخرون. وقرأتُ «صحيح البخاري» على أبي العباس الحجَّار لأولادي بإجازته من ابن مَعْمَر».

وقد آتت هذه العناية من الإمام أكلها، وأنتجت ثماراً طيبة، فكان في ذريته علماء أعلام:

١ ـ **فابنه أبو هريرة عبد الرحمٰن:** ترجم له الجم الغفير، ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي قال فيه: «عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل، الدمشقي، أبو هريرة ابن الحافظ أبي عبد الله الذهبي. مسند الشام في عصره، أحضره أبوه على وزيرة بنت المُنَجَّى، والقاضي سليمان، وإسماعيل بن مكتوم، ثم على أبي بكر بن عبد الدائم. وأسمعه من عيسى المطعِّم وابن الشيرازي و. . . وأهل عصره، فأكثر عنهم. وخرَّج له أبوه أربعين حديثاً، وحدث بها في حياة أبيه سنة سبع وأربعين وسبع مئة، وحدث في غالب عمره. وكان صبوراً

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٩٩.

على الإسماع، محباً لأهل الحديث والروايات، ويذاكر بأشياء حسنة. وأمَّ بجامع كَفْربَطْنَا عدة سنين، وأُضِرّ بأَخَرة، وتفرد بكثير من الشيوخ والروايات، وأجاز لي غير مرة»[1].

٢ ـ **وحفيدهُ محمد بن عبد الرحمٰن**: قال ابن حجر في ترجمته: «محمد بن عبد الرحمٰن بن الحافظ أبي عبد الله الذهبي، شمس الدين بن أبي هريرة الكَفْربَطْنَاوي، سمع بإفادة جده منه، ومن زينب بنت الكمال، وغيرهما. سمعتُ منه، وكان من شيوخ الرواية»[2].

وقال السخاوي: «ولد سنة اثنتين وثلاثين وسبع مئة، وأسمعه جده الكثير منه ومن زوجته فاطمة ابنة محمد بن القمر، والحافظ المزي، والشهاب أحمد بن علي بن حسن الجزري، وزينب ابنة الكمال... وأجاز له أبو حيان وغيره من مصر»[3]. توفي سنة (٨٠٣ هـ).

٣ ـ **وأما سِبْطه عبد القادر**: فترجم له الحافظ ابن حجر فقال: «عبد القادر بن محمد بن علي بن عمر بن نصر الله الدمشقي الفراء، المعروف بابن القمر، سبط الحافظ الذهبي، سمع بإفادة جده منه، ومن زينب بنت الكمال، وأحمد بن علي الجزري في آخرين. حدّثنا في حانوته، وكان نعم الرجل»[4].

---

(١) إنباء الغمر: ٣/ ٣٥٠، وانظر: شذرات الذهب: ٦/ ٣٦٠، وفهرس الفهارس: ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) إنباء الغمر: ٤/ ٣٢٧.

(٣) الضوء اللامع: ٧/ ٣٠١.

(٤) إنباء الغمر: ٤/ ٢٩٠. وقد روى ابنُ حجر «ميزانَ الاعتدال» عن عبد الرحمن ابن =

وقال السخاوي: «ولد في رمضان سنة تسع وعشرين وسبع مئة، وسمع الكثير على جده لأمه الحافظ، وابن أبي التائب، وأبي بكر بن محمد بن عنتر. . . وزينب ابنة الكمال، ومما سمعه عليها: مشيخة ابن شاذان الصغرى، وعواليها تخريج الذهبي. ولقيه شيخنا فقرأ عليه بحانوته أشياء، وكذا قرأ عليه الفاسي»[1]. توفي سنة (٨٠٣ هـ).

تلك هي بدايات حياة الحافظ الذهبي، وملامح نشأته في أحضان أُسرة متدينة تقية، محبة للعلماء، راغبة في تحصيل العلم. وهذه شذرات طيبة تبين حرص هذا الإمام على استمرار نور العلم في ذريته من بعده.

فكيف تابع هذا الرجل مسيرة حياته، وما هي العلوم التي حرص على طلبها في أول أمره، ومتى ابتدأ الرحلة في طلب العلم، وإلى أي البلاد رحل، وممن سمع، وعلى من قرأ، وماذا حصل في تلك الرحلات؟

لنتابع الإجابة على ذلك وغيره ــ مما هو في معناه ــ في الفصل التالي.

* * *

= الذهبي وحفيده وسبطه، ثلاثتهم عن الذهبي المؤلف. انظر: لسان الميزان: ١/ ٤ ــ ٥.

(١) الضوء اللامع: ٤/ ٢٩١.



الفَصل الثالث

طَلَبُهُ ٱلعِلمَ وَرَحلَاتُهُ وَمَسمُوعَاتُهُ

طلبه العلم:

جرت عادة المحدثين والعلماء في العهود الأولى أن يبكروا بالطلب، ويسيحوا في الأرض للرواية والسماع. كما دأب الآباء على حث أبنائهم على التبكير في الرحلة وطلب العلم. وكثيراً ما كان أحدهم يصطحب ابنه معه، ليحضره مجالس العلماء، ويسمّعه منهم، أو يعطيه المال، ويؤمّن له الرفقة والراحلة، ثم يوجهه إلى عالم شهير، أو بلد يغص بالعلماء.

من ذلك أن الإمام البخاري كان يختلف إلى الفقهاء بمرو وهو صبي، ورحل إلى نيسابور أول مرة وعمره (١٥) سنة، ودخل إلى العراق وهو ابن (١٦) سنة[١]. والحافظ الرحّال ابن أبي الفوارس ولد سنة (٣٣٨ هـ)، وأول سماعه في سنة (٣٤٦ هـ)[٢]. والحافظ المؤرخ ابن النجار ولد سنة (٥٧٨ هـ)، وأول سماعه وهو ابن عشر سنين، وابتدأ الطلب عندما بلغ الخامسة عشرة، واستمرت رحلته سبعاً وعشرين سنة، واشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ[٣]. وابتدأ الحافظ البِرْزَالي

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٤.

(٢) المرجع السابق: ١٧/٢٢٣.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٢٨.

السماع سنة (٦٧٣ هـ) وله ثمان سنوات، وبلغ عدد أشياخه بالسماع والإجازة (٣٠٠٠) شيخ[1].

من هنا نجد أن الإمام الذهبي قد اقتدى بأولئك الأكابر، فحرص على التبكير بطلب العلم، والعناية بالرحلة والسماع والرواية.

فكان أولاً يتردد على حلقات العلم ومجالس العلماء، وهو صبي، فقد سمع وهو ابن عشر سنوات من صدر الدين ابن الخطيب في «صحيح مسلم» بدار الحديث[2]. وفي سنة (٦٨٦ هـ) ـ وعمره (١٣) سنة ـ سمع من يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي، وحفظ عنه حديثين[3]. وأخذ عن شيخيه: سعد الخير بن عبد الرحمٰن وأخيه نصر الله، النابلسيَّيْن، المتوفيَيْن سنة (٦٨٧ هـ)[4]. وعمر الذهبي عندما أخذ عنهما (١٤) سنة على أبعد تقدير.

بيد أن طلبه العلم ورحلاته وسعيه للسماع من أعيان عصره، بصورة منهجية شاملة، كان عندما بلغ ثمانية عشر عاماً، كما يفهم هذا مما ذكره في ترجمة الإمام المفتي محمد بن أحمد بن علي الرقي، حيث قال: «أحد من عني بالسماع، ودار على الرواة، ورافق الطلبة، وتميز في الفقه والقراءات، وغير ذلك، فصاحبنا من سنة إحدى وتسعين وست مئة، وهو أسنّ مني بسنوات»[5].

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) معجم الشيوخ: ٥٥٢.

(٣) المرجع السابق: ٦٦٣.

(٤) المرجع السابق: ٢١١ ـ ٢١٢، ٦٢٩. وعبر عن ذلك بقوله: «أنبأنا» ولو كان إجازة أو كتابة لبيَّن ذلك، كما جرت عادته بهذا.

(٥) المعجم المختص: ٢١٧.

وأجمعت مصادر ترجمته على أنه بدأ الطلب في الثامنة عشرة من عمره[1]. وقد توجهت عنايته ـ في بادىء أمره ـ إلى ناحيتين رئيستين وعلمين عظيمين، هما: القراءات، والحديث الشريف[2].

رحـــلاتـــه:

●● لقد حرص الذهبي على الرحلة إلى البلاد العامرة بالعلماء، لكن والده لم يشجعه عليها، بل ربما منعه في بعض الأحايين، ولعلّ ذلك يعود إلى أن الذهبي وحيد أبويه[3]، فَضَنّ الأب بابنه؛ حباً له، ومخافة عليه. وقد تحسَّر الإمام على تأخره في الرحلة، بيد أنه أطاع أباه، والتزم بما اشترطه عليه وأوصاه به.

قال الذهبي في ترجمة عبد الرحمٰن بن عبد اللطيف البغدادي المقرىء (ت ٦٩٧ هـ): «وانتهى إليه علو الإسناد، وقد هممت بالرحلة إليه، ثم تركته لمكان الوالد». وقال في موضع آخر: «وانفرد عن أقرانه، وكنت أتحسّر على الرحلة إليه، وما أتجسر خوفاً من الوالد؛ فإنه كان يمنعني»[4].

وفي ترجمة عبد الله بن منصور شيخ القرّاء بالاسكندرية (ت ٦٩٢ هـ)، يقول: «ولما مات شيخُنا الفاضلي، قبل إكمالي القراءات، بقيت أتلهف، فذُكِر لي هذا الشيخ، وأنه باقٍ بالإسكندرية،

---

(١) مثلاً: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٥٦، الشذرات: ٦/١٥٤، البدر الطالع: ٢/١١٠، فهرس الفهارس: ١/٤١٧.

(٢) سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في «الفصل الخامس».

(٣) لم أقف بعد طول التتبع على أخ للذهبي، مع أنه حريص على ذكر أقاربه وترجمتهم.

(٤) معجم الشيوخ: ٢٩٢، معرفة القرّاء: ٢/٦٩٥.

وأنه أعلى رواية من الفاضلي، فازددت تلهفاً وتحسراً على لقيه، ولم يكن الوالد يمكنني من السفر»[1].

●● ثم سمح له أبوه بالسفر والرحلة عندما اشتد عوده، وبلغ نحواً من عشرين سنة، واشترط عليه ألا يغيب أكثر من أربعة أشهر.

قال في ترجمة يحيى بن أحمد الجذامي الاسكندراني (ت ٧٠٥ هـ) ـ وقد وجد الذهبي صعوبة في القراءة عليه لصممه، فخاف أن يضيع وقت الرحلة القصير دون كبير فائدة ـ: «... وكنتُ وعدتُ أبي وحلفتُ له أني لا أقيم في الرحلة أكثر من أربعة أشهر، فخفت أعقّه»[2].

●●●

أولاً ـ رحلاته داخل البلاد الشامية[3]

رحل الإمام الذهبي إلى الأشياخ المشهورين في دمشق وقراها، ثم طوّف كثيراً في مدن وبلدان سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

●● ففي دمشق وأحيائها والقرى القريبة منها:

قرأ بقريته «كَفْرَبَطنا» على رحلة الآفاق شهاب الدين أحمد بن أبي طالب الحجّار «صحيح البخاري»، وعلى عبد الحميد بن عبد الرحيم

---

(١) معرفة القرّاء: ٢/٦٨٩.

(٢) المرجع السابق: ٢/٦٩٨.

(٣) استخرجت هذه الدراسة عن رحلاته كلها من كتبه: معجم الشيوخ، المعجم المختص، تذكرة الحفاظ، معرفة القرّاء، سير أعلام النبلاء، ذيل العبر. وتركت الإشارة إلى أرقام الأجزاء والصفحات للتخفيف، وقد أشير لذلك أحياناً لحصول الفائدة.

ابن الشجاع الدمشقي «جزء ابن عرفة»، وعلى علي بن محمد بن عمر الأزدي «موافقات الموطأ». وأخذ عن يوسف بن محمد الهلالي الحوراني، وعبادة بن عبد الغني الحراني ثم الدمشقي، وعثمان بن إبراهيم الحمصي المقرىء، وتقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، ويوسف بن أبي الزهر الدمشقي، وست القضاة بنت محمد، في آخرين[1].

وأخذ بدمشق عن كثيرين، منهم:

أبو حفص عمر بن عبد المنعم ابن القواس، وأبو الحسين علي بن محمد اليونيني، وأحمد بن عبد الرحمٰن الحسيني، وعبد المنعم بن أبي بكر قاضي بيت المقدس، وعيسى بن بركة، وعيسى بن أحمد، وسليمان بن أبي عمر، وعثمان بن محمد بن منيع، ومحمد بن محمد بن سُليم، ويوسف بن أحمد الغسُّولي الحجار، وغيرهم.

وسمع بالمِزَّة ــ من أحياء دمشق ــ من عمر بن بلبان.

وبقاسيون ــ جبل دمشق ــ من جماعة منهم: إسماعيل بن عبد الرحمٰن المعروف بابن المنادي، وأبو الفضل أحمد بن هبة الله ابن عساكر، ومحمد بن أبي عصرون التميمي، وزينب بنت عبد الباقي الصالحية، وأم عبد الله عائشة بنت محمد بن مسلم، وغيرهم.

وبالرَّبْوة: من سلامة بن عبد الله بن نفيس الدين الحراني التاجر.

وبجوبر: من محمد بن قايماز المقرىء الصالح.

وبجسْرين: من إبراهيم بن محمد الأمجدي، ومحمد بن أبي الحسن البعلبكي ثم الدمشقي.

---

(١) معجم الشيوخ: ٩٣، ٢٣٤، ٢٥٤، ٢٨٠، ٣٤٣، ٣٧٢، ٣٨١، ٦٦٠، ٦٦٤، المعجم المختص: ١٧١، ٢٠٠، التذكرة: ٢/٥٣٤، ٤/١٤٣٥.

وبالنَّيْرَب: من عماد الدين يوسف بن أبي نصر الدمشقي.

وببيت الآبار: من محمد بن داود بن عمر المسند المكثر ابن خطيب بيت الآبار، وأخته أم علي ست الفقهاء بنت داود بن عمر الآبارية.

وبالتل: من الفقيه تقي الدين أحمد بن علم بن محمود الحراني المقرىء.

وبمنين: من الحافظ العلائي خليل بن كيكلدي، وأحمد بن عمر العطّار، ومحمد بن محمد بن عبد المنعم الطائي ابن القوّاس.

وبالزبداني: من الفقيه العالم يحيى بن محمد بن عبد الصمد السلمي الزبداني.

وبقرية فذايا: من محيي الدين علي بن محمود السلمي الدمشقي.

●● وجال وطاف في كثير من مدن سورية وقراها :

فأخذ ببصرى ـ بحوران ـ : عن الفقيه عبد الغني بن منصور بن عبادة الحراني.

وبمدينة حمص: أخذ عن خطيبها علي بن عبد الله بن يوسف القيسي السويدي ثم الدمشقي، ومحمد بن مسعود بن أيوب الفقيه المحدث شيخ حمص ونائب القاضي بها.

وسمع بمدينة حماة: من عبد العزيز بن عمر بن أبي بكر الحموي الصوفي، والعلّامة عبد العزيز بن محمد بن أحمد الحلبي الحنفي قاضي حماة، ومحمد بن يعقوب بن إلياس الحموي، والإمام العلّامة هبة الله بن عبد الرحيم ابن البارزي، وفاطمة بنت محمد بن الحسين الأنصارية الحموية.

وبالمَعَرَّة ـ بين حماة وحلب ـ : أخذ عن المحدث المفيد عثمان بن بلبان المقاتلي الرومي ثم الدمشقي.

ورحل إلى حلب سنة (٦٩٣ هـ) يرافقه والده، فأخذ عن جملة من أعيانها: وفي مقدمتهم سنقر بن عبد الله الزَّيْنيّ، قال الذهبي في ترجمته: «رحلتُ إليه، وأكثرتُ عنه، ونعم الشيخ كان ديناً ومروءة، وعقلاً وتعففاً، كل من يعرفه يثني عليه»[١]. ومما سمعه منه «سنن ابن ماجه»[٢] كله. وأخذ عن عبد الرحمن وإبراهيم وإسماعيل بني أبي الفضل بن العجمي، وبيبرس بن عبد الله التركي، وعبد الله بن محمد بن عبد القادر الشافعي الدمشقي، قاضي حلب.

كما أخذ بسَرْمِين ـ من أعمال حلب ـ عن الفقيه يحيى بن أحمد بن مسعد المعري، قاضي كفرطاب.

●● ورحل إلى بَعْلَبَك وطَرَابُلُس، وهما الآن في لبنان:

رحلته إلى بعلبك: أخذ عن جماعة من علمائها، وسمع عليهم الكثير، كما يشير إلى ذلك في ترجمة عبد القادر بن أبي الحسين علي اليونيني البعلي، فيقول: «.. وهو فقيه عالم خيِّر، بارك الله فيه، سمع معي الكثير ببعلبك»[٣].

وقد رحل إلى بعلبك مرتين في سنتي (٦٩٣ هـ) و (٧٠٧ هـ): أشار إلى رحلته الأولى في ترجمة المقرىء محمد بن أحمد الرقي ثم الدمشقي، فقال: «... أفادنا أشياء، ولما سافرت إلى بعلبك سنة

---

(١) معجم الشيوخ: ٢٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٢٨٠، ترجمة ابن ماجه.

(٣) معجم الشيوخ: ٣٢٣.

ثــلاث وتسعين، وتعــوَّقت بــالقــراءة على المــوفق، وثب على حلقتي...»[1].

ومكث في هذه الرحلة مدة طويلة، كما يتضح من قوله في ترجمة شيخه علي بن محمد اليونيني:

«ولقد انتفعت وتخرجت بشيخنا الإمام العالم المحدث الحافظ الشهيد أبي الحسين علي ابن الشيخ الفقيه ببعلبك، ولزمته نيفاً وسبعين يوماً، وأكثرت عنه». توفي سنة (٧٠١ هـ)[2].

ـ وأما رحلته الثانية فقد أشار إليها في ترجمة شيخه سعد بن محمد بن علي الحسني، فقال: «رأيت هذا الشيخ ببعلبك في أول سنة سبع وسبع مئة»[3].

●● وسمع في رحلتيه وقرأ على كثيرين، منهم: تاج الدين عبد الخالق بن عبد السلام بن سعيد بن علوان البعلبكي (ت ٦٩٦ هـ)، قرأ عليه، وسمع منه «سنن ابن ماجه»[4]. وموفق الدين محمد بن علي ابن مبارك النِّصِيبي، نزيلِ بعلبك، قال في ترجمته: «وقرأت عليه للسبعة في نحو من خمسين يوماً، في سنة ثلاث وتسعين»[5].

وأخذ عن إبراهيم بن أحمد بن حاتم، وأحمد بن يحيى بن طي، وعبد الله بن عبد الغني، وزينب بنت عمر الدمشقية الكندية نزيلة

---

(١) معرفة القرّاء: ٢/٧٥٣ ـ ٧٥٤.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٥٠٠.

(٣) معجم الشيوخ: ٢١٢.

(٤) معجم الشيوخ: ٢٨١، المعجم المختص: ١٣٤، سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٨٠، ١٥/٤٦٥.

(٥) معرفة القرّاء: ٢/٧١٠.

بعلبك، وعبد الولي بن عبد الرحمٰن، وعمر بن يحيى المعري ثم البعلبكي، وعيسى بن أبي محمد العطّار، ومريم بنت أحمد بن حاتم، والمحدث الفقيه محمد بن عبد الولي ابن خولان، والعالم المقرىء موسى بن عبد العزيز، وغيرهم.

●● **وفي طرابلس** قرأ وسمع من جماعة، منهم:

إبراهيم بن بركات المعروف بابن القرشية، وابن عمه محمد بن أبي الفتح، والعالم الأوحد علي بن محمد بن سلمان ابن حمائل، وفاطمة بنت نفيس الدين محمد الحموية، والخطيب العالم محمد بن أبي بكر خطيب حصن الأكراد، والمسند محمد بن أبي العز البَزَّار، في آخرين.

●● **وخلال رحلته إلى مصر سنة (٦٩٥ هـ)، وذهابه إلى الحج سنة (٦٩٨ هـ) سمع ببعض مدن فلسطين والأردن:**

ففي القدس: قرأ على زينب بنت أحمد بن عمر المقدسية.

وبنابُلُسَ: أخذ عن علي بن عبد الرحمٰن بن عبد المنعم المقدسي شيخ أهل نابلس، وعماد الدين عبد الحافظ بن بدران النابلسي، فأكثر عنه[1].

وسمع بالرملة: من أخيه بالرضاع داود بن إبراهيم ابن العطار الدمشقي، وكان رفيقه في الرحلة إلى مصر.

---

(١) انظر مثلاً: معجم الشيوخ: ٢٧٨، ٤١٦، ٦٣٦، تذكرة الحفاظ: ٤/١٣٢١، معرفة القرّاء: ١/٣٤٤، سير أعلام النبلاء: ٤/٧٢، ٥/٢٨١، ٧/٤٥٥، ٨/١٢٢، ٢٢٢، ٤٧٢، ١١/١٠٢، ٥٠٥، ١٢/٤٩٠، ١٧/٦٥٦، ١٨/٣٧٨، ١٩/١٤١، ٢٠/٥٤٩، ٢١/٤٧٠.

وبمُعَان: من محمد بن عبد المحسن ابن الخراط ـ وكان رفيقه في الحج ـ كتاب «الفرج بعد الشدة».

وبالكَرَك: قرأ على الفقيه عبد الحميد بن محمد المقدسي الحنبلي شيئاً من «صحيح مسلم». وسمع من عمر بن عبيد الله بن أحمد المقدسي ـ وكان رفيقه في الحج ـ، ومن قاضي القضاة محمد بن سليمان بن حمزة الحنبلي.

●●●

ثانياً ـ رحلته إلى الديار المصرية

تاريخها: رحل الإمام الذهبي إلى مصر سنة (٦٩٥ هـ)، يستنتج ذلك من أخبار منشورة في كتبه؛ من ذلك قوله في ترجمة شيختهِ أم محمد سيدة بنت موسى بن عثمان المارانية المصرية: «.. وقد رحلتُ إلى لقيّها، فماتت وأنا بفلسطين في رجب سنة خمس وتسعين وست مئة»[1]. وقال في «تاريخ الإسلام»: «كنت أتلهف على لقيها، ورحلتُ إلى مصر وعلمي أنها باقية، فدخلت فوجدتها قد ماتت من عشرة أيام... توفيت يوم الجمعة سادس رجب، وأنا بوادي فحمة».

وهذا يعني أنه دخل مصر في السادس عشر من رجب سنة (٦٩٥ هـ).

وقال في «سير أعلام النبلاء»: «أخبرنا أحمد بن إسحاق بن محمد بن مؤيد المصري بها في رجب سنة خمس وتسعين وست مئة،

(١) معجم الشيوخ: ٢٣٦.

أنبأنا أبو الفرج الفتح بن عبد الله...»[1]. وفي موضع آخر منه قال: «أخبرنا السيِّدُ الحافظ تاجُ الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد المحسن العَلَوي الغرافي، بقراءتي عليه بالاسكندرية في شهر رمضان سنة خمس وتسعين وست مئة، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد...»[2].

ومن أوضح الأدلة على ذلك ما جاء في ترجمة شيخه يوسف بن الحسن بن عثمان، الفقيه المعمَّر، التميمي القابسي ثم الاسكندراني، حيث يقول: «فعلى هذا يكون موته في آخر سنة خمس وتسعين وست مئة، وكنت في شوال هذه السنة بالاسكندرية وهو حي، وسمعت منه التجريد»[3].

وقال في ترجمة طاهر بن عبد الله بن عمر الحلبي المقرىء: «أخبرنا طاهر بن عبد الله القارىء سنة خمس وتسعين وست مئة بمصر، أنا ابن خليل..»[4].

وثمة أدلة أخرى كثيرة لا نطيل بذكرها[5].

●● وكان رفيقه في هذه الرحلة داود بن إبراهيم ابن العطار، وهو أخوه من الرضاع[6].

(١، ٢) سير أعلام النبلاء: ٥/٤٠٩، ٩/٨٤.

(٣) معجم الشيوخ: ٦٥٤.

(٤) المرجع السابق: ٢٤٩.

(٥) انظر مثلاً: معجم الشيوخ، ترجمة: عبد المعطي بن عبد الرحمٰن الاسكندراني: ص ٣٣٣. محمد بن محمد الاسكندراني: ص ٥٦٠، محمد بن مظفر الصنهاجي: ص ٥٧٤، أبي بكر بن عمر بن علي القسنطيني: ص ٦٧٦. وغيرهم.

(٦) معجم الشيوخ: ١٩٠.

وأول ما افتتح السماع على الحافظ الزاهد جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الحلبي المعروف بابن الظاهري (ت ٦٩٦ هـ)، فقد قال في ترجمته: «وبه افتتحت السماع في الديار المصرية، وبه اختتمت، وعنده نزلت، وعلى أجزائه اتكلت». وفي موضع آخر: «نزلت عليه بزاويته بالمَقْس[1]، وأكثرت عنه، وانتفعت بأجزائه». وفي موضع ثالث: «ودعته في ذي القعدة سنة خمس وتسعين، فقال لي: قل للجماعة يجعلوني في حل...»[2].

ورحل إلى الأماكن التي تعمر بالعلماء، وسمع من جماعة كثيرة بمصر والقاهرة وبلبيس والاسكندرية.

●● ففي مصر والقاهرة سمع جملة من الشيوخ، منهم:

المحدث العالم أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن المؤيد الهمذاني الأَبَرْقُوهي ثم القرافي، وقد أكثر عنه. وأحمد بن عبد الكريم بن غازي المصري المعروف بابن الأَغْلاقي. والأمير بلال بن عبد الله المُغيثي. وزينب بنت سليمان بن هبة الله. وزينب بنت محمد بن إبراهيم المقدسي، ابنه قاضي مصر، وزوجة قاضيها، وأم قاضيها. وأبو النور شهاب بن علي المصري التركماني. وطاهر بن عبد الله بن عمر. وعبد الرحيم بن عبد المحسن، خطيب جامع المنشية. والإمام الحافظ عبد الكريم بن عبد النور الحلبي ثم المصري. والحافظ الحجة عبد المؤمن بن خلف الدمياطي. وعلي بن عبد الغني بن فخر الدين ابن تيمية الحراني، نزيل القاهرة. ومحمد بن إبراهيم النحوي. والمفسر العلامة محمد بن سليمان بن الحسن ابن النقيب البلخي ثم الدمشقي.

---

(١) بين يدي القاهرة على النيل.

(٢) تاريخ الإسلام: وفيات (٦٩٦ هـ)، تذكرة الحفاظ: ١٤٨٠/٤، معجم الشيوخ: ٧٢.

وأبو السعود محمد بن عبد الكريم المنذري المصري. والإمام المجتهد الحافظ محمد بن علي بن وهب ابن دقيق العيد القشيري، امتحن الذهبي لما دخل عليه فقال له: «من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: بم تعرف؟ قال: بالذهبي. قال: من أبو طاهر الذهبي؟ قال له: المُخَلِّص. فقال: أحسنت. وقال: من أبو محمد الهلالي؟ قال: سفيان بن عُيَيْنة قال: أحسنت، اِقرأ. ومكّنه من القراءة حينئذٍ؛ إذ رآه عارفاً بالأسماء». وسمع من لفظه عشرين حديثاً[1]. واجتمع بالمحدث المقرىء رافع بن هجرس، وذاكره.

●● **ورحل إلى بِلْبِيس:** وسمع بها من سليمان بن داود بن سليمان.

●● **كذلك رحل إلى الإسكندرية:** فأخذ عن الكثيرين، وحصّل علماً جماً متنوعاً، وأقام فيها مدة طويلة نحواً من شهرين، كما توضح ذلك بعض النصوص في كتبه:

ففي ترجمة «المُعَافَى بن عمران»، ذكر أنه قرأ على أبي الحسن الغَرَّافي بالإسكندرية في شهر رمضان سنة (٦٩٥ هـ)[2]. وجاء في ترجمة شيخه يوسف بن الحسن التميمي القابسي ثم الاسكندراني، أنه كان بالاسكندرية في شوال من سنة (٦٩٥ هـ)[3].

وقد سمع بالإسكندرية ـ ويعبر عنها أحياناً بالثَّغْر ـ على جملة من علمائها المتميزين، منهم: الفقيه إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن الحسيني الغَرَّافي ثم الإسكندراني. والمحدث أحمد بن أبي بكر بن

---

(١) شذرات الذهب: ٦/١٥٤، تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٨٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٩/٨٤.

(٣) معجم الشيوخ: ٦٥٤.

طَي الزُّبيري. والمقرىء عبد الرحمٰن بن عبد الحليم الدُّكَّالي الملقب بسُحنون، عرض عليه ختمة «لورش وحفص» في أحد عشر يوماً. والعالم الكبير أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد المحسن الحسيني الغَرّافي (أخو إبراهيم)، وأكثر عنه، ومما سمعه منه «الحديث المسلسل بالأولية»[١]. والقاضي علي بن أبي العباس المالكي. والعالم الفقيه عمر بن محمد بن يحيى. ومحمد بن عطاء الله الإسكندراني. والمحدث محمد بن أبي القاسم الصِّقِلي ثم الإسكندراني. والفقيه محمد بن محمد بن حسين الإسكندراني، ومما سمعه منه «المسلسل بالأولية»[٢]. ووجيهة بنت عمر الهوارية ثم الإسكندرانية. والمقرىء المُعَدَّل يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الجُذامي، شرع عليه بالقراءة للسبعة، ثم تركه لصَمَمه. وأبو القاسم بن عمر الهواري الإسكندراني، أخو وجيهة. وغيرهم.

رحلته الثانية إلى مصر:

ورحل الإمام ثانية إلى مصر سنة (٧٠٥ هـ)، لما علم في قدمته الأولى من كثرة العلماء فيها من جهة، ولأنه لم يروِ غلَّته بسبب قصر المدة التي مكثها ثم عاد لكي لا يُغضِب أباه، من جهة ثانية.

وقد جاء ذكر هذه الرحلة عرضاً في أثناء ترجمة محمد بن سنجر من «المعجم المختص»، حيث يقول الذهبي: «محمد بن سنجر، المحدث المفيد الرحال، أبو عمر العَجَمي ثم المصري الجندي... رحل إلينا سنة أربع وتسعين ـ وست مئة ـ فسمعتُ بقراءته على جماعة. ثم رحلتُ سنة خمس وسبع مئة فوجدته قد مات»[٣].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٦٥٦/١٧.

(٢) معجم الشيوخ: ٥٦٠.

(٣) المعجم المختص: ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

ولا ريب أنه أخذ عن جملة من العلماء الذين سبق ذكرهم، حيث إن كثيراً منهم قد تأخرت وفاته عن سنة (٧٠٥ هـ).

●●●

ثالثاً ـ رحلته إلى الديار المقدسة للحج
وسماعه هناك وفي الطريق

توفي والد الذهبي في سنة (٦٩٧ هـ)، وفي السنة التالية (٦٩٨ هـ) رحل إمامنا للحج، ذكر ذلك في حوادث السنة من «تاريخ الإسلام» فقال: «وحج بنا الأمير شمس الدين العينتابي».

ويفهم ذلك من قوله في ترجمة شيخه عمر بن العباس: «أخبرنا عمر بن العباس بطيبة سنة ثمان وتسعين وست مئة...»[١]. وقوله في ترجمة رضي الدين إبراهيم بن محمد الطبري: «قرأت على أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بمكة سنة ثمان وتسعين وست مئة...»[٢].

●● وكانت له في هذه الرحلة رفقة من العلماء وطلبة العلم، فمنهم[٣]: عبد الرحمٰن بن أحمد المقدسي، وعمر بن عبيد الله بن أحمد المقدسي، ومحمد بن عبد المحسن ابن الخراط.

فسمع بالمدن والأماكن المقدسة، وبعدد من البلدان التي مرّ بها، من مجموعة من الشيوخ ففي الطريق: سمع من ابن الخراط، قال الذهبي في ترجمته من معجم الشيوخ: «ورافقنا في الحج، فسمعت منه بالعلى ومُعَـان كتاب الفرج بعد الشدة»[٤].

---

(١) معجم الشيوخ: ٤٠٠. وانظر ترجمة «محمد بن عبد الولي ابن خولان»: ص ٥٢٦.

(٢) المعجم المختص: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) معجم الشيوخ: ٢٨٣، ٤٠٤، ٥٢٤.

(٤) المرجع السابق: ٥٢٤.

وبمكة وعرفة ومِنىً: أخذ عن جماعة منهم: إمام المقام رضي الدين إبراهيم بن محمد الطبري المكي، وأخوه الفقيه أحمد بن محمد الطبري المكي، وعبد السلام بن عبد الخالق ابن علوان، والفقيه عبد الغني بن منصور بن عبادة الحراني، والحافظ قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي ثم المصري، وشيخ الحرم المقرىء المحدث عثمان بن محمد بن عثمان التَّوْزَرِيّ، والفقيه يحيى بن محمد بن علي المكي، وغيرهم.

وسمع بالمدينة والروضة: من عمر بن العباس الدمشقي، والإمام المحدث محمد بن عبد الولي ابن خولان، وغيرهما.

وبتبوك: من ابن خولان الماضي، والفقيه الإمام محمد بن المُنَجَّى التنوخي الدمشقي.

●● وهكذا فإن الإمام الذهبي قد رحل وجال في كثير من بلدان الديار الشامية والمصرية والحجازية المقدسة، وسمع بأكثر من أربعين بلداً، وأشار إلى ذلك في ترجمة الحافظ الجوَّال أبي بكر محمد بن إبراهيم ابن المقرىء، فقال: «وقد سمع ابن المُقرىء الحديث في نحو من خمسين مدينة، وانتقيتُ من «معجمه» أربعين حديثاً سمعتها بأربعين بلداً»[1].

وقد حصّل الإمام في إقامته بدمشق ـ حيث تغصّ بالعلماء من أهلها والوافدين عليها ـ ومن خلال رحلاته في البلاد الإسلامية علماً غزيراً، واسعاً متنوعاً. واعتمد في ذلك أساليب التحصيل المختلفة من سماع على الأشياخ، وقراءة عليهم، ومشافهة لهم، إضافة إلى المساءلة والمكاتبة.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦/٤٠١، وانظر كلامنا على هذا الكتاب: ص ٣٦١.

ـ وأمثلة السماع والمشافهة كثيرة منتشرة في كتبه، عبر عنها بعبارات متنوعة، مثل: «حدثني، أخبرني، سمعت، قال لي، حكى لي، أنشدني..».

كقوله في ترجمة شيخه ابن دقيق العيد: «سمعت من لفظه عشرين حديثاً».

وفي ترجمة أحمد بن عبد الرحيم الصالحي: «وقرأ لنا سورة الصف في هذه السنة ـ أي ٧٠٦ هـ ـ ثم قال: لي الآن ثمانون سنة إلا شهرين».

وقال في ترجمة أحمد بن نعمة الصالحي: «سمعنا منه أحاديث من جزء ابن عرفة».

وقال في ترجمة علي بن أحمد الحداد: «أنشدنا الشيخ علي الحداد لنفسه أبياتاً مدح بها أمين الدين الرئيس ووالده، مطلعها...».

وفي ترجمة علي بن الحسن الواسطي: «قال لي: اختبأت بي الوالدة في القصب وأنا أرضع أيام هولاكو»[1].

ومن أمثلة القراءة على الشيخ قوله:

«قرأت عليه جزء ابن فيل». «قرأت عليها منتقى من جزء ابن عرفة». «قرأت عليه بالكرك شيئاً من صحيح مسلم». «قرأت عليه أحاديث من الخِلَعِيَّات». «قرأت عليه نسخة أبي الجهم». «قرأت عليها بكفربطنا كتاب الدارمي وعدة أجزاء»[2]. «قرأت عليه نزهة البررة وغير

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١٤٨٢/٤، معجم الشيوخ: ٥٠، ٨٣، ٣٥٨، ٣٦٥.

(٢) معجم الشيوخ: ٣٣، ١٤٩، ٢٨١، ٣١٩، ٣٨٩، ٦٣٦.

ذلك». «قرأت عليه من أول جزء الغطريف بمنىً بضعة عشر حديثاً»[1].

المساءلة:

وتكون بأن يسأل الذهبي شيخه عن مسألة معينة للشيخ فيها معرفة وتخصص، فمن ذلك:

قوله في ترجمة المقرىء عبد الله بن محمد بن عبد العظيم: «سألته أن يفرد لي قراءة يعقوب، فنظمها في كراس، وأجاد».

وقوله في ترجمة شيخه محمد بن أحمد الصالحي: «سألته عن مولده فقال: أنا من أقران محمد بن التاج... فسألت شيخنا: أوَ كان لك أخ باسمك؟ قال: نعم، محمد أكبر مني، وهو الذي له حضور مع القاضي تقي الدين..»[2].

وقال في ترجمة الفخر ابن البخاري الحنبلي: «كان فقيهاً عارفاً بالمذهب، فصيحاً صادق اللهجة، يرد على الطلبة، مع الورع والتقوى والسكينة والجلالة، زاهداً صالحاً، خيراً عدلاً مأموناً. سألت المزي عنه فقال: أحد المشايخ الأكابر، والأعيان الأماثل، من بيت العلم والحديث»[3].

وفي ترجمة الإمام المقرىء عبد الرحمن بن عبد الحليم، الملقب سُحنون، قال: «سألت شيخنا المزي عنه، فقال: شيخ جليل فاضل، صاحب سُنَّة، لقيته بالإسكندرية»[4].

---

(١) المعجم المختص: ٦١، ١٥٠.
(٢) معرفة القرّاء: ٢/٧٥٤، معجم الشيوخ: ٤٦٠ ــ ٤٦١.
(٣) شذرات الذهب: ٥/٤١٥.
(٤) معرفة القرّاء: ٢/٦٩٤.

المكاتبة[1]:

جرت عادة العلماء ـ وبخاصة المعنيين بالتراجم والتاريخ ـ أن يرسل الواحد منهم المعلومات المستجدة في بلده إلى صاحبه في البلد الآخر، ليقف عليها ويحيط بأخبار البلدان البعيدة عنه. قال الذهبي في ترجمة المؤرخ الشهير ابن الفُوَطي البغدادي (ت ٧٢٣ هـ): «وقد كاتب إلى دمشق يلتمس مني ترجمة بعض العلماء»[2].

والأمثلة على ذلك عند الذهبي كثيرة جداً، فمنها:

قوله في ترجمة شيخه أحمد بن محمد الواسطي البغدادي: «كتب إليَّ بمروياته من بغداد سنة (٦٩٧ هـ)، وتوفي بعد بعام أو عامين». وفي ترجمة عبد الله بن محمد الطبري المكي: «وكتب إليَّ بمروياته من طيبة». وفي ترجمة شيخه محمد بن أبي القاسم البغدادي: «كتب إليَّ محمد بن أبي القاسم المقرىء غير مرة أن عمر بن كرم أخبرهم...»[3].

وقال في ترجمة شيخه أحمد بن أبي بكر القرشي المكي: «كتب إلينا من مكة بمروياته». وفي ترجمة شيخه عبد السلام بن محمد البصري نزيل المدينة: «كتب إلينا من الحجاز بمروياته قديماً». وفي ترجمة شيخه محمد بن بلغز البعلبكي، قال: «كتب إليَّ شيخنا أبو الحسين أنه توفي في محرّم سنة ست وتسعين وست مئة»[4].

---

(١) المكاتبة عند علماء الحديث: أن يكتب الشيخ بعض حديثه لمن حضر عنده، أو لمن غاب عنه، ويرسله إليه، وسواء كتبه بنفسه أم أمر غيره أن يكتبه، ويكفي أن يعرف المكتوب له خط الشيخ أو خط الكاتب عن الشيخ، ويشترط في هذا أن يعلم أن الكاتب ثقة. انظر: مقدمة ابن الصلاح: ١٧٣ ـ ١٧٤، الباعث الحثيث: ١٢٠، أصول الحديث: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) المعجم المختص: ١٤٥.

(٣) المعجم المختص: ٣٥، ١٢٨، ٢٧٦.

(٤) معجم الشيوخ: ٨٨، ٣١٣، ٤٨٨، وشيخه أبو الحسين هو اليونيني.

وقال في «سير أعلام النبلاء»: «أخبرنا بكتاب «الموطأ» الإمام المعَمَّر مسنِد المغرب أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي كتابةً من مدينة تونس، قال: أخبرنا أبو القاسم أحمد بن يزيد...»[1].

وفي موضع آخر: «كتب إلينا المعمَّر العالم أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون من مدينة تونس عام سبع مئة، عن أبي القاسم أحمد بن يزيد القاضي...» وذكر حديث (الصوم جُنَّة)[2].

ومن الأمثلة الرائعة على ذلك ما كتبه الذهبي إلى الإمام العلامة أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) يسأله بعض الأسئلة عن المغاربة، وكيفية التلفظ بأسمائهم، وعن جماعة من شيوخه، فكان رد أبي حيان هو مؤلَّفه الذي سماه «در الحبي في جواب أسئلة الذهبي»[3].

وكان يكثر سماع كتاب أو جزء معين، فيسمعه على أشياخ كثيرين، كما أنه يتحرى الراسخين من العلماء والمكثرين المجوِّدين، فيطيل الجلوس إليهم، ويكثر السماع منهم.

ففي ترجمة المحدث الثقة أبي الجَهْم العلاء بن موسى صاحب «جزء أبي الجهم» المشهور، يقول الذهبي: «سمعنا نسخته من نيفٍ وستين نفساً»[4].

ومن أمثلة إكثاره عن بعض الشيوخ المشهورين، قوله: «أخبرنا أبو

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٨/٢٠٣ ـ ٢٠٤، تذكرة الحفاظ: ٣/١١٥٤ ـ ١١٥٥.

(٣) الذهبي لبشار عواد: ٣٨٨. وفي معرفة القرّاء الكبار: ٢/٦١٤ ـ ٦١٩، ٧٠١، أمثلة لإجابات أبي حيان.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥٢٦.

المعالي أحمد بن إسحاق ــ الأبَرْقُوهي ــ غير مرة..»[1]. «أخبرنا أحمد بن عبد الحليم الحافظ ــ ابن تيمية ــ غير مرة...»[2]. «أخبرنا أحمد بن هبة الله ــ ابن عساكر ــ غير مرة...»[3]. «أخبرنا عمر بن عبد المنعم ــ ابن القواس ــ مرات... غير مرة..»[4].

بعض مسموعاته من الكتب والأجزاء والمشيخات والمعاجم والفوائد ونحوها [5]:

خلال هذه الحياة العلمية الحافلة سمع الذهبي الكثير من الكتب والأجزاء، فلقد ذكر أنه سمع من شيخه عمر بن عبد المنعم ابن القواس وحده «نحواً من ثمانين جزءاً». ولكنه لم يجمع مسموعاته في معجم مستقل، وليته فعل! بيد أنه أشار إلى أشياء غير قليلة في مواضع منثورة في كتبه. وأثناء مطالعتي كثيراً من مصنفاته وقفتُ على جملة طيبة منها، أوردها ها هنا ليستفاد منها:

«أربعون حديثاً» من صحيح مسلم، «الأربعون العالية» لأبي المعالي الزملكاني، «الأربعون» لمحمد بن أسلم الطوسي، «الأربعون» للحسن بن سفيان النَّسَوي، «الأربعون» لأبي بكر الجَوْزَقي، «الأربعون» للحافظ أبي عَمْرو البُحيري، «الأربعون» لأبي بكر أحمد بن منصور

(١) المرجع السابق: ١٢/١٢٥، ١٨/٦١١.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/٣٤٥، ١١/١٢٥، ١٨/٩٤.

(٤) المرجع السابق: ٦/٣٠٧، ٨/١٢٨، ١٢/٥٠٩، ١٦/٧٤، تذكرة الحفاظ: ٣/٩٠٦.

(٥) استخرجتها من كتب الذهبي التالية: معجم الشيوخ، المعجم المختص، سير أعلام النبلاء، تاريخ الإسلام، تذكرة الحفاظ، ميزان الاعتدال، معرفة القرّاء، العبر، العلو. ولم أشر للجزء والصفحة تخفيفاً.

المغربي، «الأربعون» للإمام الزاهد أبي القاسم القشيري، «الأربعون» لإمام الحرمين أبي المعالي الجُويني، «الأربعون» لأبي بكر محمد بن علي الطوسي، «الأربعون» لعبد المنعم الفُرَاوِيّ، «أربعون» و«أربعون» لعبد الخالق بن زاهر الشحامي، «الإرشاد في معرفة المحدثين» للحافظ أبي يعلى الخليلي، «أخبار مجنون ليلى» في جزء لابن المَرْزُبَان، «اقتضاء العلم العمل» للخطيب، «الأموال» لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم، «الأمثال» للرَّامَهُرْمُزِيّ، «أمالي ابن سَمْعُون» في عشرين مجلساً، «الألقاب» للحافظ أحمد بن عبد الرحمٰن الشيرازي.

«البعث» لابن أبي داود، «البسملة» لسليم الرازي، «البرهان» في السنة لجعفر بن زيد الطائي الشامي.

«تاريخ داريا»، «تاريخ الجزيرة» للحافظ أبي عَرُوبة الجزري، «تاريخ من نزل حِمْصَ من الصحابة» للحافظ عبد الصمد بن سعيد الحمصي، «التجريد»، «ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي» للحافظ الضياء، «تسعون حديثاً متباينة الإسناد» تخريج الحافظ محمد بن علي بن أَيْبَك السروجي.

جزء البطاقة، جزء الجمعة، جزء الفراتي، جزء ابن فيل، جزء ابن عرفة، جزء ابن الفرات، جزء الصفار، جزء ابن زبر، جزء سفيان بن عيينة، جزء الغطريف، جزء أبي الجَهْم، جزء أيوب السَّخْتياني، جزء الكسائي، جزء ابن هَزَارْمَرْد، جزء محمد بن الفرج الأزرق، جزء محمد بن عبد الله الأنصاري، «جزء في تسمية الرواة عن الإمام أحمد» جمع أبي محمد الخَلاَّل، جزء ابن مَلاَّس، جزء محمد بن عاصم الأصبهاني، جزء كبير انتخبه السِّلَفي من «السنن الكبرى للنسائي»، جزء أبي بكر الصُوليّ، جزء من حديث المحدث الرحال علي بن محمد البغدادي، جزء ابن عَلَم، جزء ميمون بن إسحاق البغدادي، جزء

أحمد بن القاسم اللُكِّي، جزء ابن نُجَيْد، جزء ابن فَضَالة، جزء من أخبار الزبير بن بكار، الجزء الخامس من حديث أحمد بن محمد الخيّاش، جزء محمد بن سليمان الرَّبَعي، جزء من «أمالي» محمد بن إسماعيل الورَّاق، الجزء الثاني من رواية زُغبة عن الليث، الجزء الثالث من مسند ابن مسعود لابن صاعد، جزء الحسين بن الحسن الغضائِري، جزء الحسين بن إبراهيم الحَمَّال، جزء أبي بكر بن جِيْد، ثلاثة أجزاء لابن سَختام، جزء عبد الرحمٰن بن غَزْو النهاوندي العطار، جزء ابن أبي ثابت العَبْسي، جزء علي بن حرب، خمسة أجزاء للمحدث جعفر بن أحمد السَّرَّاج تخريج الخطيب، جزء البانياسي، جزء المحدث الزاهد السُّهُرَوَرْدِيّ، جزء محمد بن إبراهيم الإِرْبليّ، جزء من «كتاب الفتن» لحنبل بن إسحاق بن حنبل، «عشرة أجزاء» خرجت لأبي يعلى إسحاق بن عبد الرحمٰن الصابوني.

«الحاجبية» في النحو، كتاب «الخيل» للحافظ الدمياطي، «الخَرَاج» ليحيى بن آدم.

«رباعيات أبي بكر الشافعي» انتقاء الدارقطني، سؤالات السِّلَفي لشجاع الذهلي، سنن ابن ماجه، «سجود القرآن» للحربي، «سيرة الإمام أحمد» جمع شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي، سداسيات محمد بن الفضل الفِراوي، «السبعة» لابن مجاهد.

الشاطبية، بعض «شرح الشاطبية» للسخاوي.

صحيح البخاري، بعض صحيح مسلم، «صفة المنافق» للفِريابي، «الصلاة الوسطى» للدمياطي.

«العلم» لابن أبي خيثمة، «العلم» للحافظ يوسف بن يعقوب البغدادي، «عوالي الحافظ عبد الله بن هاشم بن حيّان» جمع زاهر بن طاهر الشَّحّامي، «عوالي الحافظ عبد الرحمٰن بن بشر النيسابوري» لزاهر

الشحّامي، «عقلاء المجانين» للحسن بن محمد بن حبيب.

«فضائل القرآن» لأبي عُبيد، «فضائل الصحابة» لوكيع بن الجراح، الجزء السابع من «فضائل الصحابة» لخيثمة بن سليمان، فضائل معاوية، «فضل رمضان» لابن عساكر، الفرج بعد الشدة، «فرجة المتعلم» للحافظ محمد بن محمد الحسيني، فوائد نصر المقدسي، فوائد الحافظ يوسف بن خليل الدمشقي، فوائد النسيب في عشرين جزءاً.

«قصيدة في السنَّة» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي، «القناعة» للإمام أحمد بن محمد بن مسروق.

«مشيخة ابن عبد الدائم» تخريج ابن الظاهري، مشيخة عبد الرحيم بن يحيى القلانسي، مشيخة ابن أبي الفخار، مشيخة أحمد بن أبي الفتح الشيباني، مشيخة علي بن إسماعيل القونوي، مشيخة مَخْلَد بن جعفر البَاقَرْجي، مشيخة محمد بن أحمد ابن النَّرْسِيّ، مشيخة محمد بن أحمد ابن أبي الصقر اللَّخْمِي، مشيخة شُهْدَة الكاتبة، «مشيخة أبي نصر ابن الشيرازي» بانتقاء النجيب الصفار، «مشيخة كريمة الدمشقية» تخريج الزكي البِرْزالي في ثمانية أجزاء، «مشيخة الحافظ يوسف بن خليل الدمشقي» في ثلاثة أجزاء، «مشيخة أحمد بن المُفَرَّج ابن مَسْلَمة الدمشقي» في ثلاثة أجزاء «معجم الصحابة» للحافظ ابن قانع، معجم الزكي المنذري، معجم الحسن بن أحمد الحداد، معجم شيخات الحافظ ابن عساكر، منتقى من صحيح مسلم، منتقى «المنامات النبوية للحافظ البَرداني»، المنتقى من أجزاء المُخَلِّص، منتقى من مسند عَبْد بن حَميد، منتخب «الإرشاد في معرفة المحدثين للخليلي» للسِّلَفِي، «مسند أبي هريرة» للحافظ البِرْتِي، «المجتبى أو المجتنى من السنن الكبرى للنسائي»، اختصار ابن السُّني، «مسند أبي يعلى» بفَوْت

نصف جزء، عدة أجزاء من «مسند محمد بن إسحاق السرَّاج»، مسند الطيالسي، مسند المعافى بن عمران، «مسند الشافعي» انتقاه أبو العباس الأصمّ من «الأم»، جملة من مسند الحارث بن محمد بن أبي أسامة، مختصر المختصر المسمى «صحيح ابن خزيمة» سمعه بفَوْت، بعض مسند مُسَدَّد، «موطأ مالك» سمعه بثلاث روايات: رواية القَعْنَبي عن مالك، ويحيى[1] بن عبد الله بن بكير عن مالك، وبفوت من رواية أبي مصعب الزهري عن مالك. «المصافحة» للحافظ البَرْقَاني، «مغازي» موسى بن عقبة، معظم «مغازي» محمد بن عائذ الدمشقي، مجلس محمد بن أسد عن أبي داود الطيالسي، «المحدث الفاصل» للرَّامَهُرْمُزِيِّ، «المجتبى» لابن دُريد، «المحنة» لحنبل بن إسحاق بن حنبل.

نسخة إبراهيم بن سعد، نسخة أبي مُسْهِر، نسخة فُلَيْح، نسخة عبيد الله بن محمد العَيْشي المعروف بابن عائشة، نسخة عبد الله بن محمد بن أسماء الضُّبَعي، نسخة إسماعيل بن جعفر، نسخة يحيى بن مَعِين، نسخة وكيع، «النقض على بشر المَرِيْسِيّ» للحافظ عثمان بن سعيد الدارمي، نونية السخاوي.

استمراره في طلب العلم ـ قراءة وسماعاً ـ طيلة حياته:

دأب الإمام الذهبي على تحصيل العلم مذ صلب عوده وتفتح ذهنه، وبقي على ذلك حتى أواخر أيام حياته المباركة، سواء بالقراءة أو بالسماع، لا يشغله عن ذلك شيء، وتراه يجمع بين القيام على شؤون أسرته، والتدريس، والخطابة، والتصنيف، وطلب العلم.

---

(١) سمع هذا الإمام الكبير «الموطأ» من مالك سبع عشرة مرة!! سير أعلام النبلاء: ١٠/٦١٤.

وبنظرة إجمالية على مسيرته في طلب العلم نلاحظ مصداق ذلك، فمن بواكير حياته العلمية أنه سمع عام (٦٨٣ هـ) من محمد بن عمر بن مكي العثماني الشافعي، واستمر يدأب ويقرأ على الأشياخ، وبلغ من همته أنه سمع بعد سنة (٧٤٠ هـ) على تلميذه البرهان الشامي المتوفى سنة (٨٠٠ هـ) جزءاً، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في ترجمة البرهان، فقال: «وسمع منه شيخه الحافظ الذهبي بعد الأربعين...»[1].

وثمة نص عند الذهبي يفيد أنه بقي يطلب العلم حتى آخر عمره، فقد قال في ترجمة الحافظ عثمان بن خُرَّزَاذ: «فالذي يحتاج إليه الحافظ أن يكون تقياً ذكياً، نَحْويًّا لُغَوياً، زكياً حَيِيًّا سَلَفياً، يكفيه أن يكتب بيده مئتي مجلَد، ويحصِّل من الدواوين المُعتبرة خمسَ مئة مجلد، وأن لا يَفْتُر من طلب العلم إلى الممات، بنية خالصة وتواضع، وإلا فلا يَتَعَنَّ»[2].

وبعد هذه الصورة المشرقة عن نشاط الإمام ودأبه في الرحلة والسماع على الشيوخ والقراءة عليهم، لنلقِ الضوء على شيوخه وأساتذته وأقرانه، الذين أخذ عنهم وتخرج بهم، ورافقهم. مع التركيز على أولئك الذين كان لهم الدور الأهمّ في إثراء ثقافته، وتكوين شخصيته، وتوجيه طاقاته، ممن أطال الجلوس إليهم، والقراءة عليهم والإفادة منهم.

* * *

---

(١) إنباء الغمر: ٣/٣٩٩ ـ ٤٠٠، ونحوه في الدرر الكامنة. والبرهان الشامي: تلميذ الذهبي وشيخ ابن حجر.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٣/٣٨٠.

الفَصل الرابع
شيُوخُهُ وَأقرانُهُ

أولاً ـ شيوخه وتراجم بعض أعيانهم

عددهم: أخذ الحافظ الذهبي عن عدد كبير من العلماء، سواء بالإجازة أو بالسماع، وقد ترجم للكثير منهم في كتبه المختلفة مثل: «المعجم المختص»، و«العبر» و«ذيله» و«تذكرة الحفاظ» و«ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل» و«معرفة القراء الكبار»، بل وأفرد لهم كتاباً مستقلاً هو «معجم شيوخه»، لكنه في هذا الأخير لم يستوعبهم، كما بيّن ذلك في خطبته فقال: «أما بعد: فهذا معجم العبد المسكين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ابن الشيخ عبد الله التركماني الفارقي ثم الدمشقي ابن الذهبي، يشتمل على ذكر من لقيته أو كتب إليَّ بالإجازة في الصغر، وعلى كثير من المجيزين لي في الكبر، ولم أستوعبهم، وربما أجاز لي الرجل ولم أشعر به، بخلاف من سمعته فإنني أعرفه»[1].

وقد ذكرت أغلب مصادر ترجمته أن عدد شيوخه بالسماع والإجازة نحو ألف وثلاث مئة شيخ[2].

وبالرجوع إلى «معجم شيوخه» نجد أن الذهبي قد أصدر أصلين

---

(١) معجم الشيوخ: ١٣.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ٣٥، ذيل العبر له: ٤/١٤٨، الرد الوافر: ٦٦، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/٥٦، فهرس الفهارس: ١/٤١٧، وغيرها.

من معجمه هذا: الأول في صفر سنة (٧٢٧ هـ) وعدد التراجم في هذه النسخة يبلغ (١٢٧٨) ترجمة. الثاني: في جمادى الآخرة سنة (٧٤٥ هـ) وعدد المذكورين (١٠٤٢) نفساً.

ويفسِّر هذا الاختلاف في العدد بين النسختين أن المؤلف عندما وضع معجمه أولاً سنة (٧٢٧ هـ) ضمَّنه تراجم أصحاب ابن البخاري، ثم بدا له أن ينقِّح كتابه، وأن ينشره نشرة ثانية ناسخة للأولى؛ فأسقط منها (٢٣٦) نفساً ـ الذين هم أصحاب ابن البخاري ـ فأصبح عدد تراجم النسخة الأخيرة (١٠٤٢) ترجمة[١].

ونترجم هنا لبعض أعيان شيوخه[٢]، لنتلمس من خلالها مدى تأثر الذهبي بأساتيذه في تكوين شخصيته الفكرية والعلمية، وبمنهجه في التأليف والتصنيف.

١ ـ أحمد بن إسحاق الأَبَرْقُوهي (٦١٥ ـ ٧٠١ هـ):

هو أحمد بن إسحاق بن محمد بن المؤيد أبو المعالي المعروف بالأبرقوهي، نسبة إلى «أَبَرْقُوه» بُليدة بأصبهان.

المحدث العالم، الزاهد المقرىء، سمع بأبرقوه وشيراز، وبغداد، والموصل، وحرّان، ودمشق، والقدس، ومصر. انتهى إليه علو الإسناد، مع الخير والتواضع والقناعة والصفات الحميدة. حج وأدركه

---

(١) انظر كلامنا على «معجم الشيوخ» ص: ٤٣٤ ـ ٤٣٧ من هذا الكتاب.

(٢) أخذنا تراجمهم من: معجم الشيوخ، المعجم المختص، العبر، ذيل العبر، تذكرة الحفاظ، معرفة القرّاء الكبار؛ جميعها للذهبي، الوفيات لابن رافع، البداية والنهاية لابن كثير، الرد الوافر لابن ناصر الدين، غاية النهاية لابن الجزري، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، البدر الطالع للشوكاني، فهرس الفهارس للكتاني، شذرات الذهب لابن العماد، الرسالة المستطرفة للكتاني، ذيل العبر للحسيني، الأعلام للزركلي.

الموت بمكة بعد رحيل الحُجاج بأربعة أيام في ذي الحجة سنة (٧٠١ هـ). قال الذهبي: «سمعت من لفظه جزءين». وقد أكثر عنه.

٢ ـ ابن فَرْح الإشبيلي (٦٢٥ ـ ٦٩٩) هـ:

هو أحمد بن فرْح بن أحمد اللخمي الإشبيلي الشافعي، نزيل دمشق. سمع بمصر وبدمشق، وكان إماماً محدثاً، متقناً بارعاً، عارفاً بالفقه، كثير الإفادة. كانت له حلقة إقراء بجامع دمشق يقرىء الفقه والحديث.

قال الذهبي: «حضرت مجالسه، ونعم الشيخ كان علماً وفضلاً، ووقاراً وديانة، واستحضاراً واستبحاراً، وثقة وصدقاً، وتعففاً وقصداً. تخرج به جماعة، وكتب الكثير من الفقه والحديث».

وهو صاحب «القصيدة الغرامية» في ألقاب الحديث، ومطلعها: «غَرامي صحيحَ والرجا فيكَ مُعْضَلُ».

٣ ـ ابن الظاهري (٦٢٦ ـ ٦٩٦ هـ):

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن قايْماز الحلبي المعروف بابن الظاهري، الإمام الحافظ، الزاهد مفيد الجماعة بركة الوقت. شيخ وقور مهيب منوّر الشيبة، مليح الوجه، حسن السمت. ذو صدق وإخلاص وانقطاع عن الناس بزاويته بالمَقْس. مديم الكتابة والتخريج والجمع، بصير بالعالي والنازل وبمرويات مصر والشام، صحيح النقل.

سمع من خلق كثير بحلب ودمشق وحمص، والحرمين، ومصر والاسكندرية، وماردين وحرَّان.

قال الذهبي: «وكان ثقة خيِّراً، حافظاً، سهل العبارة، مليح الانتخاب، خبيراً بالموافقات والمصافحات، لا يُلحق في جودة الانتقاء،

وقد تفقّه لأبي حنيفة، وتلا بالسبع. وكان ذا وقار وسكينة، وشكل تام، ونفس زكية، وكرم وحياء، وتعفف وانقطاع، قَلَّ مَنْ رأيتُ مثله. ما اشتغل بغير الحديث إلى أن مات، وشيوخه يبلغون سبع مئة شيخ. نزلتُ عليه بزاويته بالمَقْس، وأكثرت عنه، وانتفعت بأجزائه أحسن الله إليه. سمع منه الحافظ علم الدين أزيدَ من مئتي جزء، وأخذ عنه المِزّي والحلبي واليَعْمُري والرحالون».

٤ ــ أبو العباس الحَجّار (٦٢٣ ــ ٧٣٠ هـ):

هو أحمد بن أبي طالب بن نعمة، أبو العباس الديرمقرني ثم الصالحي الحجار، رحلة الآفاق، نادرة الوجود، ومسنِد الدنيا.

وهو شيخ كامل البنية، وسمعه ثقيل، قد ذهب غالب أسنانه، له همة وجلادة، وقوة نفس، وعقل جيد، ومن همته أنه صام وهو ابن مئة سنة رمضان وأتبعه بستٍ من شوال!

وقد روى «صحيح البخاري» أزيد من ستين مرة! وإليه المنتهى في الثبات وعدم النعاس، ربما أسمع في بعض الأيام من بكرة إلى المغرب، ويوم لا يُسمع عليه يخرج إلى الجبل مع الحجّارين يقطع الحجارة. وكان ربما خرج الطلبة إليه وهو يقطع الحجارة ليسمعهم. وكان إذا قُلِبَ عليه سند حديث يقول: لم أسمعه هكذا، وإنما سمعته كذا وكذا، طبق ما في الصحيح! وقد حدَّث بمصر مرتين «بالصحيح»، وبحماة وحمص وبعلبك.

قرأ الذهبي عليه «صحيح البخاري» بكفربطنا سنة (٧٢٠ هـ).

٥ ــ أبو الفضل ابن عساكر (٦١٤ ــ ٦٩٩ هـ):

أحمد بن هبة الله بن أحمد بن محمد بن الحسن ابن عساكر، الشيخ الرئيس، شرف الدين أبو الفضل الدمشقي، من بيت الحديث والرواية والعدالة.

سمع القزويني وابن صصرىٰ وزين الأمناء وطبقتهم، وسمع ببغداد من عجيبة، وأجاز له خلق. وروى الكثير، وتفرد بأشياء، وروى عنه الطلبة والرحالة، و له «مشيخة» في أربعة أجزاء.

قال الذهبي: «روى لنا شيئاً كثيراً».

وقد أكثر الذهبي عنه، فروى في كتبه من طريقه علماً جماً، وسمع منه وقرأ عليه، ومن ذلك «موطأ مالك» من رواية أبي مصعب الزهري، سمعه منه بفوت سنة (٦٩٥ هـ)، و«الأربعون» للحافظ الحسن بن سفيان النسوي، و«الغاية» في القراءات العشر لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني، وغير ذلك[١].

٦ ـ إبراهيم بن داود بن ظافر الفاضلي (٦٢٢ ـ ٦٩٢ هـ):

الشيخ الإمام المقرىء المجوِّد، قرأ بالروايات على الشيخ علم الدين السخاوي، ولزمه ثمانية أعوام، حتى إنه جمع عليه سبع ختمات للسبعة، وحمل عنه الكثير من التفسير والحديث والآداب. كان إماماً فاضلاً، حسن المشاركة في العلوم، حلو المحاضرة، كثير المحفوظ، حسن البزة، مليح الشكل، روى الكثير، وتكاثر عليه الطلبة.

قال الذهبي: «تلوتُ عليه نحواً من ثلثي القرآن بالسبع، وسمعت منه فوائد، وأجاز لي مروياته قديماً... ومما سمعتُ منه نونية شيخه السخاوي في التجويد، وبعض شرح القصيد للشيخ علم الدين ـ السخاوي ـ».

---

(١) المعجم المختص: ٤٥، معجم الشيوخ ٨٣ ـ ٨٤، معرفة القرّاء: ٣٤٧/١، سير أعلام النبلاء: ٤٣٨/١١، ١٦٠/١٤، تاريخ الإسلام: (وفيات ٣٨١ ـ ٤٠٠) ص ٢٨، غاية النهاية: ١٤٦/١ ـ ١٤٧، وغير ذلك.

٧ ــ برهان الدين الفزاري (٦٦٠ ــ ٧٢٩ هـ):

هو إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن سِباع الفزاري الدمشقي الشافعي. انتهت إليه معرفة المذهب ودقائقه ووجوهه، مع علم بمتون الأحكام، وعلم بالأصول والعربية وغير ذلك، وكان يدري علوم الحديث. مع الدين والورع، وحسن السمت والتواضع، مقبلاً على شأنه، مستغرقاً أوقاته في الاشتغال والإشغال والمطالعة ليلاً ونهاراً، وإسماع الحديث، وحدَّث «بالصحيح» مرات.

قال الذهبي: «وناب في مشيخة دار الحديث أشهراً، فبهرت معارفه، وخضع له الفضلاء، ومناقبه يطول شرحها. قرأتُ عليه مشيخة ابن عبد الدائم».

٨ ــ الحافظ الدمياطي (٦١٣ ــ ٧٠٥ هـ):

عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن، الدمياطي الشافعي شرف الدين. الحافظ الحجة، الفقيه النسابة، أحد الأئمة الأعلام، وبقية نقاد الحديث. تفقه بدمياط وبرع، ثم طلب الحديث فارتحل وسمع بالاسكندرية ومصر والشام والعراق والجزيرة والحرمين. وكتب العالي والنازل، وجمع فأوعى، وسكن دمشق فأكثر بها عن ابن مسلمة وغيره. ومعجم شيوخه يبلغون ألفاً وثلاث مئة إنسان. وكان صادقاً حافظاً، متقناً، جيد العربية، غزير اللغة، واسع الفقه، رأساً في علم النسب، ديّناً كيّساً، متواضعاً بسّاماً، محبباً إلى الطلبة، مليح الصورة، نقي الشيبة، كبير القدر. وله تصانيف متقنة في الحديث والعوالي واللغة والفقه وغير ذلك.

قال الذهبي: «سمعت منه عدة أجزاء، منها: السراجيات الخمسة، و«كتاب الخيل» له، و«كتاب الصلاة الوسطى» له».

٩ ـ عبد الرحمن بن عبد الحليم سُحنون (٦١٦ ـ ٦٩٥ هـ):

هو الإمام المقرىء عبد الرحمن بن عبد الحليم الدُّكَّالي المالكي، الملقب بسُحنون، شيخ جليل فاضل صاحب سنة، عارف بمذهبه، مفتٍ متفنن، مقرىء محدث نحوي، جم الفضائل. تلا بالسبع على أبي القاسم ابن الصَّفْراوي.

قال الذهبي: «أدركته وهو منقطع قد أُضِرَّ، وضعف، فقرأت عليه جزءاً، وسألتُهُ فحدثني أنه قرأ بالروايات على أبي القاسم، فشرعتُ عليه في ختمة لِوَرْشٍ وحفصٍ، فعرضتها في أحد عشر يوماً».

١٠ ـ سُنْقُر القضائي الزَّيْني (٦١٩ ـ ٧٠٦ هـ):

هو سنقر بن عبد الله الأرمني، ثم الحلبي القضائي الزيني، علاء الدين أبو سعيد. سمع ابن الزبيري، وابن روزبة، وابن اللَّتّي، والأنجب الحمامي، وطائفة. وأكثر عن ابن خليل وسمع منه جميع «المعجم الكبير» للطبراني. وتفرّد بأشياء كثيرة، وكان مسنِدَ حلب، ديِّناً خيِّراً، صبوراً على الطلبة.

قال الذهبي: «رحلت إليه، وأكثرت عنه، ونعم الشيخ كان، ديناً ومروءة، وعقلاً وتعففاً، كل من يعرفه يثني عليه».

ومما سمعه الذهبي منه «سنن ابن ماجه» كله[1].

١١ ـ عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبي ثم المصري (٦٦٤ ـ ٧٣٥ هـ):

قطب الدين، الإمام الحافظ، المصنف المقرىء، مفيد الديار المصرية وشيخها، أحد من جرد العناية، ورحل وتعب، وحصّل وكتب،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٢٨٠.

وأخذ عن أصحاب ابن طبرزد فمن بعدهم. وسمع من خلق بالحرمين ومصر والشام، حتى كتب عن تلامذته. وجمع وخرّج، وجمع تواليف متقنة، مع التواضع والتدين، والسكينة والصيانة والأمانة، وملازمة العلم والمطالعة، ومعرفة الرجال ونقد الحديث.

قال الذهبي: «سمعت منه بمصر وبمكة، سمعت منه «جزء الغطريف»، وقد أجاز لي مروياته... قرأت عليه من أول «جزء الغطريف» بمنىً بضعة عشر حديثاً».

١٢ ــ عثمان بن محمد بن عثمان التَّوزَرِي (٦٣٠ ــ ٧١٣ هـ):

الإمام الفقيه، المقرىء المجوِّد، المحدث المفيد، المَغْربي التوزري. قرأ الكتب المطولة مثل المسند ومعجم الطبراني والكتب الستة، وتلا بالسبع على ابن وثيق والكمال بن شجاع. وأخذ عن الجم الغفير، وذكر أن شيوخه نحو ألف شيخ.

كان قارىء الطلبة بمصر دهراً، ثم جاور بمكة سنين، وتوفي بها. وكان فيه دين وتعبُّد وقناعة.

قرأ الذهبي عليه سنة ٦٩٨ هـ أيام رحلته إلى الحج.

١٣ ــ عثمان بن يوسف النُّوَيْريّ المالكي (٦٧٣ ــ ٧٥٦ هـ):

العلامة المحدث الفقيه، الورع الصالح، نسبته إلى «نويره» ناحية بمصر. صحب والده وتفقه به وبجماعة، وأحكم المذهب، وأفتى ودرّس، وارتحل في طلب الحديث، وكان قليل المثل في العلماء، ديناً وورعاً، واتباعاً للآثار، وبغضاً للباطل، وإنصافاً في بحوثه.

قال الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص»: «أخي وحبيبي، وشيخي ووادي، أحْسَنَ الله جزاءه... ومحاسنه غُزيرة، وكان كثير

الحج والمجاورة، والتألُّه والصدق والاتباع، قَلَّ مَنْ رأيتُ في صلاحه مثلَه، وهو خير مني وأشد حباً لي في الله».

١٤ ـ أبو الحسين اليُونِيني (٦٢١ ـ ٧٠١ هـ):

هو علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى، أبو الحسين اليونيني البعلبكي الحنبلي. ويُونين من قرى بعلبك.

الإمام العلامة، الرباني الفقيه، الحافظ المتقن الشهيد. روى الكثير، وكان شيخاً مهيباً، حلو المجالسة، كثير الإفادة، حسن البشر، مليح التواضع، عارفاً بقوانين الرواية، حسن الدراية، جيد المشاركة في الألفاظ والرجال، ذا عناية بالغريب والأسماء وضبطها، مديماً للمطالعة. قرأ على الشيوخ، وحدث عن خلق بمصر والشام، وكتب بخطه، ولزم الحافظ المنذري.

استنسخ «صحيح البخاري» وحرره، حتى إنه قابله في سنة واحدة وأسمعه إحدى عشرة مرة!! ونسخته من «صحيح البخاري»[1] أعظم أصل يوثق به من نسخ «الصحيح»، وهي التي اعتمدها القَسْطَلَّاني في شرحه للبخاري، المسمى «إرشاد الساري».

قال الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص»: «سمعتُ منه الكثير ببعلبك ودمشق». وفي «تذكرة الحفاظ»: «ولزمتُه نَيِّفاً وسبعين يوماً، وأكثرتُ عنه». ومما سمعه منه «المحدِّث الفاصِل» للرَّامهرمزيِّ.

١٥ ـ أبو حفص ابن القواس (٦٠٥ ـ ٦٩٨ هـ):

هو عمر بن عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن غدير، الثقة المُعَمَّر، مسند وقته، أبو حفص الطائي الدمشقي ابن القواس.

---

(١) انظر الدراسة القيمة عن «النسخة اليونينية» من «الصحيح» للعلامة المحدث أحمد شاكر، في تقدمته لصحيح البخاري: : ١/١ ـ ١٤، طبعة دار الجيل ـ بيروت.

سمع الكثير، وأخذ عن خلق، وتفرّد في زمانه، وتكاثر عليه الطلبة. امتدحه تلميذه الذهبي بقوله: «ونعم الشيخ كان، ديناً وتواضعاً، ولطفاً وحسن أخلاق، ومحبة للحديث». وقال: «وقرأت عليه «المبهج» في القراءات، و«السبعة» لابن مجاهد، و«الكفاية» في القراءات الست، وسمعت منه نحواً من ثمانين جزءاً». ومما قرأه عليه وسمعه منه أيضاً: «مناقب الإمام أحمد» في مجلد لشيخ الإسلام الهروي، و«معجم ابن جُمَيْع الصيداوي» و«مشيخة النَّرْسِي»، و«المجتبى» لابن دُريد[1].

١٦ ـ محمد بن أحمد بن تمام بن حسان، التلي الصالحي الخياط الحنبلي (٦٥١ ـ ٧٤١ هـ):

الشيخ العالم المقرىء، الصالح القدوة، الزاهد بركة الوقت، والتلي: نسبة إلى «التل» بلدة كبيرة مشهورة، قريبة من دمشق.

سمع من عمر بن أبي نصر بن عَوَّة، وابن السروري، وابن عبد الدائم، وطائفة. وتأدب بأدب السنة من التقوى والإخلاص، والتواضع والبشاشة، والأوراد، والحب في الله والبغض فيه، والقناعة والتعفف، واطّراح التكلف، والصدق والورع، من خيار عباد الله، وكان يقتات من عمل يده، عظيم الحرمة، مقبول الكلمة عند الملوك، وولاة الأمور ترجع إلى رأيه وقوله، أمّاراً بالمعروف، نهّاء عن المنكر.

قال الذهبي: «روى لنا جزء ابن فيل، ثم انتقيتُ له مشيخة، فسمعها خلق».

---

(١) انظر: معجم الشيوخ ٤٠٢، تذكرة الحفاظ: ٣/١١٨٥، سير أعلام النبلاء: ١٧/١٥٥، ١٨/٨٤، ٣٩٣، ٥١٠، ٢٠/٣٥.

١٧ ـ ابن دقيق العيد (٦٢٥ ـ ٧٠٢ هـ):

محمد بن علي بن وهب بن مطيع، تقيُّ الدين أبو الفتح، القشيري المنفلوطي، المالكي والشافعي، الشهير بابن دقيق العيد.

الإمام الفقيه المجتهد، الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، كان علامة في المذهبين، عارفاً بالحديث وفنونه، إماماً عديم النظير، ثخين الورع، متين الديانة، متبحراً في العلوم، من أذكياء زمانه، مديماً للسهر، مكباً على الاشتغال، ساكناً وقوراً ورعاً، آية في الحفظ والتحري والإتقان، شديد الخوف، دائم الذكر، لا ينام الليل إلا قليلاً، ويقطعه فيما بين مطالعة وتلاوة وذكر وتهجد، حتى صار السهر لـه عادة، وأوقاته كلها معمورة. وكان في أمر الطهارة في نهاية الوسوسة، كثير الكتب، سارت بمصنفاته الركبان، قلَّ أن ترى العيون مثله، رضي الله عنه.

امتحن الذهبيَّ ـ لما دخل عليه ـ بأسئلة في الرجال، ثم مكنه من القراءة عليه!

١٨ ـ محمد بن أبي الفتح البعلبكي (٦٤٥ ـ ٧٠٩ هـ):

الإمام العلامة المحدث، شيخ النحاة، إمام الحنابلة بدمشق. سمع من الفقيه محمد اليونيني وابن عبد الدائم والكرماني وخلق. ونسخ وقرأ، وحصَّل الأصول، وانتخب وتكلم على الأحاديث، وصنف في العربية، وتفقّه وبرع وأفتى. كان خيراً صالحاً متـواضعاً، مـطَّرِحاً للتكلّف، كبير القدر، مع القناعة والاقتصاد، وكثرة المحاسن.

قال الذهبي: «سمعتُ منه بدمشق وببعلبكَّ وطرابُلُسَ، وصحبتُه مدةً».

١٩ ـ محمود بن أبي بكر الأُرْمَوي القرافي (٦٤٧ ـ ٧٢٣ هـ):

المحدث المتقن، اللغوي البارع، مفيد الطلبة، صفي الدين الأرموي ثم القرافي الصوفي.

سمع من النجيب عبد اللطيف والكمال ابن عبد، وغيرهما. وقرأ الكثير على المشايخ بقراءة فصيحة صحيحة متقنة، وكتب العالي والنازل، ثم فتر عن الطلب، وأقبل على اللغة فجمع فيها بين «تهذيب» الأزهري، و«مُحْكم» ابن سِيدَه، و«صِحَاح» الجوهري؛ وألّفها كتاباً واحداً.

قال الذهبي: «سمعنا منه جزء ابن عرفة، وجزءاً سمعه من ابن عبد».

٢٠ ــ أبو بكر بن محمد بن القاسم المرسي ثم التونسي (٦٥٦ ــ ٧١٨ هـ):

هو الإمام العلم مجد الدين المرسي الأصل، التونسي الدار، نزيل دمشق. ولد بتونس سنة (٦٥٦ هـ)، وقدم مصر مع أبيه سنة بضع وسبعين. قرأ القراءات على الشيخ الإمام حسن بن عبد الله الراشدي، وشرح عليه «الشاطبية» والنحو.

ثم قدم دمشق سنة (٦٨١ هـ) فأدرك الشيخ زين الدين الزواوي، فحضر عنده وهو يُقرىء، وسمع الحديث من الفخر ابن البخاري وغيره. وقرأ علم الأصول فبرع فيها، وأقبل على الفقه فبرع فيه. وتصدر للإقراء وتعليم النحو. وكان من أذكياء وقته، ولم يكن أحد يجاريه لا في القراءات ولا في النحو، مع الديانة والنزاهة والوقار، والسكون والسمت الحسن والانقباض عن الناس.

تخرج بن جماعة كبيرة في القراءات والعربية والأصول.

قال الذهبي في ترجمته من «معرفة القراء»: «قرأت ختمة للسبعة عليه في مدة طويلة، ولم أشاهد أحداً في القراءات مثله».

شيخاته:

أخذ إمامنا الذهبي عن عدد كبير من النساء، ذكر منهن في «معجم شيوخه» مئة واثنتين، نترجم هنا لبعضهن:

١ ــ خديجة بنت يوسف بن غنيمة، أمة العزيز البغدادية ثم الدمشقية (٦٢٦ ــ ٦٩٩ هـ):

عالمة فاضلة، روت الكثير عن ابن المقير وابن اللَّتِّي وأبي نصر بن الشيرازي، وطائفة سواهم. جوَّدت الخط على جماعة، وقرأت عدة مقدمات في النحو، وأعربت على النحاة، ووعظت في الأعزية مدة، وصار لها حظوة، ثم حجَّت وتركت المواعظ.

٢ ــ زينب بنت أحمد بن عمر بن أبي بكر بن شكر المقدسية (٦٢٨ ــ ٧٢٢ هـ)

ولدت بقاسيون، وسمعت من ابن اللّتي والهمداني، وتفردت بأجزاء كالثقفيات، ومُسْنَدَي عَبْد بن حُمَيد والدارمي. وطال عمرها، وحدثت بمصر وبالمدينة النبوية، وجاورت، بها مدة. ارتحل إليها الطلبة ببيت المقدس، وماتت به. وكانت من النساء العوابد.

قرأ الذهبي عليها بالقدس.

٣ ــ فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي البعلبكي (٦٢٥ ــ ٧١١ هـ):

امرأة صالحة، عابدة مسنِدة، روت «صحيح البخاري» عن ابن الزبيدي مرات، وسمعت «صحيح مسلم» من محمود بن الحصيري شيخ الحنفية. وسمعت من أبي القاسم بن رواحة، وطال عمرها وروت الكثير.

توفيت في أواخر صفر سنة (٧١١ هـ) عن ست وثمانين سنة، وقرأ

الذهبي عليها في المحرم سنة (٧١١ هـ)، قبيل وفاتها بقليل.

٤ ــ هدية بنت عبد الحميد بن محمد بن سعد المقدسية (ت ٦٩٩ هـ):

امرأة صالحة خيِّرة، روت «صحيح البخاري» عن ابن الزبيدي. توفيت بقاسيون.

قال الذهبي: «قرأت عليها نسخة أبي الجَهْم، والثلاثيات».

٥ ــ هدية بنت علي بن عسكر البغدادية ثم الصالحية ابنة الهراس (٦٢٦ ــ ٧١٢ هـ):

سمعت من ابن الزبيدي حضوراً، ومن ابن اللتي والهمداني، وغيرهم. عُمِّرت وروت الكثير، وكانت فقيرة قانعة، ذات عبادة وأوراد. وكانت قابلة مطبوعة ظريفة، مضت في آخر عمرها إلى القدس مستعدة للموت، فتوفيت بعد أشهر سنة (٧١٢ هـ).

قال الذهبي: «قرأت عليها بكفربطنا كتاب الدارمي ــ مسنده ــ وعدة أجزاء، فرحمها الله».

●●●

ثانياً ــ أقرانه

لم يكتفِ الذهبي بالأخذ عن الشيوخ والمشاهير ممن هم أكبر منه سناً وأقدم سماعاً، بل اتصل بمن هم في مثل سنِّه أو أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً، فرافقهم في الطلب، وأخذ عنهم وأخذوا عنه، وسمع منهم وأسمعهم، وقرأ عليهم وأفادهم، وباحثهم وناقشهم وانتفع بهم.

وتبرز في أعيان رفاقه شخصيات فذة، كان لها أثر بالغ، ودور

فاعل في مسيرة التاريخ السياسي والعلمي، وتركت آثاراً واضحة على شخصية الحافظ الذهبي. ومن أبرز هؤلاء:

١ ــ أبو الحجاج المِزِّي (٦٥٤ ــ ٧٤٢ هـ):

هو يوسف بن عبد الرحمٰن بن يوسف، القضاعي الكلبي الدمشقي، المعروف بالمِزِّي، نسبة إلى «المِزَّة» أحد أحياء دمشق الآن.

الإمام العلامه، الحافظ الناقد، المحقق المفيد، حافظ الدنيا ومسندها، ولد بظاهر حلب، ونشأ بالمزة، وحفظ القرآن، وتفقه قليلاً، ثم أقبل على الحديث، وسمع من أول شيء كتاب «الحلية» كله، وسمع المسند والكتب الستة ومعجم الطبراني، وغير ذلك. وسمع بمصر والحرمين وحلب وحماة وبعلبك وغيرها من مدن الإسلام.

وكان عارفاً بالنحو والتصريف، بصيراً باللغة، يشارك في الفقه والأصول، وله عمل كثير في المعقول، وما وراء ذلك ــ بحمد الله ــ إلا حسن إسلام، وحسبة لله. وأما معرفة الرجال فهو حامل لوائها، والقائم بأعبائها. كان أعجوبة زمانه، يقرأ عليه القارىء نهاراً كاملاً، والطرق تضطرب، والأسانيد تختلف، وضبط الأسماء يشكِل، وهو لا يسهو ولا يغفل.

قال الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص»: ومن نظر في كتابه «تهذيب الكمال» عَلِمَ محله من الحفظ. فما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، أعني في معناه. ينطوي على دين، وسلامة باطن، وتواضع، وفراغ عن الرئاسة، وقناعة وحسن سمت، وقلة كلام، وكثرة احتمال، وكل أحد يحتاج إلى تهذيب الكمال».

سمع الذهبي منه «صحيح البخاري» بكامله، وغير ذلك.

٢ ــ شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ):

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، شيخ الإسلام، الإمام العلامة، الحافظ الناقد، الفقيه المجتهد، المفسر البارع، علم الزهاد، نادرة العصر علماً ومعرفة، وذكاءً وحفظاً، وكرماً وزهداً، وفرط شجاعة، وكثرة تأليف.

ولد بحرَّان[1] سنة (٦٦١ هـ)، وتحول إلى دمشق مع والده سنة (٦٦٧ هـ).

قال الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص»: «وبرع في علوم الآثار والسُّنن ودرَّس وأفتى وفسَّر، وصنَّف التصانيف البديعة، وانفرد بمسائل فَنِيلَ من عِرْضه لأجلها، وهو بَشَرٌ له ذنوب وخطأ، ومع هذا فوالله ما مقلت عيني مثلَه، ولا رأى هو مثل نفسه. كان إماماً متبحِّراً في علوم الديانة، صحيحَ الذهن، سريعَ الإدراك، سَيَّالَ الفهم، كثير المحاسن، موصوفاً بفَرْط الشجاعة والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذّة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه».

وقال في «تذكرة الحفاظ»: «وقد انْفَرَدَ بفتاوى نِيلَ من عِرْضه لأجلها، وهي مغمورةٌ في بحر علمه، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه، فما رأيتُ مثله، وكلُّ أحدٍ من الأمة فيؤخذ من قوله ويُترك؛ فكان ماذا؟!».

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية»: «وبالجملة: كان رحمه الله من كبار العلماء، وممن يخطىء ويصيب، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجيّ...».

---

(١) حَرّان الجزيرة الفراتية لا «حَرّان العَوَامِيد» التي قرب دمشق.

وقد كانت لابن تيمية شخصية متفردة، وآراء خاصة تقوم في أصلها على اتباع آثار السلف، ودخل في خصومات عقائدية حادة مع علماء عصره من المخالفين له. وكان يقيم الحدود بنفسه، ويحارب المشعوذين من أدعياء التصوف، ويدور على أصحاب الحانات والخمارات ويريق الخمور، وبلغ به الأمر في إحدى المرات أنه دخل السجن وأخرج رفيقه «المِزِّيَّ» منه بنفسه! وأجل مآثره، وأعظم مفاخره، هو دوره الفذ في انتصار المماليك على المغول في «وقعة شقحب».

قال الذهبي: «سمعت منه جملة من مصنفاته، وجزء ابن عرفة، وغير ذلك».

٣ ـ علم الدين البِرْزالي (٦٦٥ ـ ٧٣٩ هـ):

هو القاسم بن محمد بن يوسف، علم الدين البِرْزالي الإشبيلي ثم الدمشقي الشافعي. الإمام العالم، الحافظ المتقن، الصادق الحجة، مفيد الآفاق، مؤرخ العصر.

سمع من خلق كثيرين جداً بالحرمين ودمشق وحلب وحماة والقدس ومصر والإسكندرية وعدة مدائن، فأخذ عن أزيد من ألفي شيخ، وأجاز له ألف شيخ بل يزيدون؛ فمشيخته بالسماع والإجازة فوق الثلاثة آلاف، ضمنها معجم شيوخه في مجلدات كبار، وفي هذا المعجم يقول الذهبي[1]:

إن رمت تفتيش الخزائن كلها ... وظهور أجزاء حوت وعوالي
ونعوت أشياخ الوجود وما رووا ... طالع أو اسمع معجم البرزالي

وقد خرَّج لخلق، وكتبه وأجزاؤه الصحيحة مبذولة للطلبة، وقراءته المليحة الفصيحة الصحيحة مبذولة لمن قصده، وفضائله سائرة،

---

(١) الرد الوافر: ٢١٧.

مع التجرد والتواضع، وترك التكلف، وحسن المذاكرة، وتواضعه وبشره مبذول لكل غني وفقير. حج خمس مرات، ومات محرماً بخُلَيْص في ذي الحجة سنة ٧٣٩ هـ.

وقد اتصل الذهبي بهؤلاء الثلاثة اتصالاً وثيقاً، وهو أصغرهم سناً، وكان بعضهم يقرأ على بعض، وترافقوا في الطلب، فهم شيوخ وأقران في الوقت نفسه.

قال الذهبي في ترجمة المزي من «تذكرة الحفاظ»: «ترافق هو وابن تيمية كثيراً في سماع الحديث، وفي النظر في العلم، وكان يقرر طريقة السلف في السنة، ويعضد ذلك بمباحث نظرية وقواعد كلامية، وجرى بيننا مجادلات ومعارضات في ذلك، تركها أسلم وأولى»(١).

وقال في ترجمة محمد بن عبد الرحمٰن بن يوسف البعلبكي (ت ٦٩٩ هـ) من «المعجم المختص»: «حضرت بحوثه مع ابن تيمية، وسمع بقراءتي معجم الشيخ علي ابن العطار»(٢).

وقال في ترجمة البرزالي من «معجم الشيوخ»: «... مفيدنا ومعلمنا ورفيقنا»(٣).

ومن أقرانه أيضاً:

٤ ـ أحمد بن يعقوب ابن الصابوني (٦٧٥ أو ٦٧٦ ـ ٧٣١ هـ):

جمال الدين أبو العباس ابن شرف الدين الصابوني، الحلبي ثم الدمشقي، نزيل القاهرة.

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٩.

(٢) المعجم المختص: ٢٣٩.

(٣) معجم الشيوخ: ٤٣٥.

قال الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص»: «أحد من عني بهذا الشأن، وسمع وكتب وحصَّل الأصول، أسمعه والده من الفخر ابن البخاري وطبقته، ثم طلب هو بنفسه، ورحل وتميَّز. ترافقنا في السماع. وكان حسن المذاكرة طيب السريرة».

٥ ـ عبد الرحمٰن بن مسعود بن أحمد الحارثي (٦٧١ ـ ٧٣٢ هـ):

الإمام العلامة، الفقيه الحنبلي، المناظر الأصولي، سمع الكثير بالديار المصرية وبدمشق، وعني بالسماع والطلب، وتفقه بالمذهب حتى برع وأفتى وناظر. أخذ الأصول عن ابن دقيق العيد، والعربية عن ابن النحاس. درس بالمنصورية وجامع طولون وغيرهما، وتصدر للإشغال، وكان شيخ المذهب بالديار المصرية، وله مشاركة في التفسير والحديث، مع الديانة والورع والجلالة.

قال الذهبي: «.. وطلب، ودارَ معنا على الرواية، وسمع من ابن القواس، وناظر في الفقه، وبرع...».

٦ ـ تقي الدين السُّبْكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦ هـ):

هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام، السبكي ـ نسبة إلى «سُبْك» من أعمال «المنوفية» بمصر ـ المصري الشافعي.

الإمام الجِهْبِذ، المفسر الحافظ، الأصولي اللغوي، النحوي المقرىء، البياني الجدلي، الخلافي النظَّار البارع، شيخ الإسلام، أوحد المجتهدين، فخر الحفاظ، قاضي القضاة.

وكان صادقاً متثبتاً، خيراً ديناً، عفيفاً متواضعاً، حسن السمت. قرأ القرآن على التقي بن الصائغ، والتفسير على العَلَم العراقي، والفقه

على ابن الرفعة، والأصول على العلاء الباجي، والنحو على أبي حيان، والحديث على الشرف الدمياطي، ورحل وسمع بالاسكندرية ودمشق والحرمين.

وصنف التصانيف المتقنة، وتخرج به خلق في أنواع العلوم، وأنجب أولاداً كراماً أعلاماً، منهم التاج السبكي صاحب «طبقات الشافعية الكبرى» وغيرها.

قال الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص»: «وقد بقي في زمانه الملحوظ إليه بالتحقيق والفضل، سمعتُ منه، وسمع مني. وحكمَ بالشام وحُمدت أحكامُه، والله يؤيِّده ويسدِّده».

٧ ـ محمد بن عيسى البعلي، ابن المجد (٦٦٦ ـ ٧٣٠ هـ):

هو الشيخ الإمام، العالم المتقن، المحدث الأصولي النحوي ذو الفنون، شمس الدين محمد ابن مجد الدين عيسى البعلي الشافعي.

أحد من عني بالحديث وطلبه، ودار على المشايخ، بعد أن أتقن الفقه والعربية، وسمع من خلق كثير.

قال الذهبي: «استفدنا منه أشياء، وترافقنا في السماع».

٨ ـ ابن سيد الناس (٦٧١ ـ ٧٣٤ هـ):

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح الأندلسي اليَعْمُري المصري الشافعي، الحافظ المفيد، العلامة الأديب، البارع المتفنن.

قال ابن كثير: «اشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقه والنحو وعلم السير والتواريخ وغير ذلك من الفنون... وقد حرَّر وحبَّر، وأفاد وأجاد، ولم يسلم من بعض الانتقاد، وله الشعر الرائق، والنثر الفائق، والبلاغة التامة، وحسن الترصيف والتصنيف،

وجودة البديهة، وحسن الطوية... ولم يكن في مصر في مجموعه مثله في حفظ الأسانيد والمتون والعلل، والفقه، والملح، والأشعار والحكايات».

وقال الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص»: «وخرَّج وصنّف، وصحَّح وعلَّل، وفرَّعَ وأصَّل، وقال الشعر البديع. وكان حلوَ النادر، كيِّس المحاضرة. جالستُه وسمعتُ بقراءته، وأجاز لي مروياته، عليه مآخذ في دينه وهَدْيه، والله يُصلحه وإياي».

وقال في «تذكرة الحفاظ»: «وسمعت مع الشيخ العلامة، المحدث الحافظ، الأديب البارع فتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد ابن سيد الناس... لم أسمع منه شيئاً».

٩ ــ ابن قيِّم الجوزية (٦٩١ ــ ٧٥١ هـ):

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي. إمام «المدرسة الجوزية»[١]، وابن قيِّمها، الشهير بابن قيِّم الجوزية.

الإمام الكبير، العلامة المجتهد، المفسر النحوي، الأصولي المتكلم. تَفَنَّنَ في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يُجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام، عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم، وفاق الأقران، واشتهر في الآفاق. غلب عليه حبُّ شيخه الكبير ابن تيمية، حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له

---

(١) مدرسة للحنابلة بدمشق، في سوق البزورية جوار قصر العظم وغربيه، حُرقت ودَرَسَت، وجُدِّد مكانها مخازن ومصلّى بسيط. الدارس: ٢/ ٢٩.

في جميع ذلك، وهو الذي نشر علمه بما صنفه من التصانيف الحسنة المقبولة الكثيرة. هذا مع الأخلاق الحميدة، والخصال الفريدة، كثير التودد، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه.

قال ابن كثير: «وكنتُ من أصحبِ الناس له، وأحبَّ الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه»!

وقال الذهبي: «سمع معي من جماعة، وتصدَّر للإشغال ونشر العلم».

* * *

وقد ذكر الذهبي في «المعجم المختص» كثيراً من رفاقه في الطلب ممن دار معهم على الشيوخ للسماع منهم. وكذا الذين سمع هو عليهم وأسمعهم، واستفاد منهم وأفادهم، وكتب عنهم وكتبوا عنه.

* * *

وهكذا فقد نشأ الحافظ الذهبي في أسرة متدينة، يغلب على أفرادها حب العلم وطلبه والحرص عليه، وتردد ــ في سن مبكرة ــ على المقرئين والعلماء والمحدثين، فَتَنَوَّر قلبُه بفيوضات الكتاب العزيز، وحب العلم والعلماء ومجالسهم. ثم رحل رحلات مباركة في كثير من الأمصار الإسلامية، فأخذ عن الأعيان، ورافق الأكابر، فتأثر بهم وأفاد منهم. وقد صَاحَبَ ذلك كله ذكاء وقاد، وقلب يقظ، وأذن واعية، وهمة عالية، وحافظة باهرة، وتوجه سليم، وإخلاص نادر، ودأب على الاشتغال والمطالعة الواسعة المتنوعة. فتكوّن من هذا وذاك صرح علمي شامخ، متعدد الجوانب، متنوع الإبداع، مع البراعة والتفوق والتميز.

فلنلقِ بعض الضوء على أبرز معالم شخصيته العلمية الفذة.

* * *

الفَصل الخامِس
العُلُومُ ٱلتي بَرَعَ فيها

بنظرة واعية ودراسة فاحصة لسير وتراجم العلماء، نجد أن بعضاً منهم قد ركز اهتمامه واشتغاله في العلم وإشغاله فيه على نوع واحد من العلوم، كالحديث أو التفسير أو الفقه أو العربية أو التاريخ، أو غيرها، فصبّ فيه كل اهتمامه طلباً وتعليماً وتصنيفاً. في حين نجد أئمة آخرين قد حملتهم هممهم العالية على السعي في طلب علوم متنوعة، فتعبوا في الرحلة بالنهار، وصبروا على السهر في الليل، وطوّفوا البلاد، واجتمعوا بالأعيان، وثابروا على الاشتغال في الحل والترحال؛ فبلغوا شأواً لا يُلحق، وغاية لا تُدرك، وكانت لهم اليد الطولى في علوم كثيرة، والبراعة والتفنن في معارف متنوعة.

ومن هذا الصنف الثاني إمامنا أبو عبد الله الذهبي، الذي أكثر الرحلات، وطاف في البلاد، وجال في الأمصار، وأخذ عن الكبار، ثم بعد ذلك واصل دراساته، ولم ينقطع عنها طيلة حياته، فبرز في علوم كثيرة.

ومن خلال تتبعنا لنشاط الإمام واهتماماته، وجدنا أنه صبّ اهتمامه على ثلاثة علوم هي: القراءات والحديث والتاريخ. غير أنه ضرب بسهم وافر من علوم أخرى لا بدّ منها كالفقه والنحو واللغة والأدب والشعر.

وهو وإن كان في الثلاثة الأولى أبرز منه وأقعد في هذه الأخيرة؛ **بيد أنها في مجموعها تشكل البناء المتكامل لشخصيته العلمية.**

ونفصّل القول هنا في كل علم من العلوم التي برع بها، ونتلمس ملامح الإبداع والتفرد عنده فيها، معتمدين على ما استبان لنا بعد التتبع الطويل لمسيرة حياته العلمية ونشاطاته، والاستقراء الواسع لمصنفاته، ودراسة آرائه المبثوثة فيها هنا وهناك.

●●●

أولاً ـ الذهبي المقرىء المجوِّد

●● وجّه الذهبي اهتمامه الكبير للقرآن الكريم، وتجويد تلاوته، ودراسة علم القراءات، فأخذ ذلك عن كبار أئمة هذا الفن العزيز، وعلى رأسهم شيخ القرّاء إبراهيم بن داود ابن ظافر العسقلاني ثم الدمشقي المشهور بالفاضلي، الذي صحب شيخَ قراء زمانه علمَ الدين السَّخاوي (ت ٦٤٣ هـ) ثمانية أعوام وجمع عليه سبع ختمات بالقراءات السبع.

قصد الذهبي ـ مع رفقة له ـ الإمام الفاضلي هذا في سنة (٦٩١ هـ)، وتلا عليه نحواً من ثلثي القرآن بالقراءات السبع، وقال في ترجمته: «. . وكنت أنا وابن بَصْخَان، وشمس الدين الحنفي النقيب، وشمس الدين بن غدير، نجمع عليه «الجمع الكبير»، فانتهيت عليه إلى أواخر القصص، وانتهى كل واحد منهم إلى سورة قبل ذلك. فقوي به الفالج، ومُنِعنا من الدخول عليه نحو الشهر»[1].

واشتد الفالج بالشيخ، وتوفي سنة (٦٩٢ هـ)، وبقيت قراءة الذهبي على الفاضلي ناقصة.

---

(١) معرفة القرّاء الكبار: ٢/٧٠٣ ـ ٧٠٤، معجم الشيوخ: ١٠٦، المعجم المختص: ٥٣ ـ ٥٤.

وفي الوقت الذي شرع فيه على الفاضلي ـ سنة ٦٩١ هـ ـ كان قد شرع في «الجمع الكبير» أيضاً على إبراهيم بن غالي بن شاور (ت ٧٠٨ هـ) نزيل دمشق وشيخ الإقراء بالتربة الأشرفية، وجالسه، ولازم حلقته، وانتفع به[(١)].

وشغل قلبَ الذهبي إكمالُ «الجمع الكبير»، فتذاكر مع رفقته مَنْ بقي مِن أصحاب السخاوي، فدُلّوا على جماعة منهم محمد بن عبد العزيز الدمياطي الدمشقي المقرىء المجوِّد (ت ٦٩٣ هـ)، فكمل الذهبي عليه «الجمع الكبير».

قال في ترجمته: «فأتيت إلى الدمياطي، وسألتُه أن يجلس لنا، فأجاب. وجلس للجماعة طرفي النهار بالكلّاسة احتساباً، فشرعنا عليه، فوجدناه ذاكراً للقراءات ذكراً جيداً، قريب العهد بالخلاف، فبلغني أنه كان يتلو القرآن كلَّ ختمة لراوٍ، فلهذا لم يَنْسَ الفن، فكملتُ عليه «الجمع الكبير» أنا وابن بَصْخَان وابن غدير، وأفرد عليه جماعة، ولم تطل مدته، فأدركه الأجل والشيخ شمس الدين الحنفي الزنجيلي يجمع عليه، فلم يكمل الختمة، وأُصيب به، كما أصبتُ بالفاضلي»[(٢)].

وجمع القراءات السبع على الشيخ أبي عبد الله بن جبريل المصري نزيل دمشق، فقرأ عليه ختمة جامعة لمذاهب القراء السبعة بما اشتمل عليه كتاب «التيسير» لأبي عَمْرو الداني، وكتاب «حرز الأماني» لأبي القاسم الشاطبي[(٣)].

---

(١) معرفة القرّاء: ٢/ ٧٢٠ ـ ٧٢١، معجم الشيوخ: ١١٨.

(٢) معرفة القراء: ٢/٧٠٨ ـ ٧٠٩، معجم الشيوخ: ٥١٩، والكلاسة: شارع يقع بجوار الجامع الأموي من جهة الشمال.

(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٦، الدارس: ١/ ٧٨.

وجمع الختمة على شيخ القرّاء ببعلبك محمد بن أبي العلاء النَّصِيبي (ت ٦٩٥ هـ)، فقرأ عليه للسبعة في نحو من خمسين يوماً في سنة (٦٩٣ هـ)[١].

وقرأ بالسبع على الإمام المقرىء النَّحْوي محمد بن منصور الحلبي الحاضِري (ت ٧٠٠ هـ)، وكان شيخ الإقراء بالتربة العادلية، وأحد المتصدرين بها وبالجامع الأموي[٢].

وقرأ ختمة للسبعة ـ أيضاً ـ على مجد الدين أبي بكر بن محمد المُرْسي (ت ٧١٨ هـ). قال الذهبي في ترجمته: «قرأتُ ختمة للسبعة عليه في مدة طويلة، ولم أُشاهد أحداً في القراءات مثله»[٣].

وتلا بالسبع ـ كذلك ـ على شيخ القرّاء إبراهيم بن فَلَاح الجُذامي الاسكندراني (ت ٧٠٢ هـ)[٤].

وفي رحلته إلى مصر قرأ بالاسكندرية على يحيى بن أحمد بن عبد العزيز ابن الصَّوَّاف الجُذامي الاسكندراني (ت ٧٠٥ هـ)، أحد مشاهير القرّاء ومسنِديهم. وقد تعب في قراءته عليه لِصَمَمِه، فيضطر الذهبي لرفع صوته حتى ينقطع، فضلاً عن أنه كان يؤذن له مرة ويمنع أخرى. يقول الذهبي: «رحلتُ إليه، فأُدْخِلْتُ عليه، فوجدتُه قد أضرَّ وأصمَّ، ولكن فيه جلادة وشهامة، وهو في سبع وثمانين سنة، فقرأتُ عليه جزءاً، ورفعت صوتي فسمع، وكلَّمته في أن أجمع عليه السبعة،

---

(١) معرفة القراء: ٢/٦٤٩، ٧١٠، معجم الشيوخ: ٦٠٤.

(٢) معرفة القراء: ٢/٧١١ ـ ٧١٢، معجم الشيوخ: ٥٧٨، وانظر: سير أعلام النبلاء: ٢٠/٣٤٧.

(٣) معرفة القراء: ٢/٧٤٢.

(٤) المعجم المختص: ٦١، وانظر: معجم الشيوخ: ١١٨، معرفة القراء: ٢/٧١٢.

فقال: اشرع. فقرأت عليه الفاتحة، وآيات من البقرة، وهو يردّ الخلاف، ويرد رواية يعقوب وغيره مما قرأ به، فقلتُ: إنما قصدي السبعة فقط، فتخيَّل مني نَقْصَ المعرفة، وقال: إذا أردتَ أن تقرأ عليَّ، فامضِ إلى تلميذي فلان، فاقرأ عليه، ثم اعرض عليَّ! فرأيتُ أن هذا شيء يطول، وزَهَّدَني فيه أني كنت لا أدخل عليه إلا بمشقة، وأُمنع مرة ويُؤذن لي مرة، وأيضاً فكنتُ لا أقرأ ربع حزب جَمْعاً حتى ينقطع صوتي، لمكان صَمَمِه. ثم ظفرتُ بسُحنون المذكور بعد، وقرأت عليه...»[1].

وهكذا فقد خاف الذهبي ضياع الوقت ــ وكان قد حلف لأبيه ألا يقيم في الرحلة أكثر من أربعة أشهر ــ دون تحصيل كبير علم وفائدة، فظفر بالإمام المقرىء عبد الرحمٰن بن عبد الحليم الدُّكَّالي الملقب بسُحنون (ت ٦٩٥ هـ)، فتلا عليه ختمة لورش وحفص.

قال الذهبي في ترجمته: «أدركتُه وهو منقطع قد أُضِرَّ، وضعف، فقرأتُ عليه جزءاً، وسألته فحدثني أنه قرأ بالروايات على أبي القاسم، فشرعتُ عليه في ختمة لوَرْش وحَفْص، فعرضتُها في أحد عشر يوماً»[2].

وعرض ختمة لأبي عَمْرو على محمد بن عبد الكريم التِّبْرِيزيِّ (ت ٧٠٤ هـ) لعلو إسناده[3].

وقرأ ــ أيضاً ــ على محمد بن عبد المحسن المصري الضرير،

---

(١) معرفة القراء: ٦٩٧/٢ ــ ٦٩٨.

(٢) معرفة القراء: ٦٩٤/٢، معجم الشيوخ: ٢٨٩ ــ ٢٩٠، المعجم المختص: ١٠٣.

(٣) معرفة القراء: ٦٩٦/٢، معجم الشيوخ: ٥٢٣.

نزيل دمشق (ت ٧٠٣ هـ). قال الذهبي في ترجمته من «معرفة القراء»: «قرأتُ عليه ختمة للسوسي، وأخرى لنافع ـ أشك: هل فاتني منها شيء من الحواميم ـ ... وشيخي الذي لقنني القرآن كُلَّه من جملة تلامذته»[1].

وسمع «قراءة قالون» على عمر بن عبد المنعم ابن القواس[2].

●● ولم يكتفِ الذهبي بتلاوة القرآن العظيم وعرضه بالقراءات على أئمة الإقراء وأشياخه؛ بل قرأ وسمع جملة طيبة من كتب القراءات والتجويد على شيوخ هذا الفن الهام، منها:

«المبهج» وهو[3] في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار خلف واليزيدي، و«الكفاية في القراءات الست»، كلاهما لعبد الله بن علي البغدادي سبط الخياط. و«القراءات السبعة» لأحمد بن موسى بن العباس الشهير بابن مجاهد. و«التيسير في القراءات» لأبي عَمْرو الداني، و«التجريد في القراءات» لعبد الرحمٰن بن عتيق الفحام. و«الشاطبية في القراءات والرسم» ـ وتسمى: حرز الأماني، والقصيدة ـ للقاسم بن فِيْرُّه الشاطبي. و«الغاية في القراءات العشر» لأحمد بن الحسين بن مِهْران الأصبهاني.

فقرأ «المبهج» و«السبعة» و«الكفاية» على عمر بن عبد المنعم ابن القَوَّاس (ت ٦٩٨ هـ)[4]. وقرأ «التيسير» في مجلس واحد على

---

(١) معرفة القراء: ٢/٧٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧/٢١٤.

(٣) كشف الظنون: ٢/١٥٨٢.

(٤) معرفة القراء: ١/٢٧١، ٣٩٨، ٤٩٦ ـ ٤٩٧، معجم الشيوخ: ٤٠٢، سير أعلام النبلاء: ٢٠/٣٥.

المقرىء الحسن بن عبد الكريم الغُماري (ت ٧١٢ هـ)[١]، وقرأه ـ أيضاً ـ على الفقيه المقرىء المحدث محمد بن جابر الوادي آشي (ت ٧٤٩ هـ) لما قدم إلى دمشق سنة (٧٢٢ هـ)[٢].

كذلك قرأ «التجريد» على الإمام المقرىء المجوِّد أبي بكر بن عمر بن مُشَيَّع (ت ٧١٣ هـ)، فقال في ترجمته: «وجمعت عليه قديماً بعض سورة البقرة، وقرأت عليه كتاب «التجريد» لابن الفحام، وحدثني به تلاوة وسماعاً عن الشيخ عبد الصمد بن أبي الجيش»[٣]. وسمعه من الفقيه يوسف بن الحسن بن عثمان التميمي القابسي ثم الاسكندراني (ت ٦٩٥ هـ)[٤].

وسمع «الشاطبية» من غير واحد، منهم: داود بن يحيى بن داود الدمشقي الحريري (ت ٧١٥ هـ)، وزين الدين محمد بن أحمد ابن القلانسي (ت ٦٩٨ هـ)، وعماد الدين محمد بن يعقوب بن بدران ابن الجرائدي (ت ٧٢٠ هـ)، ومجد الدين أبو بكر بن محمد المرسي (ت ٧١٨ هـ)[٥].

وسمع «نونية السخاوي» في التجويد، وبعض «شرح الشاطبية» له، من شيخه إبراهيم بن داود الفاضلي (ت ٦٩٢ هـ)[٦].

وقرأ «قصيدة لامية في القراءات العشر» لبرهان الدين إبراهيم بن

---

(١) معرفة القراء: ٢/ ٧٣٤.
(٢) معجم الشيوخ: ٤٨٨.
(٣) معرفة القراء: ٢/ ٧٢٦.
(٤) معجم الشيوخ: ٦٥٤.
(٥) معجم الشيوخ: ١٩٢، ٤٧٢، ٥٨٨، معرفة القراء: ٢/ ٧٣٦، ٧٤٤.
(٦) معجم الشيوخ: ١٠٦، المعجم المختص: ٥٤.

عمر الجَعْبري المقرىء (ت ٧٣٢ هـ). قرأها الذهبي على مصنفها[١].

وقرأ «الغاية» على أبي الفضل أحمد بن هبة الله بن عساكر (ت ٦٩٩ هـ)[٢].

●● كذلك قرأ الذهبي مصنفات أخرى في علوم القرآن:

فمن ذلك أنه قرأ كتاب «عدد آي القرآن» لعبد السلام بن علي الزواوي، على المقرىء الفقيه أحمد بن عبد الرحيم ابن النحاس الدمشقي (ت ٧٠١ هـ)[٣].

وسمع كتاب «سجود القرآن» لإبراهيم بن إسحاق الحَرْبي، وكتاب «البسملة» لسُلَيم بن أيوب الرَّازي[٤].

وانتفع بكتابي «المغني» و«الاستبصار» في القراءات للإمام المقرىء محمد بن إسرائيل السُّلَمي. قال الذهبي في ترجمته: «انتفعت بهما كثيراً»[٥].

●● حرصه على العلو في القراءات:

دأب العلماء وبخاصة المحدثين على طلب العلو في السند، وضربوا إليه أكباد المطي، ونجد الذهبي قد حرص على العلو في القراءات، وأشار إلى ذلك في غير موضع من كتبه:

قال في ترجمة عبد العزيز بن علي (ت ٣٨١ هـ) ـ وكان مسنِدَ

---

(١) معرفة القراء: ٢/٧٤٣، معجم الشيوخ: ١١٦.
(٢) معرفة القراء: ١/٣٤٧.
(٣) معرفة القراء: ٢/٧٥٣، معجم الشيوخ: ٤٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٧/٦٠١، ٦٤٧.
(٥) معرفة القراء: ٢/٦٩٩.

القراء في زمانه بمصر ـ : «وهو أعلى مَنْ قرأت القرآن من طريقه»[1].
وفي ترجمة عبد الرحمٰن بن عتيق ابن الفحام (ت ٥١٦ هـ) يقول: «وأعلى ما تلوت كتاب الله تعالى من طريقه»[2].

بل ويفرح بالعلو ويحمد الله عليه، من ذلك ما ذكره في ترجمة إسماعيل بن خلف الأنصاري (ت ٤٥٥ هـ) مصنِّف «العنوان في القراءات» حيث قال: «وقد وقع لي كتاب «العنوان» بسندٍ عالٍ ولله الحمد»[3].

لكن حرصه على صحة السند وثقة رجاله لا يقل عن اهتمامه بالعلو، بل يزيد عليه؛ فالذهبي قد اتخذ لنفسه منهجاً مستقيماً في الرواية والطلب، جمع فيه بين خيرين: العلو، والعدالة والصحة. قال في ترجمة يحيى بن إبراهيم بن أبي زيد ابن البياز الأندلسي المقرىء (ت ٤٩٦ هـ): «وقد وقع لنا سندُه بالقراءات عالياً، وفرحنا به وقتاً، ثم أُوذينا فيه، وبان لنا ضعفُه»[4].

وقد ساق سنده في تلاوة القرآن الحكيم إلى رسول الله ﷺ في ترجمة عاصم بن أبي النجود ـ أحد القرّاء السبعة ـ فقال: «وأعلى ما يقع لنا القرآن العظيم من جهته، فإنني قرأت القرآن كله على أبي القاسم سحنون المالكي، عن أبي القاسم الصفراوي، عن أبي القاسم ابن عطية، عن ابن الفَحَام، عن ابن نفيس، عن السامري، عن الأشناني، عن عُبيد بن الصباح، عن حفص عن عاصم، عن أبي عبد الرحمٰن عن

(١) معرفة القراء: ١/٣٤٧.
(٢) معرفة القراء: ١/٤٧٢، سير أعلام النبلاء: ١٩/٣٨٨.
(٣) معرفة القراء: ١/٤٢٤.
(٤) المرجع السابق: ١/٤٥٠.

علي رضي الله عنه، وعن زِرٍّ عن عبد الله، عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ. فنسأل الله أن يجعله شاهداً لنا وشافعاً»[1].

●● وهكذا فإن الذهبي قد مدّ في مدارك علم القراءات باعاً، وتوغل في مسائله علماً وطباعاً، فأتقن تلاوة كتاب الله تعالى بالسبع والعشر، ورسخت قدمه في فهم دقائق هذا الفن، حتى أصبح إماماً مقرئاً، مجوِّداً متقناً.

وقد بدت عليه أمارات ذلك وهو لا يزال شاباً لم يتعدَّ العشرين من عمره، حين سئل من قبل أحد أشياخه عن غير مسألة في القراءات، فأجاب وأجاد، واحتاز على إعجاب الحاضرين. قال في ترجمة قاضي القضاة محمد بن أحمد بن خليل الخُوَيِّي ثم الدمشقي الشافعي (ت ٦٩٣ هـ): «جلست بين يديه، وسألني عن غير ما مسألة من القراءات، فَمَنَّ الله وأجبتُه، وشهد في إجازتي من الحاضرين، وأجاز لي مروياته». وقال في موضع آخر «... فسألني عن قراءتي ﴿ لَا يَأْمُرَكُمْ ﴾ وعن قوله: ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾، فأجبتُ وعلَّلْتُ، فأعجبه ذلك»[2].

بل إن تميز الذهبي الشاب في القراءات، وبراعته في هذا العلم، جعلت شيخه المقرىء المجود محمد بن عبد العزيز الدمياطي ثم الدمشقي يتنازل له عن حلقته في الجامع الأموي في أوائل سنة (٦٩٣ هـ)، بسبب مرض نزل به أياماً ومات فيه. قال الذهبي في ترجمة شيخه هذا: «حصل له عسر البول أياماً، ومات به. ولما أيس من نفسه

---

(١) المرجع السابق: ١/٩٤.

(٢) معجم الشيوخ: ٤٦٠، المعجم المختص: ٩٣.

نزل لي عن حلقته... توفي في الحادي والعشرين من صفر سنة ثلاث و تسعين وست مئة»[1].

وهكذا فإن الإمام قد تسلم حلقة الإقراء وهو ابن عشرين سنة، وضاهى بحلقته حلق كبار المقرئين بدمشق. بيد أنه لم يدم في هذا المنصب طويلاً، حيث وثب عليها المقرىء محمد بن أحمد بن علي الرقي ثم الدمشقي الحنفي (ت ٧٤٢ هـ)، لما سافر الذهبي إلى بعلبك[2].

وعرف الذهبي بتفوقه في هذا الفن، واشتهر به بين علماء عصره ومَنْ بعدهم:

فوصفه تلميذه الحافظ الحسيني (ت ٧٦٥ هـ) بأنه «قدوة الحفاظ والقراء»[3]. ونعته شيخ القرّاء ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) بأنه «أستاذ ثقة كبير»[4]. وذكره ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢ هـ) بأنه كان «إماماً في القراءات»[5].

ومع هذه البراعة في علم القراءات والتفوق فيه، فإننا نلاحظ أنه لم يتخرج به في هذا الفن إلا القليل، وذلك عائد ـ فيما نحسب ـ إلى أن الذهبي عني به في مطلع حياته العلمية، وماتصدر له إلا وقتاً قصيراً، فضلاً عن أنه في سني عمره التالية صرف جُلَّ وقته، ووجه همته إلى علم الحديث بفنونه المختلفة، والتاريخ والتراجم، طلباً ومطالعة، وتعليماً وتصنيفاً.

---

(١) معرفة القراء: ٢/٧٠٩، معجم الشيوخ: ٥١٩.
(٢) انظر: ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ من هذا الكتاب.
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ: ٣٤.
(٤) غاية النهاية: ٢/٧١.
(٥) الرد الوافر: ٦٧.

وقد ذكر شيخ قرّاء عصره ابن الجزري بعض من أخذ عن الذهبي في هذا المجال، فقال في ترجمته: «ولم أعلم أحداً قرأ عليه القراءات كاملاً، بل شيخنا الشهاب أحمد بن إبراهيم، المنبجي الطحان قرأ عليه القرآن جميعه بقراءة أبي عمرو، والبقرة جمعاً. وروى عنه الحروف إبراهيم بن أحمد الشامي، ومحمد بن أحمد بن اللبان، وجماعة. وسمع منه «الشاطبية» يحيى ابن أبي بكر البوني، وحدث بها عنه في اليمن»(١).

●● **وطبيعي أن نجد الذهبي ـ وهو المصنف المكثر ـ قد ترك آثاراً في هذا الفن، ولكنها قليلة قياساً بمؤلفاته الكثيرة في العلوم** الأخرى، ومردّ ذلك إلى طبيعة علم القراءات، فالمجال فيه ضيق، والإضافة محدودة، وبحسب مشاهير أئمة هذا الفن أن يصنف أحدهم كتاباً جامعاً فيه، كما نرى عند المتأخرين كالبدر الزركشي، وابن الجزري، والسيوطي، وغيرهم.

وقد ترك الذهبي في هذا الفن كتابين: «التلويحات في علم القراءات»، و«معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»، وهذا الأخير في التراجم (٢).

●● **وتبدو شخصية الذهبي في كل علم يجيده واضحة بارزة المعالم، متميزة الخصائص، متفردة المنهج، فما اعتاد أن يكون نقّالاً مقلِّداً، بل إماماً ناقداً، ومصنفاً مبدعاً. وباستقرائنا لكتابه «معرفة القراء» نجد مصداق ذلك في هذا العلم: فله تعليقات ونقدات في القراءات، والاحتجاج بقراءة قارىء ما، وترجيح قارىء على آخر، ومناقشات**

---

(١) غاية النهاية: ٢ / ٧١.

(٢) انظر كلامنا على هذين الكتابين صفحة: ٣٥٩ و٤٩٣ ـ ٤٩٦ من كتابنا هذا.

وردود، وإصدار التقاويم، وغير ذلك؛ مما يدل على إمامته وبراعته في هذا المجال.

●● فمن مناقشاته وردوده وحرصه على اتباع السنة:

قوله في ترجمة شيخه إبراهيم بن داود الفاضلي: «. . . وما أنكرنا عليه شيئاً إلا إقراءَهُ الجماعة وجهاً رابعاً لحمزة في الوقف على مثل «الأرض» و«الآخرة»، وهو تسهيل الهمزة بين بين، فكلمناه وقلنا: هذا لا يجوز، فرجع عنه»[1].

ويقول في ترجمة شيخ القرّاء علم الدين السَّخاوي (ت ٦٤٣ هـ): «قال القاضي في «وفيات الأعيان»: رأيتُهُ مراراً راكباً بهيمة إلى الجبل وحوله اثنانِ وثلاثة يقرؤون عليه دفعة واحدة في أماكن من القرآن مختلفة، وهو يرد على الجميع». ثم يعقب الذهبي على ذلك فيقول: «قلتُ: ما أعلم أحداً من المقرئين ترخَّصَ في إقراء اثنين فصاعداً إلا الشيخ علم الدين، وفي النفس من صحة تحمُّلِ الرواية على هذاالفعل شيء؛ فإن الله تعالى ما جعل لرجل من قلبين في جوفه. ولا ريب في أن ذلك ـ أيضاً ـ خلاف السنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وإذا كان هذا يقرأ في سورة، وهذا في سورة، في آن واحد، ففيه مفاسد. . .»[2].

وفي ترجمته من «سير أعلام النبلاء» يقول: «وكان يترخَّصُ في إقراءِ اثنين فأكثر كل واحدٍ في سورة، وفي هذا خلافُ السُّنَّةِ، لأننا أُمرنا بالإنصاتِ إلى قارىء لنفهمَ ونعقلَ ونتدبَّر»[3].

---

(١) معرفة القراء: ٢/٧٠٤.

(٢) المرجع السابق: ٢/٦٣٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٣/١٢٤.

●● **ولـه تعليقات قيمـة، ونقـدات بـارعـة، وتنبيهـات على «الشواذ»، وما لا تصح القراءة به:**

قال في ترجمة أبي يعقوب يوسف بن عَمْرو الأزرق: «لزم وَرْشاً مدة طويلة، وأتقن عنه الأداء، وجلس للإقراء، وانفرد عن وَرْشٍ بتغليظ اللامات، وترقيق الراءات»[١].

وقال في ترجمة المقرىء الحجة خَلَف بن هشام البَزَّار: «وله اختيارٌ في الحروف صحيح ثابتٌ ليس بشاذّ أصلاً، ولا يكادُ يَخرجُ فيه عن القراءات السَّبْع، وأخذ عنه خَلق لا يُحصون»[٢].

وفي ترجمة المُفَضَّل بن محمد الضبي يقول: «كان من جِلَّة أصحاب عاصم بن بَهْدَلة، قرأ عليه، وتصدَّر للإقراء... قد شذّ عن عاصم بأحرف»[٣].

ويقول في ترجمة المقرىء الجَوَّال يوسف بن علي بن جُبارة الهُذَليّ: «وله أغاليط كثيرة في أسانيد القراءات، وحشد في كتابه أشياء منكرة لا تحل القراءة بها، ولا يصح لها إسناد»[٤].

●● **كذلك له آراء مبثوثة في كتبه في الاحتجاج بقراءة بعض القرّاء:**

ففي ترجمة حمزة بن حبيب الزيات ـ أحد القرّاء السبعة ـ يرد على من أنكر القراءة بها، ويقرر أن الإجماع انعقد على تلقيها بالقبول،

---

(١) معرفة القراء: ١/١٨١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥٧٧ ـ ٥٧٨.

(٣) معرفة القراء: ١/١٣١.

(٤) معرفة القراء: ١/٤٣٣، وكتابه هو «الكامل في القراءات».

وأكد ذلك في غير موضع من كتبه، فمن ذلك قوله: «قد انعقد الإجماع بأَخَرة على تلقّي قراءة حمزة بالقبول، والإنكار على مَنْ تكلم فيها، فقد كان من بعض السلف في الصدر الأول فيها مقال»[1]. وفي ترجمة الإمام الجهبذ عبد الرحمٰن بن مهدي، ذكر الذهبي عنه إنكار القراءة بحرف حمزة، ثم عقب قائلاً: «قلت: جاء نحو هذا عن جماعة، وإنما ذلك عائد إلى ما فيها من قبيل الأداء، والله أعلم، وقد استقر اليوم الإجماع على تلقي قراءة حمزة بالقبول»[2].

وفي قراء يعقوب بن إسحاق الحضرميّ مولاهم البصريّ، الإمام المجوِّد، مقرىء البصرة وأحد القرّاء العشرة، يقول في ترجمته: «وكان يُقْرِىءُ الناسَ علانية بحرفه بالبصرة في أيام ابن عُيينة، وابن المبارك، ويحيى القطّان، وابن مَهْدي، والقاضي أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، ويحيى اليَزيدي، وسُليم، والشافعي، ويزيد بن هارون، وعددٍ كثيرٍ من أئمة الدين؛ فما بلَغَنا بعد الفحص والتنقيب أن أحداً من القُرّاء ولا الفقهاء ولا الصُّلحاء ولا النُّحاة ولا الخلفاء كالرشيد والأمين والمأمون أنكروا قراءته، ولا منعوه منها أصلاً، ولو أنكر أحدٌ عليه لَنُقِلَ ولاشتهر، بل مدحها غيرُ واحد، وأقرأ بها أصحابُه بالعراق، واستمرَّ إمامُ جامع البصرة بقراءتها في المحراب سنين مُتَطاولة، فما أنكر عليه مسلم، بل تَلقّاها الناس بالقَبُول، ولقد عُومِلَ حمزةُ ـ مع جلالتِهِ ـ بالإنكار عليه في قراءته من جماعة من الكبار، ولم يَجْرِ مثل ذلك للحضرميِّ أبداً. حتى نشأ طائفةٌ متأخرون لم يألفوها، ولا عرفوها، فأنكروها، ومن جَهِلَ شيئاً عاداه، قالوا: لم تَتَّصِلْ بنا متواترةً! قلنا: اتصلتْ بخلقٍ كثير متواترةً، وليس من شرط التواتر أن يصل إلى كلٍّ

(١) ميزان الاعتدال: ١/٦٠٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٩/٢٠٨ ـ ٢٠٩، وانظر: ٨/٤٧٣.

الأمة، فعند القُرَّاء أشياءُ متواترة دون غيرهم، وعند الفقهاء مسائل متواترة عن أئمتهم لا يدريها القراء، وعند المحدثين أحاديثُ متواترةٍ قد لا يكون سمعها الفقهاء، أو أفادتهم ظناً فقط، وعند النُّحاة مسائلُ قطعية، وكذلك اللُّغويون، وليس من جَهِلَ علماً حجةً على من عَلِمَه، وإنما يُقال للجاهل: تعلَّم، وسَلْ أهلَ العلم إن كنتَ لا تعلم، لا يُقال للعالم: اجهلْ ما تعلم! رزقنا الله وإياكم الإنصافَ...»[1].

●● وله التفاتات قيمة، ونقدات حصيفة في هذا الفن: كلقاء القارىء قارئاً آخر وسماعه منه، أو عدم ذلك، وترجيح مقرىء على آخر، ورحلة القرّاء أو عدمها، مع تبيان درجة ثقة المقرىء وعدالته، وضبطه وإتقانه، وإصدار التقاويم المنصفة في هذا الباب:

والأمثلة على ذلك منثورة في كتابه القيم «معرفة القرّاء» نشير إلى شُذُورٍ منها:

ففي ترجمة أبي عبد الرحمٰن السُّلَميِّ يقول: «وقول حَجّاج ــ بن محمد ــ عن شُعبة: إن أبا عبد الرحمٰن لم يسمع من عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ ليس بشيء، فإنه ثبت لقيّه لعثمان، وكان ثقة كبيرَ القدر، وحديثه مخرج في الكتب الستة»[2].

وقال في ترجمة يزيد بن القعقاع ــ أحد العشرة ــ: «تصدى لإقراء القرآن دهراً، فورد أنه أقرأ الناس من قَبْلِ وقعة الحَرَّة، حتى قيل: إنه قرأ على زيد بن ثابت، ولم يصحّ»[3].

وقال في ترجمة أبي عَمْرو بن العلاء ــ مقرىء أهل البصرة ــ:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/١٧٠ ــ ١٧١.

(٢) معرفة القراء: ١/٥٤، ٥٧.

(٣) المرجع السابق: ١/٧٢.

«وقيل: إنه قرأ على أبي العالية الرِّياحي، ولم يصحّ، مع أنه أدركه، وأدرك من حياته نيِّفاً وعشرين سنة»[1].

وفي ترجمة عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان الدمشقي المقرىء، يقول: «قال أبو زُرعة الدمشقي: لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمان ابن ذكوان أقرأ عندي منه. وقال الوليد بن عتبة الدمشقي: ما بالعراق أقرأ من ابن ذكوان. قلت[2]: بلَى، أبو عُمر الدُّوري أقرأُ أهلِ زمانِه»[3].

ويقول في ترجمة أبي الحسن بن شَنَبُوذ ـ شيخ الإقراء بالعراق مع ابن مجاهد ـ : «وتهيأ له من لقاء الكبار ما لم يتهيأ لابن مجاهد، وقرأ بالمشهور والشاذ... وكان ثقة في نفسه صالحاً ديّناً، متبحّراً في هذا الشأن، لكنه كان يَحُط على ابن مجاهد، ويقول: هذا العَطَشِيّ لم تغبرَّ قدماه في طلب العلم، يعني أنه لم يرحل من بغداد، وليس الأمر كذلك، قد حجَّ وقرأ على قُنْبُل بمكة»[4].

ومن تقاويمه للقراء، وتبيان محلّهم وعنايتهم بالفن، ورحلاتهم فيه، وثقتهم وضبطهم، وإتقانهم قراءة ما دون غيرها، أو أكثر من قراءة، نذكر بعض الأمثلة:

يزيد بن القعقاع: «أبو جعفر القارىء، أحد العشرة، مدني مشهور، رفيع الذِّكر».

حمزة بن حبيب الزيات: «كان إماماً حجة، قيِّماً بكتاب الله

---

(١) معرفة القراء: ١/١٠١.

(٢) القائل هو الذهبي.

(٣) معرفة القراء: ١/١٩٩.

(٤) المرجع السابق: ١/٢٧٦ ـ ٢٧٧.

تعالى، حافظاً للحديث، بصيراً بالفرائض والعربية، عابداً خاشعاً قانتاً لله، ثخين الورع، عديمَ النظير».

سُليم بن عيسى بن سُليم بن عامر: «المقرىء، صاحبُ حمزة الزَّيَّات، وأخصُّ تلامذته به، وأحذقُهم بالقراءة، وأقومُهم بالحرف، وهو الذي خلف حمزة في الإقراء بالكوفة».

عثمان بن سعيد وَرْش: «وكان ثقة حجة في القراءة».

أبو عُمر الدُّوري: «مقرىء الإسلام، وشيخ العراق في وقته... وطال عمره، وقُصِدَ من الآفاق، وازدحم عليه الحُذَّاق، لعلوّ سَنَدِه، وسعة علمه».

قتيبة بن مِهْرَان الأزاذاني: «المقرىء، صاحب الإمالة... وإليه انتهت رياسة الإقراء بأصبهان، وله إمالات مزعجة معروفة».

محمد بن الحسن بن يعقوب البغدادي: «كان من أحفظ أهل زمانه لنحو الكوفيين، وأعرفهم بالقراءات، مشهورها وغريبها وشاذِّها».

الحسن بن سعيد المُطّوعي: «... وكان أحد من عُنِيَ بهذا الفن، وتبحَّر فيه، ولقي الكبار، وأكثر الرحلة في الأقطار».

مسافر بن الطيب: «كان بصيراً بقراءة يعقوب، حافظاً لها، عالي الإسناد».

خازم بن محمد بن خازم المخزومي القرطبي: «... وتصدَّر للإقراء والتسميع، وطال عمره، وبَعُدَ صيتُه، إلا أنه ضعيف».

عبد الهادي بن عبد الكريم القيسي المصري: «... ولم يكن بالماهر في القراءات».

محمد بن منصور الحاضِري: «... وكان متوسط المعرفة في القراءات».

عبد الواحد بن كثير المصري ثم الدمشقي: «قرأ القراءات على الشيخ علم الدين السخاوي، وتَرَكَ ونَسِيَ».

رشيد الدين إسماعيل بن عثمان الحنفي: «قرأ بالروايات على السَّخَاوي، ولو أراد لما عجز عن إقرائها، كان إماماً في العربية، لكنه كان ضَيِّقَ الخُلق، فلم يُقْدَر على الأخذ عنه، واعتلَّ بأنه تارك».

محمد بن يعقوب بن بدران ابن الجرائدي: «قرأتُ عليه «الشاطبية» بسماعه من الكمال وغيره، وكان حافظاً لها، ناسياً للقراءات، كثيرَ الدعاوي»[1].

أبو بكر محمد بن الحسن النَّقَّاش المفسر شيخ القرّاء: «قد اعتمد الداني في «التيسير» على رواياته للقراءات، فالله أعلم! فإن قلبي لا يَسْكُن إليه، وهو عندي متَّهم، عفا الله عنه»[2].

الحسن بن علي بن إبراهيم أبو علي الأهوازي: «كان رأساً في القراءات، مُعَمَّراً، بعيدَ الصيت، صاحبَ حديثٍ ورحلةٍ وإكثار، وليس بالمُتقن له ولا المجوِّد، بل هو حاطبُ ليلٍ، ومع إمامته في القراءات فقد تُكُلِّمَ فيه وفي دعاويه تلك الأسانيدَ العالية»[3].

---

(١) انظر في كل ما سبق ذكره: معرفة القراء: ١/٧٢، ١١٢، ١٣٨، ١٥٣، ١٩١، ٢١٢ ـ ٢١٣، ٣٠٧، ٣١٧، ٤٠١، ٤٤٦، ٢/٦٦٣، ٧١٢، ٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٦، على الترتيب.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٥/٥٧٦.

(٣) المرجع السابق: ١٨/١٣. وانظر معرفة القراء: ١/٤٠٢.

وله في القراء تقويم عام ينبىء عن إنصافه وتحرِّيه، ودقة فهمه، وبعد نظره، ورسوخ قدمه في علم الجرح والتعديل:

ففي ترجمة شيخ المقرئين أبي عُمر الدُّوري يقول: «وقال الحاكم: قال الدَّارَقُطْنِيُّ: أبو عمر الدوري، يقال له: الضرير، وهو ضعيف». فيعقّب الذهبي قائلاً: «وقول الدارقطني: ضعيف، يريدُ في ضبط الآثار، أما في القراءات فَثَبْتٌ إمام. وكذلك جماعة من القُرَّاء أثباتٌ في القراءة دونَ الحديث، كنافعٍ، والكسائيِّ، وحَفْصٍ، فإنهم نهضُوا بأعباءِ الحروف وحرَّرُوها، ولم يصنَعُوا ذلك في الحديث، كما أنَّ طائفةً من الحفاظ أتقنوا الحديث، ولم يُحْكِمُوا القراءة. وكذا شأن كل من برَّز في فنٍّ، ولم يَعْتَنِ بما عداه. والله أعلم»[1].

●●●

ثانياً ــ الذهبي المحدِّث الجِهْبِذ

طلبه الحديث: بدت على الإمام الذهبي ــ منذ يفاعه ــ أمارات التفوق، وظهرت فيه مخايلُ النبوغ؛ مما حدا برفيقه وشيخه الحافظ البِرْزالي أن يحثه على طلب الحديث والعناية به، وهذا ما عبّر عنه الذهبي بقوله: «وهو الذي حبَّبَ إليَّ طلب الحديث، فإنه رأى خطي، فقال: خطك يشبه خط المحدثين؛ فأثّر قوله فيَّ، وسمعتُ منه، وتخرجت به في أشياء»[2].

وتوجه الإمام منذ الثامنة عشرة من عمره إلى طلب الحديث، ومال إليه، حتى طغى على تفكيره، واستغرق جُلَّ وقته، فرحل رحلات كثيرة،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥٤٣/١١.

(٢) فوات الوفيات: ١٩٧/٣ ــ ١٩٨، الدرر الكامنة: ٢٣٨/٣ ــ ٢٣٩.

واسعة مفيدة، وعني بهذا الشأن، وتعب فيه، ودار على الرواة، ولقي الجمّ الغفير من الشيوخ والشيخات، فسمع منهم، وقرأ عليهم، وسألهم واستفاد منهم، وبحث عليهم، وذاكرهم، وسمع ما لا يحصى كثرة من الكتب الكبار، والأجزاء الصغار، والمجاميع والفوائد، والمعاجم والمشيخات[1].

واستمر في خوض بحار الحديث وعلومه حتى أيامه الأخيرة، طلباً ومطالعة، وتدريساً وتصنيفاً، بنفس تواقة، وقلب واعٍ، وذهن وقّاد، وحافظة نادرة، ومنهج فريد.

●● وأخذ عن جميع طبقات أهل العلم، ولم يألُ جهداً في السماع ممن له أدنى معرفة، أو عنده شيء من علم. ويغتنم كل سانحة، ويستفيد مِن كل مَن يلقاه، فيأخذ عمن قدم عليهم دمشق، أو رافقه في الرحلة، أو التقى به في البقاع المقدسة عندما حجَّ. بل إنه أصيب بالشَّرَه في سماع الحديث، فسمع من أُناس لا تُحمد سيرتهم، ولا يرضى هو عنهم، كما صرّح هو نفسه بذلك:

قال في ترجمة عبد الرحمٰن بن أحمد الصالحي الحداد: «وروى لنا عن ابن عبد الدائم، إلا أنه لا ينبغي الرواية عنه. حكوا لي عنه مصائب، والله يصلحه المسكين»[2].

وقال عن شيخه محمد بن أيوب بن مكارم ابن النحاس: «هو ممن سمعنا منه، ولا تحل الرواية عنه أصلاً... اتحادي مجاهر! حدثني الحافظ الصلاح والتاج ابن السكاكري عنه بعظائم وزندقة»[3].

---

(١) انظر «الفصل الثالث» من هذا الكتاب.

(٢) معجم الشيوخ: ٢٨٥.

(٣) معجم الشيوخ: ٤٨٥.

وذكر شيخه محمد بن نصر الله بن عبد المنعم المعمر الكاتب بأنه: «كان الكِبْر والكِبَر عليه لائحاً، تقلّب في الخدم المباحة والمذمومة، وفيه زَعَارَّة وقوة نفس»[1].

وقال عن شيخه محمود بن يحيى التميمي الدمشقي: «كان سيىء الحال، سفيهاً، قرأ لنا عليه شيخنا أبو محمد البرزالي»[2].

والذي حمله على الرواية عن مثل هؤلاء ما قاله في ترجمة شيخه علي بن مظفر بن إبراهيم الاسكندراني ثم الدمشقي ـ شيخ دار الحديث النفيسية ـ: «ولم يكن عليه ضوء في دينه، حملني الشَّرَهُ على السماع من مثله، واللَّهُ يسامحه كان يخلُّ بالصلوات، ويُرمى بعظائم»[3]!

بل إن حبه للحديث قد حمله على أن يقرأ على الصمِّ بأعلى صوته، ويسعى للأخذ عن الشيخ ولو كان عَسِراً في الرواية، وربما مُنع من القراءة على أحدهم، فلا يصدّه ذلك عن الصبر وتحمُّلِ المصاعب:

قال في ترجمة شيخه محمود بن محمد الصالحي الخرائطي الأصمّ: «قرأت عليه بأقوى صوتي في أذنه ثلاثة أحاديث»[4].

وذكر في ترجمة شيخه أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن بدران الدَّشْتي الكردي أنه «كان فيه تعاسر، وطلب من المحدثين». وقال: «أكثرنا عنه على عَسَارَتِه»[5].

وقال في ترجمة عبد الرحمٰن بن محمد بن علي المفتي المكي

---

(١) المرجع السابق: ٥٨٠.

(٢) المرجع السابق: ٦١٤.

(٣) معجم الشيوخ: ٣٩٠، المعجم المختص: ١٧٨.

(٤) معجم الشيوخ: ٦١٢.

(٥) معجم الشيوخ: ٧٩، المعجم المختص: ٣٦.

الشافعي: «أتيتُ منزله، وطلبتُ السماع منه، فمنع عليَّ، وما خرج إليَّ، وقد كان أجاز لي مروياته قديماً...»[1].

●● واهتم بعلم الحديث، واعتنى به عناية لا مزيد عليها، وصرف له وقته وفكره وروحه، وطلب العالي والنازل، وحرص على سماع الكتب الستة والأمهات قبل غيرها.

قال في ترجمة الإمام البخاري: «وأما «الصحيحُ» فهو أعلى ما وقع لنا من الكتب الستة في أول ما سمعتُ الحديث، وذلك في سنة اثنتين وتسعين وست مئة[2]. فما ظنُّكَ بعلوِّه اليومَ، وهو سنة خمس عشرة وسبع مئة؟! لو رحلَ الرجلُ من مسيرة سنةٍ لسماعه لما فَرَّط!!»[3].

وكان قد فاته سماع جزء من «صحيح البخاري»، فحرص على سماع هذا الفَوْت، كما ذكر في ترجمة شيخه عبد الله بن محمد بن نصر الرصافي ثم الدمشقي، فقال: «وهو من شيوخنا في صحيح البخاري، مات ساجداً في ذي القعدة سنة خمس وتسعين وست مئة. قرأت عليه فَوْتاً مقدار أربع كراريس من «البخاري» في المجلد الرابع»[4].

●● كذلك فإنه حرص على علو الإسناد، وكثرة الطرق، والرواية عن أشياخ كثيرين في الحديث الواحد. فلقد كان أئمة الحديث المتقدمون يطلبون علو الإسناد، ويحرصون عليه، ويرغبون فيه، ويرحلون من أجله، لأنه أبعد عن الخطأوالعلة من الإسناد النازل. لذا فإن الذهبي كان يحرص على العلو، ويتجشم الصعاب لتحصيله،

---

(١) معجم الشيوخ: ٣٠٧.

(٢) أي أن الذهبي سمع «صحيح البخاري» وعمره (١٩) سنة.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٠٠.

(٤) معجم الشيوخ: ٢٧٣.

ويفرح بحصوله، ويحمد الله تعالى عليه. والأمثلة على هذا كثيرة مبثوثة في كتبه، وبخاصة معاجمه وسير أعلام النبلاء.

من ذلك أنه ساق بسنده حديث: (مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآنَ كمثلِ الأُتْرُجَّة...) وقال: «متفق عليه، وقد أخرجه مسلم والترمذي عن قُتيبة، فوافقناهما بعلوِّ درجةٍ، مع اتصال السَّماع، ولله الحمد»(١).

وفي ترجمة الليث بن سعد الإمام العَلَم، جاء قول الذهبي: «ولقد كتبتُ نسخةَ أبي الجَهْم من بضع وثَلاثين سنة فَرَحاً بعلوِّها في ذلك الوقت، وسمعتُها من ستين شيخاً، وهي الآن مرويّةٌ بالسَّماع. ولو رحل اليومَ الطالبُ من مسيرة ألف فرسخ لإدراكها، وغرِمِ مئة دينار؛ لكان له الحظّ الأوفر، نعم»(٢)!!

وكان يتحسَّر على ما قد يفوته من العلو، وهذا ما نلمحه في قوله في ترجمة الحافظ أبي عبد الله ابن منده: «واستوفينا ذكرَ أبي عبد الله في «كتاب آل منده»، ولقد كنتُ أتحسَّر على لقيّ العلامة نجم الدين أبي عبد الله بن حمدان في سنة أربع وتسعين، لأجل علوِّ حديث ابن منده عنده، ولم يقع لي بالاتصال»(٣).

وقال في ترجمة الإمام البخاري من «تاريخ الإسلام»: «وأما جامعه الصحيح فأجلّ كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى. وهو أعلى شيء في وقتنا إسناداً للناس، ومن ثلاثين سنة يفرحون بعلُوِّ سماعه، فكيفَ اليوم؟! فلو رحل الشخصُ لسماعه من مسيرة ألف فَرْسخٍ لما

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣٩٤/١٦.

(٢) تاريخ الإسلام (وفيات: ١٧١ ـ ١٨٠) ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١٠٣٥/٣.

ضاعتْ رحلتُـه. وأنا أدري أن طائفة من الكبار يستقلُّون عقلي في هذا القول، ولكن:

ما يعرفُ الشوقَ إلاَّ مَنْ يكابدُهُ   وَلاَ الصَّبـابَـةَ إلاّ مَنْ يُعَـانيهـا

ومَنْ جهلَ شيئاً عاداه، ولا قوة إلا بالله»[1]!!

بيد أن حرصه على ثقة الرواة في عواليه لم يكن بأقل من حبِّه للعلو وفرحه به، لذا نجده عندما يسوق بعضاً مما وقع له عالياً ينقد سنده، ويعلن عدم فرحه به إن كان ثَمَّةَ راوٍ ضعيف أو متروك في سنده:

ففي ترجمة يحيى بن هاشم الغساني الكوفي السمسار يقول: «يقع لي حديثه عالياً في جزء ابن نُجيد، وأظن في «الغَيْلَانيّات»؛ إلا أنه لا يُفرح به، لأنه ساقطُ الرواية متَّهم»[2].

وساق «حديثاً ثمانياً» له من طريق عثمان بن خطاب قال: سمعتُ علياً رضي الله عنه، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ كَذَبَ علي متعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَه من النار). ثم قال الذهبي: «هذا حديث غير صحيح بهذا السند، وعثمان هو أبو الدنيا الأشَجّ كذّاب. وهو ثمانيٌّ لنا». وذكره أيضاً في «التذكرة» ثم قال: «هذا مما لا أفرحُ بعلوِّه، لعلمي بأن هذا الكذّاب ــ يعني عثمان ــ ما رأى علياً رضي الله عنه أصلاً، ولا والله ما رأى من رآه»[3].

---

(١) تاريخ الإسلام (وفيات: ٢٥١ ــ ٢٦٠) ص ٢٤٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/١٦٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٦/٢٧٠ ــ ٢٧١، تذكرة الحفاظ: ٣/٩٨٠. وعثمان بن خطاب هذا حدَّث بعد الثلاث مئة عن علي بن أبي طالب، وادَّعى بقلة حياء أنه سمع منه. انظر: ميزان الاعتدال: ٣/٣٣، لسان الميزان: ٤/١٣٥. وأما الحديث فقد رواه من طريق آخر عن علي البخاريُّ ومسلم في المقدمة والترمذي. وهو حديث متواتر رواه غير واحد من الصحابة.

وأغلب ما يقع له من العوالي «أحاديث تساعيات»، بينه وبين رسول الله ﷺ تسعة أنفس: منها ما ذكره في ترجمة شيخه مسند العصر علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي الصالحي، فقال: «أخبرنا علي بن أحمد إجازة سنة ثلاث وسبعين ــ وست مئة ــ أنا عمر بن محمد. . . عن أنس عن النبي ﷺ أنه عرضت له امرأة في الطريق ومعه ناس من أصحابه، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: يا أم فلان، اجلسي في أي نواحي السكك شئتِ أجلس إليك. ففعلتْ، فجلس إليها، حتى قضى حاجتها». هذا حديث تساعي أخرجه أبو داود»[1].

وفي ترجمة الحافظ أبي يعلى الموْصِليّ ــ صاحب المسند العظيم ــ ساق الذهبي حديثاً تساعياً من طريقه عن الهِرْماسِ بن زياد قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يوم العيد الأضحى يخطبُ على بعيرٍ».

قال الذهبي: «هذا حديث حسن عالٍ جداً، تُساعيٌّ لنا»[2].

وقد ساق في كتابه «سير أعلام النبلاء» وغيره أحاديث كثيرة جداً من عواليه، ويستعمل ألفاظاً متقاربة للدلالة على ذلك، كقوله: وقع لي حديثه بعلو، هذا أعلى ما يقع لنا عنه، ومن عالي ما يقع لنا من حديثه، وقع لي الكثير من عواليه، وقع لنا عالياً جداً. . . ونحو ذلك[3].

وأما حرصه على تكثير طرق الحديث، ورواية الحديث الواحد

---

(١) معجم الشيوخ: ٣٥٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ١٨١. وانظر «أحاديث تساعيات» أخرى، مثلاً في: معجم الشيوخ: ٤٩٧ وميزان الاعتدال: ٤/ ٤٥٩، سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٤٨٠، ٢٠/ ٤٣٢.

(٣) وقد جمعتُ منها جملة طيبة، تركتُ ذكرها والإشارة إليها خشية الإطالة.

عن أشياخ كثيرين، فيتضح بالتمعن في «معجم الشيوخ» و «المعجم المختص»، فمن الأمثلة:

روى حديث أنس عن النبي ﷺ قال: (كتابُ اللّهِ القصاص)، عن «١٢٦» شيخاً. وحديث العرباض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اللّهم علِّم معاويةَ الكتابَ والحسابَ، وَقِهِ العذابَ)، عن نيِّفٍ وسبعين شيخاً. وحديث سلمة بن الأكوع قال: قال النبي ﷺ: (مَنْ ضحَّى منكم فلا يُصْبِحَنَّ بعد ثالثة وفي بيته منه شيء). فلما كان العام المقبل قالوا: يا رسول الله، نفعلُ كما فعلنا في العام الماضي؟ قال: (كُلوا، وأَطْعِمُوا، وادَّخِروا، فإن ذلك العام كان بالناس جَهْدٌ فأردتُ أن تعينوا فيها)، رواه عن أكثر من «١٣٠» شيخاً. وروى حديث البطاقة من طريق ابن عمر رضي الله عنهما، عن (١١٢) شيخاً[1].

وقد علم الذهبي أن العمدة في علم الحديث هي معرفة صحيح الحديث وسقيمه، وعلله، واختلاف طرقه، ورجاله جرحاً وتعديلاً، وأما العالي والنازل ونحو ذلك فليس من الأصول المهمة. وهذا ما تميز به الذهبي، فتمكن من هذا العلم العزيز غاية التمكن: فنبغ في معرفة الرجال، وأحوال الرواة، والجرح والتعديل، ونقد الأسانيد، ومعرفة المتفِق والمفترِق، والمؤتلِف والمختلِف، فَجَرَّحَ وعـدَّل، وصحَّح وعلَّل، وفَرَّع وأصَّل، واستدرك على الكبار، وخالف الأئمة بالحجة والبرهان، حتى دخل في كل باب من أبواب علم الحديث كما قال التاج السبكي. وغدا علم الأعلام، وحافظ الزمان، وحامل لواء الإسناد، نسيج وحده، وعمدة من جاء بعده.

(١) المعجم المختص: ١٨٦ ـ ١٨٩، معجم الشيوخ: ١٢٠ ـ ١٢٢، ٢٢٢ ـ ٢٢٥، ٥٣٥ ـ ٥٣٩، على الترتيب.

ومن أبرز صفاته أنه لم يكن عنده جمود المحدثين، ولا تقليد النَّقَلَة، بل كان فقيه النظر، عميق الفكر، متوقد الذكاء، صافي القريحة، متفرد الشخصية، مستقل المنهج، حريصاً على صحة ما ينقله، ونقد ما خالف الصواب، فلا يكاد يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن أو ظلام إسناد، وقَلَّ أن يغادر سنداً في بعض رواته كلام إلا بيَّنه بما يشفي الصدر. حتى أصبح ذلك المنهج علماً عليه، وعرف هو بتفوقه وتميزه فيه، فكان ـ بحق ـ ذهبياً ينفي عن الحديث شوائبه وما يكدِّر رواءه.

ولنلق الضوء على بعض نواحي هذا الجانب في شخصية الذهبي المحدث:

●● إن من أبرز جوانب شخصيته العلمية معرفته الواسعة الراسخة بالرجال:

وسبب ذلك عائد إلى أنه خلّف آثاراً ضخمة في هذا المجال، حيث اختصر كتباً كبيرة متخصصة بتاريخ الرجال وأنسابهم، كما ألف كتباً كثيرة أخرى من أعظمها «تاريخ الإسلام» و«تذكرة الحفاظ» و«سير أعلام النبلاء». وهذه المعرفة الرجالية الواسعة جعلته يقف بالتفصيل على كل ما يتعلق برجال الحديث، حتى أضحى ـ كما وصفه تلميذه التاج السبكي ـ : «شيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جُمعت الأمة في صعيد واحد، فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها».

ولم يكن الذهبي يصدر رأيه اتباعاً لآراء الآخرين، بل قد يخالفهم في بعض الأحايين إذا لم يجد لآرائهم مستنداً قوياً، أو رأى تعنُّتاً أو خطأً، أو كان الجرح بسبب الخلاف المذهبي، أو من قبيل كلام الأقران، أو نحو ذلك. وقد طفحت كتبه بهذا، وبخاصة كتابه العظيم «ميزان الاعتدال». ومن أمثلة ذلك:

«الحسين بن ذكوان المعلم: أحد الثقات والعلماء، ضعفه العُقيلي بلا حجة».

«حفص بن ميسرة الصنعاني: . . . قال الأزدي: يتكلمون فيه. قلت[1]: بل احتج به أصحاب الصحاح، فلا يُلتفت إلى قول الأزدي».

«عبد الله بن داود الواسطي التمار: قال البخاري: فيه نظر، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: ليس بقوي. قال ابن عدي: هو ممن لا بأس به إن شاء الله. قلتُ: بل كل البأس به، ورواياته تشهد بصحة ذلك».

«عمر بن محمد بن المنكدر: قال الأزدي: في القلب منه شيء. قلتُ: احتج به مسلم، فليسكن قلبك».

«يونس بن يزيد الأَيْلي، صاحب الزهري: ثقة حجة، شَذَّ ابنُ سعد في قوله: ليس بحجة، وشذ وكيع فقال: سَيِّء الحفظ»[2].

وقال في ترجمة أبي الزِّناد عبد الله بن ذَكْوان: «وروى الليث بن سعد عن ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن قال: أما أبو الزناد فليس بثقة ولا رضي. قلتُ: انعقد الإجماع على أن أبا الزِّناد ثقة رضي»[3].

وقال في ترجمة خالد بن مِهْرَان المشهور بالحَذَّاء: «قال يحيى بن آدم: حدّثنا عبد الله بن نافع القرشي أبو شهاب قال: قال لي شعبة: عليك بحَجَّاج بن أَرطاة ومحمد بن إسحاق فإنهما حافظان. واكتُم عليَّ

---

(١) القائل هو الذهبي، وكذا في كل النصوص التي أنقلها، إلا إذا نبهتُ على خلاف ذلك.

(٢) انظر هذه الأمثلة في: ميزان الاعتدال: ١/٥٣٤، ٥٦٩، ٢/٤١٥ ــ ٤١٦، ٣/٢٢٢، ٤/٤٨٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٥/٤٤٩.

عند البصريين في خالد الحذّاء، وهشام يعني ابن حسان. قلت هذا الاجتهاد من شعبة مردود، لا يُلتفت إليه! بل خالد وهشام محتجّ بهما في «الصحيحين»، هما أوثق بكثير من حجاج وابن إسحاق...»[1].

ويقول في ترجمة عاصم بن علي بن عاصم: «وقد جرحه يحيى بن مَعين، والصواب أنه صدوق كما قال أبو حاتم»[2].

وفي ترجمة عثمان بن عمر بن فارس العبدي البصري، ساق توثيقه عن جملة أئمة، ثم قال: «وقال أبو حاتم: صدوق، كان يحيى بن سعيد لا يرضاه. قلتُ: يحيى بن سعيد كثير التَّعنُت في الرجال، وإلا فعثمانُ بن عمر ثقة، ما فيه مَغْمز»[3].

وقال في ترجمة الحارث بن محمد بن أبي أسامة ـ صاحب المسند المشهور ـ: «وقال أبو الفتح الأزدي: هو ضعيف، لم أرَ في شيوخنا من يحدِّث عنه. قلت: هذه مُجازفة، ليت الأزدي عرف ضَعْفَ نفسِه»[4]!

وقال في ترجمة المحدث أبي مسلم عمر بن عليٍ اللَّيْثِيّ: «وقال أبو زكريا بن منده: هو أحد من يدَّعي الحفظ، إلا أنه يدلِّس، ويتعصَّبُ لأهل البدع، أحولُ، شَرِهٌ، كلما هاجت ريح قام معها، صنّف «مسند الصحيحين». قلتُ: آلُ منده لا يُعبأ بقَدْحِهِم في خصومهم، كما لا نَلتفتُ إلى ذمٍّ خصومهم لهم، وأبو مسلم ثقةٌ في نفسه»[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/١٩١.

(٢) المرجع السابق: ٩/٢٦٣.

(٣) المرجع السابق: ٩/٥٥٨.

(٤) المرجع السابق: ١٣/٣٨٩.

(٥) المرجع السابق: ١٨/٤٠٨.

وقد مارس الذهبي هذا النهج في «الجرح والتعديل» في كل كتبه، وبخاصة تلك التي وضعها للتاريخ والتراجم، أو للتراجم حسب. ولا يتسع المجال لأكثر من إشارات دالة كافية في تحقيق المراد.

●● **وله عبارات محددة وألفاظ معبرة دالة على الجرح والتعديل، ساقها في مقدمة كتابه «ميزان الاعتدال»**، كقوله: «فأعلى العبارات في الرواة المقبولين: ثبت حجة، وثبت حافظ، وثقة متقن، وثقة ثقة، ثم ثقة صدوق، ولا بأس به و . . . وصدوق إن شاء الله، وصويلح، ونحو ذلك. وأَرْدى عبارات الجرح: دجال كذاب، أو وَضَّاع يضع الحديث، ثم متَّهم بالكذب، ومتفق على تَرْكِه، ثم متروك ليس بثقة. . . لِّين، سيِّىء الحفظ، لا يحتج به، اختلف فيه. . .»[1].

وقد كان الذهبي دقيقاً في تقويم الرجل، ووضع لفظ الجرح أو التعديل المناسب له، المكافىء لدرجته ومكانته، فمن ذلك:

«محمد بن الحسن بن محمد بن زياد: هو صدوق، أخطأ في حقه مَنْ كذَّبه، ولكن ما هو بعُمدة»[2].

«هشام بن عمار السُّلمي المقرىء: صدوق مكثر، له ما يُنكَر»[3].

«أبو بكر محمد بن أحمد الجَرْجَرَائي المُفيد: . . . قال الماليني: كان المفيد رجلاً صالحاً. قلتُ: لكنه متّهم»[4].

وقال في ترجمة أبي عبد الرحمٰن السلمي الحافظ الزاهد: «وصنَّف وجَمَعَ، وسارت بتصانيفه الركبان، حمل عنه القشيري والبيهقي

---

(١) ميزان الاعتدال: ١/٤.

(٢) ميزان الاعتدال: ٣/٥٢١.

(٣) المرجع السابق: ٤/٣٠٢.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٣/٩٧٩.

وأبو صالح المؤذن. . . وخلق سواهم، إلا أنه ضعيف»[1].

وذكر في ترجمة ابن الجَدّ محمد بن عبد الله بن يحيى اللَّبْلِيّ الإشبيلي أنه «لم يكن يدري فنَّ الحديث، لكنه عالي الإسناد فيه»[2].

وترجم للحافظ البَنْدَنِيجيّ فقال: «وكتب العالي والنازل، وبالغ عن غير إتقان»[3].

●● وقد تكاملت عند الذهبي كل مناحي «علم الجرح والتعديل»، وأتقن كل أدواته، وبرع في جميع فروعه، وغاص في بحره اللُّجّي، فاستنبط ذخائره، وأبرز مكنوناته، وأظهر جواهره ولآلئه؛ كالتنبيه على أصحاب البدع أو تبرئتهم من ذلك، وتقسيم البدع إلى كبرى وصغرى، والبدع التي لا تجرح، والاحتجاج برواية الرافضة أو عدمه، وأهل البدع ورواياتهم في الصحيحين وغيرهما، والتنبيه على من يشذ في الجرح أو التعديل، أو يتساهل أو يتعنت، وتبيان الجرح المردود غير المفسَّر، ورأيه في كلام الأقران بعضهم ببعض، وغير ذلك.

والأمثلة على هذا تفوت الحصر، وهي مبثوثة في كتبه النافعة الماتعة، أشير إلى شذرات منها تفي بالغرض:

ـ ففي التنبيه على أصحاب البدع أو تبرئتهم:

«عيسى بن مهران المستعطف: . . . رافضي، كذاب جبل»[4].

---

(١) المرجع السابق: ٣/١٠٤٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١/١٧٨.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢/٦٤.

(٤) ميزان الاعتدال: ٣/٣٢٤.

«محمد بن جُحَادة: من ثقات التابعين، أدرك أنساً، إلا أن أبا عوانة الوضاح قال: كان يغلو في التشيع. قلت: ما حفظ عن الرجل شَتْمٌ أصلًا؛ فأين الغلوّ»[1]؟

«يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني الكوفي الحافظ: ... قلت: إلا أنه شيعي بغيض. قال زياد بن أيوب: سمعت يحيى الحِمّاني يقول: كان معاوية على غير ملة الإسلام! قال زياد: كذب عدو الله»[2].

«أبو حيان التوحيدي: ... صاحب زندقة وانحلال»[3].

وفي ترجمة الحافظ الصادق هُدْبة بن خالد، نقل كلامه في شعبة بأنه كان مرجئاً، ثم عقَّب الذهبي بقوله: «قلت: كلا، لم يكن شعبة مرجئاً، ولعلّه شيء يسير لا يضرُّه»[4].

وقسم البدعة إلى ضربين:

«فبدعةٌ صغرى: كغلوِّ التشيع، أو كالتشيُّع بلا غلوّ ولا تحرُّف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والوَرَع والصدق. فلو رُدَّ حديثُ هؤلاء لَذَهَبَ جملةٌ من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيِّنة. ثم بدعة كبرى؛ كالرَّفْضِ الكامل والغلوّ فيه، والحَطِّ على أبي بكر وعُمر رضي الله عنهما، والدعاء إلى ذلك؛ فهذا النوعُ لا يُحتجُّ بهم ولا كَرامة. وأيضاً فما أستحضرُ الآن في هذا الضَّرْب رجلًا صادقاً ولا مأموناً، بل الكذِبُ شعارُهم، والتقية والنفاق دِثارُهم، فكيف يُقْبَلُ نَقْلُ مَنْ هذا حاله؟! حاشا وكلّا...»[5]!!

ومن البدع التي لا تجرح: القول بالقدر: قال الذهبي في ترجمة

(١، ٢، ٣) ميزان الاعتدال: ٣/٤٩٨، ٤/٣٩٢، ٥١٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١١/٩٩.

(٥) ميزان الاعتدال: ١/٥ ـ ٦.

المحدث الثقة عبد الحميد بن جعفر. «قال ابن معين: كان عبد الحميد ثقةً، يُرْمى بالقَدَرِ. قلتُ: قد لُطِخَ بالقَدَر جماعةٌ، وحديثُهم في «الصحيحين»، أو أحدهما، لأنهم موصوفون بالصِّدق والإتقان»[1].

ومن تنبيهاته القيمة على من يشذ في الجرح أو التعديل، والجرح المردود:

ما جاء في ترجمة يحيى بن عبد الله بن بُكير، الذي احتجَّ به الشيخان، لكن النَّسائي ضعَّفه، قال الذهبي: «كان غزيرَ العلم، عارفاً بالحديث وأيام الناس، بصيراً بالفتوى، صادقاً دَيِّناً، وما أدري ما لاح للنَّسائي منه حتى ضعَّفه، وقال مرةً: ليس بثقة. وهذا جَرْحٌ مردود، فقد احتجَّ به الشيخان، وما عَلمتُ له حديثاً مُنكراً حتى أُورِدَه»[2].

وقال في ترجمة المحدث الثقة طالوت بن عبَّاد: «قال أبو حاتم: صدوق. فأما قولُ أبي الفَرَج بن الجَوْزِيّ: ضعَّفه علماءُ النقل، فَهَفْوَةٌ من كِيس أبي الفرج، فإلى الساعة ما وجدتُ أحداً ضعَّفه وحسبك بقول المتعنت في النقد أبي حاتم فيه»[3].

ونقل في ترجمة الحافظ أبي العباس محمد بن يونس الكُدَيْمي كلامَ الأئمة في ضعفه واتِّهامه بوضع الحديث، ثم قال: «وأما إسماعيل الخُطَبِي فتَبَارَدَ وقال: كان ثقةً، ما رأيتُ ناساً أكثر من مجلسه»[4].

وقال في ترجمة الحافظ أحمد بن علي السُّلَيْمانيّ: «رأيتُ للسليماني كتاباً حَطَّ فيه على كبارٍ، فلا يُسْمَعُ منه ما شَذَّ فيه»[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/٢١، وانظر كذلك: ١٣/٣٩٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٦١٤.

(٣) المرجع السابق: ١١/٢٦.

(٤) المرجع السابق: ١٣/٣٠٥.

(٥) المرجع السابق: ١٧/٢٠٢.

وذكر في ترجمة يحيى بن عثمان السَّهْمي الحافظ قولَ ابن أبي حاتم فيه: «كتبتُ عنه، وكتبَ عنه أبي، وتكلَّموا فيه». وعقَّب الذهبي بقوله: «قلتُ: هذا جَرْحٌ غيرُ مُفَسَّرٍ؛ فلا يُطَّرحُ به مثلُ هذا العالِم»[1].

وأما رأيه في كلام الأقران بعضهم ببعض، فقد أكَّد في غير ما موضع من كتبه أنه يُطوى ولا يُروى، وعلَّل ذلك قائلاً: «ولو سمعنا كلامَ الأقرانِ بعضهم في بعض لاتَّسعَ الخَرْق»[2].

وبيّن ذلك بقوله: «لسنا ندَّعي في أئمة الجرح والتعديل العِصْمة من الغلطِ النادر، ولا من الكلام بنفسٍ حادٍّ فيمن بينهم وبينه شحناء وإِحْنَةٌ، وقد عُلم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مُهْدَرٌ لا عبرة به، ولا سيّما إذا وثَّقَ الرجلَ جماعةٌ يلوحُ على قولهم الإنصافُ»[3].

وقال في ترجمة الحافظ أبي نعيم الأصبهاني: «كلامُ الأقرانِ بعضهم في بعض لا يُعْبَأ به، لا سيما إذا لاحَ لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصمَ اللَّهُ، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سَلِمَ أهلُه من ذلك، سوى الأنبياء والصدِّيقين، ولو شئتُ لسردتُ من ذلك كراريس، اللّهم فلا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم»[4].

ونقل في ترجمة محمد بن إسحاق بن منده من «تذكرة الحفاظ» حَطَّ أبي نعيم عليه، ثم قال معقباً على أبي نعيم: «قلت: لا يعبأ بقولك

---

(١) المرجع السابق: ١٣/٣٥٥.

(٢) تاريخ الإسلام (وفيات: ٣٨١ ــ ٤٠٠) ص ٣٢٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٧/٤٠ ــ ٤١.

(٤) ميزان الاعتدال: ١/١١١.

في خصمك للعداوة المشهورة بينكما، كما لا يعبأ بقوله فيك، فقد رأيت لابن منده مقالاً في الحط على أبي نعيم من أجل العقيدة أقذع فيه، وكل منهما صدوق غير متهم ــ بحمد الله ــ في الحديث»[١].

وفي كتب الإمام الذهبي كثير من هذه النقول وردِّها، ورفض قبولها:

فقد ردَّ كلامَ سليمان بن حرب في عفان بن مسلم [٢]. ولم يعتدّ بكلام محمد بن عثمان بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن سُليمان الحَضْرَمي مُطَيَّن، كل منهما في الآخر [٣].

ولم يسمع كلام ابن صاعد في ابن أبي داود، ولا تكذيب ابن أبي داود ابنَ صاعد، حيث يقول في ترجمة ابن صاعد: «وقد ذكرنا مخاصمة بينه وبين ابن أبي داود، وحطَّ كل واحد منهما على الآخر في ترجمة ابن أبي داود، ونحن لا نقبل كلام الأقران بعضهم في بعض، وهما ــ بحمد الله ــ ثقتان»[٤].

كذلك رد كلام مكحول ورجاء بن حَيْوَة كل منهما في الآخر[٥]. ولم يقبل كلام قتادة بن دِعامة في يحيى بن أبي كثير[٦]. ولا كلامُ ابن

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٣/١٠٣٤، وانظر أيضاً: ٣/١٠٩٧. سير أعلام النبلاء: ١٧/٣٤، ميزان الاعتدال: ٣/٤٧٩ ــ ٤٨٠.

(٢) ميزان الاعتدال: ٣/٨١.

(٣) ميزان الاعتدال: ٣/٦٠٧، تذكرة الحفاظ: ٢/٦٦٢، سير أعلام النبلاء: ١٤/٤٢.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٤/٥٠٥، وانظر: ١٣/٢٢٨ ــ ٢٢٩، تذكرة الحفاظ: ٢/٧٧٢.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٤/٥٥٨.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٥/٢٧٥ ــ ٢٧٦.

أبي ذئب في الإمام مالك[1]. ولا جَرْحَ مالك وابن إسحاق كل منهما للآخر[2].

وردّ كلام النسائي في الحافظ أحمد بن صالح[3]. وكلامَ أبي حفص الفَلَّاس في الحافظ المفسر محمد بن حاتم السَّمِين[4]. وكلام ابن جرير في الحافظ ابن أبي داود[5]. وكلام أبي عمرو الداني وابن حزم كل منهما في الآخر[6]. وغير ذلك.

●● والذهبي يَصْدُر في ذلك عن تحرٍّ ونزاهة، وبغض للعصبية والهوى، وتبرُّؤٍ منهما وذمٍّ لهما، وهو يرى أنه في عمله هذا مثاب، وأن الجرح والتعديل إنما هو لمصلحة الشرع وحفظ السنن. وقد استطاع أن يكون منصفاً إلى حد بعيد، كما كان معتدلاً في أحكامه وتقاويمه، بعيداً عن التهور، نائياً عن الشطط، قريباً من الاعتدال والوسطية.

نقل في ترجمة علي بن الفضيل بن عياض كلاماً لقُطْبة بن العلاء في الفُضَيل، ثم عقب بقوله: «قلتُ: إذا كان مثل كبراءِ السابقين الأولين قد تكلَّم فيهم الروافضُ والخوارجُ، ومثلُ الفضيل يُتكلَّم فيه، فمن الذي يَسْلَم من ألسنة الناس؟! لكن إذا ثبتتْ إمامةُ الرجل وفضلُه، لم يضُرَّه ما قيل فيه، وإنما الكلام في العلماء مُفْتَقِر إلى وَزْنٍ بالعدل والورع»[7].

---

(١) المرجع السابق: ١٤٣/٧.
(٢) المرجع السابق: ٤٠/٧ ـ ٤١.
(٣) المرجع السابق: ٨٣/١١.
(٤) المرجع السابق: ٤٥١/١١.
(٥) المرجع السابق: ٢٣٠/١٣.
(٦) المرجع السابق: ٨١/١٨.
(٧) المرجع السابق: ٤٤٨/٨.

وقال في ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه: «ونال بعضُ الناس منه غضّاً، فما زاده ذلك إلا رِفعةً وجلالة، ولاح للمُنْصِفين أن كلام أقرانه فيه بهوىً، وقلَّ مَنْ برَّز في الإمامة، وردَّ على مَنْ خالفه إلا وعُودي، نعوذُ بالله من الهوى، وهذه الأوراقُ تضيقُ عن مناقب هذا السيد»[1].

وترجم قيس بن أبي حازم فقال: «ثقة حجة، كاد أن يكون صحابياً، وثّقه ابنُ معين، والناس... وقال إسماعيل بن أبي خالد: كان ثبتاً. قال: وقد كبر حتى جاوز المئة وخَرِفَ. قلت: أجمعوا على الاحتجاج به، ومَن تكلَّم فيه فقد آذى نفسه! نسأل الله العافية وتَرْك الهوى»[2].

وقال في ترجمة إسماعيل بن عُلَيَّة: «قلت: إمامةُ إسماعيل وثيقة لا نزاعَ فيها، وقد بدت منه هفوة وتاب، فكان ماذا؟! إني أخاف الله لا يكون ذِكرنا له من الغيبة»[3]!

والذهبي عندما يُصْدِر رأيه في الرواة، ويتحرى وجه الحق في ذلك، ويستعيذ بالله من الهوى والعصبية؛ فإنه يرى أن في ذلك أجراً عظيماً، وإن أخطأ اجتهاده. ذكر ذلك في ترجمة: الإمام ابن إسحاق ـ صاحب السيرة ـ فبعد أن نقل قول الخطيب: «ذكر بعضهم أن مالكاً عابه جماعة من أهل العلم في زمانه بإطلاق لسانه في قوم معروفين بالصلاح والدِّيانة والثقة والأمانة»؛ رد ذلك قائلًا: «قلتُ: كلّا، ما عابهم إلا وهم عنده بخلاف ذلك، وهو مثاب على ذلك، وإن أخطأ اجتهاده، رحمة الله عليه»[4].

---

(١) المرجع السابق: ١٠/٨ ـ ٩.
(٢) ميزان الاعتدال: ٣/٣٩٢ ـ ٣٩٣.
(٣) المرجع السابق: ١/٢٢٠.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٧/٣٨.

ونص الذهبي على أن «كلام الناقد الورع في الضعفاء من النصح لدين الله، والذبِّ عن السنَّة»[1].

●● ونتيجة هذا الاطلاع الواسع، والنظرة الحصيفة، والورع الثخين، والتحري في النقد، استطاع الذهبي أن يكون ناقداً منصفاً، وإماماً معتدلاً في الجرح والتعديل، يختار ما هو أقرب للحق وأدنى من الصواب.

ولنوضح ذلك ببعض الأمثلة:

قال في ترجمة عبد الله بن مسلم بن قُتيبة: «قال الخطيب: كان ثقة ديّناً فاضلاً. وقال الحاكم: أجمعت الأمة على أن القُتَبي كذاب! قلتُ: هذه مجازفةٌ قبيحة، وكلام مَنْ لم يخف الله»[2]!

وقال في ترجمة عبد الملك بن عبد العزيز التمار: «وثَّقَه النَّسائي وأبو داود وغيرهما، وكان ممن امتُحن في خَلْقِ القرآن، فأجاب وخاف، فقال سعيد بن عمرو: سمعتُ أبا زُرعة يقول: كان أحمد بن حنبل لا يَرى الكتابة عن أبي نصر التمار، ولا يحيى بن معين، ولا أحدٍ ممن امتُحن فأجاب! قلتُ: هذا تشديد ومبالغة، والقومُ معذورون، تركوا الأفضل؛ فكان ماذا»[3]؟!

وترجم عمر بن هارون البلخي، فقال: «... وكان من أوعية العلم على ضَعْفِه وكَثْرَةِ مناكيره، وما أظنه ممن يتعمد الباطل»[4].

وقال في ترجمة هشام بن عروة: «أحد الأعلام، حجَّة إمام، لكن

---

(١) المرجع السابق: ١٣/٢٦٨.
(٢) ميزان الاعتدال: ٢/٥٠٣.
(٣) المرجع السابق: ٢/٦٥٨.
(٤) المرجع السابق: ٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩.

في الكبر تناقَص حِفْظُه، ولم يختلط أبداً، ولا عبرة بما قاله أبو الحسن بن القطّان من أنه وسُهيل بن أبي صالح اختلطا، وتغيَّرا. نعم الرجُل تغيَّر قليلاً ولم يبق حفظه كهوَ في حالِ الشّبيبة، فنَسِي بعضَ محفوظه أو وهم، فكان ماذا؟! أهو معصوم من النسيان»[1]؟!

ويلخص ذلك قوله في أثناء ترجمة أبي زُرْعة الرَّازِيّ: «قلت: يعجبني كثيراً كلامُ أبي زرعة في الجرح والتعديل، يَبين عليه الورع والمَخْبَرة، بخلاف رفيقه أبي حاتم، فإنه جَرّاح»[2].

ومن أدمن النظر وأمعن الفكر في مؤلفات إمامنا الذهبي، تحقق له تفوقه وإمامته، وتبرهن له أنه شيخ الجرح والتعديل في عصره، لقوة عارضته، وسعة اطلاعه، ورسوخ قدمه، ودقة أحكامه، مع الإنصاف والورع. فلا عجب أنه يخضع لعلمه العلماء، وأن ينال كل ذلك التقدير والاحترام والتبجيل ممن جاء بعده من الأئمة، ويستولي على إعجابهم، ويكون لرأيه عندهم المكانة الرفيعة، ويعتبرون أقواله أقصى حدود الاعتبار.

فوصفه تلميذه تاج الدين السبكي بأنه «شيخ الجرح والتعديل». وحلّاه الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي بـ «إمام التعديل والجرح، والمعتمد عليه في المدح والقدح» وأنه «كان آية في نقد الرجال، عمدة في الجرح والتعديل»[3]. وقال شيخ السنة في عصره الحافظ ابن حجر العسقلاني: «وهو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال»[4].

---

(١) المرجع السابق: ٣٠١/٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨١/١٣.

(٣) الرد الوافر: ٤٩، ٦٧.

(٤) شرح نخبة الفِكر: ١٥٤، وقد نسب الدكتور بشّار «ص ١٢٧» هذه الكلمة للسخاوي. وهو خطأ.

وهذه المعرفة الرجالية الواسعة الشاملة، وذاك الرسـوخ في الجرح والتعديل، قد أنتجا عند الحافظ الذهبي مهارة في علم الحديث منقطعة النظير، فزاحم بمنكبيه كبار الأئمة ممن عاصره، وتفوق على كثير ممّـن سبقه، وأصبح قدوة من جاء بعده. ويتجلى ذلك بوضوح في: منهجه في تصحيح الحديث وتضعيفه، ومخالفته العلماء في ذلك، والأحاديث التي حكم بوضعها، وردوده الشديدة في هذا المجال، والأصول الحديثية القيمة التي وضعها، وتعبيراته البارعة في المصطلح، ومباحثه النافعة النادرة، وتنبيهاته الفذة المنثورة في بطون كتبه، وكثرة تصانيفه القيمة في هذا العلم العزيز.

●● فمنهجه في نقد الحديث قائم على الاعتدال وعدم التعنت ورفض التساهل، لذا تراه يتوقف كثيراً في قبول ما حسّنه الترمذي أو صححه من أحاديث، وكذلك تعقب الحاكم كثيراً في تصحيح الأحاديث لتساهله في ذلك.

ـ قال في ترجمة سيف بن محمد الثوري: «كذاب، والعجب من الترمذي يحسن له»[1]!

وقال في ترجمة حجاج بن أرطاة: «قد يترخّص الترمذي ويصحّح لابن أرطأة، وليس بجيد»[2].

وجاء في «ميزان الاعتدال» قول الذهبي: «فلا يغترّ بتحسين الترمذي؛ فعند المحاققة غالبها ضعاف»[3].

وعلَّلَ ذلك بما ذكره في ترجمة كثير بن عبد الله بن عَمْرو المزني،

---

(١) الكاشف: ١/٣٣٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧/٧٢.

(٣) ميزان الاعتدال: ٤/٤١٦.

بعد أن ذكر أقوال الأئمة فيه [1]، قال: «وأما الترمذي فروى من حديثه: (الصلح جائز بين المسلمين) وصححه! فلهذا لا يعتمد العلماء على تصحيح الترمذي»[2].

وقال في ترجمة الإمام الترمذي: «قلت: «جامعه» قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه، ولكن يترخَّص في قبول الأحاديث، ولا يشدِّد، ونَفَسُه في التضعيف رخو»[3].

ـ وأما انتقاده الحاكم وتساهله في التصحيح، فيتضح بأدنى تأمل في «تلخيص المستدرك»، ومن ذلك تعليقه على حديث اجتماع النبي ﷺ بإلياس عليه السلام، ونزول المائدة عليهما من السماء، وأكلهما منها! قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد. فتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: بل موضوع قبَّح الله مَنْ وضعه، وما كنتُ أحسب ولا أجوِّز أن الجهل يبلغ بالحاكم إلى أن يصحح هذا وإسناده»[4]! وقال في الميزان: «فما استحيى الحاكم من الله يصحح مثل هذا»[5].

●● ويرى الذهبي أن نقد الأحاديث وتنقية الصحيح من الضعيف، أمانة يُسأل عنها العالم المحدث، لأن الشريعة مبنية على الأحاديث، فهل يجوز إقامة الأحكام على الأحاديث البواطيل؟!

ومن هذا القبيل قوله: «لهذا أكثر الأئمة على التشديد في أحاديث الأحكام، والترخيص قليلاً ـ لا كل الترخُّص ـ في الفضائل والرقائق،

---

(١) قال الشافعي وأبو داود: ركن من أركان الكذب، وضرب أحمد على حديثه، وتركه الدارقطني.

(٢) ميزان الاعتدال: ٣/٤٠٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٧٦.

(٤) المستدرك: ٢/٦١٧.

(٥) ميزان الاعتدال: ٤/٤٤١. وسيأتي مزيد للأمثلة إن شاء الله تعالى.

فيقبلُون في ذلـك ما ضعُف إسنـادُه، لا ما اتُّهِم رواتُـه، فإن الأحـاديث الموضوعة، والأحاديثَ الشـديدةَ الـوهْن لا يلتفتون إليهـا، بل يـروونها للتحذير منها، والهَتْكِ لحالها، فمن دلَّسهـا أو غطى تبيـانها، فهـو جانٍ على السنـة، خائنٌ لله ورسـولـه. فـإن كـان يجهـلُ ذلـك، فقـد يُعـذر بالجهل، ولكن سلُوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُمْ لا تعلمون»[1].

وقال في ترجمة مسروح أبي شهاب من «الميزان»: «... وقال ابن أبي حاتم: سألتُ أبي عن مسروح، وعرضتُ عليه بعضَ حديثه، فقال: يحتاج إلى التوبة من حديث باطل رواه عن الثوري. قلتُ: إي واللَّهِ، هذا هو الحق، إن كل مَنْ روى حديثاً يعلم أنه غير صحيح؛ فعليه التوبة أو يهتكه»[2].

وقد نعى على المحدثين والحفاظ الذين يروون الأحاديث الضعيفة والمنكرة والموضوعة، ويسكتون عن توهيتها وتبيان حالها.

قال في ترجمة أحمد بن الحسين المعروف بأبي زُرْعة الرازي الصغير: «له تصانيف كثيرة، يروي فيها المناكير كغيره من الحفاظ، ولا يبين حالها؛ وذلك مما يزري بالحافظ»[3].

ويقول في ترجمة محمد بن إسحاق ابن منده: «ذَنْبُه وذنبُ أبي نُعيم أنهما يرويان الأحاديثَ الساقطة والموضوعة، ولا يهتِكَانها، فنسأل الله العفو». ويقول في ترجمة أبي نعيم الأصبهاني: «ما أعلمُ له ذنباً ــ والله يعفو عنه ــ أعظَمَ من روايته للأحاديث الموضوعة في تواليفه، ثم يسكتُ عن توهيتها»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٥٢٠.

(٢) ميزان الاعتدال: ٤/ ٩٧.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٣/ ١٠٠٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٤١، ٤٦١.

وقد مارس الذهبي هذا الأمر الجليل في كل كتبه، وقَلَّ أن يغادر حديثاً إلا وتكلم في رجاله، ونقد سنده أو متنه، فصحَّح وضَعَّف، وحكم على أحاديث بالوضع والبطلان، وشهد لأخرى بالقوة والصحة، وكثيراً ما يخالف الأئمة في هذا المجال.

والأمثلة كثيرة جداً لا يحتملها هذا الكتاب، نجتزىء منها بإشارات دالّة معبرة، فمن ذلك:

(اتَّقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى الله كأنها شرارة). غريب وإسناده جيد[1].

(أُذِنَ لي أن أحدِّث عن مَلَك من حَمَلةِ العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة سنة). إسناده صحيح[2].

(أوحى الله إلى موسى أن مِن عبادي مَنْ لو سألني الجنة بحذافيرها لأعطيتُه، ولو سألني علاقة سوط لم أعطِه، أريد أن أدَّخر له في الآخرة). هذا خبر منكر وفي إسناده مجاهيل[3].

(تفكَّهوا وكلوا البطيخ، فإن حلاوتها من الجنة). هذا حديث منكر[4].

(ليصيبنَّ أقواماً سفعٌ من النار بذنوب أصابوها، ثم يَخْرُجون منها فيدخلون الجنةَ، فيسمِّيهم أهلُ الجنة: الجهنَّميِّينَ). هذا حديث صحيح[5].

---

(١) مختصر «العلو»: ٨٦.

(٢) المرجع السابق: ١١٤.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٣/٨٦٦.

(٤) المرجع السابق: ٤/١٢١٨.

(٥) المعجم المختص: ٨٣، سير أعلام النبلاء: ٩/٣٧٤.

(يا أَيها الناس، أتاني جبريل فأخبرني أن الله يحبّ الحييَّ الكريم، الحليمَ، العفيفَ المُتعففَ، ويبغضُ الفاحشَ البذيءَ السائل الملحِف). هذا حديث ـ مع إرساله ـ إسناده ضعيف، ومعناه حق[1].

(طُوبَى لعيشٍ بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح، يُؤْذَنُ للسماء في القَطْر، ويُؤْذن للأرض في النبات، فلو بذرتَ حبَّتَكَ على الصفا لنبتتْ، ولا تشاحّ ولا تحاسُرٌ ولا تباغضُ، حتى يمرَّ الرجُل بالأسد فلا يضرّه، ويطأ على الحية فلا تضرّه). هذا حديث غريب صالح الإسناد[2].

(بينَا أنا نائمٌ رأيتُ عمودُ الإسلام احتُمل من تحت رأسي، فظننتُ أنه مذهوبٌ به، فأتبعتُه نظري فعُمِدَ به إلى الشام، ألا وإنَّ الإيمان حين تقع الفتنُ بالشام). إسناده صالح ولم يخرجوه[3].

(يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ فأكونُ أنا وأُمّتي على تلٍّ، فيكسُوني عزَّ وجلَّ حلّةً خضراءَ، ثم يُؤذن لي فأقول ما شاءَ الله أن أقولَ. فذلك المقامُ المحمودُ). هذا حديث صالح الإسناد ولم يخرجوه في الكتب الستة[4].

(بعثتُ بين يدي الساعة بالسَّيف، حتى يُعبدَ اللَّهُ وحده لا شريكَ له، وجُعلَ رِزقي تحت ظلّ رُمحي، وجُعِلَ الذُّلّ والصَّغار على مَنْ خالف أمرى، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم). إسناده صالح[5].

---

(١) معجم الشيوخ: ٣٣٣.
(٢) معجم الشيوخ: ٤٩٤.
(٣) المرجع السابق: ٥٨٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/٢٨٤.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١٥/٥٠٩.

(الأكل في السوق دناءة). رُوي في ذلك آثارٌ، ولا يثبتُ منها شيء[1].

عن ابن عباس مرفوعاً، قال: (لما عُرج بي رأيتُ على باب الجنة مكتوباً لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليٌّ حِبُّ الله، الحَسن والحُسين صفوة الله، فاطمة أَمَةُ الله، عَلَى باغِضهم لعنة الله). قلتُ: إي والله، وعَلَى واضعه لعنة الله[2]!

(مَنْ تختَّم بالعقيق لم يزل يرى خيراً). هذا كذب[3].

ومن أمثلة مخالفته العلماء في التصحيح والتضعيف ما أورده من تعقبات كثيرة جداً على الحاكم في «تلخيص المستدرك»، فمن ذلك:

عن أنس مرفوعاً: (خلق الله جنّة عدن وغرس أشجارها بيده، فقال لها: تكلمي. فقالت: قد أفلح المؤمنون). قال الحاكم: صحيح. فتعقبه الذهبي قائلاً: بل ضعيف[4].

عن ابن عباس مرفوعاً: (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابُها، فمن أراد المدينة فليأتِ الباب). قال الحاكم: صحيح. ورده الذهبي بقوله: بل موضوع[5].

وعن ابن عباس مرفوعاً: (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦/٥٤٢.

(٢) ميزان الاعتدال: ٣/١١١ ـ ١١٢.

(٣) المرجع السابق: ٤/٥٠٣.

(٤) المستدرك: ٢/٣٩٢.

(٥) المستدرك: ٣/١٢٦.

اختلفوا فصاروا حزب إبليس). قال الحاكم: صحيح. فقال الذهبي: بل موضوع[1].

وعن علي سمعت النبي ﷺ يقول: (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجاب: يا أهل الجمع غضُّوا أبصاركم عن فاطمةَ بنت محمد ﷺ حتى تمرّ). قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. فتعقبه الذهبي فقال: لا والله بل موضوع[2].

وعن جابر بن مرزوق المكي عن عبد الله بن عبد العزيز العمري عن أبي طوالة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (من أذنب ذنباً فعلم أن له رباً إن شاء أن يغفر له غفر له وإن شاء عذَّبه؛ كان حقاً على الله أن يغفر له). قال الحاكم: صحيح. فقال الذهبي: لا والله، ومَنْ جابر حتى يكون حجَّة بل هو نكرة! وحديثه منكر، والعمري هو الزاهد أحد الثقات[3].

●● وحرصه على السنة وصفائها، ودفاعه عنها، وعلمه بمسؤوليته الكبرى عما يرويه وينسبه إلى رسول الله ﷺ، وأنه يجب عليه هتك الموضوعات ورفضها؛ كل ذلك يتكامل مع تمسكه بما صحّ عنه ﷺ، ودفاعه عن الأحاديث الصحيحة، وردّه على من قال ـ من المبتدعة ـ بإسقاط بعضها.

قال في ترجمة الإمام الحافظ يحيى بن صالح الوُحَاظِيِّ: «قال أحمد بن حنبل: أخبرني رجلٌ من أصحاب الحديث أن يحيى بن صالح قال: لو تَرَكَ أصحابُ الحديث عشرةَ أحاديث ـ يعني هذه التي في

---

(١) المستدرك: ٣/١٤٩.

(٢) المستدرك: ٣/١٥٣.

(٣) المستدرك: ٤/٢٤٢.

الرُّؤية ــ ثم قال أحمد: كأنه نزع إلى رأي جَهْم. قلتُ: والمعتزلةُ تقول: لو أن المحدِّثين تركوا ألف حديث في الصِّفاتِ والأسماءِ والرؤيةِ والنُّزولِ؛ لأصابوا. والقَدَرِيَّةُ تقول: لو أنّهم تركوا سبعين حديثاً في إثبات القَدَر. والرافضةُ تقول: لو أن الجمهور تركوا من الأحاديث التي يدَّعون صحتها ألفَ حديث؛ لأصابوا. وكثير من ذوي الرأي يردُّون أحاديثَ شافَهَ بها الحافظ المفتي المجتهدُ أبو هريرة رسولَ الله ﷺ، ويزعمون أنه ما كان فقيهاً، ويأتوننا بأحاديثَ ساقطةٍ، أوْ لا يُعرفُ لها إسناد أصلاً محتجين بها.

قلنا: وللكلِّ موقفٌ بين يدي الله تعالى. يا سبحان الله! أحاديثُ رؤية الله في الآخرة متواترة، والقرآنُ مصدِّق لها، فأينَ الإنصاف؟!»[1].

●● وقد وضع في كتبه خلاصة تفكيره الحديثي الناضج، وعصارة رأيه ووجهة نظره، في بحوث قيمة موجزة، هي أشبه ما تكون بأصول حديثية، ومباحث في المصطلح، جديرة بأن تفرد في فصل مستقل، بل في كتاب.

وقد وقفت على الكثير من ذلك في كتبه، أشير إلى بعضه مما ضمَّنه كتابه العظيم «سير أعلام النبلاء»:

ــ تدليس الصحابة لا عيب فيه[2].

ــ عدم عصمة أئمة الجرح والتعديل من الغلط، أو الكلام بنَفَسٍ حادّ فيمن بينهم وبينه شحناء، ككلام الأقران بعضهم في بعض[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء: ١٠/٤٥٥.

(2) نفس المرجع: ٢/٦٠٨.

(3) نفسه: ٧/٤٠، ١١/٤٣٢، ١٨/٤٠٨، ١٩/٢٣ ــ ٢٤.

ـ رواية القَدَري والمعتزلي والجَهْمِيّ والرافضي، متى تُقبل ومتى تردّ[1].

ـ الرواية بالإجازة والوِجَادة، وشروط قبولهما، ومثال ذلك[2].

ـ أنواع التدليس وأحكامها[3].

ـ الجرح المردود[4].

ـ أصح إسناد بالعراق[5].

ـ تعنت يحيى بن سعيد القطان في الرجال[6].

ـ تحديث المحدث من حفظه أو من كتاب[7].

ـ حدّ «المتروك» من الرواة[8].

ـ الأخذ عن المختلط[9].

ـ تغير القوة الحافظة عند المحدث في مرض موته[10].

ـ حدّ «الثقة» وصفته[11].

ـ شرط البخاري ومسلم[12].

---

(١) نفسه: ٧/١٥٤.
(٢) نفسه: ٧/١٩٠ ـ ١٩١.
(٣) نفسه: ٧/٤٦٠.
(٤) نفسه: ٩/١١٨.
(٥) نفسه: ٩/١٥٨.
(٦) نفسه: ٩/١٨٣، ٥٥٨.
(٧) نفسه: ٩/٣٨٣.
(٨) نفسه: ٩/٤٢٩.
(٩) نفسه: ١٠/٢٦٩.
(١٠) نفسه: ١١/٣٧٧ ـ ٣٧٨.
(١١) نفسه: ١٢/٢٤.
(١٢) نفسه ١٢/٥٧٣.

ـ طبقات رجال الكتب الستة [1]

ـ تجريح أبي حاتم الرواة وتوثيقه لهم، وعباراته في ذلك[2] .

ـ الرواية عمن أجاب في «محنة خلق القرآن» [3] .

ـ الزيادة في الحديث والنقص منه، كأن يرفعَ المحدِّثُ الموقوفَ ويَصِلَ المُرْسَلَ [4] .

ـ خطأ المحدث في اجتهاده في آحاد المسائل لا يستوجب تبديعه ولا ترك حديثه [5] .

ـ الحضور والإجازة [6] .

ـ الرواية عمن عُرف بكبيرة من الكبائر [7] .

ـ مذهب متأخري المغاربة في إطلاق «حدّثنا» على الإجازة[8] .

ومن مباحثه وتنبيهاته وآرائه القيمة النافعة:

ـ روايات أبي هريرة والاحتجاج بها جميعها، والرد على من قال بترك بعضها[9] .

ـ سماع الحسن البصري من سَمُرَة بن جُندب[10] .

ـ مرسل الزهري[11] .

---

(1) نفسه: ١٢/ ٥٧٥ ـ ٥٧٧.

(2) نفسه: ١٣/ ٢٦٠ و ٦/ ٣٦٠.

(3) نفسه: ١٣/ ٣٢٢.

(4) نفسه: ١٣/ ٥١٣.

(5) نفسه: ١٤/ ٤٠، ٣٧٦.

(6) نفسه: ١٨/ ٣٦٩.

(7) نفسه: ١٩/ ٣٦٨.

(8) نفسه: ٢٢/ ٣٩٣.

(9) نفسه: ٢/ ٦٠٩.

(10) نفسه: ٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤، ٤/ ٥٦٧، ٥٨٧.

(11) نفسه: ٥/ ٣٣٩.

ـ من أخرج لهم مسلم ولم يرو عن أحدهم إلا راوٍ واحد[1].

ـ التمييز بين الحمَّادَيْن: ابن سلمة وابن زيد، من جهة اشتراكهما في الشيوخ والتلاميذ، أو انفراد أحدهما عن الآخر في ذلك.

وكذا التمييز بين السُّفيانَيْن: الثوري وابن عُيينة[2].

ـ رأيه في «سنن أبي داود» ودرجات أحاديثها[3]، و«جامع الترمذي»[4]، و«سنن ابن ماجه»[5]، و«المنتقى في السنن» [6] لابن الجارود، و«موطأ مالك» [7]، و«نسخة سِمَاك بن حرب» [8]، و«الأربعون الوَدْعَانية» [9].

●● وهذه الإمامة في الحديث وعلومه المختلفة قد أنتجت ذلك التراث الضخم، والعدد الكبير من التصانيف القيمة النافعة، الباهرة النادرة، في شتى فنون الحديث:

فصنَّفَ واختصر وانتقى في الحديث، ومصطلحه، ورجاله، وخرَّج التخاريج الكثيرة من الأربعينات والثلاثينات، والعوالي،

---

(١) نفسه: ١٢/٥٧٨.
(٢) نفسه: ٧/٤٦٤ ـ ٤٦٦.
(٣) نفسه: ١٣/٢١٤ ـ ٢١٥.
(٤) نفسه: ١٣/٢٧٤.
(٥) نفسه: ١٣/٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٦) نفسه: ١٤/٢٣٩.
(٧) نفسه: ١٨/٢٠٣.
(٨) نفسه: ٥/٢٤٨.
(٩) ميزان الاعتدال: ٣/٦٥٧.

والأجزاء، والمعاجم، والمشيخات، فزادت مؤلفاته في هذا الباب على (١٢٠) مصنفاً [١].

●● وقد سيطر حب الحديث ورجاله على الإمام الذهبي، ومَلَكَ عليه قلبه وعقله، فأثَّر في تكوينه الفكري إلى أقصى حد، وانعكس ذلك في مصنفاته، وهذا ما نراه واضحاً في اعتنائه بتراجم رجال الحديث، وإكباره لهم، وشدة كَلَفِه بهم، لأنهم حَمَلَةُ السنة، ورواة الآثار.

ولا أدل على ذلك من أن معظم تراجمه في كتابيه العظيمين «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء» هم من المحدثين. بل وتخصيصه كتباً مستقلة لتراجمهم، مثل «تذكرة الحفاظ» و«المعجم المختص بالمحدثين»، و«المُعِين في طبقات المحدثين».

وهذا فيما نرى شيء طبيعي إذا نظرنا إلى تربية الذهبي ونشأته واهتماماته الحديثية.

وبلغ به حبه لهم وإعظامه لشأنهم، أنه كان يبكي لوفاتهم! ذكر تلميذُه الحافظ الحسيني في ترجمة الحافظ ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤ هـ) فقال: «وتأسَّفَ الناس عليه، وسمعتُ شيخَنا الذهبي يقول يومئذٍ وهو يبكي: ما اجتمعتُ به قطّ إلا واستفدتُ منه، رحمه الله تعالى» [٢].

●●●

---

(١) انظر: ص ٣٥٩ ـ ٤٤٣ من هذا الكتاب.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ: ٥٠.

ثالثاً ـ الذهبي المؤرخ البارع

حبه للتاريخ واطلاعه الواسع فيه:

إن المرء ليحار من أين يبدأ حينما يتحدث عن «الذهبي مؤرخاً»، وذلك لضخامة هذا الجانب وشموليته في شخصية الإمام العلمية، سواء من جهة سعة اطلاعه على التاريخ وما صُنِّف في فنونه المختلفة، أو رسوخ قدمه في استيعاب ذلك وقوة حافظته له، أو كثرة ما صَنَّف هو فيه، أو بروز شخصيته في تواليفه ومختصراته ونقوله. فهو جبل علم في التأريخ، وروضة معارف في مناحيه المختلفة، ويعتبر ثاني أكبر مؤرخي القرن الثامن الهجري، مع الحافظ المِزِّي. وإذا ذكر الذهبي قفزت إلى الذهن صفتاه البارزتان المتلازمتان: المحدث المؤرخ.

وقد حُبب إليه علم التاريخ بفنونه، لارتباطه بتكوينه الفكري والعقدي، من حيث إعظامه للنبي ﷺ وإجلاله لصحابته الكرام حَمَلَةِ السنة من بعده، ثم لتأثره بمجريات الأحداث التي جرت على الجماعة الإسلامية على مدى سبعة قرون. لذا تراه شديد الاعتناء بتأريخ تلك الحقبة الطويلة، وترجمة الأعلام الذين كان لهم الدور الأكبر في صناعة الأحداث، وتشييد التراث العلمي الهائل وبخاصة المحدثين رواة الآثار النبوية.

●● واطلاعاته الواسعة، وقراءاته الشاملة في هذا المجال تتجلى في كثرة الموارد التي اعتمد عليها في تصنيف كتبه، ومن أبرزها: كتب المغازي والسيرة النبوية، وكتب التاريخ العام المرتبة على السنين، وتواريخ الخلفاء، وكتب السِّيَر، وكتب الأنساب والأخبار، والتواريخ المحلية، وكتب الرجال بكافة أشكالها، وكتب التراجم بأنواعها، وكتب الحديث والأجزاء الحديثية، ومجاميع الطلبة والشيوخ، والمعاجم

والمشيخات، ومؤلفات المترجمين، والكتب الأدبية، والدواوين الشعرية، وكتب العقائد، وغير ذلك. هذا بالإضافة إلى المشاهدة والملاحظة، والمشافهة، والمساءلة، والمكاتبة، والإجازات.

ويكفي أن نعلم أنه طالع على تأليف كتابه «تاريخ الإسلام» كثيراً من المصنفات الضخمة، واختصر أخرى، وجمع مادته من[1]: «دلائل النبوة» للبيهقي، و«السيرة النبوية» لابن إسحاق، و«المغازي» لابن عائذ، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد، و«التاريخ الكبير» للبخاري، وبعض «تاريخ» ابن أبي خيثمة، و«تاريخ» يعقوب الفَسَوي، و«تاريخ» محمد بن المثنى العَنَزِي، و«تاريخ» أبي حفص الفَلّاس، و«تاريخ» أبي بكر بن أبي شيبة، و«تاريخ» الواقدي، و«تاريخ» الهيثم بن عدي، و«تاريخ» خليفة بن خياط، و«الطبقات» له، و«تاريخ» أبي زرعة الدمشقي، و«الفتوح» لسيف بن عمر، وكتاب «النسب» للزبير بن بكار، و«المسند» للإمام أحمد، و«تاريخ» المُفَضَّل بن غسان الغلّابي، و«الجرح والتعديل» عن يحيى بن معين، و«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم.

وطالع أيضاً كثيراً من: «تاريخ» الطبري، و«تاريخ» ابن الأثير المعروف بالكامل، و«تاريخ علماء الأندلس» لابن الفَرَضي، و«الصلة» لابن بشكوال، و«تكملة الصلة» لابن الأبار، و«الكامل» لابن عدي، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه طالع على «تاريخ الإسلام» مجموعة من الكتب الضخمة التي اختصرها[2].

---

(١) ذكر الذهبي ذلك في خطبة كتابه «تاريخ الإسلام»، انظر: السيرة النبوية: ١٢ ـ ١٦، المغازي: ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) سيرد ذكرها بعد قليل.

وإذا كان الذهبي قد طالع هذا العدد الكبير من الكتب الضخام عند تأليفه «تاريخه الكبير»، فإنه ـ بلا ريب ـ اطلع فيما بعد على تواليف كثيرة جداً تفوت الحصر. مما يدلل على سعة اطلاعاته وشمول قراءاته التاريخية.

براعته في التاريخ وإبداعه وتراثه فيه وبروز شخصيته:

يرتبط مفهوم التاريخ عند الذهبي بالحديث النبوي وعلومه المتنوعة، ويظهر ذلك بجلاء في اعتناء الذهبي بعلم الرجال وكتبه اطلاعاً واختصاراً وتصنيفاً. ومن هنا جاءت الشهرة الكبيرة للإمام باعتباره مؤرخاً بارزاً متقدماً على معاصريه، ومتفوقاً على كثير ممن سَبَقه أو جاء بعده.

وقد خلف الذهبي في هذا المجال تراثاً ضخماً قيماً نافعاً[1]، ابتدأه بالمختصرات، فاختصر ـ مثلاً ـ: «تاريخ بغداد» للخطيب، والذيول عليه للسمعاني وابن الدُّبَيْثي وابن النجار، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«تاريخ مصر» لابن يونس، و«تاريخ نيسابور» للحاكم، و«تاريخ خوارزم» لابن أرسلان الخوارزمي، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«التكملة لوفيات النقلة» للمنذري، و«الأنساب» للسمعاني، و«أسد الغابة» لابن الأثير، و«تهذيب الكمال» للمزي، وغير ذلك كثير.

وهذه المختصرات وأصولها كوَّنت المادة الرئيسة لمعرفته بالعصور السابقة.

ولم يكتفِ الذهبي باعتنائه بالرجال وتراجمهم بل قد درس التاريخ السياسي الذي يتناول أحداث التاريخ الإسلامي ومجرياته،

---

(١) انظر: ص ٤٤٣ ـ ٥١٤ من هذا الكتاب.

ومسيرة الجماعة الإسلامية على مدى القرون الفائتة، فاختصر ـ مثلاً ـ : الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة، وتاريخ أبي الفداء، و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي. وأفاد من جميع التواريخ التي كتبت قبله كتاريخ الطبري وابن الجوزي وابن الأثير، وغيرها.

وهذه المعرفة الرجالية الواسعة، والتاريخية الشاملة؛ قد أنتجت عند الذهبي مؤلفات شهيرة، مثل: «العبر» و«دول الإسلام» و«سير أعلام النبلاء» و«تذكرة الحفاظ» وأهمها تاريخه الفذ «تاريخ الإسلام» الذي فرغ من إصداره الأول سنة (٧١٤ هـ)، وهو في سن الأربعين.

●● والذهبي في نقوله ومختصراته ومنتقياته ومؤلفاته مبدع مجيد، وناقد بصير، اكتسب هذه الصفة من كونه محدثاً بارعاً، قادراً على تمحيص الحقائق، وبهرجة الدخيل منها.

فتجده عندما يختصر كتاباً، أو ينقل نصاً: يعمل فيه عقله، ويبث فيه من روحه، ويسبكه بأسلوبه الفريد، ويضفي على ذلك تعليقاته النفيسة، واستدراكاته البارعة، وإضافاته المكمِّلة، مع تصحيحات وتصويبات إذا وجد وهماً أو غلطاً من مؤلف الأصل؛ مما يجعل المختصر يكاد يكون مؤلَّفاً من تآليفه مبتكراً لا مختصراً. فمختصراته تكون مع سدِّ نقص، وتحقيق وتدقيق، ونقد وتعليق، و يكون كلامه متمِّماً ومسدِّداً، وحارساً ومراقباً للأصل المختصر.

وتبرز شخصيته في مجالات عديدة سواء في التراجم أو التاريخ، ويبدي رأيه في كل أمر يرى أن غيره أخطأ فيه، أو لإزالة إشكال، أو ترجيح قول على آخر. ومن ذلك:

ضبط الأسماء والأنساب، وتحقيقه في اسم المترجم وترجيح

الأصح فيه، والاحتجاج به، وتوثيقه أو جَرْحه بعد سوق الآراء المختلفة فيه، وتبيان أنه اختلط أَوْ لا، وهل تغير أَوْ لا ، وما روي له قبل الاختلاط أو بعده، وسماعه في الكبر أو في الصغر، ولقاء الرواة وسماع بعضهم من بعض، ورحلة الرجل إلى بلد معين أو عدم رحلته إليه، وكون المترجَم من قرن معين أو طبقة معينة، والتمييز بين الأسماء المتشابهة، والتنبيه على مَنْ خلط بينها، وذِكر من تشابهوا في اللقب، وإثبات البدعة على المترجَم أو نفيها عنه، وتأريخ وفاته وترجيح الصواب في ذلك، وعمره ومكان دفنه، ووجود حديثه في الكتب الستة أو بعضها، أو عدم تخريج أصحابها له وهو ثقة، وعدم تساهله في الجرح والتعديل مهما ارتفعت مكانة المترجم، ورفض التعنت في ذلك، وتقويم حديثه، والتنبيه على أوهام الكبار في بعض ما سبق. وغير ذلك.

كذلك تبرز شخصيته باعتنائه بتراجم المعاصرين له: فكان من بين أحسن الذين كتبوا فيهم، ومثال ذلك كتابه «المعجم المختص بالمحدثين» الذي ترجم فيه (٣٨٣) عَلَماً من المحدثين وطلاب الحديث، و «معجم شيوخه» الذي ترجم فيه لمن أخذ عنهم بالسماع والإجازة، ويتضمن (١٠٤٢) ترجمة، بحيث أصبح هذان الكتابان من أفضل المصادر ــ في بابهما ــ لمن جاء بعده.

هذا من حيث التراجم، وأما من حيث التأريخ والحوادث فتبدو شخصية الذهبي واضحة المعالم في اعتماده المصادر المتخصصة لذلك، وعقليته العظيمة في الانتقاء، وصياغة الأحداث والوقائع بأسلوبه المتميز، وعبارته الرشيقة، ومنهجه المتفرد. ولا يترك ــ غالباً ــ أمراً يحتاج إلى نقد أو تعليق أو توضيح إلا ويبدي رأيه فيه.

وقد ظهرت شخصيته أكثر ما يكون في الأقسام الأخيرة من كتبه، حينما تناول أحداث التاريخ التي عاصرها؛ كما يتضح ذلك في العقود

الأخيرة من «تاريخ الإسلام» و «العبر» و «ذيله» و «دول الإسلام»، والطبقات الأخيرة من «سير أعلام النبلاء» و «تذكرة الحفاظ» و «معرفة القرّاء الكبار» وغير ذلك.

●● **ومن عوامل بروز شخصيته في «مصنفاته التاريخية والتراجمية»** عقيدته السلفية وكونه محدثاً: ويتجلى ذلك في تأكيده على من خاض في «محنة خلق القرآن»، ومن أجاب ومن لم يُجبْ، والاعتذار لمن يستحق العذر، ومن خاض في «الصِّفات» وأوَّلَ، أو نزع إلى مذهب السَّلف في عدم التأويل، وأصحاب الأهواء من معتزلة وإمامية ورافضة وقرامطة وزنادقة وعبيدية، وغيرهم.

وأوضح مثال على اعتنائه بمحنة «خَلْق القرآن» ومن تعرض للبلاء فيها؛ ترجمته للإمام الأجلّ أحمد بن حنبل في «سير أعلام النبلاء» حيث استغرقت (١٨١) صفحة[1].

وكذلك حبه الصحابة حملة هذا الدين ونقلة السنة عن صاحبها ﷺ بسندٍ عالٍ صحيح غاية في الصحة، وحنقه على الرافضة الذين وقعوا في الأصحاب وطعنوا عليهم. ويتجلى ذلك في ترضيه على الصحابة أجمعين وبخاصة الراشدين الأربعة، وتقديم عثمان على علي، واعتذاره عن أصحاب طلحة والزبير وعائشة، ومعاوية، وإنصافه فيما شجر بينهم، ودعوته للترضي عنهم أجمعين.

فمن ذلك قوله: «كلامُ الأقرانِ إذا تبرهنَ لنا أنه بهوىً وعصبية، لا يُلتفت إليه، بل يُطوى ولا يُروى. كما تقرَّر عن الكفِّ عن كثير مما شَجَرَ بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمرُّ بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطعٌ وضعيفٌ، وبعضه

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١١/١٧٧ ـ ٣٥٨.

كَذِبٌ، وهذا فيما بأيدينا وبين عُلمائنا، فينبغي طَيُّه وإخفاؤه، بل إعدامُه لتصفو القلوبُ، وتتوفر على حب الصحابة، والترضّي عنهم، وكتمانُ ذلك متعيِّنٌ عن العامَّةِ وآحادِ العلماء، وقد يُرخَّصُ في مطالعةِ ذلك خلوةً للعالم المنصفِ العريِّ من الهوى، بشرطِ أن يستغفر لهم، كما علمنا الله تعالى حيث يقول: ﴿ والَّذين جاؤُوا من بعدهِمْ يقولونَ ربَّنا اغفرْ لنا وَلإخوانِنا الَّذينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ ولا تجعلْ في قلوبنَا غِلًّا للذين آمنوا ﴾ [الحشر: ١٠]. فالقومُ لهم سوابق، وأعمال مكفِّرة لما وقع منهم، وجهادٌ مَحّاءٌ، وعبادة ممحِّصَةٌ، ولسنا ممن يغلو في أحدٍ منهم، ولا ندَّعي فيهم العصمة، نقطع بأنَّ بعضهم أفضل من بعض... فأمّا ما تنقُلُهُ الرافضةُ وأهلُ البدع في كُتُبهم من ذلك، فلا نعرِّج عليه، ولا كرامةَ، فأكثره باطلٌ وكَذِبٌ وافتراءٌ، فَدَأْبُ الروافضِ روايةُ الأباطيل، أو ردُّ ما في الصحاح والمسانيد، ومتى إفاقةُ من به سَكران؟!»[1].

وقال في ترجمة الحافظ عبد الرحمٰن بن يوسف بن خِراش: «قال عبدان: وحمل ابنُ خِراش إلى بُندار عندنا جزءين وضعهما في مثالب الشيخين، فأجازه بألفي درهم! قلتُ: هذا والله الشيخ المعثر الذي ضلَّ سَعْيُه، فإنه كان حافظ زمانه، وله الرحلة الواسعة، والاطلاع الكثير والإحاطة؛ وبعد هذا فما انتفع بعلمه، فلا عَتْب على حمير الرافضة وحَواثر جزّين ومَشْغَرا»[2].

وقال في ترجمة سعيد بن زيد ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/٩٢ ـ ٩٣.

(٢) ميزان الاعتدال: ٢/٦٠٠. وجزين: قرية من قرى صيدا، ومَشْغَرا: بلدة في لبنان. ومعنى «حواثر»: قال في اللسان: وحَوْثرة اسم، وبنو حوثرة: بطن من عبدالقيس ويقال لهم: الحواثر... وفؤادَ حَثِرٌ: لا يعي شيئاً.

«فهذا ما تيسر من سيرة العشرة، وهم أفضل قريش، وأفضل السابقين المهاجرين، وأفضل البدريين، وأفضل أصحاب الشجرة، وسادة هذه الأمة في الدنيا والآخرة. فَأَبْعَدَ الله الرافضة، ما أغواهم وأشدَّ هواهم؛ كيف اعترفوا بفضل واحد منهم وبخسوا التسعة حقَّهم، وافتروا عليهم، بأنهم كتموا النص في عليٍّ أنه الخليفة. فوالله ما جرى من ذلك شيء... لكن لا حيلة في بُرء الرَّفْضِ فإنه دَاءٌ مزمنٌ، والهدى نور يقذفه الله في قلب من يشاء، فلا قوة إلا بالله»[1].

ويقول في ترجمة الحافظ أبي عَروبة الحسين بن محمد السّلميّ الجَزَري الحرَّاني: «قلت: كلُّ من أحبَّ الشيخين فليس بغالٍ، بلى من تعرَّض لهما بشيءٍ من تنقُّصٍ؛ فإنّه رافضيٌّ غالٍ، فإن سبَّ فهو من شرار الرافضة، فإن كفَّرَ، فقد باء بالكُفْر، واستحقَّ الخِزْي...»[2].

●● **ومعرفة الإمام الذهبي بتراجمه، وحياتهم العلمية وجوانب الإبداع عندهم، وخبرته التامة بالنواحي التي تناولتها كتب التراجم فيهم، وكذلك إدراكه العميق ونظرته الحصيفة فيمن عاصرهم هو، ثم إتقانه لفنون الحديث، وورعه في تقويم المترجمين، ووزنهم بالعدْل؛ كل ذلك جعل منه فناناً تراجمياً، مضطلعاً بهذا الفن الزاخر، قيِّماً بالإنصاف في تراجمه، يُصدر في المترجَم عبارتَه الدقيقة، ويحلِّيه بالأوصاف التي تليق به، ويضع الكلمة في موضعها المناسب، بعيداً عن تسجيع الألفاظ، وتكلُّفِ العبارات، التي قد تحمله إلى الخروج عن الغرض، والحَيْف في التقويم زيادةً أو نقصاناً.**

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة من كتبه المختلفة:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/١٤٠ ـ ١٤١.
(٢) المرجع السابق: ١٤/٥١١.

ففي حوادث ووفيات سنة (٧١٤ هـ) يقول: «وماتت العالمة الفقيهة، الزاهدة القانتة، سيدة نساء زمانها، الواعظة أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية الشيخة، في ذي الحجة بمصر، عن نيِّف وثمانين سنة، وشيَّعها خلائق. انتفع بها خَلْق من النساء وتابوا. وكانت وافرة العِلم، قانعة باليسير، حريصة على النفع والتذكير، ذات إخلاص وخشية وأمْرٍ بالمعروف. انصلح بها نساء دمشق، ثم نساء مصر، وكان لها قبول زايد، ووقْعٌ في النفوس، رحمها الله، زرتُها مرة»[١].

وقال في ترجمة أبي جعفر المنصور: «الخليفة أبو جعفر عبدُ الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور، وأمه سلّامة البَرْبَرِيّةِ. ولد في سنة خمس وتسعين أو نحوها. ضرب في الآفاق، ورأى البلاد، وطلب العلم. قيل: كان في صباه يُلقَّب بمُدْرِك التُّراب. وكان أسمر طويلًا، نحيفاً مَهيباً، خفيف العارضين، مُعَرَّق الوجه، رَحْبَ الجبهة، كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أُبَّهَةُ المُلكِ بزيِّ النُّسَّاك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون، أقنَى الأنف، بيِّن القنا، يخضِب بالسواد. وكان فحل بني العباس هيبة وشجاعة، ورأياً وحزماً، ودهاءً وجبروتاً، وكان جمَّاعاً للمال، حريصاً، تاركاً للهو واللّعب، كاملَ العقل، بعيد الغَوْر، حَسَنَ المشاركة في الفقه والأدب والعلم. أبادَ جماعةً كباراً حتى توطّد له الملكُ، ودانتْ له الأمم على ظُلْمٍ فيه وقوة نفس، ولكنّه يرجعُ إلى صحة إسلامٍ وتديُّنٍ في الجملة، وتَصَوُّنٍ وصلاة وخير، مع فصاحة وبلاغة وجلالة»[٢].

وقال في ترجمة السمعاني: «الحافظُ البارع العلاّمة، تاجُ الإسلام أبو سعد عبد الكريم ابن الحافظ تاج الإسلام معين الدين أبي بكر محمد

---

(١) ذيل العبر: ٤/٣٩ ـ ٤٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧/٨٣.

ابن العلامة المجتهد أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر التميمي السمعاني المروزي، صاحب التصانيف. . . وكان ذكياً فهماً، سريع الكتابة مليحَها، درَّس وأفتى، ووعظ وأمْلَى، و كتب عمّن دبَّ ودَرَجَ، وكان ثقة حافظاً حجة، واسع الرحلة، عدلاً ديِّناً، جميل السيرة، حسنَ الصحبة، كثير المحفوظ»[1].

●● وللذهبي المؤرخ في تواليفه التفاتات بارعة، ونقدات قيمة، وبحوث نافعة نادرة؛ أنتجتها معاناتُه الطويلة للتاريخ بفنونه، وعقليتُه الواعية، ورأيه الناضج، ونظرته العميقة السديدة. وقد استخدم لتحقيق ذلك كل ما في مُكْنته من أدوات البحث العلمي الناقد الجاد المنصف، جامعاً بين مايقتضيه النقل الصحيح ويرتضيه العقل السليم.

فمن ذلك ما ذكره في حوادث سنة (٧١٩ هـ) من «ذيل العبر» فقال: «وفيها كانت الملحمة العظمى بالأندلس بظاهر غرناطة، فقُتل فيها من الفرنج أزيدُ من ستين ألفاً، ولم يُقتل مَنْ عرف مِن عسكر المسلمين سوى ثلاثة عشر نَفْساً. إن في ذلك لآية! فلله الحمد على هذا النصر المبين. واشتهرت هذه الكائنة، وصحَّتْ لدينا، ونقلها جماعة، منهم رفيقنا المحدث أبو عبد الله بن ربيع، وكان هناك على بيع الغنيمة. . .». وذكر شيئاً من تفاصيل هذه الوقعة، ثم قال: «وعندي هذه الغزوة المباركة مطوَّلة مفصّلة صحيحة»[2].

وفي سنة (٧٢٥ هـ) تحدث عن غرق بغداد المهول الذي دام خمس ليال، فتهدمت بيوت، ودثرت حواضر، وغرقت أمم من الفلاحين، ثم قال: «. . . ومن الآيات أن مقبرة الإمام أحمد بن حنبل

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١٣١٦/٣، وفي تضاعيف الكتاب نماذج كثيرة من هذا الباب.
(٢) ذيل العبر: ٥٢/٤ ـ ٥٣.

غرقتْ سوى البيت الذي فيه ضريحه، فإن الماء دخل في الدهليز علو ذراع ووقف بإذن الله، وبقيت البواري عليها غبار حول القبر! صحَّ هذا عندنا»[1].

وفي الوقت نفسه يرد على مجازفات بعض المؤرخين في ذكر الحوادث وبعض تفاصيلها ووقائعها:

منهم سبط ابن الجوزي ــ وكثيراً ما يرد عليه ــ حيث اتهمه الذهبي بقلّة الورع والتثبت فيما يورده في كتابه «مرآة الزمان»، فمن ذلك قوله: «قد بلوتُ على أبي المظفر المجازفة وقلّة الورع فيما يؤرِّخه، والله الموعد، وكان يَتَرَفَّضُ...»[2].

ومن مجازفاته ماذكره الذهبي في ترجمة مُظَفَّر الدين كُوكْبُري بن علي صاحب إرْبل، فقال: «وقال سبط الجوزي: كان مظفر الدين ينفق في السنة على المولد[3] ثلاث مئة ألف دينار، وعلى الخانقاه مئتي ألف دينار، وعلى دار المضيف مئة ألف. وَعَدَّ من هذا الخسف أشياء. وقال: قال من حضر المولد مرة: عددت على سماطه مئة فرس قشلميش، وخمسة آلاف رأس مشوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومئة ألف زُبدية، وثلاثين ألف صحن حلواء! قلت: ما أعتقد وقوع هذا؛ فعُشر ذلك كثير جداً»[4].

بل وانتقد الإمام الحافظ أبا شامة ــ صاحب «الروضتين» ــ في نقله عن السِّبْط دونما نقد لما ينقله، ومن ذلك قول الذهبي: «وفي سنة

---

(١) المرجع السابق: ٤/٧١ ــ ٧٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١/٤٦٤.
(٣) أي المولد النبوي الشريف.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٢/٣٣٦ ــ ٣٣٧.

(٦١٤) كان الغرق. قال سبط الجوزي ـ بقلَّة وَرَع ـ : فانهدمت بغدادُ بأسرها، ولم يبق أن يطفح الماء على رأس السور إلا قدر إصبعين. إلى أن قال: وبقيتْ بغدادُ من الجانبين تلولاً لا أثر لها!! قلت: العجب من أبي شامة ينقل ـ أيضا ـ هذا ولا يبالي بما يقول»[1].

وفي ذكره بعض أبرز أحداث عام (٥٩٧ هـ) يقول: «قال أبو شامة: وفي شعبان جاءت زلزلة عَمَّت الدنيا في ساعة واحدة، فهُدمت نابُلُس، فمات تحت الهَدْم ثلاثون ألفاً، وهُدِمت عكّا وصُور وجميع قلاع الساحل! قلت: وهذه مجازفة ظاهرة»[2].

وتحدث عن معركة بين المصريين والفرنج على «عَسْقَلان»، وقد انتصر فيها المسلمون، ونقل قول ابن الأثير عنها: «قال ابن الأثير: فيقال قُتِلَ من الفرنج ثلاث مئة ألف». فعقَّب الذهبي بقوله: «قلتُ: هذه مُجازفة عظيمة»[3].

●● هذا مع تحقيقات رائعة، وتبيين وهم، وتصويب خطأ، سواء ممن سبقه، أو وقع منه هو ثم رأى الحق بخلافه، والأمثلة كثيرة غزيرة منثورة في كتبه الماتعة:

كتحقيقه في عمر سلمان الفارسي رضي الله عنه، حيث ذكر ما قيل في ذلك، ثم قال: «وما أراه بلغ المئة، فمن كان عنده علم فليفدنا». وتراجع عما أثبته من قبل في «تاريخ الإسلام»، فقال: «وقد ذكرتُ في تاريخي الكبير أنه عاش مئتين وخمسين سنة، وأنا الساعة لا أرتضي ذلك ولا أصححه»[4].

---

(١) المرجع السابق: ٢٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) المرجع السابق: ٢٢/ ٢٢٠.

(٣) المرجع السابق: ١٩/ ٤٠٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦، تاريخ الإسلام: عهد الخلفاء: ص ٥٢١.

وتحقيقه في وقت إسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، ورده على الواقدي في قوله أن النبي ﷺ تألفه وأعطاه مئة من الإبل وأربعين أوقية، فقال «قلتُ: الواقدي لا يعي ما يقول، فإن كان معاوية كما نقل قديمَ الإسلام، فلماذا يتألَّفه النبي ﷺ؟ ولو كان أعطاه، لما قال عندما خطب فاطمة بنت قيس: (أما معاوية فَصُعْلُوك لا مال له)[1].

ورده على من قال: إن ابن عمر شهد بدراً، واحتج لرأيه بما ثبت عن ابن عمر أنه قال: «عُرِضتُ على رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ وأنا ابنُ أربعَ عشرةَ سنة، فلم يُجزني»[2].

وردَّ الافتراءات التي اتُّهم بها الأعلام، كالخرافات التي وضعت على «قراقوش»[3].

●● كذلك زين كتبه في التاريخ والتراجم ببحوث مفيدة، وموضوعات قيمة، يحبّرها بين الحين والآخر، حينما يجد لذلك البحث تعلقاً ووشيجة بالحدث الذي يسوقه أو العلم الذي يترجمه.

ككلامه عن أقسام الناس بعد «وقعة صِفِّين»[4]، والموالي العلماء وسيادتهم بعلمهم في الأمصار[5]، وأبرز الناس في كل علم أو فضيلة أو صفة، وهو قوله:

«قلتُ: الكتابةُ مُسَلَّمةٌ لابن البَوّاب، كما أنّ أقرأ الأمة أُبَيُّ بن كعب، وأقضاهم علي، وأفرَضهم زيد، وأعلمهم بالتأويل ابن عباس،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/١٢٢.
(٢) المرجع السابق: ٣/٢٠٩.
(٣) العبر: ٣/١١٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٥/٣٧٤.
(٥) المرجع السابق: ٥/٨٥.

وأمينَهم أبو عُبيدة، وعابرهم محمد بن سيرين، وأصدقهم لهجة أبو ذر، وفقيه الأمة مالك، ومحدِّثَهم أحمدُ بن حنبل، ولُغَوِيَّهم أبو عُبيد، وشاعرَهم أبو تمام، وعابدَهم الفُضيلُ، وحافظَهم سفيانُ الثوريّ، وأخباريَّهم الواقديُّ، وزاهدهم معروفُ الكَرْخِي، ونحويَّهم سيبويه، وعَرُوضِيَّهم الخليلُ، وخطيبهم ابنُ نُباتة، ومُنْشِئَهم القاضي الفاضل، وفارسَهم خالدُ بن الوليد. رحمهم الله»[1].

منهجه وسماته وخصائصه:

للذهبي منهج متميز وأسلوب فريد في التأليف والاختصار، حيث تبدو ذاتيته واضحة بارزة، فقد تخلَّص من الجمود الذي قيَّدَ كثيراً من العلماء والمصنفين، فكان هو فقيه النظر، خبيراً بأقوال الناس ومذاهب الأئمة والمصنفين. يدرك ذلك كل من عاش معه في تواليفه، وأمعن النظر فيها، حيث سلاسة التعبير، وجمال الأسلوب، وعذوبة الألفاظ، وقوة الحبك، وروعة السبـك، وتكامل البحث، ودقة النقد، مع الإنصاف وعدم هضم حق أحد كَبُر أو صَغُر. بحيث يطمئن الإنسان غاية الاطمئنان لما يقرأ في تصانيفه، أو ينقل منها.

●● وأبرز ميزة في منهج الذهبي هي طبيعة مؤلفاته:

حيث إنه ترك آثاراً ضخمة، قيمة كثيرة في مختلف فنون التاريخ، سواء بالاختصار، أو الانتقاء، أو التذييل، أو التأليف. فنجده قد اختصر كتباً كبيرة في «التواريخ المحلية». كمختصر تاريخ بغداد، ومختصر تاريخ دمشق، ومختصر تاريخ مصر، وغيرها. وفي الوفيات: كمختصر التكملة للمنذري. وفي الأنساب: كمختصر أنساب السمعاني. وفي الصحابة: كمختصر أسد الغابة. وفي رجال الكتب الستة: كتذهيب

---

(١) المرجع السابق: ١٧/٣١٩ ـ ٣٢٠.

التهذيب مختصر «تهذيب الكمال». وألّف في الجرح والتعديل: كميزان الاعتدال. وفي الضعفاء: كالمغني. وفي تراجم الأعلام: ككتابه الأصيل سير أعلام النبلاء. وأفرد سيراً مطولة مخصصة بكبار الأئمة الأعلام: فكتب في سير الخلفاء الراشدين، وأئمة الفقه والحديث كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وابن المبارك، والبخاري، والثوري، وشعبة، وغيرهم. كذلك صنف في التاريخ الحَوْلي الذي خلط فيه الأحادث بالتراجم، مرتبة على السنين، كما في كتبه: تاريخ الإسلام، والعبر، ودول الإسلام.

●● **كذلك فإن الذهبي قد استوعب في تواريخه هذه ـ المرتبة على الأحداث والوفيات ـ كل عصور التاريخ الإسلامي من أول ظهور الإسلام حتى زمانه الذي دوَّن فيه تصانيفه:**

فكتَبَ التاريخ من سنة (١ هـ) حتى (٧٤٠ هـ) قبيل وفاته بأعوام. ونرى من خلال ذلك أنه استطاع أن يكون مؤرخاً جوّال الذهنية في أحداث سبعة قرون ونصف، فألَّف كتبه القيمة التي اعتمدت على كتب من سبقوه، ثم الرواية الشفوية والمشاهدة لأحداث عصره.

بيد أنه أمام الكمِّ الهائل من الأحداث والوقائع، والتراث الذي كُتب في هذا المجال الرحيب، كان عليه أن ينتقي ويختار، ويصبّ ذلك في تآليفه بأسلوبه وحسب منهجه. ولما كان الذهبي ـ كغيره من المؤرخين المسلمين ـ يعتبر عوامل معينة وأحداثاً بارزة أثرت في كل أحداث التاريخ ومجرياته؛ فكان طبيعياً أن يفصل القول، ويركز البحث حول هذه الأمور. لذا انتقى ما رآه مهماً، حرياً بالذكر جديراً بالتدوين، ففصَّلَ القول بالفترة المباركة التي هي أصل قيام دولة الإسلام وتاريخه وهي حكومة الرسول ﷺ والعهد النبوي في المدينة، ثم بعد ذلك عهد الراشدين والفتوحات والجهاد في عصرهم الزاهر، الذي عليه قام كل

بناء للإسلام وتاريخه فيما بعد. لهذا نجد هذه المدة الزمنية القصيرة والتي لا تشكل أكثر من ٦٪ من الحَيِّزِ الزماني لكتب الذهبي قد استغرقت قرابة ثلث الحوادث مما ذكره في «تاريخ الإسلام» مثلاً. كذلك فصّل القول بانسياب حركة الجهاد والفتوحات والحروب مع البيزنطيين والصليبيين وغيرهم مما كان له الأثر الفاعل في صناعة التاريخ. كذلك أوسع القول في أصحاب المِلَل والنِّحَل، والأهواء والمذاهب الباطلة، والبدع، والحركات الهدامة، مثل: الرافضة، والإسماعيلية، والإمامية، والزنادقة، والقرامطة، وفتنة الزنج، والعُبيدية، وغير ذلك. وهذا نابع من كونه سلفي العقيدة، يرى وجوب هتك باطل هؤلاء والتنبيه على ضررهم ومساوئهم خلال أحداث التاريخ.

ونجده حين يؤرخ للأحداث في كتبه المختصرة «كالعبر» و«دول الإسلام» يعبر عن ذلك بعبارات وجيزة، وسطور قليلة، بأسلوب بارع، وألفاظ دالّة، وكلمات مبينة فصيحة مفصحة عن المراد؛ وهذا لا يتأتى إلا لمن كان مليئاً بالتاريخ، قد درسه دراسة عميقة شاملة، ثم استطاع أن يفرغه في قالب من الانسجام، يعبر عن فهمه العام التام.

ومن أروع الأمثلة على ذلك ما يذكره بين الحين والآخر في «تذكرة الحفاظ» في نهاية أكثر الطبقات، حيث يذكر خلاصة مجملة عن الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية لتلك الحقبة الزمنية؛ مما يدلل على سعة علمه، وامتداد باعه، وبُعْد أفقه، وبراعة فهمه، وتفوق منهجه وتصانيفه. ومن ذلك قوله في نهاية «الطبقة السادسة»: «والدولةُ لهارون الرشيد والبرامكة، ثم بعدهم اضطربت الأمور، وضعُفَ أمرُ الدولة بخلافة الأمين رحمه الله، فلما قُتل واستُخلف المأمون على رأس المئتين نجم التشيّع وأبدى صفحته، وبَزَغَ فجرُ الكلام، وعُرِّبت حكمةُ الأوائل ومنطق اليونان، وعُمل رصد الكواكب، ونشأ للناس علمٌ جديد مردٍ

مهلكٌ لا يلائم علمَ النبوة ولا يوافق توحيد المؤمنين، قد كانت الأُمة منه في عافية! وقويتْ شوكة الرافضة والمعتزلة، وحَمَلَ المأمونُ المسلمين على القول بخلْق القرآن، ودعاهم إليه، فامتحن العلماء، فلا حول ولا قوة إلا بالله، إن من البلاء أن تَعرف ما كنتَ تُنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وتُقَدَّم عقولُ الفلاسفة، ويُعزل منقولُ أتباع الرسل، ويُمارى في القرآن، ويُتَبَرَّم بالسنن والآثار، وتقع في الحيرة. فالفرار قبل حلول الدمار، وإياك ومضلّات الأهواء ومجاراة العقول، ومَنْ يعتصمْ باللَّهِ فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم»[1].

●● ومما يميز الذهبي ومنهجه في كتابته «تاريخ الرجال وتراجمهم وسيرهم» أنه لم يقتصر على عصر معين، أو بلد معين، أو تنظيم معين، أو فئة معينة.

فتراه من حيث الشمول الزماني قد ترجم للأعلام والمشاهير منذ بزوغ فجر الإسلام وحتى نهاية القرن السابع، بل وترجم المعاصرين له كما في «معجم شيوخه»، و«المعجم المختص» والأقسام الأخيرة من «تذكرة الحفاظ» و«المعين في طبقات المحدثين» و«معرفة القراء» و«ذيل العبر»، وبعض هؤلاء قد توفي بعده.

وطبيعي أن يشمل هذا الكم الهائل من التراجم الأعلامَ في أمصار الإسلام المختلفة.

كذلك ترجم مشاهير القرّاء، وأفرد لهم كتابه «معرفة القرّاء الكبار». والحفاظ والمحدثين وأفردهم بكتابه القيّم «تذكرة الحفاظ».

(١) تذكرة الحفاظ: ١/٣٢٨ ـ ٣٢٩. وانظر أمثلة أخرى في التذكرة: ١/٧٠، ١٥٨ ـ ١٦٠، ٢٤٤، ٢/٥٣٠، ٦٢٧ ـ ٦٢٨، ٤/١٤٨٥.

وشمل كل المشاهير والأعلام ومن دونهم بكتابيه «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء»، فترجم لعدد هائل يناهز الأربعين ألف ترجمة في «تاريخه»، و(٥٩٢٥) ترجمة في «النبلاء». وهذه التراجم تشمل المحدثين والفقهاء، والمؤرخين والمفسرين، والخطباء والقضاة والمفتين، والنحاة والشعراء والأدباء، والزهّاد والعُبَّاد، والحكام والأمراء، والفقراء والأغنياء، دون تخصيص لمذهب أو نِحْلة، بل ترجم أصحاب المذاهب الأربعة، والظاهرية، والزيدية، والشيعة، والرافضة، وأهل الكلام، والمعتزلة، والمرجئة، والمتصوفة، بل والزنادقة!!

●● ومن أعظم ميزات منهج الذهبي في التراجم أنه يورد آراء الموافقين والمخالفين في المترجَم، ليقدم صورة كاملة صادقة عنه، ثم بعد ذلك يصدر رأيه ـ غالباً ـ خاصة إذا رأى حيفاً أو تعنتاً أو مبالغة، فيكون تقويم الذهبي لصاحب الترجمة خلاصة الرأي فيه. كما يصدر حكماً في تقويم حديثه إن كان من أصحاب الرواية.

وقد طبع ذلك بالإنصاف والمعدلة، مهما كانت منزلة المترجم أو صفته، وهو طابع عام في كتب الذهبي التي تناولت التراجم والسير[١].

وأسوق هنا مثالاً واحداً على ذلك، وهو ما جاء في ترجمة الإمام الأوحد، ذي المعارف والفنون أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٩ هـ)، فمما ذكره الذهبي في ترجمته: «الفقيهُ الحافظُ، المتكلمُ، الأديبُ، الوزيرُ الظاهريُّ، صاحبُ التصانيف... نشأ في تَنَعُّم ورفاهية، ورُزِق ذكاءً مُفرطاً، وذِهناً سيّالاً، وكُتُباً نفيسة كثيرة... وكان قد مَهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر، وفي المنطق وأجزاءِ الفلسفة، فأثَّرت فيه تأثيراً لَيْتَه سَلِمَ من ذلك، ولقد وقفتُ له على

---

(١) انظر تفصيل ذلك في فصل «الذهبي الناقد الكبير» من هذا الكتاب.

تأليف يحضُّ فيه على الاعتناء بالمنطق، ويقدِّمه على العلوم، فتألَّمتُ له، فإنه رأسٌ في علوم الإسلام، متبحِّر في النقل، عديمُ النظير، على يُبْس فيه وفَرْطِ ظاهرية في الفروع لا الأصول... وقد أثنى عليه قَبْلَنا الكبارُ: قال أبو حامد الغزالي: وجدتُ في أسماء الله تعالى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدلّ على عِظَم حفظه وسَيَلان ذهنه. وقال الإمام أبو القاسم صاعدُ بنُ أحمد: كان ابنُ حزم أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام... وقال أبو عبد الله الحُميدي: كان ابنُ حزم حافظاً للحديث وفِقهِه، مُستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، مُتفنّناً في علوم جَمَّة، عاملاً بعِلمه، ما رأينا مثلَه فيما اجتمع له من الذكاء، وسُرعةِ الحفظ، وكَرَمِ النفس والتديُّن... وقد حطَّ أبو بكر بن العربي على أبي محمد في «كتاب القواصم والعواصم»[1] وعلى الظاهرية، فقال: هي أمة سخيفة تَسَوَّرتْ على مرتبة ليست لها... وكان أولَ بدعة لقيتُ في رحلتي القولُ بالباطن، فلما عدتُ، وجدتُ القول بالظاهر قد ملأ به المغربَ سخيفٌ كان في بادية إشبيلية يُعرف بابن حزم!! نشأ وتعلَّق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكلَّ واستقلَّ بنفسه، وزعم أنه إمام الأُمّة، يضع ويرفع، ويحكم ويشرع... قلت[2]: لم يُنْصِف القاضي أبو بكر ـ رحمه الله ـ شيخَ أبيه في العلم، ولا تَكلَّمَ فيه بالقِسط، وبَالَغَ في الاستخفاف به، وأبو بكر فَعَلى عَظمته في العلم لا يَبْلُغُ رتبة أبي محمد، ولا يكاد، فرحمهما الله، وغفر لهما»[3].

---

(١) مطبوع مشهور باسم «العواصم من القواصم»، وهذا المطبوع هو قسم من الكتاب لا كل الكتاب.

(٢) القائل هو الذهبي.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٨/١٨٤ ـ ٢١٢.

مكانته وقيمة مصنفاته التاريخية:

من هذا الاستقراء الموجز لشخصية الذهبي مؤرخاً، نلاحظ أنه كان عالماً فذاً، واسع الاطلاع، غزير المعارف، سيما في التراجم، وهو الحقل الذي ألّف فيه كتابيه العظيمين «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء»؛ مما جعله يستحق أن ينعت بـ «إمام المؤرخين».

وقد أثنى عليه في هذا المجال الأكابر، فوصفه الحافظ ابن ناصر الدين بأنه «مؤرخ الإسلام»[1]، ونعته الحافظ السخاوي بأنه «الحافظ المؤرخ العمدة»[2]، وعدَّه السيوطي في رأس الطبقة الثانية والعشرين التي ذكر فيها[3]: القطب الحلبي (ت ٧٣٥ هـ)، وابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ)، وابن عبد الهادي (ت ٧٤٤ هـ)، وتقي الدين السُّبْكي (ت ٧٥٦ هـ)، والبِرْزالي (ت ٧٣٩ هـ)، وغيرهم، وهؤلاء من أعلام المحدثين المؤرخين. وقال الشوكاني في ترجمته: «وبالجملة: فالناس في التاريخ من أهل عصره فَمَنْ بعدهم عيال عليه، ولم يجمع أحد في هذا الفن كجمعه، ولا حَرَّره كتحريره»[4].

وقد أصبحت كتبه مورداً ثراً، ومصدراً رئيساً أميناً لكل من جاء بعده ممن كتب في التاريخ والرجال، حتى إن كتابه «العبر» و«ذيله» قد سلخه كل من ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»، والنعيمي في «الدارس».

●●●

(١) الرد الوافر: ٦٦.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ٨٤.

(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٤٨، طبقات الحفاظ: ٥٢٢.

(٤) البدر الطالع: ٢/١١١.

رابعاً ـ الذهبي الفقيه

●● لم يشتهر الذهبي في الفقه شهرته في الحديث والتاريخ، وجميع مَنْ ترجم له قد أغفل هذا الجانب من شخصيته العلمية، ومن نَبَّه عليه فلا يعدو الإشارة العابرة، التي تدل على الشيء دون تفصيل القول فيه، أو إيراد أدلته وإيضاح معالمه.

وسبب ذلك أن الإمام لم يتوجَّه للفقه توجُّهه للقراءات والحديث والتاريخ، طلباً واشتغالاً وتصنيفاً؛ لذا بقي «الجانب الفقهي» في شخصيته في ظل تلك الجوانب البارزة الشامخة، يتضاءل عنها، فلا يضاهيها ولا يدانيها.

بَيْدَ أن هذا لا يعني البتة أن الإمام لم يكن عالماً بالفقه، أو غير عارف به، أو عازفاً عنه، وإن كان جلّ اهتمامه وتوجهه لعلوم أخرى؛ لأنه يعلم تمام العلم أن المحدث الذي ينقل الآثار النبوية ويحفظها، لا بدّ له من فقهها، ومعرفة مدلولاتها، وما تتضمنه من أوامر ونواهٍ، وإرشادات وتوجيهات. وقد حفظنا من سيرة الذهبي أنه لا ينقل نصاً تاريخياً، أو رواية، أو حديثاً، أو ترجمة لرجل؛ إلا ويعمل فيه ـ غالباً ـ عقله الناقد، ويبدي رأيه الناضج الحصيف، فهل يَقبل الذهبي من نفسه أن يحفظ الحديث النبوي وهو لا يفقه ما يحمله وما يحفظه، ولا يعرف فقه تلك النصوص ولا أصول استنباط الأحكام منها؟!

لقد نعى على أولئك المحدّثين الذين قصرت هممهم عن إتقان الفقه، وعنَّف الفقهاء الذين لا بصر لهم بالحديث، فقال في ترجمة الإمام العلاّمة علي بن موسى القُمِّي شيخ الحنفية بخراسان، المتوفى سنة (٣٠٥ هـ): «... فكان المحدِّثون إذ ذاك أئمة عالمين بالفقه أيضاً، وكان أهلُ الرأي بُصَراءَ بالحديث، قد رَحَلوا في طلبه، وتقدَّموا في معرفته. وأما اليوم، فالمحدِّث قد قَنِعَ بالسِّكة والخُطبة، فلا يفقه ولا

يحفظ، كما أن الفقيه قد تَشَبَّثَ بفقهٍ لا يُجيد معرفته، ولا يدري ما هو الحديثُ، بل الموضوعُ والثابتُ عنده سواء، بل قد يعارضُ ما في الصحيح بأحاديث ساقِطة، ويكابر بأنهـا أصحّ وأقـوى. نسأل الله العافية»[1].

وقد استطعنا بتتبعنا لكتب الذهبي من التقاط آرائه المنثورة فيها، وبحوثه المكنونة في بطونها، والتأليف بينها، لتكوين فكرة واضحة عن هذه الناحية في شخصيته العلمية رحمه الله ورضي عنه.

●● أخذ الذهبي الفقه عن أعلام فقهاء عصره، منهم:

محمد بن علي بن عبد الـواحد المعـروف بابن الـزَّمْلَكَاني (ت ٧٢٧ هـ)، وإبراهيم بن عبد الرحمٰن بن سِباع الفَزَاري برهان الدين (ت ٧٢٩ هـ)، وعبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب الأسدي كمال الدين المعروف بابن قاضي شُهْبَة (ت ٧٢٦ هـ)، وغيرهم[2].

وألف في الفقه وأصوله، واختصر بعض الكتب، وقد ذكرنا له (١٨) أثراً في هذا الباب[3] تدل على اطلاعه الجيد وتمكنه في هذا العلم الشرعي الهام. ومن جملة الكتب التي اختصرها «المحلى» لابن حزم، وهو من الكتب الفقهية الكبار، الغنية بالمسائل، الغزيرة بالفوائد.

وكان واسع الاطلاع على مذهبه باعتباره شافعياً، جيد المعرفة بالمذاهب الأخرى، وهذا ما دعا ابن ناصر الدين أن يصفه بقوله: «له

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٥٦. وقد ترجم الذهبي للأولَيْن في معجم الشيوخ والمعجم المختص، وترجم الثالث في معجم الشيوخ.

(٣) انظر: ص ٥١٤ ـ ٥٢٠ من هذا الكتاب.

دربة بمذاهب الأئمة وأرباب المقالات، قائماً بين الخَلَف بنشر السنة ومذهب السَّلَف»[1].

●● والذهبي كغيره من أئمة الهدى وأعيان المحدثين يرى أن أساس الفقه هو كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، ويظهر ذلك من خلال أقواله وتقريراته وبحوثه، فمن ذلك:

قوله:

الفقهُ قال الله قال رسولُه إن صحَّ والإجماعُ فاجهدْ فيهِ
وحَذارِ من نصبِ الخِلافِ جهالةً بين النبيّ وبينَ رأي فقيهِ[2]

وذكر في أثناء ترجمة الإمام مالك ما يؤكد ذلك، حيث يقول: «وقال شيخ: إن الإمام لمن التزم بتقليده، كالنبي مع أمته، لا تَحِلُّ مخالفته. قلت[3]: «قوله: لا تحل مخالفته»: مجردُ دَعوى واجتهاد بلا معرفة، بل له مخالفةُ إمامه إلى إمام آخر، حُجَّتُه في تلك المسألة أقوى، لا بل عليه اتباعُ الدليل فيما تَبرهن له»[4].

وأكّد ذلك في رسالته «بيان زغل العلم» حيث يقول: «فالله تعالى ما أوجب عليهم تقليد إمامهم، فلهم أن يأخذوا ويتركوا كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «كل أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُترك، إلا صاحب هذا القبر ﷺ». فيا هذا، إذا وقفتَ غداً بين يدي الله تعالى فما حجَّتُكَ؟ إن قلتَ: قلّدتُ إمامي، يقول لك: فما أنا أوجبتُ عليك تقليد إمامك»[5].

---

(١) الرد الوافر: ٦٧.
(٢) الرد الوافر: ٦٧، فوات الوفيات: ٣/٣١٧، فهرس الفهارس: ١/٤٢٠. وفي الأخيرين: مطلع البيت الأول: «العلم» بدلاً من «الفقه».
(٣) القائل هو الذهبي.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٨/٩٠.
(٥) بيان زغل العلم: ١٢.

ولكنِ ليس لكل أحد أن يجتهد ولا يقلِّد، وقد بيَّن الذهبي ذلك فقال: «قلتُ نعم، مَنْ بلغ رتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عِدة من الأئمة، لم يَسُغْ له أن يقلِّد. كما أن الفقيه المبتدىء والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يَسوغُ له الاجتهاد أبداً؛ فكيف يَجتهدُ، وما الذي يقول؟ وعلامَ يبني؟ وكيف يطيرُ ولمّا يَـرِشْ؟! والقِسم الثالث الفقيه المنتهي اليَقِظ الفَهِم المحدِّث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل، مع حفظه لكتاب الله وتشاغلِه بتفسيره وقوة مناظرته؛ فهذه رُتبة مَنْ بلغ الاجتهـاد المقيَّدَ، وتأهَّل للنظرِ في دلائل الأئمة، فمتى وَضح له الحقُّ في مسألة، وثبتَ فيها النصّ، وعَمِلَ بها أحدُ الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو كمالك أو الثوريِّ، أو الأوزاعي، أو الشافعي، وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، فلْيتَّبع فيها الحق ولا يَسْلُكْ الرُّخصَ، ولْيتورَّع، ولا يَسَعُه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليدُ، فإن خاف ممن يُشَغِّب عليه من الفقهاء فلْيَتَكتَّم بها ولا يتراءى بفعلها، فربّما أعجبتْه نفسُه، وأحبَّ الظهور، فيُعاقَب...»[1].

وفي ترجمته لشيخ الشافعية بالعراق عبد العـزيز بن عبـد الله الدَّارَكي (ت ٣٧٥ هـ)، نقل قوله: «وَيحكمْ! حدَّث فلان عن فلان، عن رسول الله ﷺ بكذا وكذا، والأخذُ بالحديث أولى من الأخذ بقول الشافعي وأبي حنيفة». ثم عقب الذهبي على ذلك قائلاً: «قلت: هذا جيد، لكنْ بشرط أن يكون قد قال بذلك الحديث إمام من نظراء هذين الإمامَيْن مثلِ مالك، أو سفيان، أو الأوزاعي، وبأن يكون الحديث ثابتاً سالماً من علَّة، وبأن لا يكون حجةُ أبي حنيفة والشافعي حديثاً صحيحاً معارضاً للآخر. أما مَنْ أخذ بحديثٍ صحيح وقد تنكَّبه سائر أئمة

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/١٩١ ـ ١٩٢.

الاجتهاد، فلا، كخبر: (فإنْ شرب في الرابعةِ فاقْتُلُوه)....»[1].

وضمن هذه الأسس يقرر حقيقة العالم الفقيه، فيقول:

«قال الشيخ عز الدين بنُ عبد السلام ـ وكان أحدَ المجتهدين ـ: ما رأيتُ في كتب الإسلام في العلم مثل «المُحَلَّى» لابن حزم، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين. قلتُ: لقد صدق الشيخ عز الدين. وثالثُهما: «السنن الكبير» للبيهقي، ورابعها: «التمهيد» لابن عبد البر. فمن حصَّلَ هذه الدواوين، وكان من أذكياء المفتين، وأدمنَ المطالعة فيها؛ فهو العالم حقاً»[2].

وأكد هذا في مواضع كثيرة، منها ما جاء في ترجمته للإمام الحافظ الفقيه محمد بن إبراهيم بن المنذر، فقال: «قال الشيخ مُحيي الدين النَّواوي: له من التحقيق في كتبه ما لا يقارِبُهُ فيه أحد، وهو في نهايةٍ من التمكُّن من معرفة الحديث، وله اختيار فلا يتقيد في الاختيار بمذهب بعَيْنه، بل يدور مع ظهور الدليل. قلت[3]: ما يتقيَّد بمذهبٍ واحد إلا مَنْ هو قاصرٌ في التمكن من العلم كأكثر علماء زماننا، أوْ مَنْ هو متعصِّب، وهذا الإمام فهو من حَمَلةِ الحُجَّة، جارٍ في مِضْمار ابن جَرير، وابن سُرَيج، وتلك الحلبة رحمهم الله»[4].

ومن لم يكن في مكنته أن يكون كذلك، ولم تتحقق له الأهلية للنظر والاجتهاد؛ فليسعه مطالعة كتب الفقه والنظر في حجج الأئمة،

---

(١) المرجع السابق: ١٦/٤٠٥. والحديث المذكور صحيح، وجمهور أهل العلم على أنه منسوخ.

(٢) المرجع السابق: ١٨/١٩٣.

(٣) القائل هو الذهبي.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٤/٤٩١.

والاحتياط لدينه ومراقبة ربه، فإن من بداهة العقول أن لا تكون الأمة كلها في مستوى واحد، كل أفرادها مجتهدون أو كلهم مقلِّدون، فالمجتهدون قلة قياساً بعامة الأمة. يقول الذهبي في ذلك:

«ولكنْ: شأن الطالب أن يَدْرُسَ أولاً مصنفاً في الفقه، فإذا حفظه، بحثَه، وطالع الشروح، فإن كان ذكياً، فقيه النفسِ، ورأى حُجَجَ الأئمة، فلْيُراقبِ اللَّهَ، ولَيَحْتَطْ لدينه، فإن خيرَ الدين الورعُ، ومن تَرَكَ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضِه، والمعصومُ من عصمهُ اللَّهُ.

فالمقلَّدون صحابة رسول الله ﷺ، بشرط ثبوتِ الإسناد إليهم، ثم أئمة التابعين كعلقمة، ومَسْروق، وعَبيدة السَّلْماني، وسعيد بن المُسَيِّب، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جُبير، وعُبيد الله بن عَبد الله، وعروة، والقاسم، والشَّعْبي والحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي.

ثم كالزهريِّ، وأبي الزِّناد، وأيوب السَّخْتياني، وربيعة، وطبقتهم.

ثم كأبي حنيفة، ومالك، والأوزاعيّ، وابن جُريج، ومَعْمر، وابن أبي عَروبة، وسُفيان الثَّوري، والحَمَّادَيْن، وشُعبة، والليث، وابن الماجِشُون، وابن أبي ذِئْب.

ثم كابن المبارك، ومُسْلم الزَّنجي، والقاضي أبي يوسف، والهِقْل بن زياد، ووكيع، والوليد بن مسلم، وطبقتهم.

ثم كالشافعي، وأبي عُبيد، وأحمد، وإسحاق، وأبي ثَور، والبُويطي، وأبي بكر بن أبي شيبة.

ثم كالمزني، وأبي بكْر الأثرم، والبخاري، وداود بن علي، ومحمد بن نَصْر المَرْوَزي، وإبراهيم الحَرْبي، وإسماعيل القاضي.

ثم كمحمد بن جرير الطبري، وأبي بكر بن خُزَيْمة، وأبي عباس ابن سُرَيج، وأبي بكر بن المُنْذر، وأبي جَعفر الطحاوي، وأبي بكر الخَلَّال.

ثم من بعد هذا النمط تناقَصَ الاجتهادُ، ووُضِعَتِ المختصراتُ، وأَخْلَدَ الفقهاءُ إلى التقليد...»[1].

●● والمشهور عن الذهبي أنه شافعي المذهب، كما ذكر ذلك غير واحد ممن ترجم له، وأشار هو إلى ذلك في غير موضعٍ، من ذلك قوله في ترجمة عالم الرافضة «محمد بن إدريس العِجْليّ الحِلّي»: «وله بالحِلّة شهرة كبيرة وتلامذة، ولبعض الجهلة فيه قصيدة يفضِّله فيها على محمد بن إدريس إمامِنا»[2].

وكان واسع الاطلاع على المذهب الشافعي، خبيراً بأئمته وأصحاب الوجوه[3] فيه، بصيراً بكتبه، جيد الاطلاع عليها، مع نقدها وتقويمها وإصدار رأيه فيها.

قال في ترجمة الإمام الشافعي: «سمعنا جُزءاً في رحلة الشافعي، فلم أَسُقْ منه شيئاً لأنّه باطلٌ لمن تأمَّله. وكذلك عُزِيَ إليه أقوالٌ وأصولٌ لم تَثْبُتْ عنه، وروايةُ ابن عبد الحكم عنه في مَحَاشِّ النساء منكرة، ونصوصُه في تواليفه بخلافِ ذلك»[4].

---

(١) المرجع السابق: ٨/ ٩٠ ـ ٩١.

(٢) المرجع السابق: ٢١/ ٣٣٢.

(٣) الوجوه: هي الآراء التي يستنبطها الفقهاء الشافعية ويخرجونها على أصول الإمام الشافعي، أو يبنونها على قواعده. قال النووي في المجموع: «فالأقوال للشافعي، والأوجه لأصحابه المنتسبين إلى مذهبه، يخرجونها على أصوله، ويستنبطونها من قواعده، ويجتهدون في بعضها وإن لم يأخذوه من أصله». المجموع: ١/ ١٠٧.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٧٨. والمَحَاشّ: جمع مَحَشَّة، وهي الدُّبُر. وفي هذه =

ويقول في ترجمة الحافظ الفقيه شيخ خراسان أبي الوليد حسان بن محمد النَّيْسَابوري الشافعي: «ومن أغرب ما أتى به أنه قال: من كَرَّر الفاتحة مرتين بَطَلَتْ صلاتُه، وهذا خلاف نص الإمام[1]. وقال: الحِجَامة تفطِّر الحاجمَ والمَحْجُومَ، والتزمَ أنه هو المذهب لصحةِ الأحاديث فيه. وهذا فيه نظر؛ لأن الأمام ما ضعَّف الأحاديث، بل ادَّعى نسخَها»[2].

وقال في ترجمة الإمام العلامة الفقيه الشافعي محمد بن سليمان العِجْلي الصُّعْلُوكي النَّيْسابوري: «قلت: هو صاحبُ وَجْه، ومن غرائبه وجوبُ النيَّة لإزالةِ النَّجاسةِ»[3].

وقال في ترجمة الفقيه الأصولي محمد بن علي بن إسماعيل الشَّاشيّ الشافعي المعروف بالقَفَّال الكبير: «قلت: من غرائب وجوهه في «الروضة»[4]: أن للمريض الجمع بين الصلاتين. ومنها أنه استحبَّ للكبير أن يعقَّ عن نفسه، وقد قال الشافعي: لا يُعَقّ عن كبير»[5].

ومن تقويماته لكتب المذهب الشافعي، قوله في ترجمة شيخ الشافعية الإمام الحسن بن محمد بن شعيب المَرْوزيّ: «مصنِّف شرحَ «كتاب الفروع لابن الحدّاد»، وهو من أنفس كتب المذهب»[6].

= المسألة يقول الربيع: والله لقد كُذِبَ على الشافعي، فإن الشافعي ذكر تحريمَ هذا في ستة كُتب من كتبه.

(١) أي الشافعي.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٥/٤٩٣، تذكرة الحفاظ: ٣/٨٩٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٦/٢٣٧، العبر: ٢/١٣٢.

(٤) للنووي، وقد ذكر ذلك عن القفال.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١٦/٢٨٤، تاريخ الإسلام، وفيات: (٣٥١ ـ ٣٨٠) ص ٣٤٦. وانظر أمثلة أخرى في «النبلاء»: ١٧/٦٧١، ١٨/١٧٣، ٢١/١٢٧. وغيرها.

(٦) سير أعلام النبلاء: ١٧/٥٢٦.

وفي ترجمة العلاّمة فخر الإسلام عبد الواحد بن إسماعيل الرُّوياني الطبري الشافعي، يقول: «وله كتاب «البحر» في المذهب، طويل جداً، غزير الفوائد»[1].

●● وكما حفظنا من سيرة الذهبي أنه محدث ناقد، ومؤرخ منصف، فكذلك هو في الفقه، يدور مع الحق حيث دار، ويعوِّل على الدليل، ويعظّم كل الأئمة، ويحترم كلَّ صاحب حق منصف مخلص.

فالمسلم يوالي جميع الأئمة، ويشيد بفضلهم، ولا يعتقد فيهم العصمة، ولا يجعله تقليده واحداً منهم متعصباً على غيره، أو يفرط في حبه، فينحرف عن الصواب.

قال الذهبي في ترجمة الإمام العلاّمة شيخ الشافعية بالعراق أبي جعفر محمد بن أحمد التِّرْمِذيّ: «ونقل الشيخ مُحيي الدين النَّوَوِيُّ: أن أبا جعفر جَزَمَ بطهارةِ شعرِ رسول الله ﷺ. وقد خالفَ في هذه المسألة جمهور الأصحاب. قلتُ: يتعيَّنُ على كلّ مسلمٍ القطع بطهارةِ ذلك، وقد ثبتَ أنه ﷺ لما حَلَقَ رأسَه، فَرَّقَ شعره المطهَّرَ على أصحابه، إكراماً لهم بذلك. فَوَالَهْفِي على تقبيلِ شعرةٍ منها»[2]!!

وقال في رسالته القيمة «بيان زغل العلم» متوجهاً إلى بعض الفقهاء الأحناف: «ولا يكنْ هَمّك الحكم بمذهبك، وإن كانت هِمَّتك في طلب الفقه الجَدَل والمِراء والانتصار لمذهبك على كل حال، وتحصيل المدارس والعلو؛ فما هذا فقهاً أخروياً، بل هذا فقه دُنيويّ، فما أظنُّكَ تقول غداً بين يدي الله تعالى: تعلمتُ العلمَ لوجهكَ، وعلَّمْتُه فيكَ. فاحْذَرْ أن تغلط وتقولها، فَيُقال لك: كذبتَ، إنما تعلَّمتَ لِيُقال: عالم،

---

(١) المرجع السابق: ١٩/٢٦١.

(٢) المرجع السابق: ١٣/٥٤٦ ـ ٥٤٧.

وقد قيل، ثم يُؤْمر بك مسحوباً إلى النار، كما رواه مسلم في «الصحيح». فلا تعتقدْ أن مذهبك أفضلُ المذاهب وأحبُّها إلى الله تعالى، فإنك لا دليل لك على ذلك، ولا لمخالفك أيضاً، بل الأئمة رضي الله عنهم على خيرٍ كثير، ولهم في صوابهم أجْرانِ على كل مسألة، وفي خطئِهم أجرٌ على كل مسألة[1]».

وقال في ترجمة الإمام الشافعي: «وإمامُنا، فبحمد الله ثَبْتٌ في الحديث، حافظٌ لما وعى، عديمُ الغَلَط، موصوفٌ بالإتقان، متينُ الديانة، فمن نال منه بجهلٍ وهوىً ممن عُلِمَ أنه منافِسٌ له، فقد ظلَمَ نفسَه، ومَقَتَتْهُ العلماءُ، ولاحَ لكل حافظٍ تحامله، وجرَّ الناسُ برجلِهِ، ومَنْ أثنى عليه واعترف بإمامته وإتقانه، وهم أهلُ العَقْد والحَلِّ قديماً وحديثاً، فقد أصابوا، وأجملُوا، وهُدوا، ووفِّقوا... وقد كنتُ وقفتُ على بعض كلام المغاربة في الإمام رحمه الله، فكانت فائدتي من ذلك تضعيفَ حال من تعرّض إلى الإمام، ولله الحمد. ولا ريبَ أن الإمام لما سكنَ مصرَ، وخالفَ أقرانَه من المالكية، ووهَّى بعض فُروعِهم بدلائل السُّنَّة، وخالفَ شيخَه في مسائلَ؛ تألَّموا منه، ونالوا منه، وجرتْ بينهم وحشةٌ غفر الله لِلكلِّ. وقد اعترف الإمام سُحْنُون، وقال: لم يكنْ في الشافعي بدعةٌ. فصدق والله، فرحمَ اللَّهُ الشافعيَّ، وأين مثل الشافعي والله! في صدقه، وشرفه، ونُبْله، وسعَة علمه، وفَرْط ذكائه، ونَصْرِه للحقّ، وكثرة مناقبه، رحمه الله تعالى». ثم قال: «لا نُلامُ واللَّهِ على حُبِّ هذا الإمام، لأنّه من رجال الكمال في زمانه، رحمه الله، وإنْ كنا نحبُّ غيرَه أكثر»[2].

---

(١) بيان زغل العلم: ١٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٩٤ ـ ٩٥، ٩٩.

ومن روائع إنصافه في «المجال الفقهي» ما حبَّره في ترجمة رئيس أهل الظاهر الإمام البحر داود بن علي، من حيث الاعتداد بهم وبعلمهم وبآرائهم وبخلافهم، أو هدر ذلك، ومنه قوله: «قلتُ: لا ريب أن كلَّ مسألةٍ انفرد بها، وقُطِعَ ببطلانِ قولِهِ فيها، فإنها هَدْرٌ، وإنما نحكيها للتَّعَجُّب. وكلّ مسألةٍ له عَضَدها نصٌّ، وسَبَقَه إليها صاحبٌ أو تابعٌ، فهي من مسائل الخلاف، فلا تُهْدَر. وفي الجملة: فداودُ بن عليّ بَصيرٌ بالفقه، عالمٌ بالقرآن، حافظٌ للأثر، رأسٌ في معرفة الخلاف، من أوعية العلم، له ذَكاءٌ خارق، وفيه دِينٌ متين. وكذلك في فقهاء الظَّاهِرية جماعةٌ لهم علمٌ باهِرٌ، وذَكاءٌ قويٌّ، فالكمالُ عَزِيز، والله الموفق»[1].

وله آراء فقهية قيمة، وتعليقات نافعة، وبحوث ماتعة، واطلاع جيد على مواطن إجماع العلماء واختلافهم، وردود بارعة حيث يجد مخالفة صريحة للنص دون مستند معارض صحيح، وذلك كثير مبثوث في ثنايا كتبه.

●● فمن آرائه الفقهية وتعليقاته وبحوثه:

ــ ما ذكره في «الكبيرة السادسة والسبعين: من جَسَّ على المسلمين ودَلَّ على عوراتهم»، قال: «فإن ترتَّبَ على جَسِّه وهنٌ على الإسلام وأهلِه، وقَتْلُ مسلمين، وسبيٌ وأسرٌ ونهبٌ، أو شيء من ذلك؛ فهذا ممن يَسْعَى في الأرض فَساداً وأهْلَكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ، وتعيَّن قتلُه، وحقَّ عليه العذاب، نسأل الله العافية، وبالضرورة يدري كلُّ ذي جَسٍّ أن النميمة إذا كانت من الكبائر، فنميمةُ الجاسوسِ أكبرُ وأعظمُ بكثير»[2].

ــ وحول مسألة «أيهما أفضل: طلب العلم أم صلاة النافلة

---

(١) المرجع السابق: ١٣/١٠٧ ــ ١٠٨، وانظر بالتفصيل: ١٠٤ ــ ١٠٨.

(٢) الكبائر: ١٦٩.

والتلاوة»، يقول: «هذه مسألة مُخْتَلَفٌ فيها: هل طَلَبُ العلم أفضلُ، أو صلاة النافلة والتلاوة والذِّكر؟ فأمّا مَنْ كان مخلصاً للّه في طلب العلم، وذهنُه جيد، فالعلم أولى، ولكنْ مع حظٍّ من صلاة وتعبُّدٍ، فإن رأيتَهُ مُجِدّاً في طلب العلم، لاحظَّ له في القُرُباتِ، فهذا كسلان مَهين، وليس هو بصادق في حسن نيته. وأما من كان طلبُهُ الحديثَ والفقه غِيَّةً ومحبةً نَفْسَانية، فالعبادة في حقه أفضل، بل ما بينهما أَفْعَلُ تَفْضِيل، وهذا تقسيم في الجملة. فَقَلَّ ـ واللّهِ ـ مَنْ رأيتُه مخلصاً في طلب العلم، دَعْنا من هذا كلِّه! فليسَ طلبُ الحديث اليوم على الوضع المتعارف من حيِّز طلب العلم، بل اصطلاحٌ وطلبُ أسانيد عالية، وأخذٌ عن شيخ لا يعي، وتسميع لطِفْل يلعب ولا يفهم، أو لرضيع يبكي، أو لفقيه يتحدَّث مع حَدَثٍ، أو آخر ينسخ. . .»(١).

ـ وفي ترجمة ابن لهيعة تعرض لمسألة «دفن الأموات في البيوت»، فأورد حديث عائشة عن النبي ﷺ: (اجْعَلُوا من صلاتِكم في بيوتكم، ولا تَجْعَلُوها عليكم قُبوراً، كما اتَّخذتِ اليهودُ والنصارى في بيوتهم قُبوراً، وإنَّ البيتَ لَيُتْلَى فيه القرآنُ فيَتَراءى لأهلِ السماءِ كما تَتَراءى النجومُ لأهلِ الأرضِ). ثم قال:

هذا حديث نظيفُ الإسناد، حَسَنُ المتن، فيه النهي عن الدَّفن في البيوت، وله شاهد من طريق آخر، وقد نهى عليه السلام أن يُبنى على القبور، ولو اندفن الناسُ في بيوتهم، لصارت المقبرةُ والبيوتُ شيئاً واحداً، والصلاةُ في المقبرة، فَمَنْهِيٌّ عنها نهيَ كراهة، أو نهي تحريم، وقد قال عليه السلام: (أفضل صلاةِ الرجلِ في بيته إلا المكْتُوبة). فناسب ذلك ألا تُتَّخَذَ المساكنُ قُبوراً.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦٧/٧.

وأما دفنُه في بيت عائشة صلوات الله عليه وسلامه فمختصٌ به، كما خُصَّ ببسطِ قطيفة تحته في لَحْدِه، وكما خُصَّ بأن صلوا عليه فُرادى بلا إمام، فكان هو إمامَهم حياً وميتاً في الدنيا والآخرة، وكما خُصَّ بتأخير دَفْنِه يومين، ويكره تأخيرُ أمَّتِه، لأنّه هو أُمِنَ عليه التغيُّر بخلافنا، ثم إنهم أخَّرُوه حتى صلوْا كلُّهم عليه داخل بيتِه، فطالَ لذلك الأمر، ولأنهم تردَّدوا شطرَ اليوم الأول في موته حتى قدِم أبو بكر الصديق من السُّنْح، فهذا كان سبب التأخير»[1].

ـ وحول فضول الكلام، وهل يسجله المَلَكان أم لا؟ يقول: «واختلفَ العلماءُ في الكلام المُباح: هل يكتُبه المَلَكان، أمْ لا يكتبان إلا المستحبَّ الذي فيه أجرٌ، والمذمومَ الذي فيه تَبِعةٌ؟ والصحيحُ كتابةُ الجميع لعموم النصِّ في قوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، ثم ليس إلى المَلَكين اطلاعٌ على النيّات والإخلاص، بل يَكتبان النُّطْقَ، وأما السَّرائر الباعثةُ للنّطق، فالله يتولاها[2]»

ـ وعن صوم الحاج يوم عرفة، وصوم المسافر، يقول: «وقد ثبتَ أنَّ رسولَ الله ﷺ أفطر بعرفة. وجاء النهيُ عن صوم يوم عرفة بعرفة في «السُّنن» بإسناد لا بأس به. وقال عليه السلام: (ليسَ من البِرِّ أن تَصُومُوا في السَّفَر). والأفضلُ للمسافر إفطارُ صومِ الفرض، فالنافلةُ أولى، فمنْ صام يومَ عرفةَ بها مع علمه بالنهي، وبأنَّ الرسول ﷺ ما صامَه بها، ولا أحدٌ من أصحابه فيما نعلَمُ؛ لم يُصِبْ، والله أعلم. ولا نقطَعُ على الله

---

(١) المرجع السابق: ٨/٢٩ ـ ٣٠.

(٢) المرجع السابق: ٩/٨٤.

بأن الله لا يأجُره، ولكنْ لم يكن صومُهُ له مكفِّراً لسنتين، لأنّ النبي ﷺ إنما قال ذلك في حقِّ المقيم لا المسافر»[1].

والأمثلة على فقه هذا الإمام كثيرة[2]، تدل على تمكّنه من هذا العلم الشريف الذي لا يليق بآحاد العلماء عدم إتقانه، فكيف بأعيانهم من أمثاله؟!

●● ومن كمال فقهه، وسعة علمه، فهمه العميق لمعنى الإجماع، واطلاعه على مواطنه وعلى مواضع الخلاف:

ولنستمع إليه وهو يبين لنا معنى السنة والإجماع، وهو يرد على الإمام الحافظ الفقيه ابن رَاهَوَيْه، فيقول: «قال إسحاق بن رَاهَوَيْه: إذا اجتمع الثوريُّ والأوزاعيُّ ومالك على أمر فهو سُنّة. قلتُ: بل السّنَّةُ ما سنّه النبيُّ ﷺ والخلفاءُ الراشدون من بعده. والإجماعُ: هو ما أجمعتْ عليه علماءُ الأمة قديماً وحديثاً إجماعاً ظنياً أو سكوتياً، فمن شذَّ عن هذا الإجماع من التابعين أو تابعيهم لقولٍ باجتهاده احتُمِلَ له. فأما من خالفَ الثلاثة المذكورين من كبار الأئمة، فلا يُسمَّى مخالفاً للإجماع، ولا للسُّنَّة، وإنما مراد إسحاق: أنَّهم إذا اجتمعوا على مسألةٍ فهو حقٌّ غالباً، كما نقولُ اليومَ: لا يكادُ يُوجد الحقُّ فيما اتفق أئمةُ الاجتهادِ الأربعةُ على خلافه، مع اعترافنا بأن اتفاقهم على مسألةٍ لا يكون إجماعَ

---

(١) المرجع السابق: ١٠/٦٨٣ ـ ٦٨٤.

(٢) انظر مثلاً: معجم الشيوخ: ٣٥٥، ٣٨١، ٥٩٢. الكبائر: ٥١، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٠ ـ ١٥١. تذكرة الحفاظ: ٣/٨١٢، ٤/١٣٨٥، ١٣٨٧، ١٤٣٣. سير أعلام النبلاء: ٢/٤٩٣، ٥٩٧ ـ ٥٩٨، ٣/٢٣٤، ٥/٢٩ ـ ٣٠، ١٠/٦١، ١١/١٣٠، ٤١٩ ـ ٤٢٠، ١٢/٤٩٤، ١٣/١٠٨، ١٤/١٦٥ ـ ١٦٦، ٢١/٥١١. وغير ذلك كثير.

الأمة، ونَهابُ أن نجزم في مسألـة اتفقوا عليهـا بأنَّ الـحـقَّ في خلافِها»[1].

ـ فمن الأمثلة في هذا الباب ما ذكره في ترجمة الصحابي الأجل أبي هريرة رضي الله عنه، فقال: «وقد وَلِي أبو هريرة البحرين لعمر، وأفتى بها في مسألة المُطلَّقة طلقةً ثم يتزوَّج بها آخرُ، ثم بعد الدخول فارقها، فتزوَّجها الأول: هل تبقى عنده على طلقتين ـ كما هو قول عُمر وغيره من الصحابة، ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه ـ أو تُلغى تلك التطليقةُ، وتكونُ عنده على الثلاث، كما هو قولُ ابن عباس وابن عُمر وأبي حَنيفة، وروايةٌ عن عمر، بناءً على أن إصابة الزوج تهدم ما دون الثلاث، كما هَدَمَتْ إصابته لها الثلاث.

فالأول مبنيٌّ على أن إصابةُ الزوج الثاني، إنما هي غايةُ التحريم الثابت بالطلاق الثلاث؛ فهو الذي يرتفع، والمطلقة دون الثلاث لم تحرم، فلا ترفع الإصابة منها شيئاً. وبهذا أفتى أبو هريرة. فقال له عُمر: لو أفتيتَ بغيره، لأوجعتُكَ ضرباً»[2].

ـ وفي «الكبيرة الثلاثين» من كتاب «الكبائر»، يقول: «وقد أجمع المسلمون على تحريم اللعب بالنَّرْد، ويكفيك من حججهم على تحريمه قولُ النبي ﷺ الذي ثبت عنه: (من لَعِبَ بالنَّرْدَشِير فكأنَّما صَبَغَ يدَه في لحمِ الخنزير ودَمِهِ). وبلا ريب أن غمسَ المسلم يدَه في لحم الخنزير ودمه أعظمُ من لعب النَرد، فما الظن بأكل لحمه وشرْب دمه؟! أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه»[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/١١٦ ـ ١١٧.

(٢) المرجع السابق: ٢/٦١٩ ـ ٦٢٠.

(٣) الكبائر: ١٠٤. وانظر أمثلة أخرى في: سير أعلام النبلاء: ١/١٦٥، ١٦٧، ٤/١٢٧، ٨/٥٠٤ ـ ٥٠٥، ١٠/٥٥٥، ١٩/٣٦٤، تذكرة الحفاظ: ٤/١٢٤٤، ١٢٤٥.

●● وتبدو شخصية الذهبي واضحة ـ كما وجدناه في كل علم خاض فيه ـ في الفقه أصولاً وفروعاً، يعوِّل على الدليل الصحيح الصريح، والاستنباط السديد السليم، ويردُّ على الكبار مهما عَلَا شأنهم، وجلَّت مكانتهم، يبتغي بذلك وجه الحق، ومتابعة السنّة:

ـ قال في ترجمة الإمام أبي محمد ابن حزم الظاهري: «... ولي أنا مَيْلٌ إلى أبي محمد لمحبته في الحديث الصحيح، ومعرفتِه به، وإن كنتُ لا أوافِقُه في كثير مما يقولُه في الرجال والعلل، والمسائل البَشِعَة في الأصول والفروع، وأقطعُ بخطئِه في غير ما مسألةٍ، ولكن لا أكفِّره، ولا أُضلِّله، وأرجو له العفوَ والمسامحة وللمسلمين. وأخضعُ لِفَرْطِ ذكائه وسَعَة علومه»(١).

ـ ولما نقل حديث بلال: «أن النبيَّ ﷺ صلّى بين العمودين تلقاءَ وجهِهِ في جوف الكعبة»، ذكر قول ابن عباس: «لم يصلِّ فيه، إنما كبَّر في نواحيه». فعقب بقوله: «قلتُ: هذا ظنٌّ من ابن عباس لا يُقاوِمُ رؤيةَ بلالٍ، والمُثْبِتُ معه زيادةُ علم»(٢).

وأذكر هنا في نهاية هذا المبحث رأيه البديع وردَّه السديد على صديقه وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة «شدّ الرَّحل لزيارة قبره ﷺ»:

ففي ترجمة الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ذكر الذهبي عنه «أنه رأى رجلاً وقف على البيت الذي فيه قبر النبي ﷺ يدعو له ويُصلّي عليه، فقال للرجل: لا تفعَلْ، فإن رسول الله ﷺ قال: (لا تَتَّخِذوا بيتي عيداً، ولا تَجْعَلُوا بيوتَكُم قبوراً، وصلُّوا عليَّ حيثُ ما كنتمْ،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٦٧٨.

فإن صلاتكم تَبْلُغني). هذا مرسل، وما استدلّ حَسَنٌ في فتواه بطائلٍ من الدلالة، فَمَنْ وقف عند الحُجْرَة المقدَّسة ذليلاً مُسَلِّماً، مصلِّياً على نبيِّه، فيا طُوبى له، فقد أحسن الزيارة، وأَجْمَلَ في التذلُّل والحُبّ، وقد أتى بعبادةٍ زائدة على مَنْ صلّى عليه في أرضه أو في صلاته، إذ الزائرُ لهُ أجرُ الزيارة وأجرُ الصلاة عليه، والمصلّي عليه في سائر البلاد له أجر الصلاة فقط. فمن صلَّى عليه واحدةً صلّى الله عليه عشراً، ولكن مَنْ زارَه ـ صلوات الله عليه ـ وأساءَ أدبَ الزيارة، أو سَجَدَ للقبر أو فعل ما لا يُشرع، فهذا فعل حَسَـنـاً وسيِّئاً فَيُعَلَّم برِفْقٍ، واللَّهُ غفور رحيم. فواللَّهِ ما يحصُل الانزعاجُ لمسلم، والصياحُ وتقبيلُ الجدران، وكثرةُ البكاء؛ إلا وهو مُحِبٌّ لله ولرسوله، فَحُبُّهُ المعيار والفارِق بين أهل الجنة وأهل النار، فزيارةُ قبره من أفضل القُرَبِ، وشدُّ الرِّحال إلى قبور الأنبياء والأولياء، لئن سلَّمنا أنه غيرُ مأذونٍ فيه لعموم قوله صلوات الله عليه: (لا تُشَدُّ الرِّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد)، فشدُّ الرحال إلى نبيِّنا ﷺ مستلزِم لشدِّ الرَّحْل إلى مسجده، وذلك مشروعٌ بلا نزاع، إذْ لا وصول إلى حُجْرَته إلا بعد الدُّخول إلى مسجده، فَلْيَبْدأ بتحيَّةِ المسجد، ثم بتحيَّةِ صاحب المسجد، رزقنا الله وإيّاكم ذلك، آمين»[1].

فرحم الله الإمام الذهبي ما أعظم أدبه، وما أجل حبه، وأدق فهمه! فكذلك فليكن العلماء، وهكذا فليكن المحدثون والفقهاء.

●●●

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٤٨٣ ـ ٤٨٥، معجم الشيوخ: ٥٩٢، وانظر أمثلة أخرى في سير أعلام النبلاء: ٤/٥٢٨، ٩/٣٦٨، ١٠/٦٥، ٢٣/١٤٣. تذكرة الحفاظ ٢/٦٩٩ مع النبلاء: ١٤/١٢٨، تذكرة الحفاظ: ٢/٧١٤ ـ ٧١٥ مع النبلاء: ١٤/٢٧٨ ـ ٢٧٩. المستدرك: ١/٣٨٦.

خامساً ـ الذهبي اللغوي الأديب

●● دعوته للاعتناء باللغة وفنونها:

الاعتناء باللغة العربية، ومعرفة مفرداتها ومعانيها واشتقاقها، وإتقان النحو وفروعه، والصرف ومباحثه، والشعر وفنونه؛ كل ذلك ركن ركين، وأساس متين لفهم كتاب الله تعالى، ونصوص السنة المطهرة على الوجه الصحيح. ولن يستطيع عالم بالشرع أن يكون عالماً حقاً، قليل الزلّات، إلا بتجويد ذلك وإتقانه. لذا فقد حرص العلماء من محدِّثين وفقهاء ومفسرين وقرَّاء ونحوهم، على التزوّد من معين اللغة بفنونها وفروعها، والأخذ من ذلك بأوفر نصيب. وبدون ذلك سيخبط المفسر في تفسيره، ويضطرب المحدث في فهم حديثه ومحفوظه، ويزلّ الفقيه في استنباط الأحكام، ويتعثر القارىء في تلاوة كتاب الله وفَهْمِ مقاصده على الوجه المطلوب.

والذهبي الإمام قد أدرك ذلك، وحثّ عليه، فقال: «... فالذي يحتاج إليه الحافظ: أن يكون تقيّاً ذكياً، نَحْويّاً لُغوياً، زكياً حَييّاً، سَلَفِياً...»[1].

ويقول: «اللغويون قد عدموا في زماننا، فنجد الفقيه لا يدري اللغة، والمقرىء لا يدري لغة القرآن، والمحدث لا يعتني بلغة الحديث، فهذا تفريط وجهل، فينبغي الاعتناء بلغة الكتاب والسنة، ليُفهم الخطاب»[2].

●● لذا فقد اهتم الذهبي باللغة وعلومها، في نحوها وصرفها، وشعرها وآدابها، وتوجه في مطلع حياته العلمية إلى «علم القراءات»

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٣٨٠.

(٢) بيان زغل العلم: ١٩.

وهو فنٌ يستلزم علماً تاماً بالعربية. وأكْثَرَ من مطالعة كتب اللغة، ومصنفات الأدباء، ودواوين الشعر، وبعض كتب النحو، كما يظهر ذلك في كتبه المختصة بالتراجم، حيث يورد درراً من نثر الأدباء، ومقطوعات من عيون نظم الشعراء. ومما سمعه ـ مثلاً ـ : «المجتبى» لابن دُريد، و «الحاجبية» في النحو[1].

كذلك نجد في «معجم شيوخه» أنه قد أخذ عن كثير من اللغويين والنحاة، والأدباء والشعراء، مثل: الأديب أحمد بن سليمان البعلبكي، والأديب أحمد بن أبي المحاسن الطيبي، والمحدث الشاعر إسحاق بن أبي بكر بن أَلْمَى، والشاعر صالح بن أحمد الخلاطي، والنحوي المقرىء طلحة بن عبد الله الحلبي، والأديب عبد الخالق بن عبد السلام المعري ثم البعلبكي، والخطيب النحوي علي بن داود القرشي البصروي، والعلّامة الأديب الكاتب البليغ عمر بن إبراهيم الرَّسْعَني، وشيخ العربية إمام الأدب محمد بن إبراهيم ابن النَّحّاس الحلبي، والأديب البارع محمد بن الحسن الجُذامي، وصاحب النظم البديع محمد بن محمد ابن نباتة المصري، والعلّامة المحدث النحوي محمد بن مسلم بن مالك، والمحدث اللغوي محمود بن أبي بكر التنوخي، وغير هؤلاء.

●● **عنايته بالشعر: عني الإمام منذ أوائل اشتغاله في الطلب بالنظر في دواوين فحول الشعراء، ورواية عيون نظمهم**: يتضح ذلك في تراجمه لهم في كتبه وبخاصة «سير أعلام النبلاء»، من حيث تتبعه لدواوينهم، وتذوقه لشعرهم، ونقده وإصدار تقاويمه فيما يختار منه ويورده في تراجمهم. كما أورد مقطوعات كثيرة من شعر أشياخه في كتابه

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/٣٩٣، معجم الشيوخ: ٦٠٤.

«معجم الشيوخ»[1]. وذكرت مصادر ترجمته بعضاً من نظمه في المديح، والرثاء، والشعر التعليمي كأرجوزته في نظم «أسماء المُدَلِّسين»[2]، ونظمه «أسماء الخلفاء» في أبيات[3].

نماذج من شعره:

يقول[4]:

إذا قرأ الحديثَ عليَّ شخصٌ ... وأخْلَى موضِعاً لوفاةِ مِثْلي

فما جازَى بإحسانٍ لأنّي ... أُريدُ حياتَه ويريدُ قَتْلِي

ولما وقف عليهما تلميذه الصلاح الصفدي قال مخاطباً له:

خليلكَ مالَهُ في ذَا مُرادٌ ... فَدُمْ كالشمسِ في عَلْيَا مَحَلٍّ

وحظِّي أنْ تعيشَ مَدى اللَّيالي ... وأنكَ لا تُملُّ وأنتَ تُمْلِي

ـ ومن روائع قصائده ما ردَّ به على شعر أحد حمقى الشيعة، فقد أورد في ترجمة شيخه أحمد بن عمر بن شبيب البالسي، فقال: «أنشدني أحمد بن عمر من حفظه للنجم سليمان بن عبد الكريم الشيعي...» فذكر قصيدته التي حَطَّ فيها على الصحابة وأكد القول بالوصية لعلي، ثم قال الذهبي: فأجبته[5]:

---

(١) كما يتضح في تراجم شيوخه المذكورين قبل سطور، وغيرهم كثير.

(٢) كشف الظنون: ١/ ٨٩، طبقات المدلسين لابن حجر: ص ١٤، وص ٦٩ ضمن ملحقات أضافها المحقق. والأرجوزة تقع في (١٢) بيتاً.

(٣) الإعلان بالتوبيخ: ٩٥.

(٤) الإعلان بالتوبيخ: ١٦٩، فوات الوفيات: ٣/ ٣١٧، شذرات الذهب: ٦/ ١٥٦، البدر الطالع: ٢/ ١١٢، فهرس الفهارس: ١/ ٤٢٠.

(٥) معجم الشيوخ: ٦١ ـ ٦٢. و«العتيق»: هو شيخ الصحابة وأفضلهم سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه و«ذي السبطين» هو سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

مُتْ بداءِ الشَّحْنَاءِ يا قلعةَ الْبَيْـ ـن ومِن كذبهمْ مَلاَ جَوْلَقَيْنِ

فـالَّـذي قـدَّمَ العتيقَ جَهَـاراً يـا أبـا الجهـلِ سيِّـدُ الثَّقلينِ

وعليٌّ والسـابقـونَ جميعـاً بـايَعُـوهُ لِفَضْـلِ دينٍ وزينِ

فـأطـاعُـوهُ حينَ وُلِّي فـولّى عمـرَ الخيـرِ قـاهـرَ الـدولتينِ

فَهُمَا بعدَ أحمدَ أفضلُ الخَلْـ ـقِ بنصٍّ الإمام ذي السِّبْطيْنِ

إنّـني إنْ رَدَدْتُ هَـذا لـتَيْسٌ ما يُساوي عقلي سِوى بَعْرَتَينِ

ـ كذلك له قصائد في المديح والرثاء، فممن مدحهم: شيخه إسحاق بن أبي بكر الحلبي النحاس حيث قال في ترجمته: «ولي فيه مديح»(١). ومدح تقي الدين السبكي وابنه التاج. ومدح أيضاً «معجم البِرْزالي»(٢).

ـ ومن نظمه الفائق الرائق مرثيته رفيقه وشيخه الإمام ابن تيمية، وهي قوله(٣):

يا موتُ خذْ مَن أردْتَ أوْ فَدَعِ مَحَـوْتَ رسْمَ العلومِ والورعِ

أخذتَ شيخَ الاسْلامِ وانفصمتْ عُرى التُّقى واشْتَفى أولو البِدَعِ

غيَّبْتَ بحـراً مفسِّـراً جَبَـلاً حَبْـراً تقيـاً مُجـانبَ الشّيَع

فـإنْ يحـدِّثْ فمسلمٌ ثِقَـةٌ وإنْ يناظِر فصاحِبُ «اللُّمَعِ»

وإن يَخُضْ نَحْـوَ سيبويـه يَفُهْ بكـلِّ معنىً في الفنِّ مُخترعِ

---

(١) معجم الشيوخ: ١٣٥.

(٢) انظر: ص ٨٧ من هذا الكتاب.

(٣) الرد الوافر: ٧٣. و«اللمع» كتاب في أصول الفقه للشيرازي، و«الحاتمي»: إشارة إلى حاتم الطائي. و«القادري» هو عبد القادر الجيلاني.

وصارَ عاليَ الإسنادِ حافظَهُ كشعبةَ أو سعيدٍ الضُّبَعِي
والفِقهُ فيه فكانَ مجتهداً وذا جهادٍ عارٍ من الجزعِ
وَجُودُهُ «الحاتِمِيّ» مُشْتهر وزهْدُهُ «القادِريّ» في الطمعِ
أسْكَنَهُ اللَّهُ في الجِنان وَلا زالَ عَلِيًّا في أجملَ الخُلَعِ
مع مالكٍ الإمامِ وأحمد والنُّعْمَانَ والشافعيِّ والخِلعِي
قضَى ابنُ تيميّة وموعِدُهُ مع خَصْمِهِ يومَ نفخةِ الفَزَعِ

●● ولغة الذهبي قوية جداً، سليمة فصيحة، بحيث يصعب على المطالع لكتبه الكثيرة، المطولة والقصيرة، أن يجد لَحْناً لُغوياً، أو خطأ نَحْوياً، أو استعمالاً عامياً خالف فيه الفصيح، وإذا كان وقع ذلك منه في النادر، فهو من سهو القلم، أو ذهول الفكر، أو خطأ النساخ وتصحيفهم، وهذا لا يساوي شيئاً في بحر علومه وتواليفه.

ونتيجة لاطلاع الذهبي الكبير، وإدمانه على قراءة نفائس الكتب، وكبار المصنفات، وتنوع معارفه وموارده، ودراساته للكتب الحديثية والتاريخية والأدبية، ودواوين الشعر، وتمرّسه بالأساليب المختلفة لكل هؤلاء ــ كل ذلك أدى به إلى اكتساب خبرة أدبية متينة وملكة بارعة في التعبير، إذا أضفنا إليها قوة حافظته، وتفرد شخصيته، وتمكنه من الاختيار والانتقاء، المشفوعين بالنقد؛ علمنا من كل ذلك كيف تسنى له صياغة كتبه بأسلوبه المتميز، بالألفاظ الرشيقة، والتعابير الرائقة الفائقة، مع الحلاوة والطلاوة، وقوة الحبك، وجمال التصوير، وتكامل الصورة، وتمام المعنى، والقصد في العبارة، والاعتدال في المدح والقدح. وهو في ذلك كله ينأى عن تسجيع الألفاظ، وتكلُّفِ الصناعة البلاغية، خلافاً لبعض معاصريه وتلاميذه كابن سيِّد الناس والتاج السُّبْكي والصلاح الصفدي، وغيرهم. وهذا ــ فيما نرى ــ أمر طبيعي إذا تذكرنا أن

الذهبي فيما يحبِّره ويدوِّنه من كُتب سواء في التاريخ أو التراجم أو نحوها؛ إنما ينطلق من كونه محدثاً ناقداً، يضع اللفظة التي تزن المترجم جرحاً أو تعديلاً، ولا يلتفت بعدئذ إلى إنشاء المديح، وتنميق العبارات، وتسجيع الألفاظ.

وهذا نابع من جودة ذكائه، ووفور حفظه، وفهمه للنصوص، وتمكنه الفائق، وهضمه للعلوم والمعارف التي اطلع عليها، وتمثُّلِه لما قرأ، ثم قدرته البارعة على صوغها بأسلوبه المتفرد.

وكل من أدمن النظر والمطالعة في مصنفات هذا الإمام عَلِمَ تميزه في أسلوبه البديع، وتفرده في طريقته، سواء في كتبه الصغار أو تصانيفه الكبار، في مختلف العلوم التي صنف فيها.

وهذه بعض النماذج من تراجمه، والمجال لا يتسع للإكثار منها، فلْنَجْتَزِىء بالقليل الذي يفي بالمراد:

ـ قال في ترجمة مروان بن محمد بن عبد الملك بن مروان، المعروف «بمروان الحمار» لصبره في الحرب:

«وكان مروان بطلاً شجاعاً داهية، رزيناً جباراً، يصل السَّير بالسُّرى، ولا يجفّ له لِبْدٌ، دوَّخ الخوارج بالجزيرة. . . وكان أبيضَ ضخمَ الهامةِ، شديدَ الشُّهلةِ، كثُّ اللحية أبيضها، رَبْعةٌ مهيباً، شديدَ الوطأة، أديباً بليغاً، له رسائل تُؤثر»[1].

ـ وفي ترجمة الإمام الطبري يقول: «محمد بن جَرير بن يَزيد بن كَثير، الإمام العَلَم المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطَّبَريُّ، صاحبُ التصانيف البديعة، من أهل آمُل طَبَرِسْتَان. مولده سنة أربع وعشرين

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/٧٤ ـ ٧٥.

ومئتين، وطَلَب العلمَ بعد الأربعين ومئتين، وأكْثَرَ الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علماً، وذكاءً، وكثرةَ تصانيف، قلَّ أن تَرى العيونُ مثلَه. . . كان ثقةً، صادقاً، حافِظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفِقه والإجماع والاختلاف، علّامةً في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة، وغير ذلك»[١].

ـ وحبَّر ترجمة سيف الدولة في صفحتين، وقال في أولها: «أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن حَمْدان، صاحبُ حلب، مقصدُ الوفود، وكعبةُ الجُود، وفارسُ الإسلام، وحامِلُ لواء الجهاد»[٢].

ـ وقال في ترجمة ابن الأفطس: «المُظَفَّر بن الأفطس، سلطان الثَّغْر الشمالي من الأندلس، ودار مُلْكه بَطَلْيَوْس. كان رأساً في العلم والأدب والشجاعة والرأي، فكان مُناغِراً[٣] للروم، شجىً في حُلُوقهم، لا يُنَفِّس لهم مَخْنَقاً، ولا يُوجِدُ لهم إلى الظهور عليه مُرتقىً. وله آداب تُغِير سراياها، فَتَسبي عَذارى معانٍ لا تعشقُ المحامدُ إلا إيَّاها، ألفاظٌ كالزلزال، وأغراضٌ أبعدُ من الهلال، رائقُ النَّظْم، ذكي النور، رَصيفُ المعاني، شاهق الغَوْر، وله تأليف كبير في الآداب على هيئة «عيون الأخبار» لابن قُتيبة، يكون عشرَ مجلدات. . . وكان مع استغراقِه في الجهاد لا يفتُر عن العِلم، ولا يترك العدل، صنعَ مدرسة يجلس فيها كل جمعة، ويحضُره العلماءُ، وكان يبيتُ في مَنْظَرَةٍ له، فإذا سمع صوتاً وجَّه أعواناً لكشفِ الخبر، لا ينامُ إلا قليلًا»[٤].

---

(١) المرجع السابق: ١٤/٢٦٧، ٢٧٠.
(٢) المرجع السابق: ١٦/١٨٧.
(٣) أي مغيظاً.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٨/٥٩٤ ـ ٥٩٥.

ـ وفي ترجمة ابن الجوزي يقول: «وكانَ رأساً في التذكير بلا مُدَافعةٍ، يقولُ النظمَ الرائق، والنثرَ الفائق بديهاً، ويُسْهِبُ ويُعجِبُ، ويُطرِبُ ويُطنِبُ، لم يأتِ قبلَه ولا بعدَه مثلُه، فهو حاملُ لواءِ الوعظ، والقيِّم بفنونِه، مع الشكلِ الحسنِ، والصوتِ الطيّب، والوَقْع في النفوس، وحُسْنِ السيرة. وكان بَحْراً في التفسير، علاّمةً في السِّيَر والتاريخ، موصوفاً بحسنِ الحديثِ، ومعرفة فنونه، فقيهاً، عليماً بالإجماع والاختلافِ، جيِّد المشاركةِ في الطِّب، ذا تفنُّنٍ وفَهْم وذكاءٍ وحفظٍ واستحضارٍ، وإكبابٍ على الجمع والتصنيف، مع التصوُّنِ والتجمُّل، وحسْنِ الشارَةِ، ورشاقة العبارة، ولطفِ الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمةِ الوافرة عند الخاص والعام، ما عرفتُ أحداً صنَّفَ ما صَنَّف»[1].

ـ وقال في ترجمة ابن عُقْدة: «حافظ العصرِ، والمحدِّث البَحْر، أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي... كتَبَ العالي والنازل، والحقَّ والباطل، حتى كتب عن أصحابه. وكان إليه المُنتهى في قوَّة الحفظ وكَثْرة الحديث، وصنَّف وجَمَعَ وألَّف في الأبواب والتراجم ورحلتُه قليلةٌ، ولهذا كان يأخذ عن الذين يرحلون إليه، ولو صانَ نَفْسَه وجوَّد لَضُرِبتْ إليه أكبادُ الإبل، وَلَضُرِبَ بإمامته المثلُ، لكنّه جَمَعَ فأوعى، وخلط الغثَّ بالسَّمِين، والخرز بالدرِّ الثمين، ومُقِتَ لتشيُّعِهِ»[2].

ومن روائع أسلوب الذهبي ـ وهي من مزاياه البديعة ـ ابتعاده عن حوشي الكلام، وغرائب الألفاظ، فَقَلَّ أن يحتاج المرء «المعجم» للكشف عن معنى كلمة خلال مطالعته تصانيفه، على كثرتها،

---

(١) المرجع السابق: ٢١/٣٦٧.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٣/٨٣٩.

وطول بعضها وغزارة محتوياتها. وهذا ـ فيما نحسب ـ من تمام التوفيق والقبول، وشيوع تآليفه، وذيوعها بين الخاصة والعامة. بل كثيراً ما نجده يشرح وحشي الألفاظ التي ترد في نقوله، أو يفسر معاني بعض الأسماء والألقاب.

ـ ففي ترجمة الأحنف بن قيس يقول: «قال عبد الملك بن عُمير: قدِمَ علينا الأحنفُ الكوفة مع مصعب، فما رأيتُ صفة تُذَمُّ إلا رأيتُها فيه، كان ضئيلاً، صَعْلَ الرأس، مُتراكبَ الأسنان، مائِلَ الذَّقن، ناتىء الوَجْنة، باخِقَ العَيْن، خفيفَ العارِضَيْن، أَحْنَفَ الرِّجْلين، فكان إذا تكلَّم جَلاَ عن نفْسه.

الصَّعَلُ: صِغَر الرأس، والبخَقُ: انخسافُ العَيْن، والحَنَفُ: أن تُفْتَل كلُّ رِجْلٍ على صاحبتها»[1].

ـ وفي ترجمة أسْلَم مولى عمر، ذكر عن أسلم قوله: «قَدِمنا الجَابيَةَ مع عُمر، فأُتينا بالطِّلاءِ، وهو مِثْلُ عَقِيد الرُّبْ». ثم فسَّر «الطِّلاء» فقال: «قلتُ: هو الدِّبْس المُرَمَّل»[2].

ـ وذكر في ترجمة سعيد بن جُبَير قولَ إسماعيل بن عبد الملك: «رأيتُ سعيدَ بن جبير يصلِّي في الطّاق». قال الذهبي: «الطاقُ: هو المحراب»[3].

ـ وقال في ترجمة رُؤْبَة بن العَجَّاج: «ورُؤْبة بالهمز: قِطعة من خشب يُشعب بها الإناء، جمعها رِئاب. والرُّوبة ـ بواو ـ: خميرة اللبن. والرُّوبة أيضاً: قطعة من الليل»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٩٤.

(٢) المرجع السابق: ٤/٩٨.

(٣) المرجع السابق: ٤/٣٣٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/١٦٢.

ـ وذكر في ترجمة بشار بن بُرْدٍ أنه «يُلقَّب بالمُرَعَّث لِلُبْسه في الصغر رِعاثاً وهي الحلق، واحدها رَعَثَة»[1].

ـ وقال في ترجمة محمد بن العباس بن الوليد ابن الدِّرَفْس: «والدِّرَفْسُ ـ بمهملة ـ: من أسماء الأَسَد»[2].

ـ وفي ترجمة الأَخْفَش يقول: «والأخفشُ: هو الضَّعيف البصر مع صِغَر العَيْن»[3].

ـ وقال في ترجمة الإمام الحافظ جعفر ابن الوزير الفضل بن جعفر البغدادي، المعروف «بابن حِنْزَابة»: «وحِنْزَابة: جارية، هي والدة الفضل الوزير. وفي اللغة: الحِنْزَابة: هي القصيرة السَّمينة»[4].

●● والذهبي في تراجمه للأدباء والشعراء، والكُتَّاب والمُتَرَسِّلين، والفصحاء والبلغاء، وما ينقله من نثرهم ونظمهم ورسائلهم؛ يعمل كل ما في مكنته من أدوات النقد والتقويم، كعادته في كل مجال يخوضه، وكل علم يصنف فيه. فهو ذوَّاق للشعر، خبير بمصادره وقائليه، بصير بمعانيه ومراميه، يميز ركيكه من فَحْلِه، ومَنْحُوله من صحيحه، مع إصدار التقاويم على ناظميه، ونقد المصادر وتبيان درجاتها ومكانتها وأصالتها. ويفعل ذلك ـ في الجملة ـ مع آثار الكتاب والمنشئين والمترسلين.

فمن الأمثلة على ذلك:

---

(١) المرجع السابق: ٧/٢٤.
(٢) المرجع السابق: ١٤/٢٤٦.
(٣) المرجع السابق: ١٤/٤٨٠.
(٤) المرجع السابق: ١٦/٤٨٧.

قال في ترجمة الحافظ عبد الحق بن عبد الرحمٰن الإشبيلي: «قلت: ما أحلى قوله وأوعظه إذ قال:

إنَّ في الموتِ والمعادِ لَشُغُلاً ... وادِّكـاراً لـذِي النُّهى وبَـلاَغـاً
فـاغْتَنِمْ خُـطَّتينِ قبـلَ المَنَـايـا ... صِحَّةَ الجسمِ ياأخي والفَرَاغَا»[1].

وفي ترجمة عبد الله بن كثير إمام المكيين في القراءة، يقول: «قلت: بعض القراء يغلط، ويورد هذه الأبيات لعبد الله بن كثير:

بُنَيُّ كَثيــرٍ كَـثيــرُ الــذنــوب ... ففي الحِلِّ والبِلِّ مَنْ كانَ سَبَّهْ

وإنما هي لمحمد بن كثير، أحد شيوخ الحديث بعد المئتين، والله أعلم»[2].

●● ومن نقداته وتقاويمه للشعراء ونظمهم وآثارهم، وللأدباء ونثرهم وتصانيفهم، قوله:

ـ «الحسين بن محمد بن عبد الوهاب البغدادي... المقرىء الأديب الشاعر الملقب بالبارع. له مصنفات وديوان شعر، وشعره في الذُّرْوَة»[3].

ـ «أبو نواس، الشاعر المُفْلِق: هو الحسن بن هانىء، شعره في الذّروة، ولكن فسقه ظاهر، وتهتُّكه واضح، فليس بأهلٍ أن يُرْوى عنه»[4].

---

(١) المرجع السابق: ٢٠١/٢١.
(٢) معرفة القرّاء: ٨٧/١.
(٣) معرفة القرّاء: ٤٧٦/١.
(٤) ميزان الاعتدال: ٥٨١/٤.

ـ «المتنبي شاعر العصر، أبو الطيب أحمد بن الحسين. . . وليس في العالم أحد أشعر منه أبداً، وأما مثله فقليل»[1].

ـ «عبد الملك بن سراج، أبو مروان الأموي مولاهم، القرطبي، لُغَوِي الأندلس بلا مُدَافعة»[2].

ـ «أبو إسحاق الغزي إبراهيم بن عثمان، شاعر العصر، وحاملُ لواء القريض، وشعره كثير سائر»[3].

ـ «المبارك بن أحمد بن أبي البركات اللخمي الإربلي. . . له يد طولى في النثر والنظم، ونَفْس كريمة كبيرة، وهمة عليَّة، شرح «ديوان أبي تمام» و«المتنبي» في عشر مجلدات. وله ديوان شعر»[4].

ـ «جميل بن عبد الله بن معمر، أبو عمرو العذري، الشاعر البليغ، صاحب بثينة، وما أحلى استهلاله حيث يقول:

أَلَا أيُّها النُّوَّامُ ويْحكمُ هُبُّوا   أُسائِلكُمْ: هلْ يقتُل الرجلَ الحبُّ؟!

ويُحكى عنه تصوّن ودين وعفة. . . ونظمه في الذروة، يُذكر مع كُثَير عزَّة والفرزدق»[5].

ـ «جرير، شاعر زمانه، أبو حَزْرَة جرير بن عطيَّة بن الخَطَفى التميميُّ البصريّ. . . وعن بشار الأعمى قال: أهل الشام أجمعوا على جرير والفرزدق والأخطل النصراني. قلتُ: فضَّلَ جريراً على الفرزدق جماعةٌ»[6].

---

(١) العبر: ٢/ ٩٤.
(٢) العبر: ٢/ ٣٦٠.
(٣) العبر: ٢/ ٤١٩.
(٤) العبر: ٣/ ٢٣١.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٨١.
(٦) المرجع السابق: ٤/ ٥٩١.

ـ «السيد الحِمْيَري: من فحول الشعراء، لكنه رافضي جلد... له مدائح بديعة في أهل البيت... ونظمه في الذُّروة، ولذلك حَفِظَ ديوانَه أبو الحَسَن الدَّارَقُطْنيّ»[1].

ـ «هلال بن العلاء... الحافظ الإمام الصدوق، عالمُ الرَّقَّة... وله شعر رائق، لائق بكل ذائق، فمنه:

سَيَبْلَى لسانٌ كانَ يُعْرِبُ لَفْظَهُ ... فَيَا لَيْتَهُ من وَقْفَةِ العَرْضِ يسلمُ

وما تنفعُ الآدابُ إنْ لم يكنْ تُقىً ... وما ضَرَّ ذا تقوىً لسانٌ مُعَجَّمُ»[2]

ـ «ابن الرومي: شاعر زمانه مع البحتري... له النظم العجيب، والتوليد الغريب. رتب شعر الصولي. وكان رأساً في الهجاء وفي المديح. وهو القائل:

آراؤكُم ووجـوهكُم وسيُوفُكُمْ ... في الحادثاتِ إذا دَجَوْنَ نجومُ

منهـا معالمُ للهُـدَى ومَصَابـحٌ ... تجلُو الدُّجَى والأُخْرَياتُ رُجُومُ»[3]

ـ «ابن العميد... كان عَجَباً في الترسُّلِ والإنشاء والبلاغة، يُضرب به المثلُ، ويُقال له: الجاحظ الثاني. وقيل: بُدئتِ الكتابةُ بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد»[4].

ـ «ابن سُكَّرة: شاعرُ وقته ببغداد... شاعرٌ مديدُ الباع في فنون الإبداع، صاحبُ مجونٍ وسُخْفٍ...»[5].

---

(١) المرجع السابق: ٨/٤٤، ٤٦.
(٢) المرجع السابق: ١٣/٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٣) المرجع السابق: ١٣/٤٩٥ ـ ٤٩٦.
(٤) المرجع السابق: ١٦/١٣٧.
(٥) المرجع السابق: ١٦/٥٢٢.

ـ «علي بن عبد العزيز الجُرْجَانيُّ: الفقيه الشافعي الشاعر، صاحبُ الديوان المشهور... صاحب تيكَ الأبيات الفائقة:

يقولونَ لي فيك انْقِبَاضٌ وإنَّما رَأَوْا رَجُلاً عن موقفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا»[1]

ـ وأورد في ترجمة الإمام المفسر الزَّمَخْشَرِيّ أبياتاً من نظمه، ثم قال: «قلتُ: هذا شعرٌ رَكيكٌ لا رَقيق»[2].

ـ «ابن مُجْبَر: شاعر زمانه الأوحد البليغ... مدحَ الملوكَ، وشهِدَ له بقوّة عارضتِهِ، وسلامة طبْعِهِ، وفُحُولة نَظْمِه، قصائدُهُ التي سارتْ أمثالاً، وبَعُدَت مَنالاً»[3].

ـ «شُمَيْم: أبو الحسن علي بن الحسن بن عنتر الحِلِّي الأديب... شاعرٌ لُغويٌّ، متقعِّر، رقيعٌ، أحمقُ، قليلُ الخير. له عدة تواليف أدبية فيها الغَثُّ والسَّمِين»[4].

ـ «ابن الحاجب: الشيخ الإمام العلّامة، المقرِىء الأصولي، الفقيه النَّحْوي... وكان من أذكياء العالم، رأساً في العربية وعلم النَّظر، درَّس بجامع دمشق، وبالنورية المالكية، وتخرَّجَ به الأصحابُ، وسارتْ بمصنفاته الركبان، وخالف النحاة في مسائل دقيقةٍ، وأوردَ عليهم إشكاتٍ مُفْحِمَةً»[5].

ـ «الحسين بن أحمد بن الحجَّاج: أبو عبد الله البغدادي

---

(١) المرجع السابق: ١٩/١٧ ـ ٢٠.

(٢) المرجع السابق: ١٥٥/٢٠.

(٣) المرجع السابق: ٢١٥/٢١.

(٤) المرجع السابق: ٤١١/٢١.

(٥) المرجع السابق: ٢٦٤/٢٣ ـ ٢٦٥.

الشيعي، الشاعر المشهور، صاحب الديوان الكبير الذي هو عدة مجلدات، في الفُحْش والسُّخْفِ»[1].

●● ومن الملامح البارزة في هذا الميدان تنبيهه على الشعر الذي تفوح منه رائحة الكفر، وذلك طبيعي يتسق كل الاتساق مع عقيدة الذهبي السلفية، فنراه ينتقد كل ما يخالفها أو يشين بأصولها.

ومن أمثلة ذلك:

ـ «ابن هاني: شاعر العصْر، أبو الحسن محمد بن هاني الأَزديُّ المهلَّبي الأندلسيّ... وديوانه كبير، وفيه مدائح تُفضي به إلى الكفر. وهو من نُظراء المتنبي»[2].

ـ «عَضُدُ الدولة: وكان بطلاً شجاعاً، مهيباً، نحوياً، أديباً عالماً، جبَّاراً عَسُوفاً، شديد الوطأة... وكان يقول الشعر، فقال أبياتاً كفريَّة:

ليسَ شربُ الراح إلَّا في المَطر ... وغناء من جَوارٍ في السَّحَر

مبرزات الكأسِ من مطلعِها ... ساقيات الراح مَن فَاق البَشر

عَضد الدولة وابن رُكْنِها ... ملك الأَملاك غلَّاب القَدَر»[3]

ـ وقال في ترجمة أبي العلاء المعري: «صاحب التصانيف السائرة، والمُتَّهم في نِحْلَتِه... وما على الرجل أُنْسُ زُهَّاد المؤمنين، والله أعلم بما خُتِمَ له، ومن خَبيثِ قوله:

أتى عيسى فبطَّلَ شرعَ موسى ... وجاءَ محمدٌ بصلاة خمسِ

وقالوا: لا نبيٌّ بعدَ هذا ... فَضَلَّ القومُ بين غدٍ وأمسِ

---

(١) تاريخ الإسلام: وفيات (٣٨١ ـ ٤٠٠) ص ٢٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٦/١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) المرجع السابق: ١٦/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

ومهما عِشْتَ من دنياك هَـذِي فما تُخْليك من قمـرٍ وشمسٍ
إذا قلتُ المُحَالَ رفعتُ صوتي وإن قلتُ الصحيحَ أطلْتُ همسِي»[1]

ـ وقـال في ترجمـة ابن النَّبيه: «الشـاعر البليـغ، صـاحب «الديوان»... مدح آل أيوب، وسار شعره... وفي نَظْمه مبالغاتٌ تُفْضِي به إلى الكفر بالله، لا أرى ذكرها»[2].

ـ وفي ترجمة بـديع الزمان الهَمَذَاني أورد مقطوعة من إحدى قصائده. ثم قال: «وهي من غرر القصائد، لولا ما شانها بإساءة أدبه على خليل الله عليه السلام، وما ذاك ببعيد من الكفر»[3].

●● ومن تقاويمه لكتب اللغة والأدب والنحو:

ـ قوله في ترجمة ابن السكيت صاحب «إصلاح المنـطق»: «قلتُ: «إصلاح المنطق» كتابٌ نفيسٌ مشكور في اللغة»[4].

ـ وقال في ترجمة ابن السَّرَّاج: «وله كتاب «أصول العربية» وما أحسنه»[5].

ـ وذكر في ترجمة العلاّمة إمام النحو الحسن بن عبد الله السِّيرافي أنه «جَوَّدَ شرحَ كتاب سيبويه»[6].

ـ وقال في ترجمة إمام اللغة الجوهري صاحب «الصحاح»: «وفي «الصِّحَاح» أوهامٌ قد عُمِلَ عليها حواشٍ»[7].

---

(١) المرجع السابق: ١٨/٢٤، ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) المرجع السابق: ٢٢/١٧٨.
(٣) تاريخ الإسلام: وفيات (٣٨١ ـ ٤٠٠) ص ٣٥٣.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٢/١٩.
(٥) المرجع السابق: ١٤/٤٨٤.
(٦) المرجع السابق: ١٦/٢٨٤.
(٧) المرجع السابق: ١٧/٨١.

ـ وقال في ترجمة إمام الأدب محمد بن جعفر القَزَّاز: «مؤلف كتاب «الجامع» في اللغة، وهو من نفائس الكتب»[1].

ـ وقال في ترجمـة إمام النحـو أحمد بن محمـد بن الحسن المَرْزُوقيّ: «وله «شرح الحماسة» في غاية الحُسْن»[2].

●● وكان للذهبي خط متقن أُعجب به رفيقه وشيخه الحافظ علم الدين البِرْزَالي، منذ أن بدأ الذهبي الاشتغال بالعلم، فقال له: «خطك يشبه خط المحدثين».

بل وأعجب به بعض الأئمة من بعده، بحيث إنه أصبح أنموذجاً يحتذى به، مما حدا بالحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢ هـ) أن يجوِّد الخط على طريقة الذهبي بحيث صار يحاكي خطه، وكتب به الكثير[3].

* * *

---

(١) المرجع السابق: ١٧/٣٢٦.

(٢) المرجع السابق: ١٧/٤٧٥.

(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣١٩، الدارس: ١/٤١، فهرس الفهارس: ٢/٦٧٦.

الفَصْل السَّادِس

الذَّهَبِيُّ ٱلنَّاقِدُ ٱلكَبِيرُ

يعتبر «الذهبي الناقد[1]» مدرسة مبدعة، متفردة المنهج، متميزة الأسلوب، متعدّدة الجوانب والمجالات. ويستبين لكل من يدمن مطالعة تصانيفه أنه إمام فذ قد اتَّسَمَ بالجرأة النادرة في نقد الرجال والعلماء على اختلاف تخصصاتهم، والمصادر على تباين موضوعاتها، والعلوم بمختلف مقاصدها ومناهجها. ويدعم تلك الجرأة اطلاعٌ واسع، وانكباب على العلم منقطع النظير، وصرف جماع همته إليه بما لا مزيد عليه، وأسلوب علمي في النقد، متزن العبارة، دقيق التقويم، واضح السمات، ينبىء عن تمكن فائق، وفطنة باهرة، وذكاء وقاد، ونظرة عميقة، ودربة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة، وقصد نبيل، وإنصاف عزيز النظير.

ومع أننا قد أشرنا كثيراً إلى هذه الميزة عند إمامنا الذهبي، إلا أننا أردنا إفراد الكلام عن هذه المعلمة البارزة في شخصيته العلمية لأمرين:

أولهما: أهميتها القصوى وبروزها بشكل جليّ ملفت للانتباه، حتى بالنظرة العجلى في تواليفه.

ثانيهما: حتى لا تضيع ملامحها ومجالاتها في ثنايا فصول الكتاب.

---

(١) هذا الفصل مبني على استقرائنا لكتب الذهبي في الرجال والتراجم والتاريخ والحديث، ومنهجه فيها.

وهذا الفصل جدير بأن يُفرد بالتصنيف، ويؤلَّف فيه كتاب مستقل.

مجالات النقد عنده

أولاً ـ ناقد شمولي

اتسم الذهبي في منهجه النقدي بالشمولية والعموم، واستخدم جميع ما في مكنته من أدوات النقد في كل ما يقرأ ويصنف، أو ينتقي ويختصر، أو يرى ويشاهد.

فتراه ينقد القرّاء وتصانيفهم، والمحدِّثين وتواليفهم وطرائقهم ومناهجهم، والفقهاء وكتبهم وجمودهم، وعلم أصول الفقه والمشتغلين فيه، والمفسرين وتفاسيرهم، والمنطق والمنطقيّين وأصحاب الفلسفة وأقاويلهم وانحرافاتهم، وعلماء الرياضيات والفلك والطبيعة، واللّغة وعلومها وعلماءها من نحويين ولغويين، وشعراء وأدباء، ومنشئين ومترسلين وكتّاب، وعلم الوعظ والوعاظ، وغير ذلك.

ـ فمن نقداته للقراء قوله فيهم:

«فالقرَّاء المجوِّدة فيهم تنطع وتحرير زائد، يؤدي إلى أن المجوِّدَ القارىء يبقى مصروفَ الهمَّةَ إلى مراعاة الحروف والتنطّع في تجويدها، بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة، ويخليه قوي النفس، مزدرياً بحفاظ كتاب الله تعالى، فينظر إليهم بعين المَقْت، وبأن المسلمين يَلْحَنون، وبأن القراء لا يحفظون إلا شواذَّ القراءة.

فليتَ شِعْري، أنتَ ماذا عرفتَ، وماذا علمتَ؟! فأما عِلْمُكَ فغير صالح، وأما تلاوتك فثقيلة عريَّة عن الخشعة والحزن والخوف، فالله

تعالى يوفقك، ويبصِّرك رشدك، ويوقظك من مرقدة الجهل والرياء»[1].

وينقد أولئك الذين يفاخرون بمعرفتهم بالقراءات السبع أو العشر، ويأتون بغرائب الوجوه ليُشَار إليهم بالعلم والمعرفة، فيقول: «وأمّا القراءة بالروايات وبالجَمْع، فأبعد شيء عن الخشوع، وأقدم[2] شيء على التلاوة بما يخرج من القصد. وشعارهم في تكثير وجوه حمزة، وتغليظ تلك اللامات، وترقيق الراءات... إقرأ يا رجل وَأَعْفِنا مِنْ التغليظ والترقيق، وفَرْطِ الإمالة، والمدود، ووقوف حمزة، فإلى كم هذا؟! وآخرُ منهم إن حَضَرَ في ختم، أو تلا في محراب؛ جعل ديدنه إحضار غرائب الوجوه، والسكت والتهوّع بالتسهيل، وأتى بكل خلاف، ونادى على نفسه: «أنا أبو... اعرفوني، فإني عارف بالسَّبْع»! إيش نعمل بك؟ لا وصبحّك الله بخير، إنك حجر منجنيق، ورصاص على الأفئدة»[3]!!

وله في هذا الباب تعليقات قيمة ونقدات بارعة في القراءات والقراء والمصنفات في هذا الفن، وإصدار التقاويم، ومناقشات وردود، وغير ذلك[4].

ـ ووجه آراءه النقدية للفقهاء، ودعاهم إلى الاجتهاد في طلب الفقه، والتعويل على الكتاب والسنة، فليس الفقه تقليداً لمذهب بعينه بحذافيره كأنه منزل لا يجوز تجاوزه أو مخالفته، فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم ﷺ، ودعا إلى محو التعصب المذهبي، والإخلاص

---

(١) بيان زغل العلم: ٤.

(٢) يريد: أبعث على الإقدام.

(٣) بيان زغل العلم: ٥.

(٤) انظر: ص ١٠٥ ـ ١١٢ من هذا الكتاب.

في نشر العلم، وعدم التكسب به، وأن لا يحرص الفقيه على المناصب الدنيوية والتباهي بها، وينسى المهمة الرئيسة له.

يقول: «فالله تعالى ما أَوْجَبَ عليهم تقليد إمامهم، فلهُمْ أن يأخذوا ويتركوا... فيا هَذا، إذا وقفتَ غداً بين يدي الله تعالى فما حجَّتُك؟ إن قلتَ: قلدتُ إمامي، يقول لك: فما أنا أوجبتُ عليك تقليد إمامك»[1].

ويضيف قائلاً: «فلا تعتقدْ أن مذهبكَ أفضلُ المذاهب وأحبُّها إلى الله تعالى، فإنك لا دليل لك على ذلك، ولا لمخالفك أيضاً، بل الأئمة رضي الله عنهم كلُّهم على خير كثير...»[2].

ويقول أيضاً: «الفقهاءُ المالكية على خيرٍ واتّباع وفضْلٍ إن سَلِمَ قضاتُهم ومفتوهم من التسرّع إلىٰ الدماء والتكفير، فإن الحاكم والمفتي يتعين عليه أن يراقب الله تعالىٰ ويتأنىٰ في الحكم بالتقليد، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: (أول ما يُقضى بين الناس في الدماء)[3]».

كما انتقد المشتغلين بعلم «أصول الفقه» مِنْ المقلِّدين، ودعَاهم للاجتهاد وعدم التكسب بهذا العلم، فقال: «أصول الفقه لا حاجةَ لك به يا مقلِّد، ويا مَنْ يزعم أن الاجتهاد قد انقطع، وما بقي مجتهد! ولا فائدة في أصول الفقه إلا أن يصير محصِّلُه مجتهداً، فإذا عرفه ولم يفكّ تقليد إمامه فلم يصنع شيئاً، بل أتعب نفسه وركَّبَ على نفسه الحجة في مسائلَ. وإن كان يقرؤه لتحصيل الوظائف، وليُقال... فهذا من الوَبَال، وهو ضرب من الخَبَال»[4]!!.

---

(١) بيان زغل العلم: ١٢.

(٢) المرجع السابق: ١٦.

(٣) المرجع السابق: ١٢.

(٤) المرجع السابق: ٢٠ ــ ٢١.

وقد قَدَّمنا أن الذهبي يعول على النصوص والدليل، مع احترام الأئمة واجتهاداتهم، وأبرز ما تبدو شخصيته الناقدة في هذا الميدان في ردوده البارعة، وتعليقاته النافعة، وآرائه المسدّدة[1].

ـ أما علم التفسير: فيرى الذهبي تقصير علماء زمانه فيه، فينعى عليهم ذلك، ويحثهم على التزام التفسير بالمأثور، مع نقده لكثرة أقوال السلف في الآية الواحدة. يقول: «قلَّ مَنْ يعتني اليوم بالتفسير، بل يطالع المدرسون تفسير الفخر الرازي، وفيه إشكالاتٌ وتشكيكات لا ينبغي سماعُها، فإنها تحيِّر وتُمرض، وترْدِي ولا تشفي غليلاً، نسأل الله تعالى العافية». ثم يقول: «وأقوال السلف في التفسير مَليحةٌ، لكنها ثلاثة أقوال فصاعداً! فيضيع الحقُّ بين ذلك، فإن الحق لا يكون في جهتين، وربما احتَملَ اللفظُ معنيين»[2].

ـ وانتقد الذهبي، «علم المنطق» والمشتغلين به، وما يسمى «بالفلسفة الإلٰهية» والحكمة اليونانية، والفلسفة المنحرفة التائهة الضالة، واشتد على المهتمين بها، ودعا لإنهاء وجودهم وتحريق تصانيفهم؛ لما يبثونه من تشكيك وضلال وزندقة.

يقول رحمه الله: «المنطق نفعه قليل، وضرره وَبيل، وما هو من علوم الإسلام. أما الحقّ منه فكامن في النفوس الزكية بعبارات غريبة. والباطل فاهربْ منه، فإنك تنقطع مع خصمك وأنت تعرف أنك المحِقّ، وتقطع خَصمك وأنت تعرف أنك على الخطأ. فهي عبارات واهية، ومقدمات دكَّاكة، نسأل الله تعالى السلامة»[3].

---

(١) انظر بحث «الذهبي الفقيه» من هذا الكتاب.

(٢) بيان زغل العلم: ١٩ ــ ٢٠.

(٣) بيان زغل العلم: ٢٤. وقوله «دكَّاكة»: أي تدكُّ الحقَّ دكًّا بمعنى تمحقه!.

ويقول أيضاً: «الفلسفة الإلٰهية ما يَنْظُرُ فيها من يُرجى فلاحُه، ولا يركن إلى اعتقادها من يَلُوح نجاحُـه، فإن هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق. . . . . واغوثاه بالله، إذا كان الذين انتدبوا للردّ على الفلاسفة قد حَارُوا ولحقتهم كسفةٌ، فما الظنُّ بالمردودِ عليهم».

ويبين رأيه في هذه الفلسفة والمشتغلين بها بقوله: «وما دواءُ هذه العلوم وعلمائها والقائمين عليها علماً وعقلاً إلا الحريق والإعدام من الوجود! إذ الدينُ ما زال كاملاً حتى عُرِّبتْ هذه الكتب ونظر فيها المسلمون»[1].

ـ كذلك انتقد العلماءَ وطلاب العلم المنصرفين إلى علوم اللغة، وأبان رأيه في النحويين واللّغويين والشعراء والكتّاب والمنشئين، فمما قاله:

«النحويون لا بأس بهم، وعلمهم حسن يُحتاج إليه، لكن النحوي إذا أمعن في العربية وعري من علم الكتاب والسنّة، بقي فارغاً بطَّالاً لعّاباً. . . »[2].

ويقول: «الإنشاء فنٌّ أبناءِ الدنيا، ليس من علم الآخرة في شيء، والكامل فيه يحتاج إلى مشاركة قوية في العلوم الإسلامية، ويريد عقلاً تاماً، ورزانة، وسرعة فَهْم، وقوّة تخيّل، وتبصّر باللغة والنحو، وخبرة بالمعاني والبيان، والسِّيَر وأيام الناس، وفنون الأدب، وحسن كتابة»[3].

وأمـا رأيه في الشعر والشعراء فيعبر عنه بقوله: «الشعرُ: وهو فنٌّ

---

(١) بيان زغل العلم: ٢٥ ــ ٢٦.

(٢) المرجع السابق: ١٩.

(٣) المرجع السابق: ٢٧.

من فنون المنشِىء، وهو كلام: فحسنُه حسنٌ، وهو قليل. وقبيحُه قبيحٌ، وهو الأغلب! وبيتُ ماله: الكذبُ، والإسراف في المدح والهجو، والتشبيه، والنعوت، والحماسة، وأملَحُهُ أكذبُه! فإن كان الشاعر بليغاً مفوَّهاً مقداماً على الكذب في لهجته، مصِرًّاً على الاكتساب بالشعر، رقيق الدِّين، فقد قرأ مقت الشعر في سورة الشعراء [1]. ويندرُ على الشعراء المجوِّدين أن يتصوّنوا من الهجاء، وربما أدى الأمرُ بالشاعر للتجاوز إلى الكفر».

ثم يقول: «فالشاعِرُ المحسِن كحسان، والمقتصِد كابن المبارك، والظالم كالمتنبي، والسفيه الفاجر كابن الحَجَّاج، والكافر كذوي الاتحاد[2]، فاخترْ لنفسكَ أيَّ وادٍ تسلك»[3].

واعتبر «الوعظ» فناً يحتاج المشارك فيه إلى توافر كثير من الشروط والآداب عنده، فقال: «الوعظ فنّ بذاته، يحتاج إلى مشاركة جيدة في العلم، ويستدعي معرفة حسنة بالتفسير، والإكثار من حكايات الفقهاء والقراء والزهّاد. وعدّتُه: التقوى والزهادة فإذا رأيتَ الواعظ راغباً في الدنيا، قليل الدِّين؛ فاعلمْ أن وعظه لا يتجاوز الأسماع. وكم من واعظ مفوَّه قد أبكى وأثّر في الحاضرين في تلك الساعة، ثم قاموا كما قعدوا!! ومتى كان الواعظ مثل الحسن والشيخ عبد القادر، انتفع به الناس»[4]

● ● ●

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿والشعراء يَتَّبِعُهُم الغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كلِّ وادٍ يَهِيمُونَ. وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) هم غلاة الصوفية القائلون بوحدة الوجود.

(٣) بيان زغل العلم: ٢٨.

(٤) بيان زغل العلم: ٢٩ ـ ٣٠. والحسن هو البصري، وعبد القادر هو الجيلاني.

ثانياً ــ وهكذا فالذهبي ناقد شمولي، ولكن أبــرز ما وضحت هذه الصفة عنده في كونه ناقداً حديثياً وتاريخياً بارعاً:

●● فالذهبي يعتبر ــ بحق ــ من كبار أئمة الحديث النقدة البارعين، وصيارفة الآثار المهرة المجوِّدين، وتجلَّت عبقريته الناقدة في كل مجالات هذا العلم العزيز.

والأساس في هذا هو نقد الرجال: فالذهبي قد ترجم في كتبه الكثيرة لآلاف عدّة من الرجال الذين ينتظمون في فئات مختلفة: فمنهم المحدثون والفقهاء، والمفسرون والقراء، والأصوليون والمتكلمون، والأدباء والشعراء، والحكام والأمراء والوزراء، وقواد الجيش، وأهــل المِلَل والنِّحَل، وأصحاب الأهواء والمبتدعة، وغيرهم.

والذهبي بعقليته الفذة، وفهمه العميق الشامل الدقيق، لم يُعْمِل نقده في هؤلاء وفق منظار واحد، فليس من المعقول ولا المقبول أن ينظر للمحدث بنفس نظرته للشاعر أو الحاكم؛ لذا تعددت معايير النقد عنده.

ــ فهو مع حَمَلَةِ الآثار ورجال الأسانيد يطبق المنهج النقدي الحديثي الصارم: فيبين حال الرجل جرحاً أو تعديلاً، تضعيفاً أو توثيقاً: فإن كان من غير أهل عصره، ينقل فيه مختلف آراء الأئمة، وقد يردّ عليهم إن رأى تعنتاً، أو جرحاً غير مفسَّر، أو تساهلاً، أو وهماً، أو نحو ذلك. أمــا إن كان المترجم من أهل عصره، فغالباً يكون رأيه الشخصي هو الأساس؛ لاتصاله به وقربه منه ومعرفته له.

ويبين حال المترجم مما يمس جانب الرواية: فيتكلَّم على عقيدته، ويبين إن كان صاحب بدعة كأن يكون رافضياً، أو سنيّاً، أو شيعيّاً، أو جَهْميّاً، أو قَدَرِيّاً، أو مُرْجِئاً، أو معتزليّاً، أو نحو ذلك، وإن اتُّهم ببدعة نفاها عنه.

ويتكلم على تدينه ومدى التزامه بالإسلام، كقوله: «كان عالماً عاملاً متألهاً»، «له قدم راسخ في التقوى»، «متين الديانة كبير الشأن»، «كان يخلُّ بالصلوات ويُرمى بعظائم»، «قليل الدين»، «كان في خلقه زَعَارَّة»...

وأيضاً ما يتصل برواية الرجل للحديث كأن يكون ثقة ضابطاً، أو قليل الفهم والضبط، أو متساهلاً، أو مجازفاً، أو مخلِّطاً.

ويبين درجة حديثه، كقوله: «ولا يبلغ حديثه مرتبة الحسن، بل عداده في مرتبة الضعيف»، «حديثه من قبيل الحسن»، «الغالب على حديثه المناكير والموضوعات»، «ضعيف الحديث»، «حديثه مخرج في الكتب الستة»، ونحو هذا.

وتكون نتيجة هذا التعديل أو التجريح العام الشامل إصداره أحكاماً جازمة بعبارات دقيقة حازمة حاسمة، رائعة رائقة، كقوله: «ثبْتٌ حُجَّة، ثقة متقن، جيد الحديث، صُوَيْلح، دجَّال كذّاب، متفقَ على تركه، سكتوا عنه، ذاهِبُ الحديث، ليس بذاك...»[1].

وبهذه المعرفة الرجالية الناقدة لرواة الحديث، واستناداً إلى اصطلاحات أئمة الحديث المتقدمين في نقد سند الحديث؛ استطاع الذهبي إصدار رأيه في رجال الحديث وسنده، فيبرم القول بكلمة محددة دالَّة، مثل: «حديث صحيح، حسن، صالح، ضعيف، مرسل، منقطع، منكر، موضوع...».

ولم يكتفِ الذهبي بذلك، بل عني بنقد المتن أيضاً، فيورد الأدلة التي تبيّن صدقَ دعواه، وله في ذلك الشيء الكثير، وهو منثور في بطون

---

(١) ميزان الاعتدال: ١/٤.

كتبه، وقد ردَّ مئاتِ الروايات وأبطلها بنقده المتين، وهذا ظاهر لمن تمرس بأسلوبه وطالع كتبه.

فمن أمثلة ذلك:

ـ قوله في ترجمة حَنْظَلة بن أبي سُفْيان: «ابن عدي: حدثنا أحمد بن عبدالله بن سابور، وما كتبتُه إلا عنـه، حدثنـا الفضل بن الصباح، حدثنا إسحاق بن سُليمان الرازي، عن حنظلة، عن نافع، عن ابن عُمر، أنّ رسول الله ﷺ قال: (اغسلوا قَتْلاكُمْ). غريب جداً، ورواتُه ثقات. وهذا محمول على من قُتل في غير مصافٍّ، ولعلَّ الغلطَ فيه من شيخ ابن عدي، أو شيخ شيخه، والثقة قَدْ يَهِم»[1].

ـ وفي ترجمة بقية بن الوليد ساق حديثاً قال فيه: «عَطيَّة بن بقية: حدثنا أبي، عن محمد بن زياد، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ: «السُّبَّاقُ أربعةٌ: أنا سَابِقُ العرب، وبلالٌ سابِق الحبشة، وصُهيبٌ سابق الرّوم، وسَلْمان سابق الفُرْس». وهذا حديث منكر فرد، والأظهر أن بلالاً ليس بحبشيٍّ، وأمـا صُهيبٌ فعربيٌّ من النَّمر بن قاسِط»[2].

ـ وذكر في ترجمة الحافظ أبي سَعْد الإدريسي «عن ابن أبي ذِئب، عن نافع، عن ابن عُمر قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ رَبَّى شجرة حتى نبتت كان له كأجْرِ قائمِ اللّيل، صائمِ النهار، وكأجْرِ غازٍ في سبيل الله دَهْرَهُ). هذا إسنادٌ مظلمٌ، ومتْنٌ لا يصح، أُلْصِقَ بابن أبي ذئب»[3].

ـ وفي ذكر إسلام علي رضي الله عنه من «تلخيص المستدرك»

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) المرجع السابق: ٨/ ٥٣٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧/٢٢٧، تذكرة الحفاظ: ٣/١٠٦٤.

يقول: شُعيب بن صفوان عن الأجْلَح عن سَلَمة بن كُهيل عن حَبَّة بن جُوَين عن عليٍّ قال: عبدتُ الله مع رسول الله ﷺ سبعَ سنينَ قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة! قلتُ: وهذا باطلٌ، لأن النبي ﷺ من أول ما أُوحي إليه آمن به خديجةُ وأبو بكر وبلالٌ وزيدٌ مع عَليّ، قبله بساعات أو بعده بساعات، وَعَبَدُوا الله مع نبيه، فأين السبع سنين؟! ولعلَّ السمع أخطأ فيكون أمير المؤمنين قال: عبدتُ الله وليَ سبعُ سنين، ولم يضبط الراوي ما سمع. ثم حَبَّة شيعي جَبَل قد قال ما يُعلم بطلانه من أن علياً شهد معه صفِّين ثمانون بدرياً، وذكره أبو إسحاق الجوزجاني فقال: هو غير ثقة، وقال الدارقطني وغيره: ضعيف. وشعيب والأجلح مُتَكلَّم فيهما»[1].

ـ ونقد الذهبي الأحاديث آتٍ من حبه للسنّة، والدفاع عن حياضها، ونفي البواطيل والموضوعات عنها:

ولذا نعى على أولئك الأئمة الكبار الذين يروون الأحاديث ولا يتكلمون على أسانيدها[2]، ودعاهم إلى ترك رواية الغرائب والموضوعات والأباطيل، ومن ذلك قوله ـ في معرض تعليقه على طلب أمير المؤمنين عمر من الصحابة أن يقلوا التحديث عن رسول الله ﷺ ـ: «فبالله عليك إذا كان الإكثارُ من الحديث في دولة عُمر كانوا يُمْنَعُون منه، مع صدقِهم وعدالتهم وعدم الأسانيد، بل هو غَضٌّ لم يُشَبْ؛ فما ظَنُّكَ بالإكثار من رواية الغرائب والمناكير في زماننا مع طول الأسانيد، وكثرة

---

(١) المستدرك: ٣/١١٢. وانظر أمثلة أخرى عن «نقد المتن» في المستدرك ـ مثلاً ـ: ٢/٣٦٧، ٣/١٥٩ ـ ١٦٠، ٢٥٧، ٣٨٧، ٥٥٦، ٦٠٥، ٦٣٩، وغير ذلك كثير.
ميزان الاعتدال: ٤/٣١٣.

(٢) انظر ص ١٣٥ من هذا الكتاب.

الوَهَمِ والغلط؟! فبالحريِّ أن نزجُرَ القومَ عنه، فيا ليتهم يقتصرون على رواية الغريب والضعيف، بل يروون ـ والله ـ الموضوعات والأباطيل، والمستحيل في الأصول والفروع، والملاحم والزهد، نسأل الله العافية»[١].

وانتقد الإمام الأجلَّ القاضي عياضاً لذكره الأحاديث المفتَعلة في كتابه «الشِّفاء»، ثم قال «فلماذا يا قوم نتشبَّعُ بالموضوعات، فيتطرَّقُ إلينا مقالُ ذويَ الغِلِّ والحسد»[٢]؟!.

ويسوق رواية باطلة موضوعة ثم يقول: «فانظر إلى جهل المحدِّثين، كيف يروون هذه الخرافة، ويسكتون عنها»[٣]!.

وبلغ من ورعه في نقد الأحاديث أنه ساق بإسناده حديثين، في إسناد أحدهما «زاهر بن طاهر»، وفي إسناد الثاني «عمر بن محمد»، ثم قال: «في الإسنادين ضعفٌ، من جهة زاهرٍ وعُمر؛ لإخلالهما بالصلاة، فلو كان فيَّ ورعٌ لَمَا رويتُ لمن هذا نعتُه»[٤]!!.

لهذا كان رأيه في رواية الموضوعات حازماً صارماً، يتضح من بعض الإشارات الواردة في كتبه، من مثل ما جاء في ترجمة الحافظ الجوَّال أبي الفتيان عمر بن عبد الكريم بن سعدويه، حيث أسند من طريقه حديثاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ حَفِظ على أمَّتي حديثاً واحداً كان له أجر أحد وسبعين نبياً صديقاً).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٦٠١ ـ ٦٠٢.

(٢) المرجع السابق: ٢٠/٢١٦.

(٣) المرجع السابق: ١١/٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٤) المرجع السابق: ١٠/٣١٧.

قال أبو الفتيان: كتبه عني أبو بكر الخطيب الحافظ بصور. قلت[1]: هذا مما تَحْرُمُ روايته إلا مقروناً بأنه مكذوبٌ من غير تردُّدٍ، وقبَّح الله مَنْ وضعه، وإسناده مظلم، وفيهم ابن رِزَام: كذّاب، لعله آفتُه»[2].

ـ من هنا نعلم لِمَ كانت تلك الشدة من الحافظ الناقد الذهبي لرواة الحديث والمصنفين فيه، وبخاصته ما نلاحظه في تعقباته على الحاكم في «المستدرك».

فمن ذلك:

ساق الحاكم حديثاً من طريق «أحمد بن عبدالله بن يزيد الحراني ثنا[3] عبدالرزاق ثنا سفيان عن ابن خثيم عن عبدالرحمن بن عثمان عن جابر مرفوعاً: (عَلِيٌّ إمامُ البَررَة، وقاتِلُ الفَجَرةَ، منصورٌ مَنْ نَصَره، مخذولٌ من خَذَلَه). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فتعقبه الذهبي بقوله: «بل والله موضوع، وأحمد كذاب، فما أجهلك على سعة معرفتك»[4].

وأورد الحاكم «حديث الطير» عن أنس قال: «كنتُ أخدم رسول الله ﷺ، فَقُدِّمَ له فرخٌ مشويٌّ، فقال: (اللّهمّ ائتِني بأحبِّ خلقِك إليك يأكلُ معي من هذا الطير. . .) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. فردَّ الذهبيُّ ذلك فقال: «ولقد كنت زماناً طويلاً أظن أن حديث الطير لم يَجْسُر الحاكم أن يودعه في

(١) القائل هو الذهبي.
(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٢٣٩.
(٣) اختصار: «حدّثنا».
(٤) المستدرك: ٣/١٢٩.

«مستدركه»، فلما علقتُ هذا الكتاب رأيتُ الهول من الموضوعات التي فيه، فإذا حديثُ الطيرِ بالنسبة إليها سماء»[1].

وقال الحاكم: «أخبرنا أبو الطيب محمد بن أحمد الزاهد ثنا سهل بن عمار العتكي ثنا محمد بن عُبيد الطنافسي ثنا وائل بن داود سمعت البهي يحدث أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: «ما بَعَثَ رسولُ الله ﷺ زيدَ بنَ حَارثة في جيشٍ قطّ إلا أمَّره، ولو بقي بعده لاستخلفه». صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. فتعقَّبه الذهبي بقوله: «قلتُ: سَهْلٌ: قال الحاكم في تاريخه: كذاب، وهنا يصحِّح له، فأين الدِّين»[2]؟!.

●● ومن أبرز معالم شخصية الذهبي الناقد كونه ناقداً تاريخياً بارعاً ويتجلى ذلك في مجال التراجم، وسوق الأحداث، والمصادر التاريخية التي اعتمدها.

فالذهبي عندما صنف كتبه في التراجم كان أمامه عدد هائل من الأعلام المشهورين من مختلف الفئات، فنظر لكل فئة بمنظار يناسبها، وراعى فيها صفات معينة يقوِّمها من خلالها:

فالمحدثون الرواة طبق عليهم المنهج النقدي الحديثي الصارم كما أسلفنا.

في حين راعى في تراجم الحكام والأمراء والوزراء صفات القوة والضعف، والحزم والتردد، والإقدام والإحجام، والشجاعة والجبن، والدهاء والغباء، والعدل والظلم، والعلم والجهل، والالتزام بالإسلام

(١) المستدرك: ٣/١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) المستدرك: ٣/٢١٥. وانظر أمثلة أخرى فيه: ٢/٦١٧، ٣/٦٠، ٩٨، ١٢٧. وغير ذلك.

ونشره وحمل راية الجهاد، والتشجيع على العلم وبناء دوره، وغير ذلك من الصفات الواجب توفرها في الحكام والمسؤولين.

وأما الشعراء فنظر إليهم من زاوية الإبداع في شعرهم، وقيمة دواوينهم، وتميزهم في ناحية ما من الشعر كالغزل أو المديح أو الهجاء، أو تنوع الملكات في هذا ومدى التزامهم بالدين أو خروجهم منه وفسقهم وزندقتهم.

ونحو ذلك مع الأدباء والنحاة واللغويين ومن في مضمارهم.

ونظر إلى القضاة من خلال إنصافهم وعدلهم، وجرأتهم على قول الحق، والوقوف في وجه الظلم، وعدم مداهنتهم، وابتعادهم عن الرشوة واتباع الهوى، فضلاً عن سعة علمهم وخبرتهم بمتطلبات هذا المنصب الخطير.

وأما العلماء فراعى في تراجمه لهم ذِكْرَ العِلم الذي برعوا فيه، ومكانتهم بين أقرانهم، أو من سبقهم ولحق بهم. وأورد شيئاً من فضائلهم ومآثرهم، ونحو ذلك.

كذلك عندما ترجم لأصحاب الأهواء نظر إليهم من زاوية العقيدة ومدى التزامهم بها، أو خروجهم عنها، وبيَّن نوع بدعتهم، ومن كان خفيف البدعة أو شديدها، أو غالياً فيها داعياً إليها، وما يخرج به من الدين أو لا.

ويصدر التقاويم على كل واحد منهم بعبارة دقيقة، وألفاظ رقيقة رشيقة، محددة المعنى، واضحة الدلالة، تزن كل عَلَمٍ بالعدل، دون حَيْف أو مبالغة.

ومن هنا نجد أن خطة تعدد المعايير والموازين التي اتبعها الذهبي

في تراجمه، تفصح عن فهمه العميق، ونظرته الثاقبة، وأسلوبه الحصيف، ولا يعتبر ذلك بحال تناقضاً في المنهج، ولا تشتتاً في النظرة، ولا اضطراباً في التقويم، بل هو غاية ما يمكن أنْ يفعله المؤرّخ مع تراجمه ليحقق أكبر قدر ممكن من الإنصاف والعدل.

● ● ●

ثالثاً ــ نقده المصادر

وثمة ناحية أخرى أجاد الذهبي فيها باعتباره ناقداً بارعاً شمولياً، فتراه وهو يترجم للأعلام يذكر عيون مصنفاتهم، وفي كثير من الأحيان يصدر تقاويمه لتلك التواليف. كذلك ينتقد المصادر التي طالعها أو نقل منها أو اختصرها، فيذكر محاسنها ومساوئها، ويبين جودتها أو ضعفها، وأصالتها أو تقليدها.

والأمثلة على هذا كثيرة جداً، فمنها:

ــ ساق عدة أحاديث أباطيل من نسخة نُبيط بن شَرِيط، ثم قال: «فهذه أحاديث أباطيل، ونسخة نبيط نسخة موضوعة بلا ريب، فلا تغترّوا بعلُوِّها»(١).

ــ وقال في ترجمة أبي عُبيد القاسم بن سَلاَّم: «وأجَلّ كتبه «غريب المصنّف»، ولأبي عبيد كتاب في القراءات ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله». ووصف كتابه «الأموال» بأنه «من أحسن ما صنِّف في الفقه وأجوده»(٢).

---

(١) معجم الشيوخ: ٣٧٨ ــ ٣٧٩.

(٢) معرفة القرّاء: ١/١٧٢، سير أعلام النبلاء: ١٠/٤٩٤.

ـ وقال في ترجـمة إبراهيم بن عمر الجَعْبري: «له شرح كبير «للشاطبية» كامل في معناه»[1].

ـ وترجم محمد بن طلحة النصيبي، وقال: «وله «دائرة الحروف» ضلالٌ وبليَّة»[2].

ـ وقال في ترجمة الشهاب القُوصيّ إسماعيل بن حامد الأنصاري الشافعي: «وخَرَّجَ لنفسهِ مُعجماً في أربع مجلدات كبار، فيه غلط كثير»[3].

ـ وأثنى على «كتاب السُّنَن» للحافظ أبي بكر الأثرم، فقال: «وله كتاب نفيس في السنن، يدل على إمامته وسعة حفظه»[4].

ـ وامتدح «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم، فقال: «كتابه في الجرح والتعديل يقضي له بالرتبة المنيفة في الحفظ»[5].

ـ وقال في ترجمة الخليل بن أحمد الفراهيدي مصنف «العَيْن» في اللغة: «ومات ولم يتمم كتاب «العين»، ولا هَذَّبه، ولكنَّ العلماء يَغْرِفُونَ من بحره»[6]!.

ـ وأعْظَمَ «كتاب سيبويه» في النحو، فقال: «ثم أقبل على

---

(١) معرفة القرّاء: ٢/٧٤٣.

(٢) العبر: ٣/٢٦٩.

(٣) العبر: ٣/٢٧٠، سير أعلام النبلاء ٢٣/٢٨٩.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٢/٥٧١.

(٥) تذكرة الحفاظ: ٣/٨٣٠، سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٦٤.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٧/٤٣٠ ـ ٤٣١.

العربية، فبرعَ وسادَ أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير الذي لا يُدْرَكُ شأوه فيه»[1].

ـ ويقول في ترجمة أحمد بن أبي خيثمة: «صاحب «التاريخ الكبير» الكثير الفائدة»[2].

ـ وقال في ترجمة محدث الشيعة عبَّاد بن يعقوب الرَّوَاجيني الكوفي المبتدع: «ورأيتُ له جزءاً من كتاب «المناقب» جمع فيها أشياء ساقطة، قد أغنى الله أهل البيت عنها، وما أعتقدهُ يتعمد الكذب أبداً»[3].

ـ وقال في ترجمة الزبير بن بكار: «وهو مصنف كتاب «نسب قريش»، وهو كتاب كبير نفيس»[4].

ـ وفي ترجمة ابن أبي شيبة فَخَّم أمر مسنده فقال: «صاحب «المسند الكبير» العديم النظير، المُعَلَّل، الذي تَمَّ من مسانيده نحوٌ من ثلاثين مجلداً، ولو كمل لجاء في مئة مجلد»[5].

ـ وقال في ترجمة الحافظ العِجْليّ: «ولـه مصنف مفيد في «الجرح والتعديل»، طالعته وعلقت منه فوائد تدلّ على تبحُّره بالصنعة، وسعة حفظه»[6].

---

(١) المرجع السابق: ٨/٣٥١.
(٢) المرجع السابق: ١١/ ٤٩٢.
(٣) المرجع السابق: ١١/ ٥٣٨.
(٤) المرجع السابق: ١٢/٣١٢.
(٥) المرجع السابق: ١٢/٤٧٦.
(٦) المرجع السابق: ١٢/٥٠٦.

ـ وأثنى على كتب بقيّ بن مَخْلد بقوله: «صاحب «التفسير» و«المسند» اللذين لا نظير لهما»[1].

ـ ووصف كتاب «غريب الحديث» لإبراهيم الحربي بأنه: «كتاب نفيس، كامل في معناه»[2]. وكتاب «علل الحديث» للساجي بأنه: «مصنَّف جليل[3]». و«تفسير ابن المنذر» بأنه: «يقضي له بالإمامة في علم التأويل[4]».

ـ وأصدر رأياً جامعاً في تصانيف الفارابي، فقال: «له تصانيف مشهورة، من ابتغى الهدى فيها ضل وحار، منها تخرج ابن سينا، نسأل الله التوفيق[5]».

ـ وقال في ترجمة الفقيه المحدث أبي محمد عبدالله بن محمد الحارثي الحنفي: «وقد ألَّف مسنداً لأبي حنيفة الإمام، وتعِبَ عليه، ولكنْ فيه أوابدُ ما تفوَّه بها الإمام، راجتْ على أبي محمد»[6].

ـ ووصف «رسالة الغفران» للمعرِّي بأنها: «من أردأ تواليفه، قد احتوتْ على مَزْدَكَةٍ وفراغ»[7].

ـ وأثنى جداً على تواليف الإمام أبي بكر البيهقي، فقال: «فتصانيفُ البيهقي عظيمة القَدْر، غزيرة الفوائد، قلَّ من جوَّد تواليفه

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٥/١٣.
(٢) المرجع السابق: ٣٦١/١٣.
(٣) المرجع السابق: ١٩٩/١٤.
(٤) المرجع السابق: ٤٩٢/١٤.
(٥) المرجع السابق: ٤١٧/١٥.
(٦) المرجع السابق: ٤٢٥/١٥.
(٧) المرجع السابق: ٢٥/١٨.

مثل الإمام أبي بكر، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء، سيّما سننه الكبير». وقال في «السنن»: «السنن الكبير في عشر مجلدات ليس لأحد مثله»[1].

ـ وقال في ترجمته الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان[2] أبي حامد الغزالي: «قلت: أما «الإحياء» ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء، ومنحرفي الصوفية...»[3].

ـ وانتقد «تجريد الصِّحاح» لرَزِين بن معاوية العبدري، فقال: «أدخلَ كتابه زياداتٍ واهية، لو تنزَّه عنها لأجاد»[4].

ـ وأثنى على كثير من مصنفات الحافظ أبي موسى المَدِينيّ، فقال: «وصنَّف كتاب «الطوالات» في مجلدين، يُخضع له في جمعه، وكتاب: «ذيل معرفة الصحابة» جمع فأوعى.... وكتاب «تتمة الغريبين» يدل على براعته في اللغة...»[5].

ـ وذمَّ كتبَ السُّهْرَوَرْدِيّ الفيلسوف، فقال: «وله كتاب «التلويحات اللوحية والعرشية»، وكتاب «اللَّمْحة» وكتاب «هياكل النور»، وكتاب «المعارج والمطارحات»، وكتاب «حكمة الإشراق»، وسائرها ليست من علوم الإسلام»[6].

---

(١) المرجع السابق: ١٨/ ١٦٥، ١٦٨.
(٢) بهذا حَلَّاه الذهبي.
(٣) المرجع السابق: ١٩/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.
(٤) المرجع السابق: ٢٠/ ٢٠٥.
(٥) المرجع السابق: ٢١/ ١٥٤.
(٦) المرجع السابق: ٢١/ ٢١٠.

ــ وقال في ترجمة محيي الدين بن عربي: «ومن أردأ تواليفه كتاب «الفُصُوص»، فإنْ كانَ لا كُفْرَ فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة، فواغوثاه بالله»[1]!!

ــ وانتقد «تنبيه الغافلين» لأبي الليث السمرقندي بأن فيه «موضوعات كثيرة»[2].

● ● ●

رابعاً ــ نقده كل ما لا يراه صحيحاً

المتتبع لمنهج الذهبي في كتبه يجده ينقد ــ غالباً ــ كل ما يراه غير صحيح، أو مخالفاً للحق والشرع والعقل والحس والواقع التاريخي.

وأسوق هنا بعض تلك الوقفات ــ وما أكثرها في تصانيفه ــ فإنها نفائس قَلَّ أن نجد مثلها عند غيره:

ذكر في ترجمة الإمام الحافظ حجاج بن أرطأة قوله: «لا تتم مروءة الرجل حتى يدع الصلاة في الجماعة»! فعقَّب بقوله: «قَبَّحَ الله هذه المروءة التي هي كِبْرٌ على خلق الله»[3].

ــ وقال في «الميزان»: «عُمر بن داود بن سلَمون: شيخ لأبي علي الأهوازيّ من أهل الثغر، أَتَى بحديث باطل لعلّه هو المتفضّل بوَضْعه؛

(١) المرجع السابق: ٢٣/٤٨.
(٢) تاريخ الإسلام، وفيات: (٣٥١ ــ ٣٨٠) ص ٥٨٣.
(٣) تذكرة الحفاظ: ١/١٨٧، سير أعلام النبلاء: ٧/٧٢، ميزان الاعتدال: ١/٤٥٩.

فإنه قد سمع من الأهوازي يقول: ختمتُ القرآن اثنتين وأربعين ألف خَتْمة! فهذا شيخ لا يستحي مما يقول»[1].

ـ وذكر في ترجمة موسى بن عبدالله الطويل عنه أنه قال: «رأيتُ عائشةَ رضي الله عنها بالبصرة على جمل أَوْرَق في هَوْدَج أخضر». ثم قال الذهبي: «قلتُ: انظر إلى هذا الحيوان المُتّهم، كيف يقول في حدود سنة مئتين إنه رأى عائشة، فمن الذي يصدِّقه»[2]؟!.

ـ وأورد في ترجمة الإمام المُقْرِىء الملقِّن محمد بن أحمد البغدادي الخياط أنه «بلغ عددُ مَنْ أقرأهم من العميان سبعين ألفاً». ثم قال معقباً: «هذا مستحيلٌ، والظاهر أنه أراد أن يكتب: نَفْساً، فسبقه القلمُ فخطَّ: ألفاً! ومن لقَّنَ القرآن لسبعين ضريراً، فقد عمل خيراً كثيراً»[3].

ـ وقال في ترجمة الأمير البطل المُهَلَّب بن أبي صُفْرة: «وروى رَوْح بن قبيصة، عن أبيه، قال المُهَلَّب: ما شيءٌ أبقى للمُلْك من العفو، خيرُ مناقبِ المَلِك العَفْوُ. قلتُ: ينبغي أن يكون العفوُ من الملِكِ عن القتل، إلَّا في الحدود، وأن لا يعفوَ عن والٍ ظالم، ولا عن قاضٍ مرتشٍ، بل يعجِّل بالعَزْل، ويعاقِبُ المتَّهم بالسَّجْن، فَحِلْمُ الملوكِ محمودٌ إذا ما اتَّقُوا الله، وعمِلوا بطاعته»[4].

ـ ويقول في ترجمة الحافظ الثبت عَمْرو بن الحارث: «حرملة عن ابن وهب قال: اهتدينا في العلم بأربعة: اثنانِ بمصرَ، واثنان بالمدينة.

---

(١) ميزان الاعتدال: ١٩٣/٣.

(٢) المرجع السابق: ٢١٠/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢٣/١٩، معرفة القرّاء: ٤٥٨/١.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣٨٥/٤.

عَمْرو بن الحارث والليث بن سَعْد بمصر، ومالك وابن الماجِشون بالمدينة، لولا هؤلاء لكنّا ضالّين. قلتُ: بل لولا الله لكنّا ضالِّين، اللّهمّ لولا أنتَ ما اهْتَدَيْنَا»[1].

ـ وقال في ترجمة إمام الحفاظ سفيان الثوري: «وأما الرُّواة عنه فَخَلْقٌ، فَذَكَرَ أبو الفرج ابن الجوزي أنهم أكثرُ من عشرين ألفاً، وهذا مدفوعٌ ممنوعٌ، فإنْ بلغوا ألفاً، فبالْجَهْدِ، وما علمتُ أحداً من الحفاظ رَوى عنه عددٌ أكثر من مالك، وبلغوا بالمجاهيل وبالكذابين ألفاً وأربع مئة»[2].

ـ وانظر إلى هذا التعقب لابن المبارك أورده في ترجمته، فقال: «الفضل بن محمد الشَّعْراني: حدثنا عبدةُ بن سُليمان قال: سمعتُ رجلًا يسأل ابن المبارك عن الرجل يصوم يوماً ويُفطر يوماً. قال: هذا رجل يضيّع نصف عمره، وهو لا يدري. يعني لِمَ لا يصومُها. قلتُ: أحسِبُ ابن المبارك لم يذكر حينئذٍ حديثَ: (أفْضَلُ الصَّوْمِ صومُ داود)، ولا حديث: النهي عن صَوْمِ الدَّهْرِ»[3].

وإلى ردِّه على سُفيان الثوري في قوله: «ليس على نساءِ خُراسان حَجٌّ». فيقول الذهبي: «قلتُ: هذا قولٌ عجيبٌ، أَفَماهُنَّ من الناس؟! فكأنَّه لمح بُعْدَ الشُّقَّة، وكثرة المَشَقَّة»[4]!

ـ وجاء في ترجمة الإمام الحافظ الناقد أبي الوليد الطيالسي: «وقال ابن وَارَة أيضاً: قال لي عليُّ بن المَدِيني: اكتبْ عن أبي الوليد

---

(١) المرجع السابق: ٣٥١/٦.

(٢) المرجع السابق: ٢٣٤/٧.

(٣) المرجع السابق: ٤٠٦/٨ ـ ٤٠٧.

(٤) المرجع السابق: ٤٨٦/٩.

الأصول، فإنَّ غير الأصول تُصيب. وقال لي أبو نُعيم: لولا أبو الوليد ما أشرتُ عليك أن تَقْدَمَ البصرةَ، فإنْ دخلتَها لا تجدُ فيها إلَّا مغفَّلًا إلَّا أبا الوليد. قلتُ: عفا الله عن أبي نعيم، فقد كان إذْ ذاكَ بالبصرةِ مثلُ عليٍّ بن المديني، وعَمْرِو بن علي، وطائفة من أعلام الحديث»[1].

ـ وقال في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل: «وعن رجل قال: عندنا بخراسان يظنُّون أن أحمدَ لا يشبه البشر، يظنّون أنه من الملائكة. وقال آخر: نظرةٌ عندنا من أحمد تعدِلُ عبادةَ سنة! قلتُ: هذا غلوٌّ لا ينبغي، لكن الباعثَ له حبُّ وليّ الله في الله»[2].

وفي موضع آخر من ترجمة الإمام يورد الحكاية العجيبة التالية: عن محمد بن عبّاس المكّي، سمعتُ الوَرْكاني جارَ أحمد بن حنبل، قال: «يوم مات أحمدُ بن حنبل وقع المأتمُ والنَّوْحُ في أربعةِ أصناف: المسلمين، واليهود، والنصارى، والمجوس. وأسلم يوم مات عشرون ألفاً». وفي رواية ظفر بن أحمد: عشرةُ آلافٍ من اليهود والنصارى والمجوس.

ثم تعقبها الذهبي، فقال: «هذه حكاية منكرة، تفرَّد بنقلها هذا المكي عن هذا الوَرْكاني، ولا يُعْرَف، وما ذا بالوركاني المشهور محمد بن جعفر الذي مات قبل أحمد بن حنبل بثلاث عشرة سنة، وهو الذي قال فيه أبو زرعة: كان جاراً لأحمد بن حنبل. ثم العادةُ والعقلُ تُحيل وقوع مثل هذا، وهو إسلامُ ألوفٍ من الناس لموت وليٍّ لله، ولا ينقلُ ذلك إلا مجهولٌ لا يُعرف. فلو وقع ذلك لاشتهر ولتواتر، لتوفّرِ الهمم

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٣/١٠.

(٢) المرجع السابق: ٢١١/١١.

والدّواعي على نقل مثله. بل لو أسلم لموته مئةُ نفْسٍ، لقُضي من ذلك العجب. فما ظنك»[1]؟!.

ـ وقال في ترجمة الحافظ محمد بن أَسْلَم الطوسي: «قال أحمد بن نصر النيسابوري: قيل لي: صلَّى على محمد بن أسلم ألفُ ألف إنسان. قلتُ: هذا ليس بممكن الوقوع، ولا سيّما أنه إنّما علموا بموته في الليل، وصُلِّي عليه بُعيدَ الفجر. فالله أعلم»[2].

وجاء في ترجمة الواعظ المحدث ابن سَمْعُون: «نقل أبو محمد بن حزم خرافةً لا تثبت، فقال: وقال شيخ ـ يقال له: ابن سمعون ـ ببغداد: إن الاسم الأعظم ليس هو من الأسماء الحسنى المعروفة، قال: وهو سبعةٌ وثلاثون حرفاً من غير حروف المعجم»[3]!.

ـ ورفض قبول ما ذُكر من كثرة عدد من يحضر مجلس وعظ الحافظ ابن الجوزي، فقال في ترجمته: «وكان ذا حظٍّ عظيمٍ وصيتٍ بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوكُ والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء، لا يكاد المجلس ينقصُ عن ألوف كثيرة، حتى قيل في بعض مجالسه: إنْ حُزر الجمعُ بمئة ألفٍ! ولا ريب أنَّ هذا ما وقع، ولو وقع لما قدر أنْ يُسمِعهم، ولا المكان يَسعُهم»[4].

● ● ●

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١١/٣٤٣، تاريخ الإسلام وفيات: (٢٤١ ـ ٢٥٠) ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٢/٢٠٥.

(٣) المرجع السابق: ١٦/٥١٠ ـ ٥١١.

(٤) المرجع السابق: ٢١/٣٧٠.

خامساً ـ إنصافه في تراجمه

قد علمنا أن الذهبي ترجم للآلاف من الأعلام والمشاهير من مختلف الفئات، فتنوعت تراجمه فشملت أرباب المذاهب الأربعة، والظاهرية، والرافضة، والشيعة، وأهل الكلام، والمعتزلة، والمرجئة، وأصحاب السلطان واللغويين، والأدباء، والنحويين، والشعراء، والقراء، والأطباء، والمتصوفة، وأهل الملل والنحل والأهواء. إذا نظرنا إلى هذا التنوع الهائل والكم الكبير، وأضفنا إليه أن الذهبي لم يكن في تراجمه مقلِّداً تابعاً، بل صيرفياً ناقداً، يميز الغث من السمين، والخرز من الجوهر الثمين، عرفنا العبء الثقيل الذي يُناط به كي يكون معتدلاً منصفاً، بعيداً عن التعصب، نائياً عن الحيف والجور.

وقد استبان لنا، وتأكد عندنا ـ بعد إطالة البحث في كتب هذا الإمام، وإمعان النظر في منهجه وأسلوبه ـ أنه كان يتوخَّى دائماً جانب الإنصاف والاعتدال في تراجمه، وقد وُفِّق في ذلك إلى حدٍّ كبير، قَلَّ مَنْ يدانيه فيه.

●● فكثيراً ما نجده يدعو إلى الإخلاص في البحث، والورع في النقد، بعد المعرفة التامة بعلم الرجال:

ولقد احتوت ذخائره وتراثه الكبير الشيء الكثير من هذا القبيل، فمن ذلك:

ـ قوله في ترجمة عثمان بن عبد الرحمٰن الطرائفي المؤدب: «وما علمتُ أنَّ أحداً قال في عثمان بن عبد الرحمٰن هذا: إنه يدلِّس عن الهلكىٰ، إنما قالوا: يأتي عنهم بمناكير. والكلامُ في الرجال لا يجوز

إلا لتامِّ المعرفة تامّ الورع! وكذا أسرفَ فيه محمدُ بن عبدالله بن نمير، فقال: كذاب»[1].

ـ وقال في ترجمة الفضيل بن عياض وابنه: «وإنما الكلام في العلماء مُفْتَقِرٌ إلى وَزْنٍ بالعدل والورع»[2].

ـ ويقول في ترجمة علي بن المديني: «. . . ثُمَّ ما كلُّ أحدٍ فيه بدعة أوْ لَهُ هفوةٌ أو ذنوب يُقدح فيه بما يوهن حديثه، ولا مِنْ شرطِ الثقة أن يكون معصوماً من الخطايا والخطأ، ولكن فائدة ذِكْرِنا كثيراً من الثقات الذين فيهم أدنى بِدْعة أوْ لَهُمْ أوهامٌ يسيرة في سعة علمهم أنْ يُعرف أن غيرهم أرجحُ منهم وأوْثَقُ إذا عارضهم أو خالفهم. فَزِنِ الأَشياءَ بالعدل والورع»[3].

ـ وفي ترجمة الحافظ الجِهْبِذ يحيى بن معين، ذَكَرَ أن الإمام أحمد بن حنبل لا يرى الكتابة عنه، ولا عن أحد ممن امتُحن «بمسألة خلق القرآن» فأجاب، ثم رَدَّ الذهبي ذلك فقال: «قلتُ: هذا أمر ضيِّق، ولا حرج على مَن أجاب في المحنة، بل ولا على من أكره على صريح الكفر عملاً بالآية، وهذا هو الحقّ. وكان يحيى ـ رحمه الله ـ من أئمة السُّنّة، فخاف من سطوة الدولة، وأجاب تقية»[4].

ـ وقال في ترجمة حافظ المغرب أبي عمر ابن عبد البر: «وكلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُترك إلّا رسول الله ﷺ، ولكنْ إذا أخطأ إمامٌ في

---

(١) ميزان الاعتدال: ٣/٤٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٤٨.

(٣) ميزان الاعتدال: ٣/١٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١١/٨٧، ميزان الاعتدال: ٤/٤١٠.

اجتهادِه، لا ينبغي لنا أن ننسى محاسنَه، ونغطّي معارفه، بل نستغفرُ له، ونعتذِرُ عنه»[1].

ــ ويقول في ترجمة مِسْعَر بن كِدَام: «الإِرجاء مذهب لعَدَّةٍ من جلَّةِ العلماء، لا ينبغي التحاملُ على قائله»[2].

ـ وتأمل هذا الاعتدال والإنصاف في منهجه إذ يقول ــ في نهاية ترجمة بِشْرِ بن غياث المَرِيْسِي ــ: «ومَنْ كُفِّرَ ببدعةٍ وإن جلَّتْ، ليس هو مثلَ الكافرِ الأصليّ، ولا اليهوديّ والمجوسي، أبى الله أن يجعلَ مَنْ آمن بالله ورسولِهِ واليومِ الآخر، وصامَ وصلّى وحجَّ وزكّى، وإن ارتكبَ العظائم وضلَّ وابتدَعَ؛ كمن عانَدَ الرسولَ، وَعَبَدَ الوثن، ونَبَذَ الشرائع وكَفَرَ، ولكنْ نبرأُ إلى الله من البدع وأهلِها»[3].

●● ومَنْ أدمن النظر في كتبه المطولة، وتراجمه الكثيرة المتنوعة، عَلِمَ صِدقَ التزامه فيما ينص عليه ويدعو إليه.

وقد سبق في ثنايا هذا الكتاب ذكر كثير من الأمثلة، وأذكر هنا نماذج أخرى[4]:

ــ «عُبيد الله بن محمد بن بَطَّة العُكبَريّ الفقيه: إمام، لكنه ذو أوهام. . . . ومع قلَّة إتقان ابن بطة في الرواية، فكان إماماً في السنة، إماماً في الفقه، صاحبَ أحوال وإجابة دعوةٍ رضي الله عنه»[5].

ــ «محمد بن عبدالله الضَّبيِّ النيسابوري الحاكم، أبو عبدالله

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/١٥٧.

(٢) ميزان الاعتدال: ٤/٩٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٠/٢٠٢.

(٤) وسيرد خلال هذا الفصل أمثلة أخرى أيضاً.

(٥)) ميزان الاعتدال: ٣/١٥.

الحافظ، صاحب التصانيف، إمامٌ صدوق، لكنه يصحِّح في «مستدركه» أحاديثَ ساقطة، ويُكْثِر من ذلك، فما أدري هل خَفِيَتْ عليه فما هو ممن يجهل ذلك، وإن عَلِمَ فهذه خيانة عظيمة، ثم هو شيعي مشهورٌ بذلك من غير تعرُّضٍ للشيخين. وقد قال ابنُ طاهر: سألتُ أبا إسماعيل عبدالله الأنصاريَّ عن الحاكم أبي عبدالله، فقال: إمامٌ في الحديث، رافضيٌّ خبيثٌ. قلتُ: الله يحبُّ الإنصاف، ما الرجلُ برافضيٍّ، بل شيعي فقط»[1].

ـ «عبد الرزاق بن همام، العلاّمة الحافظ أبو بكر الصَّنْعَاني، صاحب المصنّفات. . . . . وله أوهام مغمورة في سعة علمه»[2].

ـ « رَوْحُ بن عُبادة بن العلاء بن حسان بن عَمْرو، الحافظ الصدوق. . . . . وقيل: إنَّ عبد الرحمٰن تكلَّم فيه: وَهِمَ في إسناد حديث. وهذا تَعَنُّتٌ، وقلَّةُ إنصافٍ في حق حافظٍ قد روى ألوفاً كثيرة من الحديث، فَوَهِمَ في إسناد، فرَوْح لو أخطأ في عدة أحاديث في سَعَة علمه، لاغْتُفِرَ له ذلك أسوةُ نظرائه. ولسنا نقول: إن رتبة روح في الحفظ والإتقان كرتبة يحيى القطّان، بل ما هو بدون عبد الرزاق، ولا أبي النَّضْر»[3].

ـ وذكر في ترجمة أبي بكر الشَّاشِي القَفَّال الكبير أنّه انتصر في «تفسيره» للاعتزال، ثم قال: «والكمال عزيز، وإنّما يُمدحُ العالِمُ بكثرةِ ما لَه من الفضائل، فلا تُدفن المحاسنُ لورطة، ولعلَّه رجع عنها. وقد

---

(١) المرجع السابق: ٦٠٨/٣، سير أعلام النبلاء: ١٧٤/١٧.

(٢) العبر: ٢٨٣/١.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٠٢/٩، ٤٠٦.

يُغفر له باستفراغه الواسع في طلب الحق، ولا قوة إلا بالله»[1].

●● ومن مظاهر إنصافه وورعه دفاعُه عن الأكابر، ونفي التهم عنهم، ودفْع ما وقع في حقهم من جور أو خطأ. ومقابل هذا ينتقدهم حيث يتوجب ذلك، كتبيين خطأ، أو التنبيه على وهم. وهو في كلا الأمرين متّزن معتدل، لا يحابي أحداً، ولا يجامل كبيراً مهما علا شأنه.

ـ فمن دفاعه عن الأكابر:

قوله في ترجمة حسين المُعَلِّم: «وَثَّقه أبو حاتم الرازي والنسائي والناس. وقد ذكره العُقَيلي في كتاب «الضعفاء» له، بلا مستند، وقال: هو مضطرب الحديث. . . . وذكر له العقيلي حديثاً واحداً تفرَّد بوصله، وغيرُه من الحفّاظ أرسله. فكان ماذا؟! فليس من شرط الثقة أن لا يغلط أبداً، فقد غلط شعبة ومالك، وناهيك بهما ثقة ونبلاً. وحسين المعلم ممن وثقه يحيى بن معين ومن تقدم مُطْلقاً، وهو من كبار أئمة الحديث»[2].

وقال في ترجمة هشام بن عروة: «قلتُ: الرجل حجة مطلقاً، ولا عِبرة بما قاله أبو الحسن بن القطان من أنه هو وسُهيل بن أبي صالح اختلطا وتغيرا. . . . فَقَوْلُ ابن القطان: «إنه اختلط» قول مردودٌ مرذول، فأرِني إماماً من الكبار سَلِمَ من الخطأ والوهم»[3]!.

وقال في ترجمة الفُضيل بن عياض: «وهو حُجَّة كبير القدْر. ولا عِبرة بما نقله أحمد بن أبي خَيْثَمة، سمعت قُطْبة بن العلاء يقول: تركتُ حديث فضيل بن عياض، لأنه روى أحاديث أزْرىٰ على عثمان بن

---

(١) المرجع السابق: ١٦/٢٨٥.
(٢) المرجع السابق: ٦/٣٤٦.
(٣) المرجع السابق: ٦/٣٥ ـ ٣٦.

عفان. قلتُ: فلا نسمعُ قولَ قطبة، ليته اشتغل بحالِه، فقد قال البخاري: فيه نظر. وقال النسائي وغيرُه: ضعيف. وأيضاً فالرجلُ صاحب سنَّةٍ واتِّباع»[1].

وذكر في ترجمة عبد الرزاق بن هَمَّام الصَّنْعاني قولَ العباس بن عبد العظيم: «والله الذي لا إله إلا هو، إنَّ عبد الرزاق كذَّابٌ، والواقديُّ أصدقُ منه»، ثم تعقبه بقوله: «قلتُ: بل والله ما بَرَّ عباسٌ في يمينه، ولبئسَ ما قال، يَعْمَدُ إلى شيخ الإسلام، ومحدِّث الوقت، ومن احتجَّ به كلُّ أرباب الصحاح ـ وإنْ كان له أوهامٌ مغمورةٌ، وغيرُه أبرعُ في الحديث منه ـ فيرميه بالكذب، ويُقَدِّم عليه الواقديَّ الذي أجمعت الحفَّاظُ على تركه! فهو في مقالته هذه خارقٌ للإجماع بيقين»[2].

وقال في ترجمة الحافظ الجَوَّال محمد بن طاهر ابن القَيْسَرانيّ: «وقد ذكره الدَّقاق في رسالته، فحط عليه، فقال: كان صوفياً مَلَامتيّاً، سكن الرَّيَّ، ثم هَمَذَان، له كتَاب «صفوة التصوف»، وله أدْنى معرفةٍ بالحديث في باب شيوخ البخاري ومسلم وغيرهما. قلتُ: يا ذَا الرجل، أقْصِرْ، فابنْ طاهر أحفظُ منكَ بكثير»[3].

ـ وأما انتقاده الأكابر، ورده عليهم، فأمثلة ذلك كثيرة جداً، منها:

قوله في «الميزان»: «عبدالله بن حفص، الوكيل، الضرير السامري: قال ابنُ عدي: كتبتُ عنه، وكان يسرق الحديث، وأمْلَى عليَّ أحاديثَ موضوعةً، لا أشكُّ أنه وضعها. . . . قلتُ: ما كان ينبغي

---

(١) المرجع السابق: ٨/٤٤٨.

(٢) المرجع السابق: ٩/٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٩/٣٦٤، تذكرة الحفاظ: ٤/١٢٤٤.

لابن عدي أن يتشاغلَ بالأخذ عن هذا الدجَّال الأعمى البصر والبصيرة، الـذي قال الله فيـه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَى فَهُـوَ فِي الآخِـرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾»[1].

وقال في موضع آخر: «عَنْبَسَةُ بن خالد الأَيْلي..... وكان أحمد بن حنبل يقول: مالنا ولعنبسة! أيُّ شيء خرج علينا من عنبسة؟ هل روى عنه غير أحمد بن صالح؟! قلتُ: بل رَوَى عنه جماعة، وأثنى عليه أبو داود»[2].

وذكر في ترجمة الإمام الكبير هشام بن حسان، قول شعبة فيه بأنه ليس بالحافظ، ثم قال: «هذا قول مطروح، وليس شعبةُ بمعصوم من الخطأ في اجتهاده، وهذه زَلَّة من عالم...»[3].

وقال في ترجمة الإمام أبي القاسم البَغَوِيِّ: «قال أحمد بن علي السُّلَيمانيُّ الحافظ: البغوي يُتَّهَمُ بَسَرِقَةِ الحديث. قلتُ: هذا القولُ مردودٌ، وما يتَّهم أبا القاسم أحدٌ يدري ما يقول بل هو ثقةٌ مُطلقاً»[4].

وأورد في ترجمة يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني ما قيل فيه من جَرْحٍ وتعديل، وجَرْحَ الإمامين أحمد والدارمي له، ثم قال: «وقال أحمدُ بن زهير عن ابن مَعِين: مَا كان بالكوفة في أيامه رجلٌ يحفظ معه، وهؤلاء يحسدونه. قلتُ: بل يُنْصِفونَه، وأنتَ فما أنصفتَ[5]»!!.

وفي ترجمة الحافظ أبي الفضل محمد بن ناصر السَّلاَميّ ـ شيخ

---

(١) ميزان الاعتدال: ٢/ ٤١٠.
(٢) المرجع السابق: ٣/٢٩٨.
(٣) المرجع السابق: ٤/٢٩٦.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٤/٤٥٥.
(٥) المرجع السابق: ١٠/٥٣٥.

ابن الجوزي ـ ذكر ثناءَ ابن الجوزي على شيخه هذا، وانتصاره له، وتقبيح قول أبي سَعْد السمعاني فيه، ثم قال الذهبي: «ثم أخذ ابنُ الجوزي يحطُّ على أبي سعد، وينسبه إلى التعصب البارد على الحنابلة! وليس الأمر كذلك. ولا ريبَ أن ابن ناصر متعصّب في الحطِّ على بعض الشيوخ، فَدَعِ الانتصارَ، فأبو سَعْد أعلمُ بالتاريخ وأحفظُ منك ومن شيخك»[1].

●● وقد اقتضى منه هذا الإنصاف أن يشتد ـ أحياناً ـ في الرد، ويقسو في النقد، لجلالة الموقف وعظمته في نظره.

فمن ذلك مثلاً:

ـ أورد ابنَ أبي حاتم في «الميزان» فقال: «عبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي: الحافظ الثبت ابن الحافظ الثبت... وما ذكرتُه لولا ذِكْر أبي الفضل السُّلَيماني له، فبئسَ ما صنع»[2].

ـ وقال في ترجمة علي بن المديني: «ذكره العقيلي في كتاب «الضعفاء» فبئس ما صنع!.....

وقد بدتْ منه هَفْوَة ثم تاب منها، وهذا أبو عبدالله البخاري ـ وناهيك به ـ قد شحنَ صحيحه بحديثِ علي بن المديني، وقال: ما استصغرتُ نفسي بين يدي أحد إلا بين يدي علي بن المديني. ولو تركتَ حديث عليٍّ، وصاحبه محمد، وشيخه عبد الرزاق، وعثمان بن أبي شيبة، وإبراهيم بـن سَعْد، وعفّان، وأبان العطار، وإسرائيل، وأزهر السمان، وبَهْز بن أسد، وثابت البُناني، وجَرير بن عبد الحميد؛ لغلقنا

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/١٢٨٩، سير أعلام النبلاء: ٢٠/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٢) ميزان الاعتدال: ٢/٥٨٧ ـ ٥٨٨.

البابَ وانقطعَ الخطابُ، ولماتتِ الآثارُ، واستولتِ الزَّنادقةُ، ولخرج الدجَّال! أفَمَا لكَ عقلٌ يا عُقيلي؟! أتدري فيمن تتكلَّم! وإنما تبعناك في ذِكْرِ هذا النمط لنذبَّ عنهم، ولنزيِّفَ ما قيل فيهم، كأنكَ لا تدري أن كلَّ واحدٍ من هؤلاء أوثق منك بطبقات، بل وأوْثَقُ مِنْ ثقاتٍ كثيرين لم توردْهُمْ في كتابك، فهذا مما لا يرتابُ فيه محدِّث، وأنا أشْتَهي أن تعرّفني مَنْ هو الثقة الثبت الذي ما غلط ولا انفرد بما لا يُتابع عليه. . . »[1]،

ـ وقال في موضع آخر من «الميزان»: «موسى بن إسماعيل، أبو سلمة المِنْقَرِي التبُوذكي البصري، الحافظ الحجَّة، أحد الأعلام . . . . . قلتُ: لم أذكر أبا سلمة لِلينٍ فيه، لكن لقولِ ابن خِرَاش فيه: صدوق، وتكلم الناس فيه. قلتُ: نعم تكلموا فيه بأنه ثقة ثبت يا رَافضيّ»[2]!!.

ـ ويقول في ترجمة ابن أبي دارم: «أبو بكر بن أبي دارم: الحافظ المسنِد الشيعي. . . . . جمعَ في الحطِّ على الصحابة، وكان يترفَّض، وقد اتُّهِم في الحديث. . . . . وكان موصوفاً بالحفظ، له ترجمة سيئة في «الميزان»، ذكرنا فيها ما حدَّثَ به من الإفك المبين، لا رعاه الله»[3].

●● وهكذا فالذهبي يزن بميزان الحق، ولا يحابي أحداً، فيمدح فقيراً ويذم غنياً، ويثني على عبد ويقدح بسيد، ينتقد الأكابر ويثني عليهم بالعدل والإنصاف، فلا محاباة ولا مجاملة، ولا تعصب، ولا جَوْر، ولا ظلم، ولا تعنّت.

ولنزد الأمر توضيحاً ببعض الأمثلة:

ـ ذكر في ترجمة أبي علي الأَهْوَازي، مقرىء الشام وصاحب

---

(١) ميزان الاعتدال: ٣/١٣٨، ١٤٠.

(٢) ميزان الاعتدال: ٤/٢٠٠.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٣/٨٨٤، ميزان الاعتدال: ١/١٣٩.

التصانيف، جَرْحَ الأئمة له، ثم قال: «ولو حَابَيْتُ أحداً لَحَابَيْتُ أبا عليٍّ لمكانِ علوِّ روايتي في القراءات عنه»[1].

ـ وقال في ترجمة الإمام الحافظ ابن حبان: «وقال الإمام أبو عَمْرو بن الصَّلَاح ـ وذَكَره في طبقات الشافعية ـ: غلط الغلطَ الفاحش في تصرّفه. وصدق أبو عَمْرو. وله أوهام كثيرة تتبَّع بعضَها الحافظُ ضياء الدين...»[2].

ـ وترجم أحد المحدثين فقال: «أحمد بن محمد بن عمرو بن مصعب، الكندي المصعبي المروزي، روى عن محمود بن آدم وطائفة، وهو أحد الوضَّاعين الكذَّابين، مع كونه كان محدِّثاً، إماماً في السُّنَّة والردِّ على المبتدعة»[3].

ـ وقال في ترجمة شيخ الإسلام الإمام الحافظ أبي إسماعيل الأنصاري الهروي، صاحب «منازل السائرين»: «وفي «منازله» إشاراتٌ إلى المحو والفَنَاء، وإنما مراده بذلك الفناء هو الغَيْبَةُ عن شهود السِّوى، ولم يرد مَحْوَ السِّوى في الخارج، ويا ليتَهُ لا صنَّفَ ذلك، فما أحلى تصوّفَ الصحابة والتابعين...»[4]!.

ـ وقال في ترجمة ابن وَدْعَان الَموْصِلي: «وإنما أوردتُه لشهرته، وقد ذكرتُه في «الميزان»، وأنه غيرُ ثقةٍ ولا مأمون»[5].

ـ ووصف المحدِّث الصالح يوسفَ بن آدم، بأنه: «من مشايخ

---

(١) ميزان الاعتدال: ١/٥١٣.

(٢) المرجع السابق: ٣/٥٠٧.

(٣) العبر: ٢/١٩، تذكرة الحفاظ: ٣/٨٠٣ ـ ٨٠٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٨/٥١٠، تذكرة الحفاظ: ٣/١١٨٤ ـ ١١٨٥.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١٩/١٦٥، ميزان الاعتدال: ٣/٦٥٧.

السنة. . . . . وكان أماراً بالعُرف، داعياً إلى الأثر بزَعَارَّة»[1].

ـ وترجم الحافظ ابن دِحْيَة الكلَبي، فقال: «الإمام العلامة، الحافظ الكبير، أبو الخطَّاب عُمر بن حسن. . . . . وزَعَمَ ـ ولم تدخل في الأذن دعواه ـ أنه قرأ «صحيح مسلم» من حِفظه على بعض شيوخه، وكان معروفاً ـ على كثرة عِلْمِه وفضائله ـ بالمجازفةِ والدعاوَى العريضة»[2].

ـ وقال في ترجمة يزيد بن أبي حبيب: «الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية. . . . . وكان من جِلَّة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود»[3].

ـ ووصف الإمام الفقيه ناصرَ بنَ الحُسين العُمَري الشافعي بأنه: «كان خيِّراً متواضِعاً فقيراً، متعفِّفاً، قانِعاً باليسير، كبيرَ القَدْر»[4].

● ● ●

سادساً ـ ما انْتُقِدَ الذهبيُّ به

ومع كلِّ ما سبق فإنَّ الذهبي لم يَنْجُ من النقد في تراجمه ومنهجه فيها، وهذ أمر مألوف معروف، فَقَلَّ أن يسلمَ أحدٌ من العلماء من الانتقاد، إمّا حسداً من الأقران والمعاصرين من جهة، أو تعصُّباً من المخالفين من جهة أخرى، أو تعنُّتاً وضيق صدْرٍ بالحقِّ من آخرين من جهة ثالثة.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٥٩٠ ـ ٥٩١.
(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٢١، سير أعلام النبلاء: ٢٢/٣٩١.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٦/٣١.
(٤) المرجع السابق: ١٧/٦٤٤.

وقد انتُقِدَ على إمامنا عدة أمور، نجملها فيما يلي:

١ ــ انتقد الحافظُ أبو عَمْرو محمد بن عثمان الغرناطي المعروف بابن المرابط (ت ٧٥٢ هـ) الذهبيَّ في عنايته الكبيرة بالنقد في تراجمه، مبرراً ذلك بأن دواعي النقد قامت لتصحيح الحديث النبوي وتنقيته، ولما كان الحديث قد استقر في الدواوين المعتبرة، فإن الجرح قد انقطعت فائدته من رأس القرن الرابع الهجري. قال ابن حجر في ترجمة ابن المرابط: «رأيت جزءاً له حَطَّ فيه على الذهبي، وترجمه ترجمة أفرط في ذمِّه فيها، وتعقبها البرهان ابن جماعة على الهامش». وقد عاب ابنُ المرابط ــ في جزئه هذا ــ الذهبيَّ بثلبه الناس وذكره لمساويهم، وقال: إن ذلك غيبة لا تجوز. وقسم «تاريخ الذهبي» لأربعة أقسام، قسم منها محض غيبة[1]!.

وانتقده تلميذه التاج السبكي بعدة أمور:

٢ ــ فأخذ عليه غلبة الهوى والتعصب في تطويل التراجم وتقصيرها.

٣ ــ وميله لآراء الحنابلة، ومبالغته في الثناء عليهم، وازدراءه أهلَ السنة ــ الأشاعرة ــ وقلة إنصافه لهم. ووافق السبكيَّ على هذا الحافظُ العلائيُّ.

٤ ــ وأنه استطال بلسانه على الحنفية والشافعية، بخلاف فعله مع الحنابلة.

٥ ــ وأنه أكثر الوقيعة في المتصوفة، وقد سماهم السبكي «بالفقراء».

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ٥٧ ــ ٥٨، ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٥ ــ ٣٦ هامش، ٣٥٩ مع الهامش. وقد أَيَّد الكوثريُّ ــ رحمه الله وسامحه ــ ابنَ المرابط فيما ذهب إليه!.

وهذه خلاصة قول السبكي في ذلك:

قال: «ولقد وقفت في تاريخ الذهبي ــ رحمه الله ــ على ترجمة الشيخ الموفق[1] ابن قدامة الحنبلي والشيخ فخر الدين[2] ابن عساكر، وقد أطال تلك وقصَّر هذه، وأتى بما لا يشك لبيب أنه لم يحمله على ذلك إلا أن هذا أشعري وذاك حنبلي، وسيقفون بين يدي رب العالمين»[3].

وقال: «وكان شيخنا ــ والحق أحق ما قيل، والصدق أولى ما آثره ذو السبيل ــ شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الازدراء بأهل السنة، الذين إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري فيهم مُقَدَّمَ القافلة، فلذلك لا ينصفهم في التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم منه أنف الراغم...»[4].

ويقول في موضع آخر: «وأما تاريخ شيخنا الذهبي غفر الله له، فإنه ــ على حسنه وجمعه ــ مشحون بالتعصب المُفْرِط، لا وَاخَذَهُ الله، فلقد أكثر الوقيعة في أهل الدين، أعني الفقراء الذين هم صفوة الخلق. واستطال بلسانه على أئمة الشافعيين والحنفيين...»[5].

وقال أيضاً: «فلينظر كلامه من شاء، ثم يبصر هل الرجل مُتَحَرٍّ عند

---

(١) هو عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، صاحب «المغني».

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، وكان من كبار الشافعية بالشام، وهو ابن أخي الحافظ ابن عساكر صاحب «تاريخ دمشق».

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٢/ ٢٤، قاعدة في المؤرخين (ضمن كتاب أربع رسائل في علوم الحديث) ص: ٧٢ ــ ٧٣.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى: ٢/ ٢٢، وانظر: قاعدة في الجرح والتعديل (ضمن كتاب أربع رسائل في علوم الحديث) ص: ٤٣ ــ ٤٤.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى: ٩/ ١٠٣ ــ ١٠٤، قاعدة في المؤرخين: ٦٦ ــ ٦٧.

غضبه أو غير مُتَحَرٍّ ؟ وأعني بغضبه وقت ترجمته لواحد من علماء المذاهب الثلاثة المشهورين من الحنفية والمالكية والشافعية، فإني أعتقد أن الرجل إذا مَدَّ القلمَ لترجمة أحدهم، غَضِبَ غضباً مُفْرِطاً، ثم قَرْطَمَ[1] الكلامَ ومزَّقه، وفعل من التعصب ما لا يخفى على ذي بصيرة».

«ثم هو مع ذلك غيرُ خبير بمدلولات الألفاظ كما ينبغي، فربما ذَكرَ لفظة من الذم لو عَقَل معناها لما نطق بها...».

وانتقد عليه ترجمته «الفخر الرازي» و«السيف الآمدي» في «ميزان الاعتدال»، واتهمه بأنه: «مطبوع على قلبه»[2]!.

وقال: «والذي أدركنا عليه المشايخَ النهيُ عن النظر في كلامه وعدَمُ اعتبار قوله، ولم يكن يستجري أن يُظهر كتبَه التاريخية إلا لمن يغلب على ظنّه أنه لا ينقل عنه ما يُعاب عليه»[3].

وقال أيضاً: «والذي أفتي به أنه لا يجوز الاعتماد على كلام شيخنا الذهبي في ذمٍّ أشعري، ولا شكر حنبلي. والله المستعان»[4].

ولنتناول هذه الأمور بشيء من الإيضاح والتفصيل:

١ ـ أمـا دعوى ابن المرابط ومن تابعه بأن التجريح في الأزمان المتأخرة ضرب من الغيبة، وأن فائدته انقطعت من رأس الأربع مئة هجرية:

---

(١) أي قطعه.

(٢) قاعدة في الجرح والتعديل: ٤٥ ـ ٤٦، طبقات الشافعية الكبرى: ٢/١٤.

(٣) قاعدة في الجرح والتعديل: ٤٤، الإعلان بالتوبيخ: ٧٦، طبقات الشافعية الكبرى: ٢/١٣ ـ ١٤.

(٤) قاعدة في المؤرخين: ٧٧.

فقد ردّها الحافظ المؤرخ الناقد شمس الدين السخاوي «بأن الملحوظَ في تسوِيغ ذلك كونه نصيحة، ولا انحصار لها في الرواية، فقد ذكروا من الأماكن التي يجوز فيها ذكر المرء بما يكره ولا يُعَدُّ ذلك غيبةً بل هو نصيحة واجبة: أن تكون للمذكور ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً أو مغفَّلاً أو نحو ذلك، فيُذكر ليُزال بغيره ممن يصلح، أو يكون مبتدعاً من المتصوفة وغيرهم، أو فاسقاً ويرى من يتردد إليه للعلم أو للإرشاد ويخاف عليه عود الضرر من قِبَلِهِ فيُعْلمه ببيان حاله. ويلتحق بذلك المتساهل في الفتوى أو التصنيف أو الأحكام أو الشهادات أو النقل أو الوعظ، حيث يذكر الأكاذيب وما لا أصل له على رؤوس العوام، أو المتساهل في ذكر العلماء، أو في الرشى أو الارتشاء. . . . أو غير ذلك من المحرمات. فكل ذلك جائز أو واجب ليحذَر ضررُه. وبهذا ظهر أن الجرح لم ينقطع، وأنه والحالة هذه من النصيحة الواجبة المُثاب فاعلها. . . »[1].

ثم قال: «وتقسيمه تاريخ الذهبي لأربعة أقسام قسم منه محض غيبة، تعقبه فيها العز الكناني فقال: هذه الأقسام الأربعة لا يخلو عنها تاريخ غالباً، وأمّا قوله: قسم محض غيبة، فليس الأمر فيه كذلك، بل فيه فوائد عديدة منها الاعتبار بأحوالهم، والوثوق بفضائلهم، والتحذير من رذائلهم، إلى غير ذلك»[2].

ـ وقد دأب أكابر الأئمة بعد عصر الرواية وتدوين الحديث على

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) المرجع السابق: ٥٧ ـ ٥٨.

الجرح والتعديل، ومارسه جم غفير منهم ممن كان قبل الذهبي أو بعده، كابن حزم، وابن نقطة، وابن بشكوال، والسِّلَفِي، وابن عساكر، والسمعاني، وأبي شامة، وابن خلِّكان، وابن الأبَّار، وابن النجار، وابن الدُّبيْثي، والبِرْزَالي، وابن كثير، والحسيني، والعراقي، وابنه أبو زرعة، وابن حجر، وتلميذه السخاوي، وغيرهم كثير.

وقد بَرَّرَ العلماءُ المتأخرون ــ ومنهم السخاوي ــ استمرار النقد في غير مجال الرواة بالفائدة المتوخاة منه للنصيحة ودفع الضرر، وهذا مقبول في حال نقد المعاصرين، بيد أنه يبدو غير مقبول في حال نقد المتقدمين. ونحن نرى أن الذهبي ــ ومن على منهجه من المتأخرين ــ قد استمر نقده حتى العصور المتقدمة، فكيف نبرر ذلك؟!.

يمكننا أن نتلمس الجواب من خلال النقاط التالية:

١ ــ استمرار عناية المتأخرين برواية الحديث، تقليداً للسلف من جهة، وتديناً وحباً بالحديث وروايته من جهة ثانية. وهذا يعني ضرورة استمرار الإسناد، وبالتالي استمرار النقد لتبيان أحوال الرواة.

٢ ــ أن الذهبي لم ينظر لآراء السابقين على أنها مُسَلَّمات لا تقبل الطعن، مع احترامه الشديد لأئمة الجرح والتعديل، لكنه رَدَّ كثيراً من آرائهم عندما يرى تعنتاً أو تساهلاً أو خطأً أو وهماً، ورجَّح ما رآه أقرب للحق والإنصاف. وكتاباه «ميزان الاعتدال» و«سير أعلام النبلاء» خير شاهد على ما نقول، وفي ثنايا هذا الكتاب أمثلة كثيرة على ذلك.

٣ ــ أن النقد عند الذهبي أصبح جزءاً من مفهومه التاريخي ومنهجه في الكتابة فيه، وبهذا نفهم انتقاده لكثير ممن ليسوا من أهل

الرواية من المتقدمين والمتأخرين، كالخلفاء والملوك والأمراء والشعراء والأدباء والمتكلمين[1]، وغير ذلك.

٤ ــ كذلك فإن عقيدة الذهبي السلفية قد أثرت في منهجه النقدي واستمراريته وشموليّته، وبخاصة نظرته لأولئك المبتدعة وأصحاب الأهواء والملل والنِّحل، من زنادقة وباطنية، ومعتزلة، ومنحرفي الصوفية، ونحوهم. وهذا ــ في رأينا ــ أمر طبيعي.

٥ ــ أن استمرار النقد التاريخي أمر هام فيما يتعلق بأحوال الأمة ومسيرتها، وأحداث التاريخ ووقائعه، والرجال البارزين فيه، ومن لهم دور في صنعه والتحكم بمسيرته، من حكام ووزراء، ومسؤولين صغاراً كانوا أو كباراً، وعلماء وفقهاء، ووعاظ وخطباء وقضاة، وتجار، وأصحاب مؤسسات وجمعيات وهيئات، ونحوها، وتقويم ذلك جميعاً. فمن الواجب على كل مؤرخ أن يعتني به، ويحرص عليه، إذ هل يُقبل من المؤرخ في عصرنا ــ مثلاً ــ أن يتحدث عن الدول والأمم وأحوال الشعوب والحكومات والأفراد بمختلف أوضاعهم ومناصبهم، فيسلّط الضوء على الجانب الإيجابي ويغضّ الطرْف عن الجانب المظلم بكل أبعاده؟! إن هذا الفعل ضرب من التشويه للتاريخ والمسخ له، وفيه تعمية على المعاصرين، كما أنه ــ بالضرورة ــ خيانة للأجيال القادمة، حيث لم يقدِّم لها صورة صادقة عن الأمة ومسيرتها في هذه الحقبة من الزمان.

ولعل الذهبي ــ ومن نهج منهجه ــ لمح هذه الناحية الهامة، فمدَّ منهجه النقدي في عصور التاريخ الإسلامي المتقدمة، وسحبه حتى

---

(١) استفدنا في هذه النقاط الثلاث مما كتبه الدكتور بشار عواد، «الذهبي ومنهجه»: ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩.

السنوات التي عاش فيها، فطبقه على الأحداث التي عاصرها، والرجال الذين عاصروه.

٢ ـ وأما قول السبكي: إن التعصب هو الذي دفع الذهبي إلى تطويل التراجم وتقصيرها: فإننا وجدنا ـ بعد طول التتبع ـ أن الذهبي قد راعى في تراجمه قيمة الإنسان وشهرته بين أهل علمه، أو مكانته بين الذين هم من بابته، سواء كان متفقاً مع الذهبي في العقيدة أو مخالفاً له، وسواء كان محدِّثاً أو من أي فئة أخرى.

فقد طَوّل ترجمة «ابن تُومَرت[١]»، ووصفه بأنه «ربطَ البربرَ بادِّعاء العِصْمة، وأقدم على الدماء إقدام الخوارج، ووجد ما قدَّم». وترجم «الحَلَّاج» بأكثر من أربعين صفحة[٢]، وافتتح ترجمته بقوله: «وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء، لما سترى من سوء سيرته ومروقه...» وذكر في موضع آخر أنه قُتل بسيف الشرع على الزندقة[٣]. بل أفرده بالترجمة في جزءين! وترجم «طاغية الزِّنْج» في ثمان صفحات[٤]، وأبا العلاء المعري في ست عشرة صفحة، وهو «المتهم في نحلته[٥]». وطول ترجمة الإمام الغزالي، مع أنه من كبار المتصوفة والمتكلمين، وذكر أنه دخل «في مضايق الكلام ومزالّ الأقدام[٦]». وترجم كبير

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٩/٥٣٩ ـ ٥٥٢.
(٢) المرجع السابق: ١٤/٣١٣ ـ ٣٥٤.
(٣) المرجع السابق: ١٦/٢٦٥.
(٤) المرجع السابق: ١٣/١٢٩ ـ ١٣٧.
(٥) المرجع السابق: ١٨/٢٣ ـ ٣٩.
(٦) المرجع السابق: ١٩/٣٢٢ ـ ٣٤٦.

الإسماعيلية وطاغوتهم «سنان بن سلمان» البصري الباطني صاحب الدعوة النِّزاريّة في ثماني صفحات[1].

في حين أنه ترجمَ «الإمام مسلم بن الحجاج» في ثلاث وعشرين صفحة[2]، والنسائي الإمام في إحدى عشرة صفحة[3]، والترجمتان معاً أقصر من ترجمة الحلاج الزنديق!!.

ومع أن الذهبي كان عظيم الاهتمام بالمحدِّثين، شديد الكلف بهم، لكنه في كثير من الأحيان قد ترجم لهم تراجم مختصرة، إذا استثنينا بعض أكابرهم كالبخاري وأحمد والثوري وابن المبارك وابن معين، وأضرابهم.

فمثلًا: ترجم الحافظ العِجْلي بثلاث صفحات، وإسحاق بن إبراهيم الوَرْدُولي بنصف صفحة، وقُبَيْطَة الحسن بن سليمان كذلك، وأحمد بن عبد الحميد الحارثي ببضعة أسطر، والحافظ حاتم بن الليث بأربعة سطور، والحافظ حاجب بن سليمان المَنْبِجي بخمسة سطور، والحافظ محمد بن عَميرة الجرجاني بنصف صفحة [4] . وترجمة الحافظ ابن سُمَيْع لم تبلغ صفحة، والحافظ محمد بن يوسف الجوهري كذلك، والحافظ الميموني نحو صفحة، والحافظ الكَلاعي نصف صفحة، والحافظ الدَّيْر عَاقولي في صفحة [5] . وترجمَ الإمام المحدث محمد بن

(١) المرجع السابق: ٢١/١٨٢ ـ ١٩٠.
(٢) المرجع السابق: ١٢/٥٥٧ ـ ٥٨٠.
(٣) المرجع السابق: ١٤/١٢٥ ـ ١٣٥.
(٤) انظر على الترتيب: سير أعلام النبلاء: ١٢/٥٠٥، ٥٠٧ ـ ٥٠٩، ٥١٩ ـ ٥٢٠، ٥٢٨.
(٥) انظر على الترتيب: سير أعلام النبلاء: ١٣/٥٥، ٥٩، ٦٠، ٨٩ ـ ٩٠، ١٤٢ ـ ١٤٣، ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

زَنْجويه بنصف صفحة، والحافظ الرَّسْعَنِيّ بأقل من صفحة، وأبا معشر الدارمي ببضعة أسطر، والحافظ أحمد بن محمد بن عُبَيْدة النيسابوري بنصف صفحة [١]. والحافظ البارع الزبير بن محمد البغدادي ببضعة أسطر [٢].

وجاءت ترجمة الحافظ أحمد بن علي الرازي في نصف صفحة [٣]، والحافظ الناقد طاهر بن مُفَوِّز قريباً من صفحة [٤]، ومحدث هَمَذَان إسماعيل بن محمد القُومسانيّ في أقل من صفحة [٥]، والمحدث الرحال عمر بن محمد العُلَيْميّ الدمشقي كذلك [٦]، ومحدث خراسان عبد الرحمن بن عمر بن بركات بن شُحَانَة في نصف صفحة [٧]. وغير ذلك كثير.

وقد كان الذهبي يقصر بعض التراجم أحياناً، بتركه بعض آراء المخالفين للمترجم، إيثاراً للعافية في هذا المجال، وستراً لبعض الأمور، ولأنها قد تكون من باب كلام الأقران، أو نحو ذلك.

ولعلنا نفهم ذلك من كلامه في أثناء ترجمة الإمام الشافعي: «ثم قد تكلَّمَ خلق من التابعين بعضهم في بعض، وتحاربوا، وجرت أمورٌ لا يُمكن شرحُها، فلا فائدة في بثها، ووقع في كُتب التواريخ وكتب الجرح

---

(١) انظر على الترتيب: سير أعلام النبلاء: ١٤/١٤٣، ١٤٤، ١٤٨، ٤١٠.
(٢) المرجع السابق: ١٥/٢٦ ـ ٢٧.
(٣) المرجع السابق: ١٧/٥٢٢.
(٤) المرجع السابق: ١٩/٨٨.
(٥) المرجع السابق: ١٩/١٥٥.
(٦) المرجع السابق: ٢١/٤٩ ـ ٥٠.
(٧) المرجع السابق: ٢٣/٢١٤.

والتعديل أمورٌ عجيبة، والعاقلُ خصمُ نفسِه، ومِنْ حُسْنِ إسلامِ المرء تركُه ما لا يعنيه، ولحومُ العلماءِ مسمومةٌ . . .»[1].

ومن هذا القبيل ما جاء في ترجمة الذهبي للمقرىء المجوِّد النحوي محمد بن أحمد بن بَصْخَان، وقد أثنى عليه ثناء جيداً، وانتقد عليه بعض الأشياء، فلما وقف ابنُ بَصْخَان على ترجمة الذهبي له، كتب فوق الترجمة بخط غليظ كلاماً أقذع فيه في حق الذهبي، بحيث صار خط الذهبي لا يُقرأ غالبه!! فلما وقف الذهبي على ذلك قال: «أنا أعلم من أين أتيت، فإنني زدته ــ والله ــ ما لا يستحقه، وأغضيت عن أمور مكشوفة، فلنا وله وقفة بين يدي رب العالمين[2]».

كذلك ترجمته لمحيي الدين ابن عربي في نحو صفحتين[3]، وترجمته تحتمل إفرادها في كتاب، لطولها وكثرة ما قيل فيه من الموافق والمخالف، فأعرض الذهبي عن ذلك كله.

وقال في ترجمة الحافظ الخطيب البغدادي: «ليت الخطيب ترك بعض الحطِّ على الكبار، فلم يروه»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/٩٣ ـ ٩٤.

(٢) معرفة القراء الكبار: ٢/٧٤٤ ـ ٧٤٥. وانظر: الإعلان بالتوبيخ: ٥٧، ذيول تذكرة الحفاظ: ٢٠٨ هامش. وقد زعم الكوثري أن الذهبي محا ابن بصخان من «ديوان القراء»، وليس الأمر كذلك. كما ذكر السخاوي أن الذهبي انتقم من ابن بصخان في «معجم الشيوخ»، وهذا ــ أيضاً ــ غير صحيح فلا وجود لهذا في «معجم شيوخ الذهبي».

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٣/٤٨ ـ ٤٩.

(٤) المرجع السابق: ١٨/٢٨٩.

وقال في ترجمة الشاعر البليغ ابن النبيه: «وفي نظمه مبالغات تفضي به إلى الكفر بالله، لا أرى ذكرها[1]».

والأمثلة في هذا تفوت الحصر.

٣ ــ وأما القول بأن الذهبي متعصب على الأشاعرة، كثير الازدراء لهم، مَيّال إلى الحنابلة كثير الثناء عليهم:

فالحقُّ أن السبكي أشعري جلد، وقد أقذع في حق الذهبي وهو شيخه الذي حفَّظه وعلَّمه! ولا أدلّ على ذلك من عباراته الفجَّة فيه، ووصفه له بأنه يقرطم الكلام ويمزِّقه، وأنه غير خبير بمدلولات الألفاظ، وأنه مطبوع على قلبه!!.

ولقد بالغ الشيخ تاج الدين في حق شيخه وأفْرَط، وعَدَل عن الصواب ووقع في الشطط والغلط، وتفوّه بكلمة كبيرة، وما كان ينبغي له أن يتعدى حدود الأدب مع هذا الإمام الجهبذ، الناقد العمدة، المؤرخ الثقة، نسأل الله العدل في الغضب والرضا!.

وقد ردَّ عليه الحافظ السخاوي، ونقل كلام العز الكناني في السبكي حيث وصفه بقوله: «هو رجل قليل الأدب، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السنة ورتبهم، يدل على ذلك كلامُه»[2].

وبتتبعنا لتراجم الفئتين ــ الأشاعرة والحنابلة ــ في «سير أعلام النبلاء»، وجدنا الأمر بخلاف ما زعم السبكي رحمه الله وغفر له، وعلمنا باستقراء منهج الذهبي في تراجم الأشاعرة أنه حاول تقصيرها

---

(١) المرجع السابق: ٢٢/١٧٨.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ٥٦ ــ ٥٧.

بترك نقل كلام المخالفين لهم وقدحهم فيهم، إيثاراً منه للعافية، مع الاعتراف بأن الذهبي متأثر بعقيدته السلفية، مبغض للمباحث الكلامية والخوض فيها، ولم يمنعه ذلك من الإنصاف إلى حد كبير، والكمال عزيز.

●● وللذهبي امتداح للأشاعرة وثناء عليهم جملة، وعلى طريقة أبي الحسن وأصحابه في التسليم للنصوص:

فمن ذلك قوله في أثناء ترجمة الإمام أبي ذر عبد بن أحمد الهروي: «قلت: فهذا المنهجُ هو طريقةُ السَّلف، وهو الذي أوضحه أبو الحسن وأصحابه، وهو التسليمُ لنصوص الكتاب والسُّنَّة، وبه قال ابن الباقلاني، وابن فُوْرَك، والكبارُ إلى زمن أبي المعالي، ثم زمن الشيخ أبي حامد، فوقع اختلافٌ وألوان، نسأل الله العفوَ»[1].

والذي يكرهه الذهبي هو الغُلُوّ من أي فئة كانت، يقول في ذلك: «قلتُ: غُلاةُ المُعتزلة، وغُلاة الشيعة، وغُلاة الحنابلة، وغُلاة الأشاعرة، وغُلاة المُرْجِئة، وغلاة الْجَهْمِيّة، وغُلاة الكرَّامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم أذكياء وعبَّادٌ وعلماء، نسألُ الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحبُّ السنَّةَ وأهلَهَا، ونحبُّ العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحبُّ ما ابتدع فيه بتأويلٍ سائغ، وإنما العبرةُ بكثرة المحاسن»[2].

وترجمته لإمام الأشاعرة أبي الحسن رحمه الله في غاية الروعة والإنصاف، على وجازتها، فمما قاله فيه: «وكان عَجَباً في الذكاء، وقوة

(١) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٥٥٩.
(٢) المرجع السابق: ٢٠/ ٤٥ ــ ٤٦.

الفهم. ولما بَرَعَ في معرفة الاعتزال، كرهه وتبرّأ منه، وصَعِدَ للناس، فتابَ إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يردّ على المعتزلة، ويهَتِكُ عُوارهم». وقال: «رأيتُ لأبي الحسن أربعةَ تواليف في الأصول يذكرُ فيها قواعدَ مذهب السلف في الصِّفات، وقال فيها: تُمَرُّ كما جاءت، ثم قال: وبذلك أقول، وبه أدين، ولا تُؤوَّل». «قلتُ: مات ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاث مئة، حطَّ عليه جماعةٌ من الحنابلة والعلماء. وكلُّ أحد فيؤخذُ من قوله ويُترك، إلا من عَصَم الله تعالى، اللهمّ اهدنا وارحمنا. ولأبي الحسن ذكاءٌ مفرط، وتبحُّر في العلم، وله أشياء حسنة، وتصانيف جمّة تقضي له بسَعَةِ العلم». «وقد ألَّف الأهْوَازِيّ جزءاً في مثالب ابن أبي بشر، فيه أكاذيب»[١].

وأثنى عليه جداً في كتابه «العلو» ونقل كثيراً من أقواله في «العلو والصفات»، وذكر أنه وَافَقَ أئمةَ الحديث في جمهور ما يقولونه. ثم قال الذهبي: «فلو انتهى أصحابنا المتكلمين إلى مقالة أبي الحسن هذه ولزموها لأحسنوا، ولكنهم خاضوا كخوض حكماء الأوائل في الأشياء، ومشوا خلف المنطق، فلا قوة إلا بالله»[٢].

●● وترجم لأصحاب أبي الحسن الأشعري ومن أخذ عنهم، وأحسن الثناء عليهم بما هم له أهل، وانتقد ــ كعادته ــ ما لم يره حقاً، بالإنصاف والعدل.

ومن أمثلة ذلك:

ترجمة أبي الحسن الباهلي البصري، وابن مجاهد الطائي

---

(١) المرجع السابق: ١٥/٨٥ ــ ٩٠.

(٢) مختصر العلو: ٢٣٦ ــ ٢٤٣.

البصري، وزاهر بن أحمد السرخسي[1]. وأبي بكر ابن البَاقِلَّانيّ وقد أكثر الثناء عليه، وأبي ذر الهروي، وقد طوّل ترجمته[2]. وأبي القاسم الإسكاف، وأبي القاسم القشيري صاحب «الرسالة القشيرية» المشهورة، والخطيب البغدادي[3]، وعبد القاهر الجرجاني[4]. ونظام المُلْك الحسن بن علي الطوسي، وأبي القاسم الأنصاري تلميذ إمام الحرمين، ومحمد بن عتيق القيرواني المعروف بابن كدية، وأبي نصر بن أبي القاسم القشيري[5]. ومحمد بن أحمد العثماني، ونصر الله بن محمد المِصِّيْصيّ، وابن المعتمد محمد بن الفضل الإسفراييني[6]. وغير هؤلاء.

بل إن الذهبي كان ينتقد من يحط على الأشاعرة ويؤذيهم بغير حق، ففي ترجمته الحافظَ محمد بن عبد الواحد الأصبهاني الدقاق، قال: «. . . وكان الدقاق صالحاً فقيراً متعففاً، صاحب سنة واتباع، إلا أنه كان يبالغ في تعظيم عبد الرحمن شيخه، ويؤذي الأشعرية»[7].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦/٣٠٤، ٣٠٥، ٤٧٦.

(٢) المرجع السابق: ١٧/١٩٠، ٥٥٤.

(٣) المرجع السابق: ١٨/١١٧، ٢٢٧، ٢٧٠. وقد ذكر الذهبي في ترجمة «الخطيب» نقلاً عن عبد العزيز بن أحمد الكتاني أن الخطيب «كان يذهب إلى مذهب أبي الحسن الأشعري رحمه الله». فعقب الذهبي بقوله: «قلت: صدق، فقد صرَّح الخطيبُ في أخبار الصفات أنها تُمَرُّ كما جاءت بلا تأويل»: ١٨/٢٧٧. وهذا فيه مديح كبير لأبي الحسن وطريقته.

(٤) المرجع السابق: ١٨/٤٣٢.

(٥) المرجع السابق: ١٩/٩٤، ٤١٢، ٤١٧، ٤٢٤.

(٦) المرجع السابق: ٢٠/٤٤، ١١٨، ١٣٩.

(٧) تذكرة الحفاظ: ٤/١٢٥٦. وعبد الرحمن المذكور هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق ابن منده.

●● والذهبي عندما يمتدح الحنابلة ويثني عليهم فليس لأنهم موافقون له في العقيدة، فهو سلفي الاعتقاد غير مقلِّد للحنابلة فيه، فليس في العقيدة تقليد! وثناؤه عليهم آتٍ من معايير ثابتة أصَّلها في منهجه النقدي المتميز، لذَا لم يكن في تراجمه لهم على وتيرة واحدة مطَّردة في المديح وإغفال الانتقاد، فكثيراً ما وجه نقداته البارعة لهم، حتى لأكابرهم.

قال في ترجمة الفخر إسماعيل بن علي بن حسين المأموني الحنبلي: «له حلقة كبيرة للمناظرة، والاشتغال بعلم الكلام والجدل، ولم يكن في دينه بذاك». «ورُتِّب ناظراً في ديوان المُطَبّق، فَذُمَّت سيرتُه، فَعُزِل»[1].

ووصف تقي الدين عبد الساتر بن عبد الحميد المقدسي الحنبلي بأنه «كان صاحب حزبيّة وتحرُّقٍ على الأشعرية، فرموه بالتجسيم. ثم كان منابذاً لأصحابه الحنابلة. وفيه شراسة أخلاق، مع صلاح ودين يابس». ووصفه في موضع آخر بأنه «قَلَّ من سمع منه لأنه كان فيه زعَارَّة، وكان فيه غلوّ في السُّنَّة..... كثير الدعاوى، قليل العلم»[2].

وقال في ترجمة شيخ الحنابلة عبد العزيز بن جعفر البغدادي المعروف بغلام الخَلَّال: «وكان كبير الشأن، من بحور العلم، له الباع الأطول في الفقه. ومَنْ نظر في كتابه «الشافي» عرف محله من العلم، لولا ما بشَّعَهُ بغضٍّ بعضِ الأئمة، مع أنه ثقة فيما ينقله»[3].

---

(١) العبر: ٣/١٥٢، سيرأعلام النبلاء ٢٢/٢٩.

(٢) العبر: ٣/٣٤٠ ـ ٣٤١، تاريخ الإسلام، وفيات (٦٧٩ هـ).

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٦/١٤٤.

وذكر في ترجمة شيخ الحنابلة أبي الوفاء ابن عقيل أنه «أخذ علم العقليات عن شيخي الاعتزال: أبي علي بن الوليد، وأبي القاسم بن التبَّان، صاحبي أبي الحسين البصري؛ فانحرف عن السُّنَّة». وذكر أنه «خالف السلف، ووافق المعتزلة في عدة بِدَع...»[1].

وقال في ترجمة أبي الحَسن علي بن عُبيدالله الزاغوني الحنبلي: «ورأيتُ لأبي الحسن بخطّه مقالة في الحرف والصوت، عليه فيها مآخذ، والله يغفر له، فيا ليته سَكَتَ»[2].

وترجم صدقة بن الحسين البغدادي الحنبلي فقال: «العلامة أبو الفرج ابن الحداد..... المتكلِّم، المتَّهم في دينه.... ورويَتْ له منامات نجسة، أعاذنا الله من الشقاوة»[3].

وانتقد الإمام ابن قيم الجوزية الحنبلي بأنه «معجب برأيه، جريء على الأمور. غفر الله له»[4].

ورد على الحافظ ابن الجوزي الحنبلي في انتقاده للسمعاني، وقال بأن السمعاني أحفظ من ابن الجوزي ومن شيخه[5]، والسمعاني شافعي.

بل إن الذهبي مع حبِّه الجم لرفيقه وشيخه ابن تيمية، ومع احترامه له، وعظيم ثنائه عليه، فإن ذلك لم يمنعه من انتقاده، ومؤاخذته في بعض الأمور، فأخذ عليه «الكبر والعجب والدعاوى، وفَرْطَ الغرام في

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٩/٤٤٣ ـ ٤٥١، ميزان الاعتدال: ٣/١٤٦.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٩/٦٠٧.
(٣) المرجع السابق: ٢١/٦٦ ـ ٦٧.
(٤) المعجم المختص: ٢٦٩.
(٥) انظر: ص ٢٣١ من هذا الكتاب.

رياسة المشيخة، والازدراء بالكبار». كما أخذ عليه «تغليظه، وفجاجة عبارته، وتوبيخه الأليم المبكي المنكي المثير للنفوس». ورأى في بعض فتاويه انفراده عن الأمة فقال: «وقد انفرد بفتاوى نيل من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه، فما رأيتُ مثلَه، وكلُّ أحدٍ من الأمة فيؤخذ من قوله ويُترك، فكان ماذا؟»[1].

٤ ـ وأما قول السبكي بأن الذهبي استطال بلسانه على أئمة الأحناف والشافعية: فهذا خلاف الواقع، وهذه كتب الذهبي وتراجمه لأئمة المذاهب الأربعة وأصحابهم وأتباعهم، ما وجدنا عنده تفريقاً بينهم وبين الحنابلة.

ولو خصصنا الحديث هنا عن الفقهاء الحنفية ـ لمظنة تعصب الذهبي عليهم ـ ثم تتبعنا تراجمه لهم، ومنهجه وتقاويمه ونقده؛ لوجدنا الأمر بعكس ما ادعى السبكي.

فقد ترجم الإمامَ أبا حنيفة في «سير أعلام النبلاء» ترجمة طيبة، بل وأفرد مناقبه في جزء مستقل. كما أفرد ترجمة صاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

ونقل في ترجمته الإمام مالك رأياً للشافعي في المفاضلة بين أبي حنيفة ومالك، ثم قال: «قلتُ: وعلى الإنصاف، لو قال قائلٌ: بل هما سواءٌ في علم الكتاب، والأول أعلمُ بالقياس، والثاني أعلمُ بالسنَّة، وعنده علم جَمّ من أقوال كثير من الصحابة، كما أن الأول أعلمُ بأقاويل عليٍّ وابنِ مسعود وطائفة ممن كان بالكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ،

(١) الإعلان بالتوبيخ: ٧٧، بيان زغل العلم: ١٧ ـ ١٨، تذكرة الحفاظ: ١٤٩٧/٤.

فرضي الله عن الإمامين، فقد صِرْنا في وقت لا يَقْدِرُ الشخصُ على النطق بالإنصاف، نسأل الله السلامة»[1].

وقال في ترجمة الإمام الغزالي: «وفي أواخر «المنخول» للغزالي كلام فَجٌّ في إمام، لا أرى نقله هنا»[2].

وقد ترجم تراجم رائعة لكبار أئمتهم، فمن ذلك:

قوله في ترجمة القاضي أبي يوسف: «الإمام العلامة، فقيه العراقيين، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، الكوفي، صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما...». ووصفه في موضع آخر بـ «الإمام المجتهد، العلامة المحدث، قاضي القضاة.... بلغ أبو يوسف من رئاسة العلم ما لا مزيد عليه...»[3].

وقال في ترجمة الإمام الطحاوي: «الإمام العلامة، الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها.... مَنْ نظر في تواليف هذا الإمام عَلِمَ محلَّه من العلم، وسعة معارفه....»[4].

ووصف ابن البُهْلول بقوله: «الإمام العلامة، المتفنن، القاضي الكبير... وكان ثقة من رجال الكمال، إماماً ثقة، عظيمَ الخطر، واسعَ الأدب، تامَّ المروءة، بارعاً في العربية»[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/١١٢ ـ ١١٣.
(٢) المرجع السابق: ١٩/٣٤٤. والإمام المراد هو أبو حنيفة رضي الله عنه.
(٣) تذكرة الحفاظ: ١/٢٩٢، سير أعلام النبلاء: ٨/٥٣٥.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٥/٢٧، تذكرة الحفاظ: ٣/٨٠٨.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١٤/٤٩٧.

وترجم أبا بكر الرازي فقال: «الإمام العلامة، المفتي المجتهد، عالم العراق... وصنَّفَ وجَمَعَ، وتخرَّج به الأصحاب ببغداد، وإليه المنتهى في معرفة المذهب»[1].

ووصف القاضي أبا الهيثم عتبة بن خيثمة بأنه «شيخ الحنفية، نُعمان زمانه.... وصار أوحد عصره في المذهب»[2].

وقال في ترجمة الحَلْواني: «الشيخ العلامة، رئيس الحنفية، شمس الأئمة الأكبر، أبو محمد عبد العزيز بن أحمد..... صنف التصانيف، وتخرج به الأعلام»[3].

وحلّى العلامة الكندي بقوله: «الشيخ الإمام، العلامة المفتي، شيخ الحنفية، وشيخ العربية، وشيخ القراءات، ومسنِد الشام، تاج الدين أبو اليُمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن.... الكِنْـدي البغدادي، المقرىء النحْوي اللغوي الحنفي»[4].

وغير ذلك كثير لا يدخل تحت الحصر، لم نرَ الذهبي تكلم في أحد بسبب مذهبه، وهذا منهج اتبعه في تراجمه لأعلام المالكيـة والشافعية والحنابلة، والنقد عنده بمعيار وميزان، يطبقه على الجميع دون محاباة.

---

(١) المرجع السابق: ١٦/ ٣٤٠.
(٢) المرجع السابق: ١٧/ ١٣.
(٣) المرجع السابق: ١٨/ ١٧٧.
(٤) المرجع السابق: ٢٢/ ٣٤.

٥ ـ وأما وقوع الذهبي في المتصوّفة:

فصحيح ما قاله السبكي، لكن في فئة منهم دون أخرى، فالمتصوّفة عند الذهبي على قسمين: قسم تمسكوا بالكتاب والسنة، وساروا على هدي السلف الصالح، والتزموا بشعائر الإسلام. وقسم ثان خَلَّطوا وشذوا، وركبوا متن الشعوذة والخرافات، وأتو بالأوابد، وارتكبوا أنواعاً مقيتة من الأباطيل والهذيان.

●● ولنورد أولاً بعضاً من أقوال الذهبي في التصوّف والمتصوّفة عموماً، ثم نفصِّل موقفه من الطائفتين:

قال في ترجمة شيخ الصوفية أحمد بن عطاء الهُجَيْميّ: «قلتُ: ما كانَ الرجلُ يدري ما الحديث، ولكنه عبدٌ صالح، وقع في القَدَر، نعوذُ بالله من ترَّهَات الصَّوَفَة، فلا خيرَ إلا في الاتِّباع، ولا يمكنُ الاتّباع إلا بمعرفة السُّنن»[1].

وقال في ترجمة الحافظ العابد محمد بن منصور البغدادي: «متى رأيتَ الصوفيَّ مكِباً على الحديث فَثِقْ به، ومتى رأَيْتَه نائياً عن الحديث فلا تفرحْ به، لا سيما إذا انضاف إلى جهله بالحديث عكوفٌ على تُرَّهات الصوفية، ورموز الباطنية، نسأل الله السلامة»[2].

ووصف جعفر بن محمد الأَبْهري بأنه «شيخ الزهاد»، ثم قال في آخر ترجمته: «قيل: إنه عمل له خلوةً، فبقي خمسين يوماً لا يأكل شيئاً. وقد قلنا: إنَّ هذا الجوع المُفْرِط لا يَسُوغُ، فإذا كان سَرْدُ الصيام والوصالُ قد نُهي عنهما، فما الظنُّ؟ وقد قال نبينا ﷺ: «اللهم إني أعوذُ

---

(١) المرجع السابق: ٤٠٩/٩. والترهات: الأباطيل.

(٢) المرجع السابق: ٢١٣/١٢.

بك من الجوع فإنه بئسَ الضَّجيعُ». ثم قَلَّ مَنْ عَمِل هذه الخَلَوات المُبْتَدَعة إلا واضطرب، وفسدَ عقلهُ، وجفَّ دماغُه، ورأى مرأىً، وسمع خطاباً لا وُجودَ له في الخارج، فإن كان متمكناً من العلم والإيمان، فلعلَّه ينجو بذلك من تَزَلْزُل توحيدِهِ، وإن كان جاهلاً بالسُّنن وبقواعد الإيمان، تزلزلَ توحيدُه، وطمع فيه الشيطانُ، وادَّعى الوصول، وبقي على مزلَّة قدمٍ، وربمّا تزندق، وقال: أنا هو! نعوذ بالله من النفس الأمَّارة، ومن الهوى، ونسألُ الله أن يحفظ علينا إيمانَنا. آمين»[1].

ويقول في ترجمة يونس بن يوسف الشيباني الزاهد: «كان ذا كشف وحال، ولم يكن عنده كبيرُ علم، وله شَطح، وشعرٌ ملحون ينظمه على لسان الربوبية، وبعضه كأنه كذب، والله أعلم بسرِّه، فلا يغتر المسلم بكشف ولا بحال ولا بإخبار عن مُغَيَّب، فابن صائد وإخوانه الكهنة لهم خوارق، والرهبان فيهم مَنْ قد تمزَّق جوعاً وخلوة ومراقبة على غير أساس ولا توحيد، فَصَفَتْ كدورات أنفسهم وكاشفوا وفشروا. ولا قدوة إلا في أهل الصفوة وأرباب الولاية المنوطة بالعلم والسُّنَن، فنسأل الله إيمان المتقين، وتألُّهَ المخلصين، فكثير من المشايخ نتوقف في أمرهم حتى يتبرهن لنا أمرهم، وبالله الاستعانة»[2].

وفي ترجمة الجُنَيْد ذكر قوله: «ما أخذنا التَصَوّفَ عن القالِ والقيلِ، بلِ عن الجوع، وتَركِ الدنيا، وقطعِ المألوفات»، ثم عقَّبَ قائلًا: «قلتُ: هذا حَسَن، ومرادُه: قطعُ أكثر المألوفات، وترك فضول الدنيا، وجوعٌ بلا إفراط. أما مَنْ بالغَ في الجوع كما يفعله الرهبان، ورفضَ سائرَ الدنيا، ومألوفاتِ النفس، من الغذاء والنوم والأهل، فقد

---

(١) المرجع السابق: ١٧/٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٢) المرجع السابق: ٢٢/١٧٩.

عرَّض نفسَه لبلاء عريض، وربما خولِطَ في عقله، وفاته بذلك كثيرٌ من الحنيفيَّة السَّمْحَة، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، والسعادةُ في متابعة السُّنَن، فَزِنِ الأمورَ بالعدل، وصُمْ وأفطِرْ، ونَمْ وقُمْ، والزمِ الورعَ في القوت، وارضَ بما قسمَ الله لكَ، واصمُتْ إلا من خير، فرحمةُ الله على الجُنيد، وأين مثلُ الجنيد في علمه وحاله»[1]؟!.

وقال في ترجمة أحمد بن سهل بن عطاء البغدادي الزاهد: «وقيل: إن ابنَ عطاء فَقَدَ عقلَه ثمانية عشر عاماً، ثم ثابَ إليه عقلُه. ثبَّتَ الله علينا عقولنا وإيماننا، فمن تسبَّبَ في زوال عقلِه بجوع، ورياضةٍ صعبة، وَخلْوَة؛ فقد عَصَى وأثِمَ، وضاهَى من أزال عقله بعضَ يومٍ بسُكْر. فما أحسن التقيُّد بمتابعةِ السُّنَن والعِلم»[2].

ونقل قول شيخ الصوفية إبراهيم بن شيبان القِرْمِيْسِينِيّ: «عِلْمُ الفَنَاء والبَقَاء يدور على إخلاص الوَحْدانية، وصحَّة العبودية، وما كان غيرَ هذا فهو من المغالطة والزَّنْدقة». وعقَّب الذهبي قائلاً: «صدقت والله، فإن الفناء والبقاء من ترَّهات الصوفية، أطلقه بعضُهم، فَدَخَلَ من بابه كلُّ إلحاديّ وكل زنديق، وقالوا: ما سوى الله باطلٌ فانٍ، والله تعالى هو الباقي، وهو هذه الكائنات، وما ثَمَّ شيءٌ غيره. ويقول شاعرهم:

وما أنت غيرَ الكون   بل أنت عينُه

ويقول الآخر:

وما ثَمَّ إلا الله   ليس سواه.

فانظرْ إلى هذا المروقِ والضلال، بل كل ما سوى الله محدَث

---

(1) المرجع السابق: ١٤/٦٩ ـ ٧٠.

(2) المرجع السابق: ١٤/٢٥٦.

موجودٌ: قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ السموات والأرضَ وما بَيْنَهُمَا في ستةِ أيَّام﴾[1]. وإنما أراد قُدَماءُ الصوفية بالفناء نسيانَ المخلوقات وتركَها، وفَنَاء النفس عن التشاغُلِ بما سوى الله، ولا يُسَلَّمُ إليهم هذا أيضاً، بل أمرنا الله ورسولُه بالتشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والإقبال عليها، وتعظيم خالقها، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السمواتِ والأَرْضِ ومَا خَلَقَ الله مِنْ شَيءٍ﴾[2]، وقال: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا في السَمَوات والأَرْضِ[3]﴾»[4].

وقال في ترجمة الحافظ الصوفي ابن الأَعْرَابِيّ: «قلتُ: إي والله، دَقَّقُوا وعَمَّقوا، وخاضُوا في أسرار عظيمة، ما معهم على دَعْواهم فيها سوى ظَنٍّ وخيالٍ، ولا وجودَ لتلك الأحوال من الفناء والْمَحْوِ والصَّحْو والسُّكْر إلا مجرَّد خَطَرات ووساوس، ما تفوَّه بعباراتهم صِدِّيق، ولا صاحبٌ ولا إمامٌ من التابعين. فإن طالبتَهم بدعاويهم مَقَتُوكَ، وقالوا: محجوب، وإن سلَّمت لهم قيادَك تخبَّطَ ما معك من الإيمان، وهَبَطَ بك الحال على الْحَيْرة والمُحَال، وَرَمَقْتَ العُبَّادَ بعين المَقْت، وأهلَ القرآن والحديث بعين البُعْد، وقُلْتَ: مساكين محجوبون. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فإنّما التصوّف والتألّه والسلوك والسَّيْر والمحبة ما جاءَ عن أصحاب محمد ﷺ من الرضا عن الله، ولزوم تقوى الله، والجهادِ في سبيل الله، والتأدُّب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبُّـر، والقيام بخشيـة

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٥/٣٩٣.

وخشوع، وصَوم ِ وقتٍ، وإفطار وقت، وَبَذْلِ المعروف، وكثرة الإيثار، وتعليم العوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزُّز على الكافرين، ومع هذا فالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والعالِمُ إذا عَرِيَ من التصوف والتألُّه، فهو فارغ، كما أن الصوفيَّ إذا عَرِيَ من علم السنة، زَلَّ عن سواء السبيل.

وقد كان ابن الأعرابي من علماء الصوفية، فتراه لا يَقْبَلُ شيئاً من اصطلاحات القوم إلا بحجة»[1].

ضمن هذه الأطر والقواعد والأصول والمفاهيم التي قعدها الإمام الذهبي، وانطلق منها يهتدي بهداها؛ يمكن أن نفهم تراجمه للمتصوّفة، وتقاويمه لهم، وانتقاداته عليهم، وشدته في بعض الأحيان.

●● فقد أثنى على أكابرهم وأعيانهم ممن طلبوا العلم والسنن الشريفة، والتزموا بهديها، وتجنبوا البدع والشعوذة والهذيانات، والكلام الفارغ، والتنطع المذموم، ومخالفة نهج السلف الصالح.

فمن ذلك قوله:

«أبو حامد الغزالي، زين الدين، حجة الإسلام... أحد الأعلام... صنف التصانيف، مع التصّوف والذكاء المفرط، والاستبحار من العلم. وفي الجملة: ما رأى الرجل مثل نفسه». وقال في موضع آخر: «الشيخ الإمام البحر، حُجَّة الإسلام، أعجوبة الزمان... الغزالي، إمام كبير، وما مِن شرط العالم أنه لا يخطىء.... فرحمَ الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه

---

(1) سير أعلام النبلاء: ١٥/٤٠٩ ـ ٤١٠.

وفضائله، ولكن لا ندَّعِي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»[1].

«ابن السماك: الزاهد القدوة، سيِّد الوعاظ...»[2].

«معروف الكرخي: علم الزهاد، بركة العصر...»[3].

«أبو سليمان الداراني: الإمام الكبير، زاهد العصر...»[4].

«بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، الإمام العالم المحدِّث، الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، أبو نصر المروزي، ثم البغدادي، المشهور بالحافي...»[5].

«الجُوعِيُّ: الإمام القدوة الولي، المُحدِّث، أبو عبد الملك القاسم بن عثمان، العَبْدِيّ الدمشقي، شيخُ الصوفية، ورفيقُ أحمد بن أبي الحَوَاري، عُرف بالجوعي... كان زاهدَ الوقت هذا الجوعيُّ بدمشق، والسَّرِيُّ السَّقَطِيّ ببغداد، وأحمدُ بن حرب بنيسابور، وذو النون بمصر، ومحمدُ بن أسلم بطوس. وأين مثلُ هؤلاء السادة؟! ما يملأ عيني إلا التراب، أو مَنْ تحت التراب»[6]!

عَمْرو بن عُثمان بن كُرَب بن غُصص، الإمام الرَّبَّاني، شيخُ الصوفية...»[7].

---

(١) العبر: ٢/٣٨٧، سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢ ـ ٣٤٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/٣٢٨.

(٣) المرجع السابق: ٩/٣٣٩.

(٤) المرجع السابق: ١٠/١٨٢.

(٥) المرجع السابق: ١٠/٤٦٩.

(٦) المرجع السابق: ١٢/٧٧ ـ ٧٩.

(٧) المرجع السابق: ١٤/٥٧.

«أبو عثمان الحِيري: الشيخ الإمام، المحدِّث الواعظ القدوة، شيخ الإسلام، الأستاذ أبو عثمان سعيدُ بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النَّيسَابوريّ الحيري الصوفي»[1].

«ابن حَمُّويَه: الإمام العارف أبو عبدالله محمد بن حمُّويه الجُويني الصوفي... كان ذا تألُّهٍ وتعبُّد، ومجاهدةٍ وصدق... توفي إلى رضوان الله في مستهلّ ربيع الأول سنة ثلاثين وخمس مئة رحمه الله»[2].

«الشيخ عبد القادر: الشيخ الإمامُ، العالم الزاهدُ، العارف القدوة، شيخ الإسلام، عَلَمُ الأولياء، محيي الدين، أبو محمد، عبدُ القادر بن أبي صالح عبدالله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد... ليس في كبار المشايخ مَنْ له أحوالٌ وكراماتٌ أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منها لا يَصِحّ، وفي بعض ذلك أشياءُ مستحيلة»[3].

●● ومن تراجمه لمنحرفي الصوفية ومشعوذيهم:

«الحسين بن منصور الحَلَّاج: المقتول على الزندقة، ما رَوَى ولله الحمد شيئاً من العلم. وكانت له بداية جيدة، وتألُّه وتصوّف، ثم انسلخ من الدين، وتعلم السحر، وأراهم المخاريق. أباح العلماء دَمَه، فقُتل سنة إحدى عشرة وثلاث مئة»[4].

«الإمام المحدث الواعظ أبو بكر محمد بن عبدالله بن عبد العزيز

---

(١) المرجع السابق: ١٤/ ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) المرجع السابق: ١٩/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨.
(٣) المرجع السابق: ٢٠/ ٤٣٩ ـ ٤٥١.
(٤) ميزان الاعتدال: ١/ ٥٤٨، وانظر بالتفصيل: سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٣١٣ ـ ٣٥٤.

ابن شاذان الرازي الصوفي. . . يروي عنه أبو عبد الرحمن السُّلمي بلايا وحكايات منكرة. . . وما هو بمؤتمن»[1].

«أبو حَيَّان التوحيدي: الضال الملحد، أبو حيان، علي بن محمد بن العباس، البغدادي الصوفي. . . وقال أبو الفرج ابن الجوزي: زنادقةُ الإسلام ثلاثة: ابن الرَّاوَنْدي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وأشدُّهم على الإسلام أبو حيان، لأنهما صرَّحا، وهو مَجْمَجَ ولم يصرِّح»[2].

«ابن جَهْضَم: الشيخ الإمام الكبير، شيخ الصوفية بالحرم، أبو الحسن عليُّ بن عبدالله بن الحسن بن جهضم الهمذاني المجاور. . . ليس بثقة، بل مُتَّهم يأتي بمصائب»[3].

«ابن الفارض: شاعرُ الوقت شرفُ الدين عُمر بن علي بن مُرشِد الحَمَوِيّ ثم المِصْري، صاحب الاتحاد[4] الذي قد ملأ به «التائية». . . . فإن لم يكن في تلك القصيدة صريحُ الاتحاد الذي لا حيلةَ في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال! اللهم ألهمنا التقوى، وأعذنا من الهوى، فيا أئمة الدين ألا تغضبون لله؟! فلا حول ولا قوّة إلا بالله»[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦/٣٦٤ ـ ٣٦٥، ميزان الاعتدال: ٣/٦٠٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧/١١٩ ـ ١٢٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧/٢٧٥ ـ ٢٧٦، ميزان الاعتدال: ٣/١٤٢.

(٤) ما يعرف الآن بوحدة الوجود. ومطلع التائية:

نعمْ بالصبَا قلبي صَبَا لأحبَّتي ... فيا حَبَّذا ذاكَ الشَّذا حينَ هَبَّتِ

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٢/٣٦٨.

«ابن عَدِي: الشيخ الكبير المدعو بتاج العارفين حسن بن عدي بن أبي البركات... كان هذا من رجال العالم دهاءً وهمَّة وسموّاً، وله فضيلةٌ وأدبٌ، وتواليف في التصوف الفاسد.... وهناك جَهَلة يعتقدون أن الشيخ حسناً لا بدَّ أن يرجع إلى الدنيا! وكان يلوِّح في نظمه بالإلحاد، ويزعم أنه رأى ربَّ العزَّة عياناً، واعتقادُه ضلالة»[1].

«ابن سَبْعِين: الشيخ قطب الدين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر المرسي الصوفي. كان من زهَّاد الفلاسفة، من القائلين بوحدة الوجود، له تصانيف وأتباع يقدمهم يوم القيامة»[2]!

«التلمساني: عفيف الدين سليمان بن علي بن عبدالله بن علي الأديب الشاعر، أحد زنادقة الصوفية...»[3].

«ابن هود: الشيخ الزاهد بدر الدين حسن بن علي بن يوسف بن هود المرسي الصوفي الاتحادي الضال...»[4].

هذه خلاصة رأي الذهبي في المتصوفة، يمدح ويقدح باعتبار حال المترجَم، ومدى التزامه بالإسلام أو انحرافه عنه، وليس كما ادعى السبكي غفر الله له.

وأنا أشهد بالله للإمام الذهبي أنه يحب أكابر الصوفية ويعظم سادتهم وزهادهم الصادقين الصالحين الأتقياء، ولا يألو جهداً في القدح بالمنحرفين الممخرقين من زنادقتهم وضالِّيهم أولي الشطح والشطط

---

(١) المرجع السابق: ٢٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.
(٢) العبر: ٣/ ٣٢٠.
(٣) العبر: ٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.
(٤) العبر: ٣/ ٣٩٨.

وخفة العقل وقلة الدين. وهذه ـ والله ـ منقبة لإمامنا الذهبي تتألّق في تاجه العلمي الباهر النادر.

●● وأما ادعاء السبكي بأن الذهبي غير خبير بمدلولات الألفاظ:
فتلك شكاة ظاهر عنك عارها! والذهبي بحمد الله ليس بحاجة إلى التدليل على جودة ذكائه، وصفاء قريحته، ووفور فهمه، وقدرته الفائقة على صوغ مراده بأسلوبه الفذ المتميز الواضح العريّ عن الغموض والالتواء، ومن تمرّس بكتبه وأسلوبه علم أنه من بين أحسن المؤرخين والمؤلفين عبارة وجمال بيان ودقة أداء.

●●●

وكلمة أخيرة أقولها: إن تكوين الرجل الفكري والعقدي والعلمي لا بد أن يؤثر في كتاباته قليلاً أو كثيراً، وهذا مألوف معروف. ولكنني أبادر القول بأنه أمام تراث هائل من التراجم، شامل في الزمان والمكان، فإن تحقيق قدر كبير من الإنصاف ـ وإن لم يكن الإنصاف كله ـ يعتبر أمراً عظيماً في كل عصر. ولست في مجال الدفاع عن الذهبي والانتصار له، فتصانيفه خير مدافع عنه، وآثاره هي الحكم الصادق العادل في تقويمه وتأكيد صحة ما ذكرناه.

* * *



الفَصْلُ السَّابع

مَناصِبُهُ

براعة الذهبي في علوم عديدة، وبخاصة الحديث وفنونه، ثم بدايته المبكرة في التأليف، وآثاره الكثيرة الماتعة، مع نبوغه المبكر، وذكائه الباهر، كل ذلك جعل نجمه يعلو ويتألق، فانتشر ذكره، وذاع صيته، وطارت مصنفاته في الآفاق، وسارت بها الركبان، وعرف مكانته القريب والبعيد. وهذه الشهرة العالية الغالية جعلت إمامنا يتبوّأ مناصب علمية عليَّة، فأصبح واحداً من أعلام التدريس في الديار الشامية.

وقد كانت المدارس [1] في ذاك العصر هي أشبه بجامعاتنا اليوم، فلا يتولى رئاستها إلا من يجمع عليه علماء الأمة وقضاتها وحكامها، ويتفقون على توليته هذا المنصب العلمي الرفيع، لينوب عن الأمة كلها في تخريج المحدثين والفقهاء والعلماء والباحثين والخطباء والوعاظ والمصلحين.

كذلك كانت المساجد الكبيرة تضم حلقات العلم في مختلف صنوفه وفنونه، من إقراء القرآن، وإملاء الحديث، ومدارسة الفقه، وغير

---

(١) كانت كل مدرسة قائمة على التخصص: فبعضها مخصص لعلم الحديث، يتولى مشيختها أو رئاستها أبرز علماء الحديث. وبعضها متخصص بالفقه الحنفي أو المالكي أو الشافعي أو الحنبلي، أو اللغة، أو الطب... ويتولى مشيختها أكبر فقهاء، أو علماء العصر والمصر. ولها أنظمتها من تخصيص المدرسين والمعيدين، ووجود خزانة الكتب والأوقاف الكثيرة والرواتب، ونحو ذلك.

ذلك. وحسبك أن تعلم أنه كان في الجامع الأمـوي بدمشق ثلاثة وسبعون متصدراً لإقراء القرآن، وعدد من الحلقات في الفقه والحديث، وغيرها. ومسجد عمرو بن العاص بمصر كانت فيه (سنة ٧٤٩ هـ) بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه.

ويكفي الباحث إلقاء نظرة سريعة على كتاب «الدارس» للنعيمي ليرى النشاط العلمي الهائل الذي شهدته دمشق منذ القرن الخامس حتى العاشر الهجري، حيث جمع فيه مؤلفه تاريخ دور القرآن والحديث، والمدارس، والخوانق، والتكايا، والرُّبَط والزوايا، والترَب والجوامع المعروفة آنذاك، وتراجم أصحابها وواقفيها، وسِيَرَ من درَّس فيها. وكل واحدة منها كانت بمثابة جامعة أو كلية أو فرع في كلية باصطلاح عصرنا؛ مما ينبىء عن نهضة علمية باهرة، تدل على تسابق أبناء ذلك العصر في إنشاء دور العلم والمعاهد الدينية والمؤسسات الخيرية.

وقد تولى الذهبي ثلاثة مناصب.

أولاً ــ الإقراء

قد علمنا أن الذهبي توجه إلى «علم القراءات» في مرحلة مبكرة من حياته العلمية، فجوَّده وبرع فيه، واشتهر بذلك، فكان أول منصب علمي رسمي يتولاه هو تصدره حلقة الإقراء بالجامع الأموي، عوضاً عن شيخه شمس الدين الدمياطي ثم الدمشقي الشافعي، وذلك في أوائل سنة (٦٩٣ هـ)، وعمر إمامنا عندئذٍ قريب من عشرين سنة.

قال في ترجمة شيخه شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدمياطي الدمشقي المقرىء: «حصل له عسر البول أياماً، ومات به. ولما أيس من نفسه نزل لي عن حلقته». وذكره في «معجم شيوخه»، فقال: «ومات في

صفر سنة ثلاث وتسعين وست مئة. . . نزل لي عن حلقته في مرضه[1]».

ولم يستمر الذهبي في هذا المنصب طويلاً، بل مكث فيه أقل من سنة، حيث استولى عليه في غيبته أحد المقرئين، كما ذكر الذهبي ذلك في ترجمة محمد بن أحمد بن علي الرقي ثم الدمشقي الحنفي الأعرج، فقال: «. . . وهو إمام فاضل، جيدُ المشاركة في العربية، له بصرٌ بمُشكِل القصيد، وخبرة بمذهبه، أفادنا أشياء، ولما سافرتُ إلى بَعْلَبَكَّ سنة ثلاث وتسعين وتعوَّقت بالقراءة على الموفق؛ وثب على حلقتي، فأخذها لكوني لم أستأذن الحاكم في الغيبة، وهو الآن يُقرىء بالجامع. . . [2]».

● ● ●

ثانياً ـ الخطابة

وفي سنة (٧٠٣ هـ) ـ وقد بلغ الذهبي الثلاثين من عمره ـ تولى الخطابة بمسجد قريته «كَفْر بَطْنا»، وسكن هناك [3]، وظل مقيماً بها مدة طويلة حتى سنة (٧١٨ هـ)، حيث تولى مشيخة كبريات دور الحديث بدمشق. وفي بلدته الهادئة ألف خيرة كتبه خلال تلك السنوات الطويلة.

● ● ●

---

(١) معرفة القراء: ٢/٧٠٩، معجم الشيوخ: ٥١٩.

(٢) معرفة القراء: ٢/٧٥٣ ـ ٧٥٤.

(٣) ذيل العبر للحسيني: ٤/١٤٨، البداية والنهاية: ١٤/٢٨، تاريخ البرزالي حوادث سنة (٧٠٣ هـ).

ثالثاً ـ مشيخة دور الحديث

لكل دار حديث شيخ يرأسها، هو بمثابة رئيس جامعة في عصرنا، وعندما يشغر هذا المنصب الرفيع ينظر القائمون بالأمر والعلماء والمحدثون من يصلح لهذا المنصب، فيخلف الشيخ المتوفى، فمن وجدوه أهلاً لذلك نصبوه به، وأسندوا مشيخة الدار إليه.

وعندما كان يتوفى أحد الأعلام من مشايخ دور الحديث الدمشقية، كثيراً ما كانت الأنظار تتوجه إلى الحافظ الذهبي.

ـ ففي شوال من سنة (٧١٨ هـ) توفي الشيخ كمال الدين أحمد بن محمد ابن الشريشي، شيخ «دار الحديث بتربة أم الصالح»، وكانت هذه الدار من أكبر دور الحديث آنئذٍ بدمشق، وقد شغل الشريشي مشيختها ثلاثاً وثلاثين سنة، فتولاها الذهبي بعده، وقد بلغ الخامسة والأربعين. قال الحافظ ابن كثير في حوادث سنة (٧١٨ هـ): «وفي يوم الاثنين من ذي الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي المحدث الحافظ بتربة أم الصالح، عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي، توفي بطريق الحجاز في شوال، وحضر عند الذهبي جماعة من القضاة»[1].

وترك الذهبي السكن في قريته «كفربطنا»، واتخذ في هذه المدرسة سكناً له، ثم مات فيه بعد ذلك.

ـ وفي سنة (٧٢٩ هـ) توفي الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى ابن

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/٨٨، ٩١، ذيل العبر الذهبي: ٤/٥٠، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٥٦، الدارس: ١/٣٤، ٣٢٥.

جهبل الحلبي الأصل الدمشقي، وكان شيخ «دار الحديث الظاهرية»[1]، تولاها مدة، وبعد وفاته تولاها الذهبي في يوم الأربعاء (١٧) جمادى الآخرة سنة (٧٢٩ هـ)، ونزل عن خطابة كفربطنا[2].

ـ وفي سنة (٧٣٩ هـ) توفي الحافظ علم الدين البِرْزَالي، شيخ الذهبي ورفيقه، فتولى الذهبي تدريس الحديث «بالمدرسة النفيسية» وإمامتـها عوضاً عن البرزالي[3].

وكتب له تلميذه الصلاح الصفدي توقيعاً باستلام مشيخة «المدرسة النفيسية»، لقَّبه بالمجلس السامي الشيخي الشمسي.

ـ وفي نفس السنة أيضاً ـ أي ٧٣٩ هـ ـ كمل تعمير دار الحديث والقرآن التنكزية، وباشر الذهبي مشيخة الحديث بها.

قال الحافظ ابن كثير في حوادث السنة المذكورة: «ومما حدث في هذه السنة إكمال دار الحديث التنكزية[4]، وباشر مشيخة الحديث بها الشيخُ الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمسُ الدين محمد بن أحمد

---

(١) أسسها الظاهر بيبرس، وكانت حتى عهد قريب مقر «دار الكتب الظاهرية»، وأما الآن فمقر المجمع العلمي العربي بدمشق المحروسة.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/١٤٣، الدارس: ١/٢١٠، ٣٥٨.

(٣) الوافي بالوفيات: ٢/١٦٦، الدارس: ١/٧٩.

(٤) التنكزية: منسوبة إلى الأمير تنكز نائب السلطنة بالشام، (ت ٧٤١ هـ). ووقع في البداية والنهاية: «السكرية» وهو تحريف، فالسكرية كمل إعمارها قبل هذه السنة بدهر، فقد ولي مشيختها شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية (ت ٦٨٢ هـ)، وبعده ابنه شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا يتناقض مع قول ابن كثير أنه تمَّ إكمالها سنة (٧٣٩ هـ). كذلك يعارض قوله: «أنشأها الواقف الأمير تنكز»، فلا شك أن كلمة «السكرية» هنا تحريف. وقد حقق الدكتور بشار عواد في أن الذهبي لم يتولَّ مشيخة «السكرية». انظر: الذهبي ومنهجه: ١٠٧ ـ ١٠٩.

الذهبي. وقُرِّر فيها ثلاثون محدِّثاً، لكل منهم جراية وجامكية، كل شهر سبعة دراهم، ونصف رطل خبز، وقرِّر للشيخ ثلاثون رطل خبز، وقرِّر فيها ثلاثون نفراً يقرؤون القرآن، لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدّثين... وهي تجاه دار الذهب التي أنشأها الواقف الأمير تنكز، ووقف عليها عدة أماكن...»[1].

ـ كذلك ولي مشيخة «دار الحديث الفاضلية[2]»، التي أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن العسقلاني المصري، وزير صلاح الدين.

ـ وتولى مشيخة «دار الحديث العُرْوِيَّة» بمشهد عروة بالجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي[3].

وهكذا فإن الذهبي قد تولى مشيخة كبريات مدارس الحديث بدمشق في أيامه، وفي بعضها عشرات العلماء المدرسين من محدثين وقراء ونحوهم. وعندما توفي إلى رحمة الله تعالى، كان يتولى مشيخة الحديث في خمسة أماكن، هي:

١ ـ دار الحديث العروية: درس فيها بعده شرف الدين ابن الواني الحنفي، حيث نزل الذهبي له عنها في مرض موته.

٢ ـ دار الحديث النفيسية: وقد نزل الذهبي عنها ـ في مرض موته ـ لابن الواني المذكور[4].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٨٤، وانظر ذيل العبر للحسيني: ٤/١٥٢.

(٢) الدارس: ١/٨٩ ـ ٩٠، ٩٤.

(٣) الدارس: ١/٨٢، و«مشهد عروة» نسبة إلى شرف الدين محمد بن عروة الموصلي (ت ٦٢٠ هـ).

(٤) الإعلام لابن قاضي شهبة، نقلاً عن الذهبي ومنهجه ص: ١٠٩ ـ ١١٠.

٣ ـ دار الحديث التنكزية: ولي مشيختها بعده صدر الدين سليمان بن عبد الحكيم المالكي[1].

٤ ـ دار الحديث الفاضلية: درس فيها بعده تلميذه الحافظ تقي الدين ابن رافع السَّلاَّمي[2].

٥ ـ تربة أم الصالح: وقد ولي مشيختها بعده الحافظ ابن كثير، حيث يقول في حوادث سنة (٧٤٨ هـ): «وفي يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة حضرتُ تربة أم الصالح ـ رحم الله واقفها ـ عوضاً عن الشيخ شمس الدين الذهبي، وحضرَ جماعةٌ من أعيان الفقهاء وبعض القضاة، وكان درساً مشهوداً. ولله الحمد والمنة»[3].

* * *

---

(١) ذيل العبر للحسيني: ٤/١٥٤، الدارس: ١/١٢٧، ٢/٨.

(٢) الدارس: ١/٩٤.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/٢٢٥، الدارس: ١/٣٦.



الفَصْل الثامِن

عَوَامِلُ تَكوِيْنِ شَخْصِيّتِهِ وَمَنْهَجِه

أولاً ـ عوامل تكوين شخصيته

لعبت عدة عوامل في توجيه طاقات الإمام الذهبي وتفجير إمكانياته، وأسهمت في تأسيس بنيانه العلمي الشامخ، وتعاضدت على تكوين شخصيته العلمية، وفكره المتميّز، وعقليته الفذة، ومنهجه المتفرد الأصيل.

●● ولعل اللبنة الأولى والركيزة المتينة التي شُيِّد عليها بنيان شخصيته الباهرة، هي تلك الأسرة التي احتضنتْهُ وَرَعَتْهُ، وربَّتْهُ ووَجَّهَتْهُ.

فكان من فضل الله تعالى على هذا الإمام نشأته في عائلة متدينة متعبدة، تقية نقية، كان لكثير من أفرادها حظ وافر من العلم. ومن بدائه العقول في ذلك المجتمع أن تعتني العائلة بابنها، وتنشِّئه على فضائل الأعمال، ومكارم الأخلاق، وتسعى به نحو المعالي وطلب العلم والحرص على التميز فيه. فقرأ الذهبي على أبيه، وأخذ عن عمته، وكان جده عثمان يعتني بنطقه، ويدربه على التعبير السليم، في حين كان جده لأمه يصطحبه معه ليسمعه أخبار الدولة وأحداث الحياة، كما سمع الذهبي من خاله، وزوج خالته، وروى عنهما في «معجم شيوخه»، وأيضاً أخذ عن أبيه من الرضاعة، وأخيه منها، وأما أخوه الآخر من الرضاعة العلامة المحدث علاء الدين العطار ـ الملقب بمختصر

النووي ـ فكان له الدور الأكبر في تحصيل الإجازات للذهبي من كبار مشيخة العصر، فانتفع بذلك كثيراً.

●● ويعتبر العامل الثاني من أهم الأمور التي أسهمت في تكوين شخصيته، ويتمثل في تلك الرفقة المباركة التي انخرط فيها إمامنا رحمه الله. وتبرز في رفقته أسماء أعلام كثيرين، ولكن أشهرهم ذكراً، وأكثرهم أثراً، هم أولئك النفر الثلاثة: المزي، والبرزالي، وابن تيمية.

فاتصل الذهبي بهم اتصالاً وثيقاً، ورافقهم طيلة حياته، وبالرغم من أنه كان أصغرهم سناً، لكن كان يقرأ بعضهم على بعض، ويتباحثون ويتناقشون، فهم شيوخ وأقران في آن واحد.

وباعتبار أن الذهبي أصغرهم، وهم قد سبقوه في الطلب، وكانوا قمم العلم في ذلك العصر، فقد تأثر بهم إلى حد بعيد. فالبرزالي هو أول من حببه بالحديث والاعتناء به، كما أن الذهبي أعجب بعلمه الغزير، وبمعجمه الشهير. والمزي كان فرد زمانه في الحديث وبخاصة رجاله، وقد احتل من قلب الذهبي مكانة مميزة، فصحبه ولازمه، وأثنى عليه حتى قال بأنه «لم تر العيون مثله». وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد كان أكثر الثلاثة أثراً في شخصية الذهبي وتوجهاته وأفكاره ومنهجه.

وقد شدّ من أواصر هذه الرفقة توجّه الأربعة لعلم الحديث والتبحّر فيه، وميلهم جميعاً إلى رأي السلف في «العقيدة» والتمسك بالآثار الصحيحة الواردة في «الأسماء والصفات»، وترك البحوث الكلامية، بل ومنابذة أهلها، والاشتداد على المؤوّلين، ومحاربة المبتدعة والمتصوّفة المنحرفين والمشعوذين، وغير ذلك مما ماجت به البيئة الشامية آنذاك.

ولا شك بأن شيخ الإسلام ابن تيمية قد أثر بالذهبي إلى حد غير قليل، ذلك أن هذا الإمام كان من أفراد الدهر، ولقد عبر الذهبي عن

إعجابه برفيقه وشيخه فوصفه بأجمل الأوصاف، ونعته بأغلى العبارات، وحلّاه بأعلى الصفات، فوصفه بأنه فرد الزمان، بحر العلوم، يتوقد ذكاء، لا نظير له في معرفة الملل والنحل والأصول والكلام، وشجاعته وجهاده أمر يتجاوز الوصف، قوي العربية جدا ومعرفته بالتاريخ والسير عجب عجيب، مع ما اشتهر منه من الورع وكمال الفكر، وسعة الإدراك، والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله، ونصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، وأنه لم يرَ بعينيه مثله[1].

وهذا الإعجاب من الذهبي بصاحبه وشيخه ابن تيمية قد أثر في بلورة شخصيته، وتنمية الملكة الناقدة عنده لكل ما ليس بصحيح أو مخالف للكتاب والسنة ومنهج السلف، وبخاصة نظرته الثاقبة ورأيه السديد المسدَّد لعلم الكلام والمنطق الفلسفي والحكمة اليونانية، وأصحاب الملل والنحل والأهواء والمذاهب الضالة المنحرفة، وشطحات الصوفية، وشعوذات الممخرقين ممن لم يتضلعوا بالعلم الصحيح من منابعه الصافية النقية، كما يبدو ذلك واضحاً في مصنفاته. كما تأثر به فيما ألف واختصر في مجال العقيدة، كما في كتابه «العلو»، و«المنتقى من منهاج الاعتدال»[2]، وغيرهما.

وهذا لا يعني أن الذهبي كان مقلِّداً لابن تيمية في كل شيء، ولا منتصراً له في كل مباحثه، بل خالفه في مسائل أصلية وفرعية، وَرَدَّ عليه في مسألة زيارة قبر النبي ﷺ، وغير ذلك[3]. ذلك أن الذهبي يعلم أن كل أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ. كما انتقد رفيقه وشيخه

---

(١) الرد الوافر: ٦٩ ـ ٧٣.

(٢) اختصر به كتاب شيخه ابن تيمية.

(٣) انظر: ص ١٨٠ ـ ١٨١، ٢٥٠ ـ ٢٥١ من هذا الكتاب.

المزي لأنه كان «يخوض في مضايق المعقول»، وجرى بينهما «مجادلات ومعارضات في ذلك»[1].

وصلة الذهبي الوثيقة بهؤلاء الثلاثة ـ وبخاصة ابن تيمية ـ وميلهم الشديد نحو مذهب السلف، ومخالفة متأخري الأشاعرة وأصحاب الكلام، قد أدى في أحايين كثيرة إلى إيذائهم واتهامهم بما ليس فيهم، ومن مظاهر ذلك إيذاء الحافظ المزي وإيداعه في السجن، وحرمان الذهبي من مشيخة «دار الحديث الأشرفية» بعد وفاة المزي، وذلك أن الذهبي ليس أشعرياً، فعين تقي الدين السبكي[2].

●● وثمة أمر ثالث أثر تأثيراً بارزاً في تكوينه الفكري، وهو اهتمامه الشديد بالحديث وعلومه رواية ودراية، وارتباطه بمناهج المحدثين وكبار نقاده وأئمة الجرح والتعديل؛ مما أسهم إلى حد بعيد في بلورة تفكيره، وترك آثاراً واضحة في عقليته ومنهجه ونظرته إلى العلوم والعلماء.

وأكثر ما يبدو ذلك واضحاً في منهجه التاريخي الذي ربطه بالحديث وفنونه، فاعتنى بالتراجم عناية لا مزيد عليها، وصنف فيها الكثير، وأصبحت محور تفكيره التاريخي. وكان من مظاهر تأثره بعلم الجرح والتعديل أنه طبق على تراجمه المعايير التي أبدعها المحدثون في تبيين أحوال الرواة، فسحب الذهبي على تراجمه ذلك المنهج بالتوثيق والتجريح، وإصدار التقاويم، مع التأكيد على أنه كان ينظر إلى كل فئة بمعيار يناسبها، فنقده للرواة بمنظار يغاير منظار نقده للحكام أو

---

(١) المعجم المختص: ٢٩٩، تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٩.

(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٥٦، ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٥٣، الدارس: ١/٣٢٥ ـ ٣٢٦.

الشعراء أو الزهاد، ونحوهم. وأثر أيضاً في نظرته للأحداث التاريخية، والمصنفات فيها، وطريقته الانتقائية في هذا وذاك.

●● وقد تركت عقيدته السلفية، وتمسكه بآي الكتاب وصحيح السنة، أثرها الواضح الجلي على شخصيته ومنهجه ونظراته وتقاويمه.

يبدو ذلك بأدنى تأمل في تصانيفه، وبخاصة تلك التي في «العقائد» و«التراجم»، فلقد كان شديد الوطأة على الفلسفة الإلهية والمنطق وعلم الكلام، وعلى كل الخائضين في هذا المنزلق الوعر الضيق الشائك. ولم يحابِ في ذلك أحداً مهما ارتفعت منزلته وعلا شأنه في العلم أو في غيره، فانتقده وأصدر فيه رأيه انطلاقاً من هذه العقيدة الراسخة فقال عن الفلسفة: «الفلسفة الإلهية: ما ينظر فيها من يرجى فلاحه، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه، فإن هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق»[1]. وقال في العلوم التي يحرم تعلمها: «والعلمُ الذي يحرم تعلُّمه ونشره: علمُ الأوائل، وإلٰهيات الفلاسفة، وبعض رياضتهم بل أكثرُه، وعلمُ السِّحر، والسِّيمياء، والكيمياء، والشَّعْبَذَة، والحِيل، ونشرُ الأحاديث الموضوعة، وكثيرٌ من القصص الباطلة أو المنكرة، وسيرة البطال المختلقة، وأمثالُ ذلك، ورسائل إخوان الصَّفا، وشعرٌ يُعرض فيه إلى الجناب النبوي. فالعلومُ الباطلة كثيرة جداً فلتُحْذَر، ومن ابتُلي بالنظر فيها للفُرجةِ والمعرفة من الأذكياء، فليقلِّلْ من ذلك، وليطالِعْه وحده، وليستغفر الله تعالى، وليلتجىء إلى التوحيد، والدعاء بالعافية في الدين...»[2].

---

(١) بيان زغل العلم: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٦٠٤. وانظر بالتفصيل «فصل: عقيدته». والكيمياء ـ عند القدماء ـ: علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلْب =

وبعد أن أثنى على ابن حزم ثناء كبيراً، ذكر أنه عُني بعلم المنطق وبرع فيه ثم أعرض عنه، فانتقده الذهبي بقوله: «ما أعرض عنه حتى زرع في باطنه أموراً وانحرافاً عن السنة»[1]! وقال في ترجمة العلامة الفيلسوف ابن رشد ـ صاحب «بداية المجتهد» ـ: «... وقد روى عنه: أبو محمد بن حَوْطِ الله، وسهلُ بنُ مالكٍ. ولا ينبغي أن يُروى عنه»[2].

●● كذلك فإن البيئة الدمشقية التي عاش فيها، فخبرها وسبر غورها، وعلم مواطن الخلل فيها؛ قد عكست في نفسه ثورة عارمة على الأخطاء والانحرافات، وولدت عنده توجهات بارزة نحو تصحيح المسار.

فالمظالم التي شاهدها من الولاة والأمراء، وانتشار التصوّف المنحرف عن الحق، وكثرة المشعوذين، والاعتقاد الزائد بالمشايخ وتقديسهم، وانتشار الخرافات كتلك التي ذكرها ابن العماد عن «الشيخ رسلان الدمشقي» أنه «استند إلى شجرة يابسة فاخضرَّ ورقها للوقت، وأثمرت»[3]!! وطلب النذور عند قبور الأولياء، وضعف همم العلماء، وقلة العناية بالحديث والرواية قياساً بما كان عليه الحال في القرون

= خاصة جديدة إليها، ولا سيما تحويلها إلى ذهب. فهو ضرب من الحِيَل وليس علماً، وهذا مراد الذهبي، لا ما نعرفه نحن الآن عن «علم الكيمياء».

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/ ١٨٨.

(٢) المرجع السابق: ٢١/ ٣١٠.

(٣) شذرات الذهب: ٥/ ٤٤٨. وتوفي هذا الشيخ سنة (٦٩٩ هـ). وانظر مثل هذا الكلام في الشذرات: ٥/ ٣٤٥، ٣٥٠ ـ ٣٥١، ٣٦٢، وغيرها.

الثلاثة الأولى، وهو ما عبَّر عنه الذهبي بقوله: «فعلى علم الحديث وعلمائه ليبك من كان باكياً».

هذه المظاهر التي شهدها وعاينها، قد تركت انطباعات مؤثرة في عقله وفكره، وأثرت بوضوح في تكوينه ومنهجه، مما انعكس على كتاباته وبخاصة التاريخية وتراجم الرجال، الذين أخضعهم لميزان عادل، ومقياس دقيق، يريد به ردَّهم إلى الجادة، ونقل الصورة الصحيحة للإسلام ومنهجه وما يجب أن يكون عليه معتنقوه.

●● ومما أثر في تكوين شخصيته العلمية عنايته المبكرة باختصار بعض الكتب الكبيرة، وخاصة ما يتعلق بالتاريخ العام والتواريخ المحلية والوفيات والأنساب.

هذه المختصرات قد كوّنت الركيزة الأولى والمادة الأساسية لمعرفة الذهبي بالعصور السابقة بأحداثها ورجالها الذين أثروا في المسيرة التاريخية وصناعة القرار، وصعود الأمة وهبوطها في شتى الميادين.

●● ويضاف إلى تلك العوامل حرص الذهبي الشديد على طلب العلم، واهتبال كل فرصة، ودأبه المتواصل، ومعاناته المستمرة، واستمراره على ذلك طيلة حياته، بهمة وافرة، وعزيمة ماضية.

يظهر ذلك من خلال بعض المواقف الملفتة للنظر: فتراه يحدث عن رجل صلى في قريتهم «كفربطنا» الجمعة مرتين، وكان مُفْرِطَ الهرم وعليه شواهد الكِبَر، فيسرع إليه الذهبي ليسأله عن أمور عاصرها، فيقول: «فجالسته، فحدث عن طول عمره، وقال: لحق الملك المعظم. فسألته: هل لحق العادل؟ فقال: لا والله. فسألته عن الخوارزمية؟ فقال: كنت ابن ثلاثين سنة، ولي بيت، فخرجت إليهم،

وكسبت جملين. فسألته عن جامع التوبة: أتعرفه خاناً؟ فتبسم وقال...»[1].

وآخرُ قدم عليهم حاجاً، فجالسه واستمع من إنشاده[2]. بل قال في ترجمة شيخه الأديب أبي بكر بن محمد النديم: «وقد حضرت في سنة إحدى وتسعين وست مئة عرساً، فحضر الشيخ أبو بكر، وأنشدنا من نظمه، وحكى لنا نوادر، وأنشدنا لنفسه قصيدته التي أوّلها..... وأنشدنا لبعضهم...»[3].

●● ويلتحق بذلك سرعته في القراءة والتأليف:

ففي رحلته إلى الديار المصرية كان يجهد نفسه في قراءة أكبر قدر ممكن من الكتب على شيوخ تلك البلاد، فمن ذلك أنه قرأ على شيخه الأَبَرْقُوهِيّ «سيرة ابن هشام» في ستة أيام.

وذكر في آخر كتابه القيم «ميزان الاعتدال» أنه ألفه في أربعة أشهر إلا يومين، ويقع في أربعة مجلدات، ويحتوي على (١١٠٥٣) ترجمة.

● ● ●

ثانياً ـ منهجه

●● وكان من نتيجة تلك العوامل الهامة التي كوَّنت شخصية الرجل، وتناغمت في تثقيفه، وتعاضدت في تفوّقه وتميزه؛ أنه تفرد ـ كذلك ـ بمنهجه في البحث والتأليف، وطريقته وأسلوبه، وأحكامه وآرائه، وبالتالي فيما تركه من آثار علمية كثيرة بديعة.

---

(١) معجم الشيوخ: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) المرجع السابق: ٥٥٦ ـ ٥٥٧.

(٣) المرجع السابق: ٦٨٢.

فبالرغم من الجمود والتقليد الذي لفّ بيئته، وتأثر به كثير من معاصريه، فإن إمامنا استطاع أن يتخلص من تلك القيود، ويختط لنفسه جادة مستقلّة، متفردة متميزة، بفضل سعة معارفه، وحدة ذهنه، وصفاء قريحته، ودربته بأقوال الأئمة ومذاهبهم، وتأثره الواضح برفقته، وانطباعه بالمنهج الحديثي النقدي.

●● **لذا نجد الذهبي قد طبع كتبه بطابعه المتفرد، وأضفى عليها من روحه وفكره وأسلوبه المشرق، وعباراته الدقيقة، وألفاظه الرشيقة، وكلماته العذبة الموزونة المعبرة الدالة على المراد، فكانت شخصيته بارزة واضحة كل الوضوح في كل آثاره وتواليفه.**

فمختصرات الذهبي لم تكن تلخيصاً للكتاب الأصل، وتقليداً لمؤلفه في كل شيء، بل تبرز شخصية الإمام من خلال ما يضفيه على المختصر من عقليته وعلمه ومنهجه وأسلوبه وعبارته: بإضافات كثيرة هامة لصيقة بالموضوع، وتعليقات وتوضيحات، واستدراكات بارعة، وتصويبات وتصحيحات لأخطاء وأوهام وقع فيها مصنف الأصل، مع التمحيص الدقيق للمعلومات الواردة فيه. وغالباً ما يقوم بتخريج أحاديث تلك الكتب التي يختصرها، مع نقد أسانيدها، وبهرجة الواهيات منها، كما يتضح في كتابه الأصيل «تلخيص مستدرك الحاكم» مثلاً. وقد يعيد ترتيب بعض تلك الكتب إذا رأى ضرورة ونفعاً، كما فعل مع كتاب «الكنى» لأبي أحمد الحاكم، حيث رتبه على حروف المعجم، بعد أن أضاف إليه أشياء نافعة زادته حسناً.

وحتى مختصراته التي يختصرها من كتبه نجده متميزاً في ذلك، كما يتبدى للمتعمق في كتبه: «تاريخ الإسلام» ومختصريه «العبر» و «دول الإسلام»، فبالمقارنة بين «التاريخ» و«العبر» نجد بعض الأحداث

والوفيات في «التاريخ» ليست في «العبر» وبعضها في «العبر» وليست في «التاريخ»، هذا مع أن الذهبي زاد في «عبره» ذيلاً تضمن حوادث ووفيات ٤٤ سنة أخرى، فوصل إلى (٧٤٤ هـ). وقُلْ مثل ذلك في كتابه «الإعلام بوفيات الأعلام».

وهذا يعني أن الذهبي كان يختار ويؤلف، ولا يلخص فقط، ويزيد في كل كتاب من كتبه ـ ولو كان مختصراً ـ فوائد تجعله غير مكرر ولا مستغنى عنه، وكأنه أراد ـ بذلك ـ لكل واحد من كتبه أن ينفرد بمزية ليست في غيره.

كما كان في نقوله منتقياً مبدعاً، وناقداً بصيراً، غير متبع ولا مقلِّد، يَتَخَيَّرُ الصحيح والمهمّ، سواء في الأحداث والوقائع، أو في الأخبار والمناقب التي تتعلق بالمترجم، وينقد ويمحّص وينظر ويدقق. فهو ـ مثلاً ـ في كتابه «المختار من تاريخ شمس الدين ابن الجزري» عندما ترجم الشيخ الزاهد نجم الدين حسناً الدمشقي، بيَّن أن ابن الجزري أثنى عليه وذكر كثيراً من كلامه وحقائقه، ثم عقب الذهبي على ذلك بأن في كلام المترجم «هذياناً كبيراً، واضطراباً»، ثم قال: «ولكن المصنف شمس الدين ـ حرسه الله ـ لهذه الحقائق عنده هيبة، وهو لا يفهمها»[1]!!

●● ومن أكبر ميزات منهجه وأجلها وأعظمها إنصافه واعتداله وتراجعه عن الخطأ:

فقد علمنا من الصفحات السابقة أن الذهبي في تأريخه للأحداث التي شهدها، وتراجم الرجال الذين عاصرهم، كان معتمداً على معرفته واطلاعه ومشاهداته وصلاته، وأنه كان منصفاً فيما كتب إلى درجة

(١) المختار: ٣٨٧.

كبيرة. وأما مع أحداث التاريخ وتراجم الوفيات التي سبقته، فكان ناقلاً لكنه غير مستسلم لكل ما ينقل، بل كثيراً ما ينتقد ويبدي رأيه إذا رأى شططاً أو تعنتاً أو هوىً أو نحو ذلك، ويصدر رأيه باعتدال نادر، بلا جَنَف ولا حيْف ولا محاباة في المدح أو القدح، وهذه المزية تضاف إلى مفاخر هذا الإمام، فلقد أبانت دراستنا أنها كانت بارزة عنده، واضحة أشد الوضوح.

ونجده يتراجع عن الخطأ في بعض المواضع من كتبه، عندما يتبدى له دليل ناصع على خطأ رأي قاله سابقاً: كتراجعه عن قوله في «تاريخ الإسلام» في عمر الصحابي سلمان الفارسي أنه (٢٥٠) سنة، فقال: «وأنا الساعة لا أرتضي ذلك ولا أصححه»[١]. وقوله في تاريخ مولد الزاهر ابن العَريف أنه كان في سنة (٤٥٨ هـ)، فعقب على هذا بأنه: لا يصح، والأشبه بالصواب أنه كان سنة (٤٨١ هـ)[٢].

●● وثمة معلمة أخرى من معالم منهجه، وهي قوّته في البحث ومقدرته على الاستدلال، ومناقشة الآراء، ومحاكمة الأخبار، وهاك مثالين:

ـ الأول ساقه في ترجمة الإمام ابن إسحاق صاحب السيرة الشهيرة، فقال: «العُقَيْلي: حدثني الفضْل بن جعفر، حدثنا عبد الملك بن محمد، حدثني سُليمان بن داود، قال لي يحيى القَطّان: أشهد أن محمدَ بن إسحاق كذّاب. قلتُ: وما يُدريكَ؟ قال: قال لي وُهَيْبٌ. فقلتُ لوهيب: وما يدريك؟ قال: قال لي مالك بن أنس. فقلتُ

(١) سير أعلام النبلاء: ١/٥٥٦، وانظر: تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص: ٥٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠/١١٢ ـ ١١٤.

لمالك: وما يدريك؟ فقال: قال لي هشام بن عروة. قلت لهشام: وما يدريك؟ قال: حَدث عن امرأتي فاطمة بنت المنذر، ودخلتْ عليَّ وهي ابنةُ تسع سنين، وما رآها حتى لقيتِ الله.

قلتُ: معاذ الله أن يكون يحيى وهؤلاء بدا منهم هذا بناء على أصل فاسدٍ واهٍ، ولكنَّ هذه الخرافة من صَنْعَةِ سليمان، وهو الشاذكوني ـ لا صَبَّحَهُ الله بخير ـ فإنه مع تقدُّمِهِ في الحفظ متَّهمٌ عندهم بالكذب، وانظر كيف قد سَلْسَلَ الحكاية. ويبيِّن لك بطلانها أن فاطمة بنت المنذر لما كانت بنت تسع سنين لم يكن زوجُها هشام خُلق بَعْدُ، فهي أكبرُ منه بنيِّف عشرة سنةً، وأسْنَدُ منه، فإنها روتْ ـ كما ذكرنا ـ عن أسماء بنت أبي بكر، وصَحَّ أن ابن إسحاق سمع منها، وما عَرَفَ بذلك هشامٌ. أَفَبِمثْلِ هذا القول الواهي يُكَذِّبُ الصادق!! كلّا والله! نعوذُ بالله من الهوى والمكابرة»[1].

ـ والمثال الثاني هو ما جاء في ترجمة الإمام عبدالله بن أحمد بن حنبل:

فقد نقل الذهبي عن أبي الحُسين ابن المنَادي أن الإمام أحمد صنف «تفسيراً» فيه مئة وعشرون ألف حديث، ثم عقب الذهبي على ذلك فقال:

«قلتُ: ما زلنا نسمع بهذا «التفسير» الكبير لأحمد على أَلْسِنة الطلبة، وعمدتُهم حكايةُ ابن المنادي هذه، وهو كبيرٌ قد سمع من جدَّه وعباس الدُّوري، ومن عبدالله بن أحمد، لكنْ ما رأينا أحداً أخبرنا عن وجود هذا «التفسير»، ولا بعضه، ولا كرَّاسة منه، ولو كان له وجود، أو

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٩/٧ ـ ٥٠.

لشيء منه لَنَسَخُوه، ولاعتنى بذلك طلبةُ العلم، ولحصَّلوا ذلك، ولنُقِل إلينا، ولاشْتُهِرَ، ولَتَنَافَسَ أعيان البغداديين في تحصيله، ولنَقَلَ منه ابنُ جرير فمن بعده في تفاسيرهم، ولا ـ والله ـ يقتضي أن يكون عند الإمام أحمدَ في التفسير مئة ألف وعشرون ألف حديث، فإن هذا يكون في قدر «مُسْنَده»، بل أكثر بالضِّعف، ثم الإمام أحمد لو جَمَعَ شيئاً في ذلك، لكان يكونُ منقَّحاً مهذَّباً عن المشاهير، فيصغُر لذلك حَجْمُه، ولكان يكون نحواً من عشرة آلاف حديث بالجهد، بل أقل، ثم الإمام أحمد كان لا يرى التصنيف، وهذا كتاب «المسند» له لم يصنِّفْه هو، ولا رتَّبه، ولا اعتنى بتهذيبه، بل كان يرويه لولده نُسَخاً وأجزاء، ويأمره: أن ضَعْ هذا في مُسْنَد فلان، وهذا في مسند فلان. وهذا «التفسير» لا وجود له، وأنا أعتقدُ أنه لم يكن، فبغداد لم تَزَلْ دارَ الخلفاء، وقُبَّةَ الإسلام، ودار الحديث، ومحلَّةَ السُّنَن، ولم يزلْ أحمدُ فيها معظَّماً في سائر الأعصار، وله تلامذةٌ كبار، وأصحاب أصحاب، وهَلُمَّ جراً إلى بالأمس، حين استباحَها جيشُ المغُول، وجَرَتْ بها من الدماءُ سُيول، وقد اشتُهِر ببغدادَ «تفسيرُ» ابن جرير، وتزاحمَ على تحصيله العلماءُ، وسارت به الرُّكْبَان، ولم نعرف مثلَه في معناه، ولا أُلِّف قبلَه أكبُر منه، وهو في عشرين مجلدة، وما يحتمل أن يكون عشرين ألف حديث، بل لعلَّه خمسةَ عشرَ ألف إسنادٍ، فَخُذْهُ، فَعُدَّهُ إنْ شِئتَ»[1].

* * *

(1) المرجع السابق: ١٣/٥٢١ ـ ٥٢٢. وانظر أمثلة أخرى في سير أعلام النبلاء: ٤/٥٣٣، ٥/١٦٧ ـ ١٦٨، ٤٥٦، ٦/٩٣ ـ ٩٥، ١٠٤، ٣٩٥ ـ ٣٩٧، ١٠/٥٧٨، ٦٠٢ ـ ٦٠٤، ١٤/٣٥١، ١٦/٩٦ ـ ٩٧، ١٤/١٩٠ ـ ١٩٣ مع ١٨/٥٤٠ ـ ٥٤١ وتذكرة الحفاظ: ٢/٧٤٢ و٣/١١٨١. وغير ذلك.



الفَصل التَاسع

عَقِيدَتُهُ

توطئة: شغل الكلام في «صفات الله تعالى» وقتاً غير قصير من المباحثات والردود، وملأ صفحات كثيرة من الكتب التي صُنِّفت في «العقائد»، وخبط فيها أهل الكلام والمؤوِّلون والمعطلة والمُجَسِّمَة، ووصل بهم البحث إلى نتيجة غير محمودة، ومسلك غير مرضي.

ومذهب السلف في «الصفات» أنهم يؤمنون بما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، ويجرونها على ظاهرها اللائق به سبحانه، من غير تحريف ولا تعطيل، وبلا تكييف ولا تمثيل.

يقول الخطيب البغدادي: «أما الكلامُ في الصفات: فإنَّ ما روي منها في السُّنَن الصحاح، مذهبُ السلف إثباتُها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها. وقد نفاها قومٌ فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قومٌ من المُثبِتين، فخرجوا في ذلك إلى ضَرْب من التشبيه والتكييف. والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين. . . فإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجودٍ لا إثبات كيفية، فكذلك إثباتُ صفاته إنما هو إثباتُ وجود لا إثباتُ تحديد وتكييف.

فإذا قلنا: لله يدٌ وسمع وبصر، فإنما هي صفاتٌ أثبتَها الله لنفسه، ولا نقول: إنَّ معنى اليد: القدرة، ولا إن معنى السمع والبصر: العلم. ولا نقول: إنها جوارح، ولا نُشَبِّهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي

جوارحُ وأدواتٌ للفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفيُ التشبيه عنها لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ٤][1].

وقال سفيان بن عيينة: «هي كما جاءت نقرُّ بها ونحدث بها بلا كيف»[2].

وقال الإمام أبو محمد الجويني في رسالته «الاستواء والفوقية»: «اسْتَوىَ على عرشه، فَبَانَ من خَلْقه، لا يَخفى عليه منهم خافِيةٌ، علمُه بهم محيط، وبصرُه بهم نافِذٌ، وهو في ذاته وصفاته لا يشبهه شيءٌ من مخلوقاته، ولا يمثل بشيء من جوارح مبتدعاته. هي صفاتٌ لائقة بجلاله وعظمته، لا تتخيل كيفيتها الظنون، ولا تراها في الدنيا العيون، بل نؤمنُ بحقائقها وثبوتها، واتِّصاف الرب تعالى بها، وننفي عنها تأويلَ المتأوِّلين، وتعطيل الجاحدين، وتمثيلَ المشبِّهين، تبارك الله أحسنُ الخالِقين. فبهذا الربِّ نؤمنُ، وإياه نعبد، وله نصلي ونسجد. فمن قصدَ بعبادته إلى إلٰهٍ ليسَتْ له هذه الصفات، فإنما يعبدُ غير الله، وليس معبوده ذلك بإله»[3]!.

وقال الإمام أبو الحسنِ الأشعري في كتابه «اختلاف المصلين ومقالات الإسلاميين»:

«ذكرُ مقالة أهل السُّنَّة وأصحاب الحديث: جملةُ قولهم: الإقرارُ بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله، وما رواه الثقاتُ عن رسول الله ﷺ، لا يردُّون من ذلك شيئاً. وأن الله على عرشه كما قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/٢٨٤، مختصر العلو: ٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٦٧.
(٣) مختصر العلو: ٥٥ ـ ٥٦.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العرشِ اسْتَوى﴾. وأنَّ له يدين بلا كيف كما قال: ﴿لِمَا خلقتُ بيديَّ﴾. وأن أسماءَ الله لا يُقال إنها غيرُ الله كما قالتِ المعتزلةُ والخوارجُ. وأقرّوا أنَّ لله عِلْماً كما قال: ﴿أنزلهُ بِعِلْمهِ﴾، ﴿وَمَا تحملُ من أُنْثى ولا تَضَـعُ إلَّا بِعِلْمِهِ﴾. وأثبتوا السمعَ والبصرَ، ولم ينْفُوا ذلك عن الله كما نفتْهُ المعتزلة. وقالوا: لا يكونُ في الأرضِ من خيرٍ وشرّ إلا ما شاء الله، وأنَّ الأشياءَ تكون بمشيئته كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إلَّا يَشاءَ الله﴾. إلى أن قال: ويقولون: إن القرآن كلامُ الله غير مخلوق. ويصدِّقونَ بالأحاديث التي جاءتْ عن رسول الله ﷺ: (إنَّ الله ينزلُ إلى السماءِ الدُّنيا فيقول: هل من مستغفر) كما جاء في الحديث. ويقرُّون أن الله يجيءُ يومَ القيامةِ كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾. وأنَّ الله يَقْرُبُ من خلقِهِ كما شاءَ، قَالَ: ﴿وَنَحْنُ أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريدِ﴾. إلى أن قال: فهذا جملةُ ما يأمرونَ به، ويستعملونه ويرونه، وبكلِّ ما ذكرنا من قولِهم نقولُ، وإليه نذهبُ، وما توفيقُنا إلا بالله»[1].

وقال أبو الحسن ــ أيضاً ــ في كتابه «الإبانة في أصول الديانة»: «وجملةُ قولِنا: أن نقرَّ بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جَاءَ من عند الله، ورواه الثقاتُ عن رسول الله ﷺ، لا نردُّ من ذلك شيئاً، وأن الله إلهٌ واحدٌ فردٌ صمدٌ لا إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة والنار حقٌّ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ الله يبعثُ مَنْ في القبور، وأن الله تعالى مستوٍ على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العرشِ اسْتَوَى﴾، وأنَّ له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وأنّ له يدين كما قال: ﴿بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وأنَّ له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِي بأعْيُنِنَا﴾، وأن مَنْ زعمَ أن اسم الله غيرُه كان ضالاً، ونَدينُ أن الله يُرى بالأبصارِ يومَ

(١) مختصر العلو: ٢٣٦ ــ ٢٣٧.

القيامةِ كما يُرى القمرُ ليلةَ البدر، يراه المؤمنون. إلى أن قال:

وندينُ بأنه يقلِّبُ القلوبَ، وأنَّ القلوب بين أصبعين من أصابعه، وأنّه يضعُ السمواتِ والأرضَ على أصبع، كما جاء في الحديث. إلى أن قال: وأنه يقرُبُ من خلقِهِ كيف شاء، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أقرَبُ إليهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾...»[1].

وهذا الذي ذكرنا هو مذهب أئمة السلف ومن تبعهم بإحسان، وقد أكثر الذهبي النقول عنهم في كتابه القيّم «العلو».

ومن خلال هذه المقدمة الوجيزة نريد أن نلقي الضوء على عقيدة الإمام الذهبي، من خلال ما أثبته في كتابه «العلو»، وما بثه في تصانيفه الأخرى في مواضع كثيرة منها، وبخاصة «سير أعلام النبلاء». ونبين اعتقاده في الصفات، والقدر، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن القرآن كلام الله، وغير ذلك من عقود الديانة.

●● بحث الذهبي أصول العقائد على مذهب السلف، وانتصر له، وأيده، ومال إليه، وتمسك به، ودعا لالتزامه، وهذا معنى قوله:

«يكفي المسلمَ في الإيمان أن يؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقَدر خيره وشرِّه، والبعثِ بعد الموت، وأنَّ الله ليس كمثله شيء أصلاً، وأنَّ ما ورد من صفاته المقدَّسة حقٌّ، يُمرُّ كما جاء، وأن القرآن كلامُ الله وتنزيله، وأنه غيرُ مخلوق، إلى أمثال ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ولا عبرة بمن شذَّ منهم، فإن اختلفتِ الأمةُ في شيء، من

---

(١) مختصر العلو: ٢٤١ ــ ٢٤٢. وقد أكثر الذهبي النقل عن الإمام أبي الحسن الأشعري، وهذا خلاف ما يدعيه المتنطعون من أن أبا الحسن مجانب في هذا الباب لمذهب السلف!.

مُشْكِلِ أصولِ دينهم، لزمنا فيه الصمت، وفوَّضْنَاه إلى الله، وقلنا: الله ورسولُه أعلم، وَوَسِعَنَا فيه السكوتُ»[1]».

●● **ومذهبه في «آيات الصفات وأحاديثها» على طريقة السلف، تُمرّ كما جاءت من غير تأويل ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تكييف، إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، وتبرّأ من كل مجسِّم ومعطِّل، وقال بأنَّ: «كمال التنزيه تعظيم الربِّ عز وجل، ونعته بما وصف به نفسه تعالى»**[2].

يقول مبيناً اعتقاده بصفات الله سبحانه وتعالى: «نؤمن بها، ونعقل وجودها، ونعلمها في الجملة، من غير أن نتعقلها أو نشبِّهها أو نكيِّفها أو نمثّلها بصفات خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[3].

ويزيد الأمر توضيحاً فيقول: «إنَّ مَنْ تأوَّل سائرَ الصفاتِ، وحملَ ما وردَ منها على مجازِ الكلام؛ أدّاه ذلك السلب إلى تعطيل الربِّ، وأن يشابه المعدوم، كما نُقل عن حماد بن زيد أنه قال: مَثَلُ الجَهْمِيِّة كقوم قالوا: في دارنا نخلة، قيل: لها سَعَفٌ؟ قالوا: لا، قيل: فلها كَرَبٌ[4]؟ قالوا: لا، قيل: لها رطب وقِنْو[5]؟ قالوا: لا، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة. قلت[6]: كذلك هؤلاء النُّفاة قالوا: إلٰهنا الله تعالى، وهو لا في زمانٍ ولا في مكانٍ، ولا يُرى،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٩/٣٤٦.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١/٤٦٥، تذكرة الحفاظ: ٣/١١٧٨.
(٣) مختصر العلو: ٨٠.
(٤) الكَرَب: الأصل العريض للسَّعَف إذا يَبِسَ. والسَّعَف: جريد النخل وورقه.
(٥) القِنْوُ: العِذْق بما فيه من الرُّطَب.
(٦) القائل هو الذهبي.

ولا يَسمع، ولا يُبصر، ولا يتكلم، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يُريد، ولا، ولا . . . وقالوا: سبحان المنزّه عن الصفات! بل نقولُ: سبحانَ الله العلي العظيم، السميعِ البصير، المريد، الذي كلَّم موسَى تكليماً، واتَّخذَ إبراهيم خليلاً، ويُرى في الآخرة، المتَّصف بما وصفَ به نفسَه، ووصفَه به رسلُه، المنزَّه عن سماتِ المخلوقين، وعن جحد الجاحدين، ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السميع البصير[1]».

وأكَّدَ ذلك في غير موضع، فمن ذلك قوله: «قد فسَّرَ علماءُ السلف المُهِمَّ من الألفاظ وغيرَ المهم، وما أبْقَوْا ممكناً، وآياتُ الصفات وأحاديثُها لم يتعرَّضوا لتأويلها أصلاً، وهي أهمُّ الدين، فلو كان تأويلُها سائغاً أو حَتْماً، لبادروا إليه، فعُلِمَ قطعاً أن قراءتها وإمرارها على ما جاءت هو الحقُّ، لا تفسير لها غيرُ ذلك، فنؤمن بذلك ونسكتُ اقتداءً بالسلف، معتقدين أنها صفاتُ لله تعالى، استأثر الله بعِلْم حقائقها، وأنها لا تشبه صفاتِ المخلوقين، كما أن ذاته المقدَّسة لا تماثل ذوات المخلوقين، فالكتاب والسنة نطق بها، والرسول ﷺ بَلغ، وما تعرض لتأويل، مع كون الباري قال: ﴿لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِم﴾ [النحل ٤٤]، فَعَلينا الإيمانُ والتسليمُ للنصوص، والله يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم»[2].

وفي موضع آخر نقل كلام نُعيم بن حَمّاد: «مَنْ شَبَّهَ الله بخلْقِه، فقد كَفَرَ، ومَنْ أنكر ما وصف به نفسَه، فقد كفر، وليس في ما وصف الله به نفسَه ولا رسولُه تشبيهٌ». ثم عقَّب قائلاً: «قلت: هذا الكلام حقٌّ، نعوذ بالله من التَّشبيه ومن إنكار أحاديث الصِّفات، فما يُنْكِر الثابتَ منها

---

(١) مختصر العلو: ٢٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥٠٦.

من فَقُهَ، وإنما بَعْدَ الإيمان بها هنا مقامان مذمومان:

تأويلها وصرفُها عن موضوع الخِطاب، فما أوَّلَها السلفُ ولا حَرَّفُوا ألفاظَها عن مواضِعها، بل آمنوا بها، وأمرُّوها كما جاءت.

المقام الثاني: المُبالغة في إثباتها، وتصوُّرها من جنس صفات البشر، وتشكلها في الذهن، فهذا جَهْلٌ وضلالٌ، وإنما الصِّفة تابعةٌ للموصوف، فإذا كان الموصوفُ عز وجلَّ لم نَرَهُ، ولا أخبرنا أحدٌ أنه عايَنَه مع قوله لنا في تنزيله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى ١١]، فكيفَ بقي لأذهاننا مجالٌ في إثبات كيفية البارِىء، تعالى الله عن ذلك؟! فكذلك صفاتُه المقدَّسة، نُقِرُّبها ونعتقدُ أنها حقٌّ، ولا نُمثِّلها أصلاً ولا نَتَشَكَّلها»[1].

وقبَّح رأيَ مَنْ خالفَ السلف ومذهبهم، وَرَدَّ عليهم بشدة، فقال في كتابه «صفات رب العالمين»: «وإذا كان المخالف لا يهتدي بمن ذكرنا أنه يقولُ: الإجماع على إثباتها من غير تأويلها، أو لا يصدِّقه في نَقْلِهِ، فلا هَداهُ الله. ولا خيرَ ـ والله ـ فيمن رَدَّ على مثل الزُّهري، ومكحول، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، ومالك، وابن عُيينة، وابن المبارك، ومحمد بن الحسن، والشافعي، والحميدي، وأبي عُبيد، وأحمد بن حنبل، وأبي عيسى الترمذي، وابن سُرَيج، وابن جرير الطبري، وابن خُزيمة، وزكريا الساجي، وأبي الحسن الأشعري، أو يقول مثل قولهم من الإجماع مثل الخطَّابي، وأبي بكر الإسماعيلي، وأبي القاسم الطبراني، وأبي أحمد العَسَّال... والشيخ عبد القادر الجيلي ـ الإمام في كل عصر ـ الذين هم قلب اللّب ونقاوه»[2].

---

(١) المرجع السابق: ١٠/٦١٠ ـ ٦١١. وانظر أمثلة أخرى في: ٧/٤٥٥، ٨/١٠٥، ١٦٢، ٤٠٢، ١١/٣٧٦، ١٧/٥٥٨ ـ ٥٥٩.

(٢) نقلاً عن «مقدمة مختصر العلو» للألباني: ص ٥١.

●● وهذا الرأي للذهبي يعمُّ كل الصفات، وبخاصة تلك التي ثار حولها الجدل مثل حديث النزول والمجيء والإتيان، وأنه سبحانه في السماء فوق العرش بائن من خلقه غير حالّ بالأمكنة.

ومن أقواله في ذلك:

ـ «ومما يدل على أن الباري تبارك وتعالى عالٍ على الأشياء فوق عرشه المجيد، غير حالٍّ في الأمكنة، قولُه تعالى: ﴿وَسعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ العَلِيُّ الكَبير﴾، وقوله: ﴿عَـالِمُ الغَيْبِ والشَهادَةِ الكَبِيرُ المُتَعالِ﴾، وقوله: ﴿سَبِّح اسْمَ ربِّكَ الأَعْلى﴾.

وقد أمرنا نبيُّنا ﷺ أن نقولَ إذا سجدنا: «سبحانَ ربِّي الأَعْلى»، وقال تعالى في وصفِ الشهداء: ﴿أَحْياءٌ عندَ ربِّهم يُرْزَقون﴾، وقالت امرأة فرعون: ﴿ربِّ ابنِ لي عِنْدكَ بيتاً في الجنَّة﴾»[1].

«وقولُ عموم أمة محمد ﷺ: إنَّ الله في السماء، يُطْلِقون ذلك وفق ما جاءت النصوص بإطلاقه، ولا يخوضون في تأويلات المتكلمين، مع جَزْمِ الكلّ بأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، [الشورى ١١]»[2].

ونقـل كلمة عثمـان بن سعيد الـدَّارِميّ: «اتفقتِ الكلمةُ من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه، فوق سماواته»، ثم قال: «قلتُ: أوضح شيء في هذا الباب قولُه عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ على العرشِ

---

(١) مختصر العلو: ١٢١ ـ ١٢٢. وكونه تعالى فوق العرش لا يعني أنه حال في مكان، فالمكان أمر وجودي، وليس فوق العرش وجود حادث، وبالتالي فليس ثمة مكان إطلاقاً، فالله تبارك وتعالى فوق عرشه، وليس في مكان أصلاً. باختصار عن تعليق الألباني، ص: ١٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١١/ ٧٠ ـ ٧١.

اسْتَوى﴾، [طه: ٥]، فَلْيُمَر كما جاء، كما هو معلوم من مذهب السلف، ويُنهى الشخصُ عن المراقبة والجدال، وتأويلاتِ المُعتزلة، ﴿رَبَّنا آمَنَّا بِما أنزلتَ واتَّبَعْنا الرَّسولَ﴾ [آل عمران: ٥٣]»[١].

ـ «ومسألةُ النزول: فالإيمانُ به واجبٌ، وتركُ الخوضِ في لوازمه أولى، وهو سبيلُ السَّلَف ..... وكذا قوله ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾، [الفجر: ٢٢] ونحوُه، فنقولُ: جاءَ، وينزلُ، ونَنهى عن القول: ينزلُ بذاته، كما لا نقول: ينزلُ بعلْمِهِ، بل نسكتُ ولا نتفاصحُ على الرسولِ ﷺ بعباراتٍ مبتَدعة. والله أعلم»[٢].

ويقول: «النزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر»[٣].

ـ «قول أهل السنَّة قاطبة أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، وأن استواءَه معلومٌ كما أخبرَ في كتابه، وأنه كما يليق به، لا نتعمَّقُ ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكتُ ونقف كما وقف السلفُ، ونعلَمُ أنه لو كان له تأويلٌ لبادرَ إلى بيانه الصحابةُ، والتابعون، ولما وَسِعَهُم إقرارُه وإمرارُه والسكوت عنه، ونعلمُ يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله لا مِثْلَ له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[٤].

---

(١) المرجع السابق: ٣٢٥/١٣، وانظر: ٣٧٦/١١.
(٢) المرجع السابق: ٣٣١/٢٠.
(٣) مختصر العلو: ٢٣١.
(٤) مختصر العلو: ١٤١ ـ ١٤٢. وقد أكثر الذهبي النقول في هذه المسائل عن أئمة السلف رضي الله عنهم.

●● **وقد دعا الذهبي إلى الإيمان المطلق بما جاءت به النصوص الصحيحة، والتزام طريقة السلف في ذلك، وعدم تجاوزها.**

قال رحمه الله: «والقرآن مشحون بذكر العرش، وكذلك الآثار، بما يمتنع أن يكون مع ذلك أن المراد بذلك المُلْك. فَدَعِ المكابرةَ والمراءَ، فإنّ المراءَ في القرآن كفرٌ، ما أنا قلتُه بل المصطفى ﷺ قاله»[1].

وذكر في ترجمة الحافظ يحيى بن عمار بأنه «كان متحرِّقاً على المبتدعة والجَهْمِيَّة، بحيث يؤول به ذلك إلى تجاوز طريقة السلف، وقد جعل الله لكل شيء قدراً»[2].

وقال في ترجمة شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي: «له نَفَسٌ عجيب لا يُشبِه نَفَسَ أئمة السَّلف في كتابه «منازل السائرين»، ففيه أشياء مُطْرِبة، وفيه أشياءُ مُشْكِلة، ومن تأمله لاحَ له ما أشرتُ إليه. والسنَّةُ المحمدية صَلِفَة، ولا ينهضُ الذوق والوَجْدُ إلا على تأسيس الكتاب والسنة»[3].

ويقول في موضع آخر: «الأكمل في التعظيم والتنزيه الوقف مع ألفاظ الكتاب السنة، وهذا هو مذهب السلف رضي الله عنهم»[4].

●● **وأما عن القرآن الكريم: فمذهب السلف وأئمة الدين أن القرآن المنزّل كلامُ الله تعالى غير مخلوق، نَصَّ على ذلك أَزْيَدُ من ثلاث مئة إمام. وذهبت المعتزلة إلى أنه كلام الله وأنه مخلوق. وقال**

---

(١) مختصر العلو: ١٠٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧/٤٨١.

(٣) المرجع السابق: ١٨/٥٠٩.

(٤) المرجع السابق: ٢١/٤٦٤.

الكرابيسي وتبعته طائفة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن ألفاظنا به مخلوقة، وقد نهى السلفُ عن قول هذين الفريقين، فالسنة عدم الخوض في ذلك، وقد بَدَّعَ الإمامُ أحمدُ هاتين الطائفتين.

ومذهب الذهبي في هذه المسألة هو طريقة السلف، مع إقراره بأن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة وعدم تبديع القائلين بذلك. لكنه ينهى عن الخوض فيها؛ متابعة للسنة وإيثاراً للسلامة.

يقول: «يكفي المسلمَ أن يؤمن بالقرآن العظيم ـ جل منزلُه ـ أنه كلامُ الله غير مخلوق، وأنه عين ما تكلم به منشيه ومبتديه عز وجل، مع اعترافنا بأن تلاوتنا له وأصواتنا وتلفظنا به مخلوق، وتكلم الربِّ به صفة من صفاته التي من لوازم ذاته المقدسة، فلا يُعلم كيفية ذلك، وكلماتُ الله لا تنفدُ ولو كان البحر مِداداً لها، ويمدُّه من بعده سبعةُ أبحرٍ، فكلامُه من علمه، وعلمه لا يتناهى، فلا نحيطُ بشيء من علمه إلا بما شاء»[1].

ويقول: «كان الإمام أحمد يَسُدُّ الكلام في هذا الباب، ولا يجوِّزه، وكذلك كان يبدِّع مَنْ يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق. ويضلِّل من يقول: لفظي بالقرآن قديم. ويكفِّر من يقول: القرآن مخلوق. بل يقول: القرآن كلام الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوق، وينهي عن الخوض في مسألة اللفظ. ولا ريبَ أن تلفُّظَنا بالقرآن من كَسْبِنا، والقرآن الملفوظ المتلوّ كلام الله تعالى غير مخلوق، والتلاوة والتلفظ والكتابة والصوت به من أفعالنا، وهي مخلوقة، والله أعلم»[2].

ويضيف قائلاً: «فجمهورُ الأئمة والسَّلَف والخَلَف على أن القرآن

---

(١) مختصر العلو: ٢٨٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٣٢/١١.

كلامُ الله مُنَزَّلٌ غير مخلوق، وبهذا ندينُ الله تعالى»[1].

●● ومنهج الذهبي في مباحثه العقدية يعتمد على النصوص الثابتة الصحيحة، والتحرّي في إطلاق الألفاظ، وهجران مَا لم تَرِدْ به السُّنَّة:

فمن ذلك أنه ساق قول أبي بكر القيرواني: «وأطلقوا[2] في بعض الأماكن أنه فوق عرشه. وهذا هو الصحيح الذي أقول به من غير تحديد، ولا تمكُّن في مكان، ولا كون فيه ولا مماسَّة»، ثم قال: «قلتُ: سلبُ هذه الأشياء وإثباتُها مداره على النقل، فلو وَرَدَ شيء بذلك نطقنا به، وإلا فالسكوتُ والكفُّ أشبه بشمائل السلف، إذ التعرُّضُ لذلك نوعٌ من الكَيْفِ وهو مجهول، وكذلك نعوذ بالله أن نثبتَ استواءه بمماسَّةٍ أو تمكُّنٍ بلا توقيف ولا أثر، بل نعلمُ من حيثُ الجملة أنه فوق عرشه كما ورد النّص»[3].

ويعلق على مسألة رؤيته ﷺ ربَّه سبحانه في الدنيا، فيقول: «والذي دَلَّ عليه الدليلُ عدمُ الرؤية مع إمكانها، فنَقِفُ عن هذه المسألة، فإنَّ من حُسْن إسلام المرء تَرْكَهُ ما لا يَعْنيه، فإثباتُ ذلك أو نفيه صعبٌ، والوقوف سبيل السلامة، والله أعلم. وإذا ثبتَ شيء قُلنا به، ولا نعنِّف من أثبت الرؤية لنبيِّنا في الدنيا، ولا مَنْ نَفاها، بل نقول: الله ورسوله أعلم، بلى نُعَنِّفُ ونبدِّعُ مَنْ أنكر الرؤيةَ في الآخرة، إذ رؤيةُ الله في الآخرة ثبتَ بنصوصٍ مُتوافرة»[4].

---

(١) المرجع السابق: ١١/٥١٠. وانظر مزيداً من ذلك في: معرفة القراء: ١/١٨٧ ـ ١٨٨، مختصر العلو: ١٧٣ ـ ١٧٤، ١٨٢، ٢٠٩، سير أعلام النبلاء: ١١/٢٣٦، ١٢/٨٢، ١٧٧، ٢٩٠، ٤٧٨، ١٣/١٠٠ ـ ١٠١، ١٤/٣٩ ـ ٤٠ وغير ذلك.

(٢) هم جماعة شيوخ الحديث والفقه.

(٣) مختصر العلو: ٢٧٩.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٠/١١٤.

لذا كان ينكر استعمال أي لفظ في «الصفات» لم تأذن به النصوص، ولم يرتضه السلفُ، تأكيداً على التزامه التام بمذهبهم رضي الله عنهم أجمعين. ومن هذا القبيل أنه ذكر قول الإمام المحدث أبي أحمد القصاب: «... وخَلَقَ العرشَ لا لحاجة إليه، فاستوى عليه استواء استقرار كيف شاء وأراد، لا استقرار راحة كما يستريح الخلق»، ثم عقب عليه قائلاً: «قلتُ: ليته حذف «استواء استقرار» وما بعده، فإن ذلك لا فائدة فيه بوجه، والباري منزه عن الراحة والتعب». ثم قال القصاب: «ولا يُوصف إلا بما وصف به نفسه، أو وَصَفَهُ به نبيُّه، فهي صفةٌ حقيقة لا مجازاً». فقال الذهبي: «قلتُ: وكان أيضاً يَسَعُهُ السكوتُ عن «صفة حقيقة»، فإننا إذا أثبتنا نعوتَ الباري وقلنا: تُمَرّ كما جاءت، فقد آمنا بأنها صفات، فإذا قلنا بعد ذلك: صفة حقيقة وليس بمجاز؛ كان هذا كلاماً ركيكاً نبطياً مغلثاً للنفوس، فلْيُهْدَرْ»[1].

وذكر في ترجمة ابن حبان عن يحيى بن عمار قال: «نحن أخرجناه من سِجِسْتَان: كان له علم ولم يكن له كبير دين، قدمَ علينا فأنكر الحدَّ لله فأخرجناه»! ثم عقب الذهبي قائلاً: «كلاهما مخطِىءٌ، إذ لم يأتِ نصٌّ بإثبات الحد ولا بنفيه، ومن حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[2].

وقال في ترجمة الإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد التيميّ: «وقد سُئِلَ أبو القاسم التيمي رحمه الله: هل يجوزُ أن يُقال: لله حدٌّ أوْ لا؟ وهل جرى هذا الخلافُ في السلف؟ فأجاب...»، وعقب

---

(١) مختصر العلو: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٩٢١/٣، ميزان الاعتدال: ٥٠٧/٣ سير أعلام النبلاء: ٩٧/١٦ ـ ٩٨.

الذهبي فقال: «قلتُ: الصوابُ الكفُّ عن إطلاق ذلك، إذ لم يأتِ فيه نصٌّ، ولو فرضنا أن المعنى صحيحٌ، فليس لنا أن نتفوَّهَ بشيءٍ لم يأذنْ به الله، خوفاً من أن يدخلَ القلب شيءٌ من البدعة، اللهم احفظ علينا إيماننا»[1].

●● وكان الذهبي في جميع آرائه يصدر عما قرره السلفُ في أصول الاعتقاد، وقد بث في كتبه كثيراً من تلك المباحث والآراء، فمنها:

ـ مسألة «خلق الإيمان وعدمه»: هي من مسائل الفضول، والسكوت أولى وأسلم، والذي صح عن السلف أن الإيمان ذو شعب، وهو قول وعمل، ويزيد وينقص[2].

ـ الروح مخلوقة: يقول: «وما يَشُكّ مسلمٌ في خلْق الأرواح، وأما سؤال اليهود لنبينا ﷺ عن الروح فإنما هو عن ماهيتها وكيفيتها لا عن خَلْقِها، فإن الله خالق كل شيء، وخالق أرواحنا ودوابّنا وموتنا وحياتنا»[3].

ـ عصمته ﷺ قبل الوحي وبعده: يقول الذهبي رحمه الله: «والذي لا ريبَ فيه أنه كان معصوماً قبل الوحي وبعده وقبل التشريع من الزنى قطعاً، ومن الخيانة، والغدر، والكذب، والسُّكْرِ، والسجود لوثن، والاستقسام بالأزلام، ومن الرذائل، والسَّفَهِ، وبَذَاءِ اللسان، وكشف

---

(1) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٨٥ ـ ٨٦. وانظر أمثلة أخرى في: ١٧/٥٦٩، ١٩/٥٢٢ ـ ٥٢٣.

(2) تذكرة الحفاظ: ٢/٦٠٠، سير أعلام النبلاء: ١١/٣٦٣ ـ ٣٦٤، ١٢/٦٣٠.

(3) تاريخ الإسلام، وفيات: (٣٥١ ـ ٣٨٠) ص ٣٦٨، سير أعلام النبلاء: ١٩/٥٢٨، ميزان الاعتدال: ١/٨٦ ـ ٨٧.

العورة، فلم يكن يطوفُ عرياناً، ولا كان يقف يومَ عَرفَةَ مع قومه بمزدلفة، بل كان يقف بعرفة. وبكلِّ حال لو بدا منه شيء من ذلك، لما كان عليه تبعة لأنه كان لا يعرف، ولكنَّ رتبة الكمال تأبى وقوع ذلك منه، صلى الله عليه وسلم تسليماً»[1].

ـ لا عصمة إلا لنَبي[2].

ـ الرد على سيد البشر ﷺ: ذكر في ترجمة الحافظ علي بن الجَعْد أنه ذُكر عنده حديث «إنَّ ابني هذا سيِّد»، فقال: ما جعله الله سيِّداً! فردَّ الذهبي عليه قائلاً: «بل جعله سيِّداً على رغم أنفِ كلِّ جاهل. فإنَّ مَنْ أصرَّ على مثل هذا الرد على سيِّد البشر، يكفُرُ بلا مَثْنَوِيَّة»[3].

وكذا يكفُرُ مَنْ قَصَدَ الغضَّ من منصب رسول الله ﷺ، أو تَنَقُّصَه، أو شَيْنَه[4]، بأبي هو وأمِّي!

ـ حياة النبيين في البرزخ حق: لا تأكل الأرض أجسادهم، ولا تتغير رائحتهم، وحياة سيدنا محمد أكمل من حياة سائر النبيين[5].

ـ قصور العقل البشري وعجزه عن تصوّر ومعرفة: كُنْه الروح، وحياة الشهيد بعد قتله، وحياة النبيين الآن، وكيف شاهد النبي ﷺ أخاه موسى يصلي في قبره، ثم رآه في السماء السادسة وحاوره، وكيف ناظر موسى أباه آدم فَحَجَّه آدمُ، ووصف الجنة وما فيها، والملائكة وكيفيتهم،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/١٣١.

(٢) المرجع السابق: ١٣/١٢٠، ١٢٢.

(٣) المرجع السابق: ١٠/٤٦٤. بلا مثنوية: بلا استثناء.

(٤) ميزان الاعتدال: ٢/٦٤٩ ـ ٦٥٠.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٩/١٦١.

وعظم خلقتهم، فكيف يتعدى العقل على البحث في صفات الله تعالى وله المثل الأعلى والكمال المطلق، ولا مثل له أصلاً ﴿آمَنَّا بالله واشْهَدْ بأنَّا مُسْلِمُون﴾[1].

ـ ويقر بكرامات الأولياء، ويثبتها، مع النقد للأشياء التي لا تصح:

قال في ترجمة الحافظ محمد بن أبي الحسين اليونيني: «كان الشيخ الفقيه كبيرَ القدر، يُذكر بالكرامات والأحوال»[2].

وقال في ترجمة العلامة الأوحد أبي إسحاق الإسفراييني: «وحكى أبو القاسم القُشيري عنه أنه كان ينكِرُ كراماتِ الأولياء ولا يُجَوِّزها. وهذه زَلَّةٌ كبيرة» [3].

وترجم الشيخ عبدالقادر الجيلاني ترجمة جليلة ثم قال: «ليس في كبار المشايخ مَنْ له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكنَّ كثيراً منها لا يَصِح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة» [4].

●● وكان من نتيجة هذا الاعتقاد السلفي القويم والتفكير المستقيم:

تمسكه الكامل بالكتاب والسنة، وتجنب علم الكلام، ومقت الابتداع والانحراف عن المنهج الحق، قال رحمه الله ورضي عنه: «وإذا رأيتَ المتكلِّمَ المبتدعَ يقول: دَعْنا من الكتاب والأحاديث الآحاد،

---

(١) مختصر العلو: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٤٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧/٣٥٥.

(٤) المرجع السابق: ٢٠/٤٥٠.

وهاتِ «العَقْلَ»، فاعلمْ أنه أبو جَهْل! وإذا رأيتَ السالك التوحيدي يقول: دَعْنَا من النَّقْل ومن العَقْلِ، وهاتِ الذَّوْقَ والوَجْدَ، فاعلمْ أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أوْ قد حَلَّ فيه، فإن جَبُنْتَ منه، فاهرُبْ، وإلا فاصْرَعْهُ وابْرُكْ على صدرِهِ واقرأ عليه آية الكرسي واخنُقْهُ»[1].

ودعا إلى التزام السنة، وشدد على ذلك، فمما قاله: «فتمسَّكْ بالسُّنَّة، والزمِ الصمتَ، ولا تَخُضْ فيما لا يعنيك، وما أَشْكَلَ عليك فردَّه إلى الله ورسوله، وقفْ وقلْ: الله ورسوله أعلم»[2].

وحَثَّ على تجنب علم الكلام وفلسفة اليونان، ودعا إلى المشي خلف ما جاءت به الرسل الكرام من منهج واضح قويم سديد[3]، فهو يرى أن علم الكلام، وحكمَة الأوائل، ومنطق اليونان، والقول بوحدة الوجود، وما يدعيه منحرفو المتصوّفة من «إشارات العارفين، ورموز السالكين»، وما يجري مجرى ذلك من الأهواء والبدع والضلالات، هي علوم مردية مهلكة، لا تلائم علم النبوة، ولا توافق توحيد المؤمنين.

قال رحمه الله: «فوالله لأنْ يعيش المسلمُ جاهلاً خَلْفَ البقر، لا يعرف من العلم شيئاً سِوى سُوَرٍ من القرآن يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله واليوم الآخر ــ خيرٌ له بكثير من هذا العِرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مئةَ كتاب، أو عمل مئةَ خلوة»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٤٧٢.

(٢) المرجع السابق: ٢٠/١٤٢. وانظر: ١٧/٢٥٢.

(٣) انظر مثلًا: ميزان الاعتدال: ٣/١٤٤، مختصر العلو: ٢٨٧، سير أعلام النبلاء: ٨/٣٥٩، ١٠/٦٠٤، ١٦/٥٥٠.

(٤) ميزان الاعتدال: ٣/٦٦٠.

وقال في موضع آخر: «فَلأَنْ يعيشَ المسلمُ أخرسَ أبْكَمَ خيرٌ من أن يمتلىء باطنُهُ كلاماً وفلسفة»[1].

ويقول: «إنِ من البلاء أن تَعرِفَ ما كنت تُنكِرُ، وتُنكِرَ ما كُنتَ تعرفُ، وتُقَدِّمُ عقولُ الفلاسفة، ويُعزلُ منقولُ أتباع الرُّسُلِ، ويُمارى في القرآن، ويُتَبَرَّمُ بالسُّننِ والآثار، وتقع في الحَيْرَة! فالفرارَ قبل حُلول الدمارِ، وإياكَ ومضلاتِ الأهواء، ومجاراةَ العقول، ومن يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم»[2].

●● وقد رَدَّ على المبتدعة بمختلف فئاتهم ردوداً شديدة، ملاذُه في ذلك آيات الكتاب العزيز وصحاح الأحاديث ومنهج السلف:

فردَّ على المعطِّلة نفاة الصفات[3]، وعلى المجسِّمة[4]، وعلى المعتزلة وقَبَّحَ آراءهم جداً[5]، وعلى الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستاني[6]، وعلى القائلين بأن الله سبحانه «ليس في الأمكنة، ولا خارجاً عنها، ولا فوق عرشه، ولا هو متصل بالخلق، ولا بمنفصل عنهم، ولا ذاته المقدَّسة متحَيِّزة، ولا بائنة عن مخلوقاته، ولا في الجهات، ولا خارجاً عن الجهات، ولا، ولا»، ثم قال: «فهذا شيء لا يُعقل ولا يُفهم، مع ما فيه من مخالفة الآيات والأخبار، فَفِرَّ بدينكَ، وإيَّاكَ وآراء المتكلمين، وآمنْ بالله وما جاء عن الله على مُراد الله،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣٦/٢١.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٣٢٩/١.

(٣) انظر مثلاً: مختصر العلو: ٢١٢ ـ ٢١٣، ٢٥٩.

(٤) انظر مثلاً: تذكرة الحفاظ: ١١٧٣/٤ ـ ١٢٧٤.

(٥) انظر مثلاً: سير أعلام النبلاء: ٥٤١/١٠ ـ ٥٤٢، ٢٤٥/١٧، ٥٨/١٨ ـ ٥٩.

(٦) ميزان الاعتدال: ٢١/٤.

وفوِّضْ أمركَ إلى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1]. وعلى القائلين بوحدة الوجود[2]، حيث يقول: «فما الظنُّ إذا كانت مسائلُ الأصول ولوازمُ الكلام في معارضة النّص؟ فكيف إذا كانتْ من تشكيكاتِ المنطق، وقواعدِ الحكمة، ودين الأوائل؟! فكيف إذا كانت من حقائق «الاتّحادِية»، وزندقة «السَّبعينية»، ومرق «الباطنية»؟! فوا غُربَتَاهُ، ويا قلَّة ناصِرَاه، آمنتُ بالله، ولا قوة إلا بالله»[3]!.

كذلك حذر من كتب المبتدعة والفلاسفة[4]، واشتد عليهم عندما ترجم لهم، كما يلاحظ ذلك المتدبرُ لآرائه وتقاويمه في أمثال: النَّظَّام، ومحمد بن الهُذَيل العلَّاف، وضِرار بن عَمْرو، ومُعَمَّر بن عَمرو، وهشام بن عَمرو، وعيسىٰ بن صَبيح، والوليد بن أبان، والإسكافي، وجماعة أخرى من المعتزلة ورؤوس البدعة، قد ساقهم الذهبي في نسق فقال: «ومنهم جعفر بن حرب، وجعفر بن مبشر، وأبو غفار، وحُسين النجار، والرقاش، وأبو سعيد بن كُلاب، وقاسم بن الخليل الدمشقي صاحب التفسير، وثُمامة بن أشْرَس النميري، وأشباههم ممن كان ذكاؤهم وبالاً عليهم، ثم بينهم من الاختلاف والخُباطِ أمرٌ لا يخفى على

---

(١) مختصر العلو: ٢٨٧.

(٢) هو مذهب باطل يخرج القائل به من الإسلام، لأنه يعدُّ الله والوجودَ شيئاً واحداً، وأن الله موجودٌ في كل موجود، وأن ما نحسُّه ونشهده هو الله في صورة العالم!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٨٣/٧. والاتحادية: هم أهل وحدة الوجود. والسبعينية: فرقة نُسبت إلى ابن سبعين المتوفى سنة (٦٦٩ هـ). وهو من القائلين بوحدة الوجود، لا رعاه الله.

(٤) انظر مثلاً: ميزان الاعتدال: ٧٨/٤، سير أعلام النبلاء: ٣٢٨/١٩ ــ ٣٢٩.

أهلِ التقوى، فلا عقولُهم اجتمعت، ولا اعتنوا بالآثار النبوية، كما اعتنى أئمةُ الهدى، ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْن أَحَقُّ بالأَمْنِ﴾ [الأنعام: ٨١]»[١]. وغير هؤلاء من دعاة البدع وأصحاب الزندقة والأهواء، كالخبيث طاغية الزنج علي بن محمد العبدي[٢]، وأحمد بن يحيى الرِّيْوَنْـدِيِّ الملحد[٣]، والحَلاَّج[٤]، والزنديق المعثر ابن أبي العَزَاقِر[٥]، وعدوّ الله سليمان بن حسن القِرْمِطيّ الجَنَّابي[٦]، وقاضي الدولة العبيدية النعمان بن محمد المغربي: الذي قال فيه الذهبي: «انسلخَ من الإسلام، فَسُحْقاً له وبُعْداً»[٧]. وعبد الرحيم بن إلياس العبيدي[٨]، ابن عم الحاكم بأمر الله، وطاغية الإسماعيلية ابن غَطاس[٩]، والسُّهْرَوَرْدِيّ الفيلسوف[١٠]، وابن الفارض[١١] صاحب مذهب «وحدة الوجود».

●● وقد انتقد الذهبي ما كُتب في «أصول الاعتقاد» إذا وجد فيها أدنى حيدة عن المنهج الحق، فمن ذلك:

قوله في ترجمة الحافظ الأَثريّ أبي عُمر الطَّلَمَنْكِيّ: «رأيتُ له كتاباً في «السُّنَّة» في مجلَّدين عامَّته جيد، وفي بعض تبويبه ما لا يُوَافَقُ عليه أبداً، مثل: باب الجَنْبِ لله، وذكَر فيه: ﴿يَا حَسْرَتى عَلَى مَا فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله﴾ [الزمر: ٥٦]، فهذه زَلةُ عالم...»[١٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥٥٦.
(٢) نفس المرجع: ١٣/١٢٩.
(٣) نفسه: ١٤/٥٩.
(٤) نفسه: ١٤/٣١٣.
(٥) نفسه: ١٤/٥٦٦.
(٦) نفسه: ١٥/٣٢٠.
(٧) نفسه: ١٦/١٥٠.
(٨) نفسه: ١٧/٣٠٠.
(٩) نفسه: ١٩/٢٦٧.
(١٠) نفسه: ٢١/٢٠٧.
(١١) نفسه: ٢٢/٣٦٨.
(١٢) نفسه: ١٧/٥٦٩.

وقال في ترجمة مقرىء الآفاق أبي علي الأَهْوَازِي: «وألَّف كتاباً طويلاً في «الصفات» فيه كَذِب»[1].

وقال في ترجمة شيخ الحنابلة أبي الحسن بن الزَّاغوني: «ورأيتُ لأبي الحسن بخطه مقالةً في الحرف والصوت، عليه فيها مآخذ، والله يغفر له، فيا ليتَه سَكَتَ»[2].

وذكر في ترجمة الإمام المحدث ابن عبد السميع أن «له أجوزة في الاعتقاد يتطرق إليها الانتقاد»[3].

اعتـدالــه:

والذهبي كما عهدناه إمام ناقد مع الإنصاف والاعتدال، لا يحمله حب الحق إلى تعديه وتجاوزه، بل هو منضبط بضوابطه، متكلم بلسانه، لا يكفِّر بالتشهي، ويبتعد عن هذه العبارات ما وجد مندوحة في ذلك.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة:

ـ منها ما ذكره في ترجمة الإمام ابن خزيمة، بأنه قد تأوَّلَ أحد أحاديث الصِّفات، ثم قال: «فَلْيُعْذَرْ مَنْ تأوَّل بعضَ الصفات، وأما السَّلَف فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفُّوا، وفوَّضوا علمَ ذلك إلى الله ورسوله. ولو أن كلَّ مَنْ أخطأ في اجتهاده ـ مع صحَّة إيمانه، وتوخِّيه لاتباع الحق ـ أهدرناه وبَدَّعْنَاه؛ لَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ الأئمة معنا. رحم الله الجميعَ بمنّه وكرمه»[4].

---

(١) نفسه: ١٥/١٨، ميزان الاعتدال: ٥١٢/١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٦٠٧/١٩.

(٣) المرجع السابق: ١٨٦/٢٢.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣٧٦/١٤، وانظر كذلك ص: ٣٩٦.

ـ واستمع لهذا الكلام العظيم الموزون يرد به على إمام الأئمة ابن خزيمة، فيقول: «قال الحاكم: سمعتُ محمد بن صالح بن هانىء، سمعتُ ابن خزيمة يقول: مَنْ لم يُقرَّ بأنَّ الله على عرشه، قد استوى فوق سبع سمواته؛ فهو كافرٌ حلال الدَّم، وكان ماله فَيْئاً. قلت[1]: مَنْ أقرَّ بذلك تصديقاً لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله ﷺ، وآمن به مفوِّضاً معناه إلى الله ورسوله، ولم يخُض في التأويل ولا عمَّقَ، فهو المسلم المتبع. ومَنْ أنكر ذلك، فلم يدر بثبوتِ ذلك في الكتاب والسنَّة، فهو مقصر، والله يعفو عنه، إذ لم يوجب الله على كل مسلم حفظ ما ورد في ذلك. ومَنْ أنكرَ ذلك بعد العلم، وقَفَا غيرَ سبيل السلف الصالح، وتمعقل على النَّص؛ فأمْرُهُ إلى الله، نعوذُ بالله من الضَّلال والهوى. وكلامُ ابن خزيمة هذا ـ وإن كان حقاً ـ فهو فجٌّ، لا تحتملُهُ نفوسُ كثير من متأخري العلماء»[2].

ـ وقال في ترجمة الإمام أبي الحسن الأشعري: «رأيت للأشعري كلمة أعجبتني وهي ثابتة رواها البيهقي، سمعتُ أبا حازم العَبْدَويَّ، سمعتُ زاهر بن أحمد السرخسي يقول: لمّا قَرُبَ حضُور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيتُه، فقال: اشهدْ عليَّ أني لا أكفِّر أحداً من أهل القبلة، لأنَّ الكلَّ يشيرون إلى معبودٍ واحدٍ، وإنما هذا كلُّه اختلاف العبارات.

قلت[1]: وبنحوِ هذا أدين، وكذا كان شيخُنا ابنُ تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفِّر أحداً من الأمة، ويقول: قال النبي ﷺ: «لا يُحافظُ على الوضوء إلا مؤمن»، فمن لازَمَ الصلواتِ بوضوءٍ فهو مسلم»[3].

---

(١) القائل هو الذهبي.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٤/٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٣) المرجع السابق: ١٥/٨٨.

ـ وهو يدعو ويستغفر لكل من طلب الحق بإخلاص، ويرجو له الرحمة، فمن ذلك قوله: «فكلُّ من قَصدَ الحقَّ مِنْ هذه الأمة فالله يغفر له. أعاذنا الله من الهوى والنفس»[1].

وذكر في ترجمة الإمام المجتهد موفق الدين ابن قُدامة قول أبي شامة فيه: «كان إماماً عَلَماً في العلم والعَمَل، صنَّف كتباً كثيرة، لكن كلامه في العقائد على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه، فسبحان من لم يوضِّحْ له الأمر فيها على جلالته في العلم، ومعرفته بمعاني الأخبار». ثم عَقَّبَ بقوله: «قلتُ: وهو وأمثالُه متعجِّبٌ منكم مع علمكم وذكائكم كيف قُلتم! وكذا كل فرقةٍ تتعجب من الأخرى، ولا عجب في ذلك، ونرجو لكل من بَذَلَ جهدَه في تَطَلُّب الحق أن يُغْفَرَ له من هذه الأمة المرحومة»[2].

●● آثاره في هذا المجال وكتاباته فيه:

ـ خلّف الذهبي في مجال العقائد آثاراً مهمة جليلة، فاختصر كتباً منها: «البعث والنشور» و«القدر» كلاهما للبيهقي، و«الفاروق في الصفات» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي، و«منهاج الاعتدال» لابن تيمية، و «الرد على الجهمية» لابن أبي حاتم. كذلك ألف كتباً ورسائل، منها: كتاب «الأربعين في صفات رب العالمين»، و«رؤية الباري»، و«جزء في الشفاعة»، وكتاب «العلو» وهو أجلها وأوسعها شهرة.

ـ وقد اهتم في تراجمه بتبيان عقيدة المترجم، وأولى ذلك عناية

---

(١) المرجع السابق: ٢٢/٣٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٢/١٧١ ـ ١٧٢.

كبيرة، وأبرز ما يكون ذلك واضحاً في كتابيه: «سير أعلام النبلاء» و«تاريخ الإسلام»، لأهمية العقيدة في النقد الحديثي من جهة، ودورها في حياة المترجم وتوجهاته، وبخاصة أولئك الذين لهم دور في قيادة الأمة وصناعة الأحداث، من جهة أخرى، وأيضاً لتأثر الذهبي بتكوينه الفكري والعقدي، من جهة ثالثة.

ـ كما نجد أن الذهبي قد دفعته عقيدتُه السنِّيَّة للتفصيل في الأحداث الخطيرة التي مرت بها الجماعة المؤمنة والدولة الإسلامية: كحروب الردة، والحروب الصليبية، والحركات الهدامة كالبابكية، وثورة الزنج، والقرامطة، والعبيدين الباطنيين وما أظهروه من الرفض والزندقة والحروب الدامية الحاقدة لأهل السنة في الحجاز والشام والعراق ومصر والمغرب. وعني أيضاً بالتفصيل في «محنة خلق القرآن» ومن ثبت فيها، ومن كان مِسْعَرَ فتنتها الجائحة.

ـ وساق في كتابه «العلو» الآيات والأحاديث الدّالة على «علوّ الله تعالى على خلقه»، ثم ذكر ما اتصل به من أقوال أئمة السلف من التابعين فمن بعدهم في «الصفات»، وأن «القرآن كلام الله غير مخلوق»، ومن أولئك الأئمة: أبو حنيفة، والأوْزَاعي، والسُّفيانان، والحَمَّادان، والإمام مالك، وجعفر الصادق، وابن المبارك، وأبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة، ويحيى القطان، ويزيد بن هارون، ووكيع، وابن مَهْدي، والشافعي، والحُميدي، ونُعيم بن حمَّاد، والقاسم بن سَلَّام، وابن مَعِين، وابن المديني، والإمام أحمد، وابن رَاهَوَيْهِ، والمُزني والبخاري، ومسلم، وبقي بن مَخْلَد، والطحاوي، وأبو الحسن الأشعري، والدارقُطْني، وابن الباقلاني، وابن عبد البر، والخطيب البغدادي، وإمام الحرمين، والبَغَوي، وابن العربي، وعبد القادر

الجيلاني، والقرطبي المفسر، وغيرهم كثير جداً.

●● من خلال هذه القائمة بأسماء الأئمة الأعلام، وبالتمعن فيما ذكرناه في هذا الفصل؛ يتبين لنا أن قول القائل: «الذهبي شافعي الفروع، وحنبلي الأصول»، ومثله قولهم: «فلان حنبلي الأصول، أو حنبلي الاعتقاد» ـ هو كلام مرفوض، لا يثبت أمام النقد العلمي والواقع التاريخي؛ لأنه غير علمي ولا صحيح:

فالإمام أحمد هو واحد من أولئك الأئمة الأكابر، قوله في «العقائد» مثل قولهم، ومنهجه مثل منهجهم، فلا داعي أن يُفرد عنهم بالذكر، ويُمَيَّز بأن الناس على مذهبه في العقائد؛ لأن ذلك يوحي بنوع من الاختلاف عما يقوله أولئك الأعلام.

كذلك فإن أحمد رضي الله عنه لم يصنِّف كتاباً في الأصول، حتى يدعي بعضهم بأن فئة من المسلمين تتبعه فيه، بل مذهبه وأقواله كما كان عليه السلف سواء.

ثم إنه لا تقليد في الأصول، فلا يصحّ أن نقول بأن فلاناً على اعتقاد الإمام أحمد أو غيره.

وإذا كان الناس بعد الإمام أحمد حنابلة الاعتقاد، فماذا نقول في عقيدة الناس الذين سبقوه، وفيهم من الأئمة الأعلام الكبار مثل أبي حنيفة، والأوزاعي، ومقاتل بن حيان، والثوري، ومالك، والليث بن سعد، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن أبي ليلى، وابن المبارك، والفضيل بن عياض، ويحيى القطان، وابن عيينة، وابن مهدي، والشافعي، وغيرهم، وغيرهم؟!.

ولعل السبب ـ فيما أرى ـ من إطلاق المتأخرين هذه اللفظة، هو ما اشتهر عن الإمام أحمد من صبره في «محنة خلق القرآن»، ووقوفه

كالطود الأشم أمام المعتزلة ومن خاض معهم، فكان أحمد ناصراً لمذهب السلف في ذلك، فغلب عليه هذا حتى قيل: «فلان حنبلي الاعتقاد».

ـ وثمة بعض النصوص تؤيد ما ذهبنا إليه من أن عبارة «حنبلي الأصول، أو حنبلي الاعتقاد» لم تكن من ذي قبل، والصواب تركها:

ذكر الذهبي في ترجمة المحدث الجوَّال ابن المقرىء أنه كان يقول: «مذهبي في الأصول مذهب أحمد بن حنبل وأبي زرعة الرازي»[1]. فهل لأبي زرعة اعتقاد آخر غير اعتقاد السلف حتى يميز عنهم؟ حاشى وكلا.

وقال في ترجمة ابن الصلاح: «وكان سَلَفياً حسنَ الاعتقاد، كافاً عن تأويل المتكلِّمين، مؤمناً بما ثبت من النصوص، غير خائض ولا معمِّق»[2].

ووصف الإمامُ الحافظ أبا داود السِّجْستانيَّ بأنه «كان على مذهب السَّلَفِ في اتِّباعِ السنَّة والتسليم لها، وتَرْكِ الخوضِ في مضائِقِ الكلام»[3]. قال الذهبي هذا مع أن أبا داود من نجباء أصحاب الإمام أحمد، وقد سأله عن دقاقِ المسائل في الفُروع والأصول، ومع ذلك فلم يقل الذهبي أن أبا داود كان على مذهب أحمد في الأصول!.

وقال في ترجمة الحافظ الدَّارَقُطْنيِّ: «لم يدخل الرجلُ أبداً في علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سَلَفِياً»[4].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٩٧٥/٣.

(٢) المرجع السابق: ١٤٣١/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١٥/١٣ ـ ٢١٦.

(٤) المرجع السابق: ٤٥٧/١٦.

وقال عن شيخه الحافظ المِزيّ: «وكانَ يقرر طريقه السلف في السنة»[1].

ووصف شيخ الإسلام الأنصاري بأنه «رجلٌ أَثَرِيٌّ، لَهِجٌ بإثباتِ نصوص الصِّفات، منافِرٌ للكلام وأهله جداً»[2].

وقال في ترجمة الحافظ ابن عبد البر: «وكان في أصول الديانة على مذهب السَّلَف»[3].

●● فالذهبي سلفي الاعتقاد، ومثله كل من ينهج منهج السلف الصالح في أصول العقائد.

وأما قول السبكي في حق شيخه الذهبي بأنه كان «شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الازدراء بأهل السنة، الذين إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة، فلذلك لا ينصفهم في التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم منه أنف الراغم» ـ فهو مجرد دعوى لا تدخل الأذن، ولا نرفع بها رأساً، فالذهبي سلفي الاعتقاد، شديد الميل إلى رأي السلف في «الصفات»، وما ذكرناه فيه مقنع لمن أراد الإنصاف.

ولم يكن الذهبي ـ بحمد الله ـ مزدرياً للأشاعرة ولا لشيخهم الإمام الأجل أبي الحسن، فقد أكثر الذهبي في كتابه «العلو» النقل عنه. وتأمَّلْ قول الذهبي بعد أن ذكر قول أبي ذر الهروي: «قد بيَّنَّا دينَ الأمةَ وأهلِ السنَّة أن هذه الصفات تُمَرُّ كما جاءتْ بغير تكييف ولا تحديد ولا تجنيس ولا تصوير». فعقب الذهبيُّ قائلاً: «قلتُ فهذا المنهج هو طريقة

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٨/٥١٠.

(٣) المرجع السابق: ١٨/١٦١.

السَّلَف، وهو الذي أوضحه أبو الحسن وأصحابه، وهو التسليمُ لنصوصِ الكتاب والسنة...»[1]. وقال في موضع آخر: «فلو انتهى أصحابُنا المتكلِّمون إلى مقالةِ أبي الحسن هذه ولزموها لأحسنوا، ولكنهم خاضوا كخوض حكماءِ الأوائل في الأشياء، ومَشَوا خلْفَ المنطق، فلا قوّة إلا بالله»[2]. فرحم الله الذهبيَّ أي إمام كان!!.

* * *

---

(١) المرجع السابق: ١٧/٥٥٩.

(٢) مختصر العلو: ٢٤٣.

الفَصْل العَاشِر

أَخْلاقُهُ

قد عرفنا الذهبي إماماً عالماً ملتزماً بالحق والإنصاف في علومه ومباحثه، متمسكاً بمنهج السلف في عقيدته، فما خبره في الجانب التعبدي والأخلاقي؟

لم تسعفنا مصادر ترجمته ـ مع أسف ـ بأخبار تليق بجلالته في هذا الميدان، الذي يعتبر الجانب العملي التطبيقي في حياة الناس بعامة، والعلماء بخاصة. والعلم إذا لم يصحبه عمل والتزام كان وبالاً على صاحبه، فكثيراً ما نَعَتْ نصوصُ الكتاب والسنة على مَنْ لا يعمل بعلمه: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا لِمَ تقولون مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وبتتبعنا لما سطره الذهبي من تصانيف استطعنا أن نتلمس بعض الجوانب المهمة التي تعطي فكرة مجملة عن أخلاقه، وتعبده، واتباعه، وإخلاصه، والتزامه.

وَلبّ الأمر وملاكه ـ عند إمامنا ـ يدور على الالتزام بالسنة والاتباع، والتعبد بالسنن، الصحيحة، والبعد عن الهوى، ومجانبة الابتداع.

●● ففي الالتزام بالحنيفية السمحة، والدعوة لذلك، يقول: «نسأل الله علماً نافعاً، تدري ما العلمُ النافع؟ هو ما نزلَ به القرآنُ، وفسَّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً ولم يأتِ نهيٌ عنه، قال عليه السلام: (مَنْ

رَغِبَ عن سُنَّتي، فليسَ مِني). فعليك يا أخي بتدبُّر كتاب الله، وبإدمان النظر في «الصحيحين»، وسنن النَّسَائي، و«رياض» النواوي و«أذكارِه»؛ تُفْلِحْ، وتُنْجِحْ: وإياكَ وآراء عُبَّاد الفلاسفة، ووظائفَ أهل الرياضات، وجوعَ الرهبان، وخطابَ طَيْشِ رؤوس أصحاب الخلوات، فَكُلُّ الخير في متابعة الحنيفية السَّمْحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدِنا إلى صراطك المستقيم»[1].

ويقول: «وكلُّ مَن لم يَزُمَّ نفسَه في تعبُّده وأوراده بالسنَّة النبوية، يندمُ ويترَّهبُ ويسوء مزاجُه، ويفوتُه خيرٌ كثير من متابعة سنة نبيِّه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ معلماً للأمة أفضلَ الأعمال، وآمراً بهجر التبتُّلِ والرهبانيَّة التي لم يُبعث بها، فَنَهى عن سَرْد الصوم، ونهى عن الوِصَال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العَشر الأخير، ونهى عن العُزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم... ألهَمَنا الله وإياكم حُسنَ المتابعة، وجَنَّبَنا الهوى والمخالفة»[2].

وعلّق على من كان يصوم الدهر ويختم القرآن في كل يوم وليلة من كبار الأئمة، من أمثال أبي بكر بن عياش ووكيع بن الجراح، فقال: «هذه عبادة يُخضعُ لها، ولكنّها من مثل إمام من الأئمة الأثَرِيَّةِ مفضولةٌ، فقد صَحَّ نهيُه عليه السلام عن صَومِ الدَّهر، وصحَّ أنه نَهى أن يُقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث، والدِّينُ يُسْرٌ، ومتابعة السنة أولى، فرضيَ الله عن وكيع، وأينَ مثلُ وكيع؟!»[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٤٠.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٨٥ ــ ٨٦.

(٣) المرجع السابق: ٩/ ١٤٢ ــ ١٤٣. وانظر أمثلة أخرى في: ٨/ ٥٠٣، ١٣/ ٥٦١، ٢٠/ ٣٤٨، ٢٢/ ١١٢.

وقد عبَّر عن الطريقة الصحيحة للعبادة، والمنهج القويم فيها، بكلام بديع فقال: «السلوك الكامل هو الورعُ في القُوتِ، والورعُ في المنطق، وحفظُ اللسان، وملازمةُ الذِّكر، وتركُ مخالطةِ العامة، والبكاءُ على الخطيئة، والتلاوةُ بالترتيل والتدبُّر، وَمَقْتُ النفس وذمُّها في ذاتِ الله، والإكثارُ من الصوم المشروع، ودوامُ التهجُّد، والتواضعُ للمسلمين، وصلةُ الرحم، والسَماحَةُ وكثرةُ البِشْرِ، والإنفاقُ مع الخَصَاصَةِ، وقولُ الحق المرِّ برِفْقٍ وتُؤَدَةٍ، والأمرُ بالعُرف، والأخذُ بالعَفْو، والإعراضُ عن الجاهلين، والرباطُ بالثَّغرِ، وجهادُ العدوّ، وحَجُّ البيت، وتناوُلُ الطيبات في الأحايين، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَر. فهذه شمائلُ الأولياء، وصفاتُ المحمدِيّين، أماتنا الله على محبَّتِهم»[1].

●● وتصحيح النية في العلم والعمل، والإخلاص لله أساس القبول، وإلا تحوّل ذلك إلى ديوان الرياء، فخاب وخسر من عمل هذا! وقد أكد الذهبي على أن يكون طلب العلم لله، وأن يُعمل به، وأن يكون العمل مقروناً بحسن القصد، وصدق التّوجه إلى الله.

ومن روائعه ــ رحمه الله ــ في هذا الباب ما ذكره في ترجمة الإمام الحجة هشام الدَّسْتُوائيّ، حيث ذكر قوله: «والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبتُ يوماً قطُّ أطلبُ الحديثَ أُريد به وجهَ الله عز وجل». ثم عقب قائلًا: «قلتُ: والله ولا أنا!! فقد كان السلفُ يطلبون العلم لله فَنَبُلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قومٌ منهم أولاً لا لله، وحصَّلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرَّهم العلمُ إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبيرُ نيَّةٍ، ثم رزق الله النيةَ بعدُ، وبعضهم يقولُ: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢/٩٠ ــ ٩١.

يكون إلا لله. فهذا أيضاً حسن. ثم نشروه بنيَّةٍ صالحة.

وقوم طلبوه بنيَّة فاسدةٍ لأجل الدنيا، ولِيُثْنَى عليهم، فلهم ما نووا. قال عليه السلام: «مَنْ غَزَا ينوي عِقالاً فَلَهُ ما نَوى». وترى هذا الضَّرْبَ لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقعٌ في النفوس، ولا لِعلمهم كبيرُ نتيجة من العمل، وإنما العالمُ مَنْ يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، ووَلُـوا المناصبَ، فظلموا، وتركوا التقيُّدَ بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فَتَبّاً لهم، فما هؤلاء بعلماء!

وبعضهم لم يتقِ الله في علمه، بل ركب الحِيَلَ، وأفتى بالرُّخص، ورَوَى الشاذَّ من الأخبار. وبعضهم اجترأ على الله، ووضعَ الأحاديث، فَهَتكَهُ الله، وذهب علمُه، وصار زاده إلى النار.

وهؤلاء الأقسام كلهم رَوَوا من العلم شيئاً كبيراً، وتضلَّعوا منه في الجملة، فَخَلَفَ من بعدهم خلفٌ بانَ نقصُهم في العلم والعمل، وتلاهُمْ قومٌ انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يُتْقِنُوا منه سوى نَزْرٍ يسيرٍ، أَوْهَموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يَدُرْ في أذهانِهم قط أنهم يتقرّبون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رَعاعاً، غايةُ المدرِّس منهم أن يحصل كتباً مُثمنَة يخزُنُها وينظر فيها يوماً ما، فيصحِّف ما يورده ولا يقرِّره، فنسأل الله النجاة والعفوَ»[1].

●● والذهبي يرى ــ ورأيه حقٌّ وصدق ــ أن العلماء مطلوب منهم أمر زائد على العمل بعلمهم، وهو صدعهم بالحق جهد طاقتهم في كل موقف يتطلّب ذلك، وعدم تزيين الباطل، أو السكوت عليه خوفاً

---

(١) المرجع السابق: ٧/١٥٢ ــ ١٥٣. وانظر أمثلة أخرى في: ٢/٤٧٠، ٤/١٩٠، ٣٠٣، ٤٩٤، ٦/٣٢٨، ٧/٢٥٦، ٩/٢٠٧، ١٣/٣٢٣، ١٥/٤٦٤ ـ ٤٦٥.
الموقظة: ٦٥.

من سطوة الجبابرة، فالعلماء ورثة الأنبياء، فيجب عليهم اتباع الرسل في مواقفهم. وإذا خَنَسَ العالم، وداهَنَ وراءى، وخادَعَ وجامَل، وذلَّ واستكانَ، وحرَّفَ الكَلِمَ عن مواضعه ــ فماذا تقول الدهماء؟ وبمن يقتدون؟ وخَلْفَ مَنْ يسيرون؟ وكلام مَنْ يستمعون!!

ولنستمع لبعض أقواله التي هي شعاع صادق منبثق من نفسه التقية، وصورة حية عما يعتمل في صدره، وما تنطوي عليه روحه المتألهة الخاشعة:

قال في ترجمة الإمام الأوزاعي: «قد كان عبدالله بن علي[1] ملكاً جبَّاراً، سفاكاً للدماء، صعبَ المراس، ومع هذا فالإمامُ الأوزاعيُّ يَصْدَعُه بمُرِّ الحق كما ترى، لا كَخَلْقٍ من عُلماء السَّوء، الذين يحسِّنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعَسْف، ويَقْلِبُون لهم الباطل حقاً ــ قاتلهم الله ــ أو يسكتون مع القُدْرة على بيان الحق»[2].

وعلَّق على حديث: (الدين النصيحة)، بكلمة رائعة فقال: «فتأمَّلْ هذه الكلمةَ الجامعة، وهي قوله: (الدِّينُ النَّصِيحةُ)، فمن لم ينصحْ لله وللأئمة وللعامَّة، كان ناقصَ الدين. وأنتَ لو دُعيتَ: يا ناقصَ الدين، لغضبتَ! فقلْ لي: متى نصحتَ لهؤلاء؟ كلا والله، بل ليتكَ تسكتُ، ولا تنطِق، أوْ لا تحسِّن لإمامك الباطلَ، وتجرِّئه على الظلم وتغشه. فمنْ أجلِ ذلك سقطتَ من عينه، ومن أعينِ المؤمنين. فبالله قلْ لي: متى يُفلحُ مَنْ كان يسرُّه ما يضرُّه؟ ومتى يُفلح من لم يراقبْ مولاه؟ ومتى يُفلح من دنا رحيلُه، وانقرضَ جيلُه، وساء فعلُه وقيلُه؟ فما شاء الله كان،

---

(١) هو عم السَّفاح، وقد أكثر القتل في بني أمية، وكان كما وصفه الذهبي هنا.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٢٥/٧.

وما نرجو صلاحَ أهل الزمان، لكن لا نَدَعُ الدعاءَ، لعلَّ الله أن يلطفَ، وأن يصلحنا. آمين»[1].

●● ويتبدى لنا الإمام في روعة إيمانه، وكمال تدينه، وإشراق روحه، بذلك الحب الغامر لرسول الله ﷺ، والحرص على زيارته، والسلام عليه، وتقبيل كل أثر من آثاره الشريفة.

يظهر ذلك فيما سطره في ترجمة «عَبيدة بن عَمْرو السَّلْماني»، فعن محمد بن سيرين قال: قلت لِعَبِيدة: «إن عندنا من شعر رسول الله ﷺ شيئاً من قِبَلِ أنس بن مالك. فقال: لأنْ يكون عندي منه شعرةٌ أحبُّ إليّ من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض». فعقَّب الذهبي على هذا بقوله: «قلتُ: هذا القولُ من عَبِيدة هو معيارُ كمالِ الحب، وهو أن يُؤثرَ شعرةً نبويَّة على كل ذهب وفضَّة بأيدي الناس. ومثل هذا يقولُه هذا الإمامُ بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقولهُ نحن في وقتنا لو وَجَدْنا بعض شعره بإسناد ثابت، أو شِسْعَ نعلٍ كان له، أو قُلامَةَ ظُفْر، أو شَقَفة من إناءٍ شَرِب فيه. فلو بَذَلَ الغنيُّ معظَمَ أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده، أكنتَ تعدُّهُ مبذِّراً أو سفيهاً؟! كلا، فابذلْ مالَكَ في زَوْرَةِ مسجده الذي بنى فيه بيده، والسلام عليه عند حُجْرته في بلده، والتذَّ بالنظر إلى «أُحُدِهِ» وأحبَّه، فقد كان نبيُّك ﷺ يحبُّه، وَتَمَلَّأ بالحلولِ في رَوْضَتِه ومَقْعَدِه، فلن تكون مؤمناً حتى يكون هذا السيِّدُ أحبَّ إليك من نفسِك وولدِك وأموالك والناس كلِّهم. وقَبِّلْ حجراً مكرماً نزلَ من الجنة، وَضَعْ فَمَك لاثماً مكاناً قَبَّلَهُ سيدُ البشر بيقين، فَهنَّأكَ الله بما أعطاك، فما فوق ذلك مَفْخَرٌ. ولو ظَفِرنا بالمِحْجَنِ الذي أشارَ به الرسولُ ﷺ إلى الحجر ثم قَبَّلَ مِحْجَنَه، لَحُقَّ لنا أن نزدحمَ

---

(١) المرجع السابق: ١١/٥٠٠.

على ذلك المِحْجَن بالتقبيل والتبجيل. ونحنُ ندري بالضرورة أن تقبيلَ الحجرِ أرفعُ وأفضلُ من تقبيل محجنه ونعله. وقد كان ثابتُ البُنانيّ إذا رأى أنس بن مالك أخذ يده فقبَّلها، ويقولُ: يدٌ مسَّتْ يدَ رسول الله ﷺ. فنقولُ نحن إذْ فاتنا ذلك: حجرٌ معظَّم بمنزلة يمين الله في الأرض مسَّتْه شفتا نبيِّنا ﷺ لاثماً له. فإذا فاتَكَ الحجُّ، وتَلَقَّيْتَ الوفدَ فالتزمِ الحاجَّ وقبِّلْ فمه وقلْ: فمٌ مسَّ بالتقبيلِ حجراً قبَّلَه خليلي ﷺ»[1].

وقال في ترجمة الإمام أحمد: «قال عبدالله بن أحمد: رأيتُ أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ، فيضعُها على فيهِ يقبلُها. وأحسِب أني رأيتُه يضعها على عينه، ويغمِسها في الماء ويشربه، يستشفي به. ورأيته أخذ قصعةَ النبي ﷺ، فغسلها في حُبّ الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشربُ من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه.

قلتُ: أينَ المتنطِّع المنكِرُ على أحمد، وقد ثبتَ أن عبدالله سأل أباه عمن يلمَسُ رُمَّانة منبر النبي ﷺ، ويَمَسُّ الحجرة النبوية، فقال: لا أرى بذلك بأساً. أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البِدَع»[2].

ويقول في موضع آخر: «وقد سُئِلَ أحمدُ بن حنبل عن مسّ القبر النبوي وتقبيله، فلم يَرَ بذلك بأساً، رواهُ عنه ولدُه عبدالله بن أحمد». ويضيف الذهبي قائلاً: «فإنْ قيل: فَهلّا فعل ذلك الصحابةُ! قيل: لأنهم عاينوه حياً، وتملّوا به، وقبّلوا يده، وكادوا يقتتلون على وَضُوئِه، واقتسموا شعره المطهَّرَ يوم الحج الأكبر، وكان إذا تنخَّمَ لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه! ونحن فلما لم يصح لنا مثلُ هذا النصيب الأوفر، ترامينا على قبره بالالتزام والتبجيل، والاستلام والتقبيل. ألا ترى كيف فعل ثابت البُناني، كان يقبِّلُ يدَ أنس بن مالك

---

(١) المرجع السابق: ٤/٤٢ ـ ٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١١/٢١٢.

ويضعها على وجهه ويقول: يدٌ مَسَّتْ يدَ رسول الله ﷺ ، إذْ هو مأمورٌ بأن يحبَّ الله ورسوله أشدَّ من حُبِّهِ لنفسه وولده والناس أجمعين، ومن أمواله، ومن الجنة وحورها، بل خَلْقٌ من المؤمنين يحبُّونَ أبا بكر وعمرَ أكثر من حبِّهم أنفسهم»[1].

●● وقد عُرف الذهبي بزهده وورعه، ومتانة تديّنه، وكثرة عبادته وأوراده، وحبِّ الخيرات، والسبق لها، وأُنْسه بالزهاد والمتصوّفة من ذوي الديانة السليمة والتمسك بالآثار، وقد أثنى عليهم في تراجمه لأكابرهم، هذا مع التواضع، والبِشْر، ولين الجانب.

قال تلميذه ابن رافع السَّلاميّ: «وجمعَ ونفع الناسَ، وكان صالحاً خيِّراً، له قيامُ ليلٍ، وعبادةٌ، وتلاوةٌ، وبرٌّ، وصدقةٌ، رحمه الله تعالى بكرمه»[2].

وقال الزركشي: «... مع ما كان عليه مِن الزهد التامّ، والإيثار العامّ، والسَّبْق إلى الخيرات، والرغبة بما هو آت...»[3].

وقال ابن قاضي شُهْبَة: «وصنَّفَ التصانيفَ الكثيرة المشهورة، مع الدين المتين، والورع والزهد»[4].

وكان على جانب كبير من التواضع، ينبئك عن ذلك ما قاله في ترجمة نفسه: «... وجَمَعَ تواليفَ، يُقال مفيدة، والجماعة يتفضَّلون ويُثْنُون عليه، وهو أخبرُ بنفسه وبنَقْصِه في العلم والعمل، والله المستعان، ولا قوة إلا به، وإذا سَلِمَ لي إيماني فيا فوزي»[5].

---

(١) معجم الشيوخ: ٥٥ ـ ٥٦. (٢) الوفيات: ٢/٥٦.

(٣) عقود الجمان: مجلد ٢ ورقة ٧٠.

(٤) طبقات الشافعية: ٣/٥٦.

(٥) المعجم المختص: ٩٧.

وقال في ترجمة عثمان بن يوسف النُّوَيْري المالكي: «أخِي وحبيبي، وشيخي ووِدادي. أحْسَنَ الله جزاءَه. . . . . قَلَّ مَنْ رأيتُ في صلاحه مثلَه، وهو خيرٌ منّي، وأشدُّ حُباً لي في الله»[1].

لذا كان يمقت الكبر، ويعنف المتكبرين بعلمهم، فمن ذلك قوله: «وأشَرُّ الكِبْر مَنْ تكبّر على العبَاد بعلْمه، وتعاظَمَ في نفسه بفضيلتِه، فإنَّ هذا لم ينفعْهُ علمُه، فإنَّ مَنْ طلبَ العلم للآخرة كسرَهُ علمُــه، وخشـعَ قلبــه، واستكـانتْ نفسُــه، وكــان على نفســه بالمرصاد. . . . . ومَنْ طلبَ العلم للفَخْر والرياسة، ونظرَ إلى المسلمين شَزْراً، وتحامَقَ عليهم، وازدرى بهم؛ فهٰذا من أكبر الكبْرِ، ولا يَدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كبرِ. فلا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

●● كذلك كان الإمام على درجة كبيرة من خشية الله، وكثرة الاستغفار بالأسحار، والتلاوة والتدبر والتعبد، والاعتدال في البشر والتبسم، وله في ذلك كلمات ووقفات غاية في الروعة، تعبر عن نفسه الأوّابة المتبتلة، الخاشعة الضارعة:

يقـول رحمه الله: «كـل مَنْ لم يخشَ أن يكـونَ في النـار، فهـو مغرورٌ، قد أَمِنَ مكرَ الله به»[3]!

وذكر في ترجمة الحافظ الإمام عبدالله بن عَوْن قوله: «ذِكْرُ الناسِ داءٌ، وذِكْرُ الله دواءٌ»، ثم عقب عليه قائلاً: «قلت إي والله، فالعجبُ منا ومن جهلنـا كيـف ندعُ الـدواءَ ونقتحمُ الداءَ؟!. قـال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿وَلَذِكْرُ الله أكبرُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال: ﴿الذينَ آمَنُوا وتَطْمَـئِنُّ قلوبُهم بذكْرِ الله أَلَا بذكْرِ الله

(١) المرجع السابق: ١٥٦.
(٢) الكبائر: ٧٩.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٦/٢٩١.

تطمئنُّ القلوبُ﴾ [الرعد: ٢٩]. ولكن لا يتهيّأ ذلك إلا بتوفيق الله، ومن أدمنَ الدعاءِ، ولازمَ قَرْعَ الباب؛ فُتح له»[1].

ويعقّب على قول ابن عُيينة: «غضبُ الله داءٌ لا دواءَ له» فيقول: «قلتُ: دواؤه كثرةُ الاستغفار بالأسحار، والتوبةُ النَّصُوح»[2].

ويقول في موضع آخر: «نعمْ، للصَّادق أن يُقِلَّ من الكلام والأكل والنوم والمخالطة، وأن يكثرَ من الأورادِ، والتواضع، وذِكْرِ الموت، وقَوْلِ: لا حول ولا قوة إلا بالله»[3].

ولنستمع إلى هذه الكلمة الرائعة التي يعلّق فيها على حديث نهيه ﷺ عبدالله بن عمرو بن العاص عن أن يختم القرآن في أقَلَّ من ثلاث، فيقول: «فأقلُّ مراتبِ النهي أن تُكْرَه تلاوةُ القرآن كلِّه في أقَلَّ من ثلاث، فما فقه ولا تَدَبَّر مَنْ تلى في أقل من ذلك. ولو تَلا ورتَّلَ في أسبوعٍ ولازمَ ذلك، لكان عملاً فاضلاً، فالدِّينْ يسرٌ. فوالله إنَّ ترتيلَ سُبع القرآن في تهجد قيام الليل، مع المحافظةِ على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودُبُرَ المكتوبةِ والسَّحَر، مع النَّظَر في العِلْم النافع والاشتغالِ به مخلصاً لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجْرِ الفاسق، ونحو ذلك، مع أداءِ الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسارٍ وإيمانٍ، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرةِ الدعاء والاستغفار، والصدقة وصلةِ الرحم، والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك، لَشغلٌ عظيمٌ جسيمٌ، ولَمَقامُ أصحابِ

---

(١) المرجع السابق: ٦/٣٦٩.

(٢) المرجع السابق: ١٢/٣٤٤.

(٣) المرجع السابق: ١٤/٥٣٤.

اليمين وأولياءِ الله المتقين، فإن سائرَ ذلك مطلوبٌ. فمتى تشاغلَ العابدُ بختمةٍ في كلِّ يوم، فقد خالفَ الحنيفية السَّمْحَة، ولم ينهضْ بأكثر ما ذكرناه، ولا تدبَّر ما يتلوه»[1].

●● وأنشد لنفسه في الاستعداد للآخرة[2]:

تولَّى شَبَابي كـأنْ لمْ يَكُنْ ... وأقبـلَ شَيْبٌ عَلَيْنـا تَــوَلَّى

ومَنْ عَايَنَ المُنْحَنَى والنِّقَى ... فَما بَعْدَ هَذَيْنِ إلاَّ المُصَلى

* * *

(١) المرجع السابق: ٣/ ٨٤.

(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٧، شذرات الذهب: ٦/ ١٥٥. النِّقى: يُقال: نَقِيَ الرجلُ نِقىً: ذَهَبَ لحمُه.



الفَصل الحَادي عَشر

تَلامِيْذُهُ

بعد ذلك الدأب الطويل في الطلب، والتفوّق الباهر في العلم، والتصانيف الكثيرة البديعة الماتعة؛ غدا الذهبي إماماً بارزاً في الحديث والتاريخ والقراءات، وأصبح محدثاً حافظاً جِهْبِذاً، ومؤرخاً شمولياً مبدعاً، وناقداً بصيراً، ومحققاً منقطع القرين، وتبوّأ مكانة سامقة بين كبار أساتيذ عصره وأشياخه.

وكان الذهبي ـ بحق ـ مدرسة قائمة بذاتها، متميزة الأسلوب، متفردة المنهج، يمكننا أن نسميها باطمئنان «المدرسة الذهبية»!

ضُربت باسمه الأمثال، وطار ذكره في الآفاق، وانتشرت مؤلفاته في الأقطار، وسارت فيها مسير النهار، وحملتها الركبان إلى الأنجاد والأغوار. وأقام بدمشق فأصبح محطَّ رحال الطالبين، ومهوى أفئدة المستفيدين، فرحلوا إليه من كل واد، ونادته السؤالات من كل ناد.

ومما زاد أمره شهرة، وذكره علواً، توليه تدريس «الحديث وعلومه» في كبريات مدارس الحديث ـ أوْ قُلْ: جامعات الحديث ـ الدمشقية، كالظاهرية والتنكزية وتربة أم صالح، وغيرها. فأتاحت له هذه المناصب أن يدرس عليه مئات الطلبة، ويتخرج به الجم الغفير من العلماء. وقد عبر تلميذه الحافظ الحسيني عن ذلك بقوله: «وحمل عنه الكتاب والسنة خلائق»[1].

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٦.

وقد تخرَّجَ به أعيانُ العلماء، نعرِّف ببعضهم على وجه الإيجاز، فمنهم:

١ ــ أحمد بن محمد بن إبراهيم المقدسي[1] (٧١٤ ــ ٧٦٥ هـ):

الإمام الحافظ شهاب الدين المقدسي، سمع من جماعة، وعني بالحديث، فجمع وضبط، وبرع ورحل، وأفاد ودرّس بعد العلائي «بالتنكزية»، وسمع منه جماعة من الفضلاء.

قال الذهبي في ترجمته: «الإمام العالم المحدث... طالب مفيد سريع القراءة، قرأ عليَّ كتاب ابن ماجه».

٢ ــ أحمد بن محمد العلائي الحَرَّاني[2] (٧٠٢ ــ ٧٤٥ هـ):

الإمام الفقيه الحنبلي، من أعيان أهل مذهبه، فيه دين وتقوى وإقبال على العلم. سمع من ابن الدشتي والموازيني وعدة، وطلب بنفسه، وكتب الكثير، وسمع الكثير أيضاً، وتفقه في المذهب وأصول الفقه. قال الذهبي: «أخذ عني ومعي، وقرأ عليَّ سير النبلاء».

٣ ــ إبراهيم بن عبدالرحيم بن قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة[3] (٧٢٥ ــ ٧٩٠ هـ):

هو برهان الدين ابن جماعة، قاضي قضاة مصر والشام، وخطيب الخطباء، وشيخ الشيوخ، وكبير طائفة الفقهاء، وبقية رؤساء الزمان. طلب الحديث بنفسه وهو صغير، وسمع من شيوخ مصر والشام،

---

(١) ذيول التذكرة: ١٤٨ ــ ١٤٩، المعجم المختص: ٣٣.
(٢) المعجم المختص: ٣٤، شذرات الذهب ١٤٢/٦.
(٣) المعجم المختص: ٥٦، شذرات الذهب: ٣١١/٦، إنباء الغمر: ٢٩٢/٢.

ولازم المزي والذهبي. انتهت إليه رياسة العلماء في زمانه، فلم يكن أحد يدانيه في سعة الصدر، وكثرة البذل، والصدع بالحق، وقمع أهل الفساد مع المشاركة الجيدة في العلوم.

وصفه الذهبي «بالإمام الفقيه، المحدث المفيد»، ثم قال: «وقرأ عليَّ كثيراً».

٤ ـ إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الدمشقي[١] (٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ):

الإمام العالم، الحافظ المفيد، المؤرخ المفسر الشهير، عماد الدين أبو الفداء ابن كثير. أخذ عن خلق من العلماء، منهم ابن تيمية والذهبي، ولازم المِزِّيَّ، وتزوّج بابنته، وسمع عليه أكثر تصانيفه. أفتى ودرّس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل، وصنف التصانيف الجليلة المليحة الشاهدة على تمام معرفته وعبقريته. قال فيه شيخه الذهبي: «الإمام الفقيه، المحدث الأوحد البارع... فقيه متفنن، ومحدث متقن، ومفسر نقال، وله تصانيف مفيدة، يدري الفقه، ويفهم العربية والأصول، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم».

٥ ـ عبدالوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي[٢] (٧٢٨ ـ ٧٧١ هـ):

العلامة قاضي القضاة تاج الدين السبكي، اشتغل على والده

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ٥٧، ٣٦١، إنباء الغمر: ١/٤٥، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٨٥، المعجم المختص ٧٤، شذرات الذهب: ٦/٢٣١. وغير ذلك.

(٢) المعجم المختص: ١٥٢، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/١٠٤، الوفيات لابن رافع: ٢/٣٦٢، شذرات الذهب: ٦/٢٢١.

وعلى غيره، وقرأ على المزي، ولازم الذهبي وتخرج به. وقال في ترجمة شيخه الذهبي: «وهو الذي خَرَّجَنَا في هذه الصناعة، وأدخلنا في عداد الجماعة، جزاه الله عنا أفضل الجزاء...»..

وطلب التاج بنفسه ودأب، وحصل فنوناً من العلم من الفقه، والأصول وكان ماهراً فيه، والحديث والأدب، وبرع وشارك في العربية، وكان له يد في النظم والنثر، جيد البديهة، ذا بلاغة وطلاقة لسان وجرأة جنان، وذكاء مفرط، وذهن وقاد، وقدرة على المناظرة. وانتهت إليه رئاسة القضاة والمناصب بالشام، وصنف تصانيف عديدة في فنون، على صغر سنه، وكثرة أشغاله، قرئت عليه، وانتشرت في حياته وبعد موته، رحمه الله تعالى.

٦ ــ محمد بن رافع بن هِجْرس السَّلاَّميّ الحوراني الأصل[١] (٧٠٤ ــ ٧٧٤ هـ):

الإمام العالم، الحافظ المتقن، المفيد الرحال، أخذ عن جماعة من الأئمة كالقطب الحلبي، وابن سيد الناس، والبِرْزالي، والمزي، والذهبي. وكان ذا معرفة تامة بفن الحديث، ومعرفة الرواة، والعالي والنازل، متقناً محرراً لما يكتبه، ضابطاً لما ينقله، وعمل لنفسه «معجماً» في أربعة مجلدات، وهو في غاية الإتقان والضبط، مشحون بالفوائد، يشتمل على أكثر من ألف شيخ. وكان أحد أربعة حفاظ كبار: هو، ومُغَلْطَاي، وابن كثير، والحُسيني.

---

(١) المعجم المختص: ٢٢٩، ذيول تذكرة الحفاظ: ٥٢، ٣٦٦، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/١٢٣، إنباء الغمر: ١/٥٩، شذرات الذهب: ٦/٢٣٤. وغير ذلك.

٧ ـ محمد بن علي بن الحسن الحسيني[١] (٧١٥ ـ ٧٦٥ هـ):

أبو المحاسن الحسيني، العالم الفقيه، الحافظ الناقد، المؤرخ.
كان رضيَّ النفس، حسن الأخلاق، من الثقات الأثبات. طلب بنفسه فأكثر، ورحل، وسمع جماعة من الأعيان منهم المزي، والبرزالي، والذهبي، والعلائي، والعز ابن جماعة، وابن أيبك، وخلائق. فبرع وتميز، وحفظ وأفاد، وكتب بخطه الكثير، وخرج وانتقى، وجمع مؤلفات حسنة، مطوّلة ومختصرة، وذَيَّلَ على كتابي شيخه الذهبي: «تذكرة الحفاظ»، و«العبر».

٨ ـ خليل بن أيبك بن عبدالله الصَّفَدي[٢] (ت ٧٦٤ هـ):

العلامة الأديب، البليغ البارع المفنن، صلاح الدين الصفدي.
سمع الكثير، وقرأ الحديث، وكتب بعض الطِّبَاق، وأخذ عن بدر الدين ابن جماعة، وأبي الفتح ابن سيد النـاس، وتقي الدين السبكي، والحافظين المزي والذهبي، وغيرهم. قال في ترجمة شيخه الذهبي: «اجتمعتُ به، وأخذت عنه، وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه».

وقرأ طرفاً من الفقه، وأخذ النحو عن أبي حيان، والأدب عن شهاب الدين محمود الحلبي ـ علاَّمة الأدب وعَلَم البلاغيين ـ وعن ابن نباتة. مهر في فن الأدب، وكتب الخط المليح، وقال النظم الرائق، وألف المؤلفات الفائقة، منها «الوافي».

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ١٥٠، ٣٦٤، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/١٢٩، البداية والنهاية: ١٤/٣٠٧، الوفيات لابن رافع: ٢/٢٩٠. وغيرها.

(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٨٩، المعجم المختص: ٩١، الوفيات لابن رافع: ٢/٢٦٨ ـ ٢٧٠، شذرات الذهب: ٦/٢٠٠ وغيرها.

وصفه شيخه الذهبي في «المعجم المختص» بـ «الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل».

• • •

وأخذ عن الذهبي جماعة من مشايخه ونظرائه كالحافظ البِرْزَالي، والعلائي، وابن عبد الهادي، وغيرهم، وتخرج به حفاظ كثيرون، وتلاميذه لا يحصون كثرة، تزخر بهم كتب التراجم كالدرر الكامنة، وشذرات الذهب، وذيلي العبر للذهبي ولتلميذه الحسيني، وغيرها. كما ذكر هو في «المعجم المختص» عدداً كبيراً منهم، لم نر كبير فائدة في إطالة البحث بذكرهم، وحسبنا ما أشرنا به إلى أعيانهم.

* * *

الفصل الثاني عشر
مكانته العلمية والثناء عليه

أولاً ـ مكانته العلمية

●● تبوّأ الحافظ الذهبي مكانة رفيعة عند المحدثين والمؤرخين والنقاد، واعتمدوا على آثاره، واستشهدوا بآرائه، وعضدوا مباحثهم ببحوثه وأقواله ونقداته.

وتفاخر الناس بالانتساب إليه لجلالته وعلو شأنه، حتى إذا أرادوا امتداح أحد كبار العلماء في عصر ما، وصَفوه بأنه ذهبي ذلك العصر، مثلما فعل الحافظ السيوطي عندما ترجم أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني، فقال فيه: «فريد زمانه، وحامل لواء السنة في أوانه، ذهبي هذا العصر ونضاره...»[1].

وانتفع به الخاصة والعامة منذ عصره وحتى أيامنا هذه، من محدثين ومؤرخين ومؤلفين وباحثين وطلاب علم. فاشتهرت كتبه في أيامه، وتداولها الناس في عصره، وقد عبر عن ذلك الحافظ ابن حجر فقال: «ورغب الناس في تواليفه، ورحلوا إليه بسببها، وتداولوها قراءة ونَسْخاً وسماعاً»[2]. وقال الحسيني: «وقد سار بجملة منها الركبان في أقطار البلدان»[3].

---

(١) نظم العقيان: ٤٥.

(٢) الدرر الكامنة: ٣/٣٣٧.

(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٦.

كما أصبحت تصانيفه موارد لمن بعده، يستقون منها، ويعوّلون عليها، حتى غدت أحد أهم المراجع للباحثين في علم الرجال والتاريخ، ومصدراً رئيساً موثوقاً للكُتّاب والمؤلفين والمطلعين، لا يستغني عنها عالم ولا طالب علم.

●● **وقد اعْتُبِر الذهبي أحد أربعة حفاظ كبار تعاصروا**: فلما سئل الحافظ الحسيني عن أحفظ من لقي، ذكر: المزي، والذهبي، والسبكي، والعلائي[1].

كما اعتُبر هو والمزيّ مُؤَرِّخَي القرن الثامن اللذين لا ينافسهما أحد[2].

وهذه المنزلة الرفيعة للذهبي دفعت الحافظ ابن حجر أن يشرب ماء زمزم لينال مرتبة الذهبي في العلم والرسوخ فيه، حيث يقول: «شربت ماء زمزم لثلاث: أحدها أن أنال مرتبة الحافظ الذهبي، فوجدت بحمد الله أثر ذلك...»[3]. وفِعْلُ الحافظ هذا، وتخيّره الذهبي دون غيره من كبار حفاظ زمانه، يدل على أنه بلغ الغاية في الإتقان والضبط، واستقرّ ذلك عند كبار الأئمة من بعده.

●●●

---

(١) الجواهر والدرر: ١/٤٠ ـ ٤١.

(٢) الوافي بالوفيات: ٢/١٦٣.

(٣) الجواهر والدرر: ١٠٦، ١٠٧، الإعلان بالتوبيخ: ٥٧، ٧٦، ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٤٨، «ابن حجر» للمؤلف: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

ثانيا ـ ثناؤهم عليه

لهذا كله كان الذهبي حقيقاً بكل مديح، وأهلاً لكل ثناء، وجديراً بكامل التقدير والتبجيل والاحترام. ولقد عرف له ذلك أهل العلم والصالحون، وأثنى عليه الناس، مشايخه وتلامذته فَمَنْ بعدهم.

●● ثناء أشياخه وتلامذته:

١ ـ وصفه شيخه علم الدين البرزالي (ت ٧٣٩ هـ) بقوله: «رجل فاضل، صحيح الذهن، اشتغل ورحل، وكتب الكثير، وله تصانيف واختصارات مفيدة. وله معرفة بشيوخ القراءات»[1].

٢ ـ وقال تلميذه الحافظ الفقيه الأصولي المؤرخ تاجُ الدين السُّبْكي (ت ٧٧١ هـ): «شيخُنا وأستاذُنا، الإمامُ الحافظ، شمس الدين، أبو عبد الله الذهبي، محدِّث العصر. اشتملَ عصرُنا على أربعة من الحفاظ بينهم عموم وخصوص: المِزِّي، والبِرْزالي، والذهبي، والشيخ الإمامُ الوالد، لا خامس لهؤلاء في عصرهم، فأما المزي والبرزالي والوالد فسنترجمهم إن شاء الله تعالى.

وأما أستاذُنا أبو عبدالله، فبَحر[2] لا نظير له، وكَنْزٌ هو الملجأ إذا نزلت المُعْضلَة، إمامُ الوجود حِفظاً، وذهَبُ العصر معنى ولفظاً، وشيخُ الجرح والتعديل، ورجلُ الرجالِ في كل سبيل، كأنما جُمعتْ الأمة في

(١) رونق الألفاظ: ورقة: ١٨٠.

(٢) كذا صوبها الأستاذ العلامة عبد الفتاح أبو غدة، انظر: «ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل» ضمن كتاب «أربع رسائل في علوم الحديث»: ص ١٥٦ ـ ١٥٨، هامش. وجاءت في «الطبقات الكبرى»: فنظير. وتحرفت على أنحاء شتى عند من نقل عن السبكي.

صعيدٍ واحد فنظرها ثم أخذ يُخبر عنها إخبارَ مَنْ حَضرها. وهو الذي خرَّجنا في هذه الصناعة، وأدخَلَنا في عِداد الجماعة، جزاه الله عنا أفضل الجزاء، وجعل حظه من غُرُفاتِ الجناتِ مُوفَّر الأجزاء.... وما زال يخدمُ هذا الفن إلى أن رسختْ فيه قدمُه، وتعبَ الليلُ والنهار وما تعبَ لسانُه وقلمُه، وضُربتْ باسمِهِ الأمثال، وسار اسمه مسير لقبه: الشمس، إلا أنه لا يتقلّصُ إذا نزلَ المطر، ولا يُدبرُ إذا أقبلت الليالي. وأقامَ بدمشق يُرْحَلُ إليه من سائر البلاد، وتناديه السؤالاتُ من كل ناد»[1].

٣ ــ وقال تلميذه الحافظ الحسيني (ت ٧٦٥ هـ): «الشيخ الإمام العلامة، شيخ المحدثين، قدوة الحفاظ والقراء، محدث الشام ومؤرخه ومفيده». وقال في موضع آخر: «وكان أحد الأذكياء المعدودين، والحفاظ المبرزين»[2]. وقال أيضاً: «جَرَّح وعدَّل، وفرَّعَ وأصَّل، وصَحَّحَ وعلَّلَ، واستدرك وأفاد، وانتقى واختصر كثيراً من تواليف المتقدِّمين والمتأخِّرين، وصنَّف الكتب المفيدة السائرة في الآفاق»[3].

٤ ــ ووصفه تلميذه الحافظ المفسر ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) بأنه: «الشيخ الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام، وشيخ المحدثين»[4].

٥ ــ وأطنب تلميذه العلامة المؤرخ صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) في الثناء عليه، فقال: «... حافظٌ لا يُجارى، ولافظ لا يُبارى، أتقنَ الحديث ورجالَه، ونَظَر عِلَلَه وأحواله، وعرَّف تراجمَ الناس، وأزال الإبهامَ في تواريخهم والإلباس. ذهنٌ يتوقَّدُ ذكاؤه، ويصحُّ

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٩/١٠٠ ــ ١٠١، ١٠٣.
(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٤، ٣٦.
(٣) ذيل العبر: ٤/١٤٨، ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٥.
(٤) البداية والنهاية: ١٤/٢٢٥.

إلى الذهب نِسْبَتُه وانتماؤه، جَمَعَ الكثير، ونَفَعَ الجمَّ الغفير، وأكثرَ من التصنيف، ووفَّر بالاختصار مؤونةَ التطويل في التأليف.

اجتمعتُ به وأخذتُ عنه، وقرأتُ عليه كثيراً من تصانيفه، ولم أجد عنده جُمودَ المحدثين، ولا كَوْدَنَةَ النَّقَلَة، بل هو فقيه النَّظر، له دُربة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات. وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه، من أنَّه لا يتعدّى حديثاً يوردُهُ حتى يبين ما فيه من ضعْفِ متن، أو ظلامِ إسنادٍ، أو طعن في رُوَاته، وهذا لم أر غيرَه يراعي هذه الفائدة فيما يورده»[1].

٦ ــ ولما قدمَ الإمام العالم محمد بن محمد بن عبد الكريم الموْصِلي الأطرابلسي[2] (ت ٧٧٤ هـ) دمشقَ سنة (٧٣٤ هـ) واجتمع بالذهبي، قال فيه:

ما زلتُ بالسَّمْعِ أهواكُمْ وما ذُكِرَتْ ... أخبارُكم قطُّ إلا ملتُ من طَرَبِ

وليس من عجبٍ أنْ ملتُ نحوكمُ ... فالناس بالطبعِ قدمالُوا إلى الذهبِ[3]

●● ثناء الأكابر من بعده:

١ ــ قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢ هـ): «الشيخ الإمام، الحافظ الهمام، مفيد الشام، ومؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، وإمام المعدِّلين والمجرِّحين... وكان آية في نقد الرجال،

---

(١) الوافي بالوفيات: ٢/١٦٣، نَكْت الهِمْيَان: ٢٤١ ــ ٢٤٢. الكَوْدَنَة: البلادة.

(٢) انظر ترجمته في إنباء الغمر: ١/٦٨، الدرر الكامنة: ٤/١٨٨، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/١٣٣، شذرات الذهب: ٦/٢٣٦. وغير ذلك.

(٣) الرد الوافر: ٦٧، وقد ذُكر البيتان في «الإنباء» و«الشذرات» ببعض المخالفة. انظر الحاشية السابقة.

عمدةً في الجرح والتعديل، عالماً بالتفريع والتأصيل، إماماً في القراءات، فقيهاً في النظريات، له دُربة بمذاهب الأئمة وأرباب المقالات، قائماً بين الخَلَف بنشر السنة ومذهب السلف»(١).

٢ ـ ونَعَتَه العالم المؤرخ الفقيه ابن قاضي شُهْبَة (ت ٨٥١ هـ) بـ «الإمام العلامة، الحافظ المقرىء، مؤرخ الإسلام»(٢).

٣ ـ وقال فيه الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ): «مهر في فن الحديث، وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة، حتى كان أكثر أهل عصر تصنيفاً»(٣).

ووصفه بأنه «من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال»(٤).

٤ ـ ووصفه ابن تغري بردي (ت ٨٧٤) بأنه «الحافظ البارع الحجة المؤرخ»(٥).

وقال في المنهل الصافي: «الحافظ البارع، الحجة الرُّحْلَة، المؤرخ، حافظ الشام ومُقرِيه، صنَّف وأرَّخ وصحَّحَ وعلَّل، وكان حافظاً ذكياً مليحَ التصوّر، متواضعاً، حسن الخُلُقُ، حلوَ المحاضرة، متعبداً وله أوراد هائلة، وتصانيف كثيرة مفيدة»(٦).

٥ ـ وأما سبط ابن حجر (ت ٨٩٩ هـ) فقد أثنى عليه جداً، وأطنب في المديح، فقال: «الشيخ الإمام العالم العلامة، حافظ الوقت

---

(١) الرد الوافر: ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) طبقات الشافعية: ٣/٥٥ ـ ٥٦.
(٣) الدرر الكامنة: ٣/٣٣٧.
(٤) نُزْهة النظر شرح نخبة الفِكَر: ١٥٤.
(٥) الدليل الشافي: ٢/٥٩١.
(٦) المنهل الصافي: مجلد: ٣ ورقة: ٦٩ ـ ٧٠.

الذي صار هذا اللقب عَلَماً عليه. . . فللَّه دره من إمام محدث. . . فكمْ دخلَ في جميع الفنون، وخرَّجَ وصحَّح، وعدَّل وجرَّح، وأتقن هذه الصناعة، وفاق فيها فنعمت البضاعة، فهو الإمام سيِّد الحفاظ، فارسُ المعاني والألفاظ، إمامُ المحدثين، قدوة الناقدين، وعُني بهذا الفن أعظـمَ عناية، وبرعَ فيه وخدمه الليلَ والنهار، وصنَّف وأرَّخ، وصحَّح وعلَّلَ، وجرَّحَ وقدَحَ، وفـرَّع وأصَّل، وحـدث، وصنف التصانيف المفيدة، وخرَّج التخاريج الحسنة السعيدة»[1].

٦ ــ وقال الحافظ السيوطي (ت ٩١١ هـ): «الإمام الحافظ، محدِّث العصر، وخاتمة الحفاظ، ومؤرخ الإسلام، وفرْدُ الدَهر، والقائم بأعباء هذه الصناعة. . . والذي أقوله: إن المحدثين عِيال الآن في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة: المِزّي، والذهبي، والعراقي، وابن حجر»[2].

٧ ــ وقال العلامة الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ): «الحافظ الكبير، المؤرخ، صاحب التصانيف السائرة في الأقطار. . . وبالجملة: فالناس في التاريخ ــ من أهل عصره فمن بعدهم ــ عيالٌ عليه، ولم يجمع أحد في هذا الفن كجمعه، ولا حرَّرَهُ كتحريره»[3].

٨ ــ ووصفه العلامة المحدث عبد الحي الكتاني بأنه: «إمام الحفـاظ، زينـة المحـدثين وإمامهم، الحَكَمُ العَـدْل في الجـرح والتعديل»[4].

---

(١) رونق الألفاظ: الورقة: ١٨٠.
(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٤٧ ــ ٣٤٨، طبقات الحفاظ: ٥٢١ ــ ٥٢٢.
(٣) البدر الطالع: ٢/١١٠ ــ ١١١.
(٤) فهرس الفهارس: ١/٤١٧.

ثالثاً ــ وتبرز مكانة الإمام الذهبي العلمية، ودوره البارز في الحديث والتاريخ والنقد، من ناحية ثالثة، من جهة كثرة المترجمين له، والمعتنين بذكر أخباره، وتجلية سيرته، وسرد أسماء تآليفه.

ويمكن تصنيف هؤلاء في ثلاث طبقات:

١ ــ رفاقه في الطلب ومعاصروه وتلامذته:

فقد ترجم له علم الدين البرزالي، وابن الوردي، والصلاح الصفدي، وابن شاكر الكتبي، والحافظ الحسيني، والإسنوي، والتاج السبكي، وبدر الدين النابلسي، والحافظ ابن كثير، وابن رافع السلامي، والبدر الزركشي.

وتراجم هؤلاء ليس بينها كبير اختلاف، وتعدُّ ترجمة الصفدي والسبكي من أفضلها وأكثرها فائدة.

٢ ــ الذين ترجموا له بعد عصره:

ابن دقماق، وشيخ القراء ابن الجزري، والحافظ ابن ناصر الدين، وابن قاضي شهبة، والحافظ ابن حجر، والبدر العيني، وابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، والحافظ السخاوي، ويوسف ابن عبد الهادي، والسيوطي، والنعيمي، وابن الحريري، وابن طولون، وطاش كبرى زاده، وابن هداية الله، وابن العماد الحنبلي، والبغدادي، والشوكاني، والقنوجي، وعبد الحي الكتاني.

وفي تراجم هؤلاء فوائد جيدة، لاطلاعهم على معاجم شيوخ تلامذة الذهبي ومشيخاتهم، وكذلك فإن تراجمهم تمثل رأي المتأخرين من العلماء في الذهبي وتصانيفه ومنهجه.

٣ ــ وكتب كثير من المُحْدَثين عن الذهبي، فمنهم:

حسام الدين القدسي، وسعيد الأفغاني، ومصطفى جواد، ومحمد شنب، والدكتور صلاح الدين المنجد، والزركلي، وعمر رضا كحالة، وكلها نقول عمن سبق، إلا ما كان من عمل الدكتور المنجد ففيه فوائد. ومنهم الدكتور بشار عواد معروف، في دراسة جامعة قيمة نافعة، لكن ثمة جوانب مهمة في شخصية الذهبي أشار إليها إشارة عابرة فبقيت غامضة، إضافة إلى أنه قد فاته الوقوف على عدد كبير من تصانيف الذهبي، استدركناها عليه. وكذلك الأستاذ قاسم سعد استدرك على الدكتور بشار عواد ذكر عدد من مؤلفات الذهبي، في رسالة لطيفة نافعة. والأستاذ عبد الرحمن النحلاوي، حيث تناول الحديث عن الذهبي في «دراسة موضوعية تحليلية تربوية». كما كتب كثير من ناشري كتب الذهبي ومحققيها ترجمةً موجزة عنه، ليس فيها جديد، بل يقع في بعضها أوهام.

* * *



الفَصل الثالث عَشر

مُصَنَّفَاتُهُ

قيمتها، ومجالاتها، ونواحي الإبداع فيها، والتعريف بها

بقي نصف قرن يصنف:

بدأ الذهبي نشاطه في التأليف والتصنيف في أواخر القرن السابع، وعمره إذ ذاك نحو من خمس وعشرين سنة، كما يستنتج ذلك من قوله في ترجمة حماد بن سلمة: «وَقَعَ لي من أعلى رواياته بضعةَ عشرَ حديثاً، أفردتُها قديماً في سنة بضع وتسعين وست مئة»(١). وقوله في مقدمة كتابه «العلو»: «أما بعد، فإني كنت في سنة ثمان وتسعين وست مئة جمعت أحاديث وآثاراً في مسألة العلو، وفاتني الكلام على بعضها...»(٢).

وتوجه إلى اختصار عدد كبير من أمهات الكتب في مختلف العلوم التي مارسها، فهو ـ مثلاً ـ قبل أن يؤلف كتابه «تاريخ الإسلام» اختصر جملة كتب منها (٣): «تاريخ نيسابور» للحاكم، و«تاريخ مصر» لابن يونس، و«تاريخ بغداد» للخطيب، وذيله لأبي سعد السمعاني، و«الأنساب» له، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«وفيات الأعيان» لابن خلِّكان، و«الروضتين» لأبي شامة، و«ذيل مرآة الزمان» للقطب اليونيني. كما اختصر كتباً أخرى في الحديث ورجاله والفقه، وغير ذلك، مثل

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/٤٥٤.

(٢) مختصر العلو: ٧٩.

(٣) انظر: مقدمته لتاريخ الإسلام ـ المغازي: ٢٥ ـ ٢٦.

«المستدرك»، و«سنن البيهقي»، و«تهذيب الكمال»، و«المحلى».

وبعد رحلاته الواسعة، وطوافه على الأشياخ، حطّ رحاله في قريته «كَفْر بَطْنا»، وهناك في جوّها الهادىء تفرغ للتأليف تفرغاً شبه كامل، وأنتج خيرة مصنفاته، مع توليه المناصب التدريسية في مدارس الحديث بدمشق.

وبقي ينتقي ويحقق، ويخرج ويستدرك، ويكتب ويؤلف زهاء نصف قرن، حتى عمي بأخرة من عمره[1]. وثمة نص يفيد بأن الذهبي استمر في التصنيف حتى سنة (٧٤٤ هـ)، فهو عندما ترجم شيخه الإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي، قال: «توفي في شهر جمادى الأولى سنة أربع وأربعين وسبع مئة»[2].

مجالات مصنفاته وحجمها واكتمالها:

أمّا مجالاتها وموضوعاتها فمتنوعة: حيث صنف الذهبي في العقيدة، والقراءات، والحديث بفنونه المختلفة، والتاريخ العام، والتراجم والسير، وتواريخ البلدان، والفقه وأصوله، والرقائق والأدعية، وموضوعات متنوعة أخرى.

ومن حيث حجمها: فمنها الكبير الذي يربو على أربعين مجلداً كتاريخ الإسلام، والمتوسط الذي يقع في مجلدين كتذكرة الحفاظ، أو في مجلد كدول الإسلام، والصغير كجزء في الشفاعة، وجزءين في صفة النار.

---

(١) انظر: ص ٥٣١ ــ ٥٣٣ من هذا الكتاب.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١٥٠٨/٤.

ومن جهة اكتمالها: فكل كتب الذهبي كاملة، أتم تصنيفها وأعاد ـ غالباً ـ النظر فيها، وهذه من أكبر ميزات كتب الإمام، فهو يشرع بتصنيف الكتاب، ويصرف له جزءاً من وقته حتى يفرغ منه. ونحن نعلم أن كثيراً من العلماء كانوا يشرعون في تأليف عدة كتب في آن واحد، فتتوزع إمكاناتهم، فيتمُّون بعضها ولا يتمون البعض الآخر، وكثيراً ما يكتبون من الكتاب قطعة صغيرة. ولعل الذهبي قد تفطن إلى هذا، فتجنَّبَه. فَلْتُعَدَّ هذه النقطة في جملة ميزاته وتفرده.

مميزات كتبه:

يمتاز الذهبي في تصانيفه بذكر موارده التي أخذ عنها، سواء في صدر كتبه أو في أثنائها، وفي هذا نوع من التوثيق لما ينقله، وردّ الحق إلى صاحبه، والتبرؤ من العهدة إذا كان فيما ينقله وهم أو مجازفة.

وهو في أحيان كثيرة يتصرف بالنص الذي ينقله ويسبكه بأسلوبه وعبارته المتميزة، وينتقي من موارده ما يراه جديراً بالنقل، صحة وأهمية.

كذلك فإن مصنفاته تمتاز بالشمول: فهو عندما صنف في الحديث طَرَقَ كل فنونه من مصطلح، وعلم الجرح والتعديل، وكتب الحديث والأجزاء، والمعاجم والمشيخات. وفي التاريخ صنف في التاريخ العام، والتواريخ المحلية، والتراجم، وتراجمه شاملة لكل فئات المجتمع. والتاريخ والتراجم شامل كذلك، منذ فجر الإسلام وحتى عصر الذهبي.

وأهم ما يميز تواليفه هو بروز شخصيته فيها، سواء في المختصرات أو التآليف:

فمختصراته ليست تلخيصاً وتقليداً، بل فيها استدراك وتمحيص، وتحقيق وتدقيق، وبيان وهم، وكشف خطأ، وتكميل نقص، وتخريج حديث، وجرح وتعديل، وتفريع وتأصيل، حتى ليبدو كأنه مخترع ذلك الكتاب.

وأما في تآليفه: فتبدو شخصيته بمقدرته الفذة على انتقاء موارده المتخصصة، واختيار النصوص، وإعادة كتابتها في قالب من الانسجام بديع، مع نقدات بارعة لما ينقله عن العصور التي سبقت، وأما ما شاهده فتبدو شخصيته بوضوح أكثر، باعتماده على نفسه وأشياخه مباشرة.

وكان من نتيجة ذلك أن امتازت كتبه وآثاره بغزارة الفائدة، والتحقيق المفيد النافع، مع حسن الأسلوب، وعذوبة السبك، وتفرد المنهج. يلمس هذا من يعاني مطالعة كتبه.

أهميتها، واهتمام الدارسين بها، وثناء العلماء عليها:

بسبب تلك الخصائص والمزايا التي اتسمت بها مصنفاته، والقيمة العلمية لها، والمساهمة الفعلية التي قدمتها للحضارة الإسلامية وتراثها العلمي العظيم؛ أضحت من بين أحسن الكتب وأهم المصادر عند الدارسين، فاهتموا بها، وأقبلوا عليها، ونهلوا من معينها، ونقلوا عنها، واستفادوا من منهجها، حتى غدت مراجع لا يستغني عنها دارس أو باحث أو مؤلف.

ولقد كثر ثناء الأئمة والعلماء على مصنفاته، وأجمعوا على أن

مؤلفاته مفيدة، ومختصراته حسنة سديدة، قد سارت في الآفاق، ورغب الناس فيها، ورحلوا إليه بسببها، وتداولوها قراءة ونسخاً وسماعاً[1].

ويلخص ذلك قول الشوكاني: «**وجميع مصنفاته مقبولة مرغوب فيها، رحل الناس لأجلها، وأخذوها عنه، وتداولوها، وقرؤوها وكتبوها في حياته، وطارت في جميع بقاع الأرض. وله فيها تعبيرات رائقة، وألفاظ رشيقة غالباً، لم يسلك مسلكه فيها أهل عصره ولا من قبلهم ولا من بعدهم**»[2].

عددها:

يعدُّ الذهبي من العلماء المكثرين في التصنيف، وقد اعتبره الحافظ ابن حجر «أكثر أهل عصره تصنيفاً». وقد ذكر كثير ممن ترجم له أن مؤلفاته تقارب المئة، ولكن هذا العدد أقل من الواقع بكثير، وذلك راجع ـ فيما نحسب ـ إلى اعتبار مصنفاته الكبيرة والشهيرة، دون الكتب الصغيرة، والأجزاء المنثورة.

وفي محاولة لإحصاء مؤلفات الذهبي قمتُ بتتبع الكتب التي ترجمت له، والكتب التي عنيت بذكر المؤلفات العربية قديماً وحديثاً، وكذلك إشارات الذهبي الكثيرة في كتبه عن مؤلفاته وتخاريجه ومختصراته، كما استفدت مما كتبه المعاصرون عن الذهبي ممن حقق بعض كتبه وعَرَّف به، أو أفرده ببحث مستقل صغيراً كان أو كبيراً، وأجلّ هذه الدراسات وأوعبها كتاب الدكتور بشار عواد.

---

(١) انظر: ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٥ ـ ٣٦، ذيل العبر للحسيني: ٤/١٤٨، الرد الوافر: ٦٧، الدرر الكامنة ٣/٣٣٧، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٥٧، الدارس: ١/٧٩، فهرس الفهارس: ١/٤١٧، ٤١٩. وغير ذلك.

(٢) البدر الطالع: ٢/١١١.

فمثلاً: ذكر الصفدي في «نَكْت الهِمْيان» (٤٤) مصنفاً، وابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» (٤٢) مصنفاً، وابن تغري بردي في «المنهل الصافي» (٦٥) كتاباً، والسخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» أكثر من (٤٠) مصنفاً، والسيوطي في «ذيل التذكرة» (٢١) مؤلَّفاً، والنعيمي في «الدارس» (١٥) مصنفاً، وطاش كبرى في «مفتاح السعادة» (٢٤) كتاباً، وحاجي خليفة في «كشف الظنون» أكثر من (٤٣) مصنفاً، وابن العماد في «الشذرات» (٦٦) أثراً، والشوكاني في «البدر الطالع» (١٤) مصنفاً، والبغدادي في «إيضاح المكنون» و«هدية العارفين» (٥٧) كتاباً، وعدّ له الكتاني في «فهرس الفهارس» (٣٨) كتاباً، والكتاني في «الرسالة المستطرفة» (٢٤): مؤلفاً، والزركلي في «الأعلام» (٢٤) كتاباً. وعند بعضهم ـ أحياناً ـ ما ليس عند الآخر. وبلَّغها الدكتور بشار عواد إلى (٢١٥) أثراً.

عدد كتبه عندنا، ومنهجنا في تصنيفها ودراستها:

قد أشار الحافظ الذهبي في كتبه إلى كثير من تصانيفه، استطعنا أن نتصيدها خلال مطالعتنا لها، وبخاصة كتبه المطولة كـ«سير أعلام النبلاء» الذي وقفنا فيه ـ خلال قراءتنا له ـ على (٣٧) مؤلَّفاً للذهبي، أشار هو إليها. وذكر في «تذكرة الحفاظ» أسماء (٣٣) من تصانيفه، وفي «معجم الشيوخ» و«المعجم المختص» (٢٤) أثراً، وفي «تاريخ الإسلام» أكثر من (٣٠) أثراً.

وبعد التتبع الطويل لكل ما كُتب حول مصنفاته، وبضمّ ما وقفنا عليه من تصانيفه التي أشار هو إليها، بلغ عدد تلك الآثار في بحثنا (٢٧٠) مصنفاً، بزيادة نحو من (٦٠) أثراً عما في دراسة بشار عواد، مع الأخذ بعين الاعتبار أننا أسقطنا (٤) تصانيف مما ذكره،

لأسباب قوية رأيناها، وهي مبينة في مواضعها من هذا الفصل، كما نبهنا على أوهام وقعت له في هذا المجال.

وقد قمتُ بتصنيف تلك المؤلفات حسب العلوم والفنون التي تناولتْها، سواء أكانت تأليفاً أو اختصاراً، أو انتقاء، أو تخريجاً، أو تذييلاً، أو تعقيباً، أو غير ذلك. ورتَّبْتُها ضمن كل فن على حروف المعجم لتسهل مراجعتها، وأعطيتها أرقاماً متسلسلة، يعرف من خلالها عدد تآليفه في كل فن، ثم مجموعها العام في كل العلوم. وتكلمتُ على كل منها بحسب أهميته وجلالته[1].

● ● ●

(١) وقد ذكر الدكتور بشار عواد أماكن وجود كثير من مخطوطات كُتب الذهبي، فلا نكرر ذلك، إلاّ إذا وجدنا فائدة أو ضرورة. وأذكر هنا قائمة بالمصادر والمراجع التي أخذتُ عنها أسماء مصنفات الذهبي، حتى لا أثقل الكتاب بكثرة الهوامش: «طبقات الشافعية» للسبكي، «نكت الهميان» للصفدي، «ذيول التذكرة» للحسيني والسيوطي، «فوات الوفيات» للكتبي، «الوفيات» لابن رافع، «الدرر الكامنة» و «إنباء الغمر» و «المعجم المفهرس» لابن حجر، «الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي، «مقدمة تنزيه الشريعة» لابن عراق ولمحققه، «كشف الظنون» لحاجي خليفة، «إيضاح المكنون»، و «هدية العارفين» للبغدادي، «الدارس» للنعيمي، «مفتاح السعادة» لطاش كبرى، «شذرات الذهب» لابن العماد، «البدر الطالع» للشوكاني، «فهرس الفهارس» لعبد الحي الكتاني، «الرسالة المستطرفة» لمحمد بن جعفر الكتاني، «الأعلام» للزركلي، «معجم المؤلفين» لكحالة، «برنامج الوادي آشي»، «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين، «صلة الخلف بموصول السلف» للروداني، كما استفدت من كتاب الدكتور بشار عواد، واستدراكات الأستاذ قاسم سعد عليه، وما لم أذكره هنا نبهت عليه في موضعه إن رأيت ثمة فائدة، وأما ما أشار الذهبي إليه في كتبه، فنبهت عليه دوماً، لأهمية ذلك.

أولاً ـ مصنفاته في العقائد

١ ـ أحاديث الصفات:

وهو كما يدل عنوانه يضم الأحاديث الواردة في «صفات الله تعالى».

٢ ـ الأربعين في صفات رب العالمين:

وهي أربعون حديثاً في «صفات الخالق» عز وجل، وقد تكلم الذهبي على الأحاديث وخرجها، وذكر كثيراً من أقوال الأئمة في هذا الموضوع.

٣ ـ جزء في الشفاعة.

٤ ـ جزءان في صفة النار.

ـ الرسالة الذهبية لابن تيمية:

ذكر الدكتور بشار عواد أنها رسالة بعث بها الذهبي إلى رفيقه وشيخه ابن تيمية، ينصحه فيها ويعاتبه في بعض تصرفاته، ووصفها بأنها مفيدة في تبيان عقيدة الذهبي، ونقل عن السخاوي قوله فيها: «وقد رأيتُ له عقيدة مجيدة، ورسالة كتبها لابن تيمية هي لدفع نسبته لمزيد تعصبِه مفيدة»[١]. وأكد الدكتور بشار أن هذه الرسالة للذهبي، ونفى أن تكون مزوَّرة قد أُلصقت به[٢].

ونحن فمع تمام اقتناعنا بأن الذهبي لم يك مقلِّداً لشيخه، وأنه قد

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ٧٧.

(٢) الذهبي ومنهجه: ١٤٦.

خالفه في مسائل أصلية وفرعية، وقد ردّ عليه وخالفه في غير ما مسألة؛ بيد أننا كذلك قد علمنا من سيرة الذهبي ورعه الكبير، وأدبه الجم، واحترامه الوافر، وتغاضيه عن الهفوات، واعتداله في النقد، وإصداره التقاويم والنقدات بأسلوب فريد، وعبارة مستقيمة خارجة عن الفحش، بعيدة عن بذيء الكلام، وما عهدناه اشتد في ألفاظه إلا على بعض الكذابين الوضّاعين الذين افتروا الأحاديث الباطلة. لكننا نجد في هذه الرسالة كلاماً لا يصدر من العلماء الصلحاء حَمَلَة الآثار النبوية، إنما هو إلى كلام السوقة أقرب، وبه أشبه، ونرفض بيقين أن يكون الذهبي قاله. فمما جاء في تلك «الرسالة»: «وأعداؤك ـ والله ـ فيهم صلحاء وأخيار، وعقلاء وفضلاء، كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة، وجهلة وبطلة، وعور وبقر... فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل، أو عامي كذاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر، أو ناشف صالح عديم الفهم، فإن لم تُصَدِّقْني فَفَتِّشْهُمْ وَزِنْهُمْ بالعدْل»!!.

فَمَنْ هؤلاء من أصحاب شيخ الإسلام الذين هم «فجرة، كذبة، جهلة، بقر، خفيفو العقل، بليدو الذهن، عديمو الفهم»؟! وهل قرأ أحد للذهبي أمثال هذه الألفاظ القبيحة الفاحشة في أي من كتبه في أية طائفة؟! من وجد مثل هذا فليتفضل وليأتنا به، فنحن ما رأينا مثله عند الذهبي ولا قرأناه!! ووالله عندما قرأتُ هذا الكلام ـ المنسوبَ للذهبي ـ حدثتْ في قلبي منه نفرةٌ، لأنني قد عرفت الرجل عن كثب، وتحققتُ من أدبه الرفيع، وتذوقت أسلوبه البديع، وأنا أَرْبَأُ به وأنزِّهه عن مثل هذا الفحش من القول!!.

ودعوى أن من هذه «الرسالة» نسخة بخط ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ)، أو غيره، لا تقوِّي صحة نسبتها للذهبي، بل أغلب الظن

أنها مزورة عليه من قبل أحد أعداء ابن تيمية[1]. وسنرى عند كلامنا على «كتاب الكبائر»[2] عدمَ صحة نسبة «الكتاب الكبير المطبوع» للذهبي، وأن كتابه «الكبائر» على النصف من حجم الكتاب المشهور بين الناس!.

٥ ــ الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال:

ويعرف أيضاً بـ «نبأ الدجال»، و«أخبار الدجال»، وسماه حاجي خليفة والبغدادي: «الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال». وذكر الصفدي وابن شاكر الكتبي أنه يقع في مجلد. وقال التاج السبكي في «الطبقات الوسطى»: «وهو حسن، قرأته عليه».

٦ ــ كتاب «رؤية الباري».

٧ ــ طرق أحاديث النزول[3]:

هي الأحاديث التي تنص على نزول الباري جلّت أسماؤه وتقدست صفاته، مثل: (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلثُ الليل الآخِرُ...)[4].

وقد جمع الذهبي طرق هذه الأحاديث، فقال: «وأحاديث نزول الباري متواترة، وقد سقتُ طرقها، وتكلمتُ عليها، بما أُسأل عنه يوم القيامة، فلا قوة إلا بالله العلي العظيم». وقال في موضع آخر: «وقد أَلَّفْتُ أحاديثَ النزول في جزء، وذلك متواتر أقطع به»[5].

---

(١) وانظر تعليقات زهير الشاويش على «الرد الوافر»: ص ٧٠، ١٠٠.

(٢) انظر: ص ٥٢١ ــ ٥٢٤ من هذا الكتاب.

(٣) صنفه الدكتور بشار عواد ــ خطأ ــ مع كتب «مصطلح الحديث».

(٤) أخرجه الشيخان، انظر: جامع الأصول: ٤/١٣٨ ــ ١٣٩.

(٥) مختصر العلو: ١١٠، ١١٦.

٨ ـ كتاب «العرش»:

تكلم فيه الذهبي على هذه المسألة المهمة من «أصول العقائد»، وساق الدلائل التي تبين أن «الله تعالى فوق عرشه».

وقد تساءل بروكلمان فيما إذا كان كتاب «العرش» هو كتاب «العلو» نفسه، أم آخر غيره، في حين جزم الأستاذ المحدث ناصر الدين الألباني بأنهما واحد[١]. والظاهر ـ والله أعلم ـ أنهما كتابان، وذلك لأن سبط ابن حجر ذكر كتاب «العرش» هذا، ثم ذكر كتاب «العلو» في مكان ثانٍ، وكذلك ذكرهما البغدادي في «هدية العارفين»، مما يدل على أنهما مختلفان. وأيضاً في «دار الكتب الظاهرية بدمشق» قسم من «رسالة في أن الله على العرش»، فلعلها هي كتاب «العرش».

ويغلب على الظن أن الذهبي قد أفرد كثيراً من مسائل الاعتقاد في أجزاء متفرقة[٢]، ثم جمع خلاصة ذلك في كتابه «العلو»، الذي تضمن الكلام على مسألة العرش ومسائل أخرى من أصول الاعتقاد.

٩ ـ العلو للعلي الغفار[٣]:

يمثل هذا الكتاب عقيدة الذهبي في «الصِّفات»، ويعتبر من أوسع كتبه في العقائد، وأكثرها أهمية. وقد ذكر في مقدمته أنه جمع أحاديث وآثاراً في مسألة العلو سنة (٦٩٨ هـ)، وفاته الكلام على بعضها، ثم ذيّل

---

(١) مقدمته لمختصر العلو: ص ٥.

(٢) كالأربعين في صفات رب العالمين، رؤية الباري، أحاديث النزول، العرش.

(٣) وفي هدية العارفين: ٢/١٥٤: «العلو للعلي الأعلى الغفار في إيضاح الأخبار». وذكره في سير أعلام النبلاء: ١١/٢٩١ باسم: «العزة للعلي العظيم»، فلعله تحريف؟!.

على ذلك مؤلَّفاً[1] أوله: «سبحان الله العظيم وبحمده على حلمه بعد علمه»، وبعدها ألف كتاب «العلو» هذا.

أورد فيه أولاً الآيات الكريمة وأتبعها الأحاديث الشريفة التي تدل على أن الله سبحانه في السماء فوق عرشه بائن من خلقه. وتكلم على الاستواء، والعرش وحملته، واستظلال الناس به، واهتزازه لموت سعد، ونحو ذلك. وذكر أحاديث النزول، وأفرد فصلاً لموضوع رؤيته ﷺ ربَّه ليلة المعراج. ثم أتبعه بفصل ذكر فيه ما اتصل به عن التابعين في مسألة العلو، وفصلٍ آخر ذكر فيه ما قاله الأئمة عند ظهور «جَهْم بن صفوان» ومقالته، ورتَّبهم على (٧) طبقات، فأقدمهم وفاة ابن أبي ليلى (ت ١٤٨ هـ)، وآخرهم وفاة القرطبي المفسر (ت ٦٧١ هـ). فذكر أقوالهم في «الصفات، والعرش، والكرسي، والاستواء، والقرآن وأنه كلام الله غير مخلوق، ورؤية الله سبحانه».

وكانت غايته من هذا الكتاب إثبات عقيدة السلف ــ التي يتمسك بها ويأبى الخروج عنها ــ في «الصفات»، والإيمان بما ثبت من نعوت الله سبحانه كالإيمان بذاته المقدسة، وعدم الخوض في التأويل، كما أوضحنا في فصل «عقيدة الذهبي».

وقد نقل في هذا الكتاب عن كثير من المصنفات التي أُلِّفت في هذا المجال، وتبدت فيه عقليته المألوفة في نقد الأحاديث، وتزييف الأباطيل، وتقويم المصادر، مما يعطي الكتاب أهمية كبيرة[2].

---

(١) لعله كتاب «العرش» آنف الذكر.

(٢) وقد انتقد الكوثري ــ رحمه الله ــ كتاب العلو، فقال عن الذهبي: «لو لم يؤلفه لكان أحسن له في دينه وسمعته، لأن فيه مآخذ كثيرة». ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٤٨.
قلت: هذا جرح مردود، وليس في الكتاب ــ بحمد الله ــ إلا عقيدة السلف الصالح =

والكتاب يقع في مجلد، وقد اختصره العلامة المحدث ناصر الدين الألباني، وعلّق عليه تعليقات نافعة.

١٠ ــ كتاب «ما بعد الموت»: ويقع في مجلد.

١١ ــ مختصر كتاب «البعث والنشور» للبَيْهقي:

البيهقي: هو الإمام الحافظ الثَّبْت الفقيه أحمد بن الحسين الخُسْرَوْجِردي، المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) وتصانيفه نافعة ماتعة لم يُسبق إلى مثلها، وكتابه «البعث والنشور» يقع في مجلد.

١٢ ــ مختصر كتاب «الفاروق في الصفات» لشيخ الإسلام الأنصاري:

شيخ الإسلام الأنصاري هو: الحافظ الكبير أبو إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري الهروي (ت ٤٨١ هـ). وقد أطاب الذهبي الثناء عليه، لكنه انتقد بعض تصانيفه ومنها «الفاروق»، فقال: «وكان طوداً راسياً في السنة، لا يتزلزل ولا يلين، لولا ما كَدَّرَ كتابه «الفاروق في الصفات» بذكر أحاديث باطلة يجب بيانُها وهتكُها، والله يغفر له بحسن قصده»[1].

وقد ذكر ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد أن الذهبي «اختصر كتاب الفاروق وهذَّبه» وتهذيبه له يعني حذف تلك البواطيل التي كدَّرت الكتاب، والتي نبَّه الذهبي على وجوب بيانها وبهرجتها.

١٣ ــ مختصر كتاب «القدر» للبيهقي: ويقع في ثلاثة أجزاء.

= التي ندين الله تعالى بها، والطعن على الذهبي يستدعي الطعن على أساطين الأئمة الهداة ممن نقل الذهبي أقوالهم، وهذا باب الدخول منه غير محمود!!.

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/٥٠٩.

١٤ ـ مختصر من الذهبية: رسالة[1] مختصرة في «مسألة العلو»، وأولها بعد البسملة: «فصل: هذه جملة من أقوال التابعين، وهو أول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق العرش...».

١٥ ـ مسألة خلود الكفار في النار:

ذكرها الذهبي في ترجمة شيخ العربية عبد الواحد بن علي بن بَرْهان العُكْبَرِيّ (ت ٤٥٦ هـ)، فقال: «وكان يميلُ إلى مذهب مُرجئة المعتزلة، ويعتقد أن الكفار لا يُخلَّدون في النار». ثم قال: «قلتُ: حجَّتُه في خروجِ الكفار هو مفهومُ العدد من قوله: ﴿لابِثِينَ فيها أحْقَاباً﴾ [النبأ: ٢٣]، ولا يَنْفَعُهُ ذلك لعموم قوله: ﴿وَمَا هُمْ بخارجينَ من النارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ولقوله: ﴿خالِدِينَ فيها أَبَداً﴾ [النساء: ١٦٩]، إلى غير ذلك. وفي المسألةِ بحثٌ عندي، أفردتُها في جزء»[2].

١٦ ـ مسألة دوام النار:

يرى بعض العلماء من المتأخرين أن النار سيأتي عليها يوم يزول فيه عذابها، ويخرج أهلها منها، وهو مذهب رديء مردود على قائله[3]. ولعل الذهبي يرد في «جزئه» هذا الذي صنفه على هؤلاء.

١٧ ـ مسألة الغيبة[4]: وهو في جزء.

---

(١) توجد منها نسخة مخطوطة في «دار الكتب الظاهرية بدمشق» في المجموع (٤٧ ق ١٠٤ ـ ١١١) كما نبه على ذلك الألباني في مقدّمته «لمختصر العلو»: ص ٩. وقد نقل عنها في عدة مواضع في تعليقاته وهوامشه، ويسميها: «مختصر المؤلف»، انظر: ص ١٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٥٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ٢٣٤، ٢٤٦، ٢٥٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٨/١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) انظر: فتح الباري: ١١/٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٤) في شذرات الذهب: ٦/١٥٦: «مسألة الغيب».

١٨ ــ مسألة الوعيد.

١٩ ــ المنتخب من «الرد على الجَهْمِيَّة»[١] لابن أبي حاتم:

ذكره الذهبي في ترجمة عبد الرحمن ابن أبي حاتم، فقال: «له كتاب نفيس في «الجرح والتعديل» أربع مجلدات. وكتاب «الرد على الجهمية» مجلد ضخم، انتخبتُ منه»[٢].

٢٠ ــ المنتقى من «منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال[٣]» لابن تيمية:

ألف الرافضي الزنديق ابن المطهر الحلي[٤] كتابه «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» فملأه سباً للصحابة، وذماً لجهادهم، وتشويهاً لمحاسنهم، وغمطاً لفضائلهم، وقلباً لحسناتهم! ورتب كتابه على خمسة فصول: الأول: في نقل المذاهب في «مسألة الإمامة». الثاني: أن مذهب الإمامية واجب الاتباع. الثالث: في الأدلة على إمامة علي. الرابع: في الاثني عشر. الخامس: في إبطال خلافة أبي بكر وعمر وعثمان.

فكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كتابه «منهاج

---

(١) نسبة إلى جَهْم بن صَفْوان، غالى في التنزيه وإنكار صفاته سبحانه، وتأويلها المفضي إلى تعطيلها. وأول من حُفظ عنه مقالة «التعطيل» هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم هذا، وأظهرها، فنُسب القائلون بها إليه.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٦٤.

(٣) وقد طبع كتاب ابن تيمية تحت عنوان «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية»، وما ذكرناه أحسن لصلة الذهبي بابن تيمية ومعرفته بكتبه.

(٤) هو الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (٦٤٨ ــ ٧٢٦ هـ)، أحد صناديد التشيع، تتلمذ للنصير الطوسي (٥٩٧ ــ ٦٧٢ هـ).

الاعتدال» ـ أو ما اشتهر «بمنهاج السنة» ـ رداً على مخرقات وافتراءات هذا الرافضي.

وقد اختصر الذهبي كتاب شيخه هذا في مجلد[1]، قال في مقدمته: «أما بعد: فهذه فوائد ونفائس اخترتها من كتاب «منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» تأليف شيخنا الإمام أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى. فذكر أنّه أُحضر إليه كتاب لبعض الرافضة في عصرنا ـ يعني ابن المطهر ـ منفِّقاً لهذه البضاعة، يدعو إلى مذهب الإمامية أهل الجاهلية، ممن قَلَّتْ معرفتهم بالعلم والدين! فصنفه للملك المعروف الذي سماه فيه «خُدا بَنْدَه»...»[2].

وقال في نهايته: «أماتنا الله وإياكم على حب الأربعة[3]، فإن المرء مع من أحب. آخره والله أعلم، والحمد لله على الإسلام والسنة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحابته وأزواجه وذريته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين»[4].

ثم قال: «وهذا المنتقى فيه كفاية بحسب همم الناس، والأصل

---

(١) وقد حققه العلامة محب الدين الخطيب، وأضاف خلال المتن فقرات رأى أنّها ضرورية لإتمام الفائدة، وميزها بالعلامتين [ ] ـ كما نبه على ذلك في مقدمته ـ ووشَّحَ الكتاب بتعليقاته القيمة، فجاء الكتاب في (٥٩٤) صفحة. وقد ذكر هذا الكتاب للذهبي ابنُ تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد، وقالوا: «واختصر الرد على الرافضي لابن تيمية في مجلد». وتحرفت كلمة «الرافضي» إلى «الرافضة» في شذرات الذهب.

(٢) المنتقى: ١٩ ـ ٢٠. خدا بنده: خدا ـ بالفارسية ـ: الله، وبنده: عبد، أي عبدالله.

(٣) يعني الخلفاء الراشدين.

(٤) المنتقى: ٥٩٣.

فبحسب همة الشيخ[1]، تغمده الله برحمته، آمين».

● ● ●

ثانياً ـ مصنفاته في القراءات

١ ـ التلويحات في علم القراءات:

ذكر ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد أن الذهبي ألف «مختصراً في القراءات». أما بروكلمان فذكر للذهبي كتاب «التلويحات في علم القراءات»، فلعله هو المختصر المذكور.

وهذا الكتاب هو الوحيد ـ فيما علمنا ـ للذهبي في هذا الفن، باعتبار أن كتابه «معرفة القراء الكبار» أقرب إلى كتب التراجم منه إلى القراءات.

● ● ●

ثالثاً ـ مصنفاته في الحديث وعلومه

أ ـ الحديث والأجزاء والعوالي:

١ ـ أحاديث مختارة من الموضوعات «الأباطيل» للجورقاني:

ألف الحافظ أبو عبدالله الحسين بن إبراهيم الجَوْرقاني (ت ٥٤٣ هـ) كتابه «الموضوعات»، ويعرف أيضاً «بالأباطيل». وقد انتقده الذهبي فقال: «وهو محتوٍ على أحاديث موضوعة وواهية، طالعته

(١) أي ابن تيمية.

واستفدت منه، مع أوهام فيه. وقد بيَّن بطلانَ أحاديث واهية بمعارضة أحاديث صحاح لها[1]».

وقد اختار الذهبي بعض الأحاديث من كتاب «الأباطيل» هذا، وخرّجها وتكلّم عليها، وتقع في جزء في إحدى عشرة ورقة[2].

٢ ــ أحاديث «مختصر ابن الحاجب»:

مختصر ابن الحاجب[3] من الكتب المشهورة في أصول الفقه، واسمه «منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل».

٣ ــ الأربعون البلدانية:

ذكرها الذهبي في مقدمة «الأربعين البلدانية» التي خرجها من «المعجم الصغير» للطبراني، فقال: «... إنني قد كنت سمعت «البلدانية» للحافظ السِّلَفِي، و«الأربعين البلدانية» للحافظ ابن عساكر، ورأيت «الأربعين» ليوسف بن أحمد الشيرازي... وشرعت في أربعين بلدية[4] لم تتكمل لي...».

٤ ــ أربعون حديثاً بلدانية من معجم ابن جُميع الصيداوي:

ابن جُمَيْع: هو المحدث الرحال أبو الحُسَين محمد بن أحمد

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/١٣٠٨. وانظر: الرسالة المستطرفة: ١٤٩.

(٢) وانظر تلخيص الأباطيل، رقم: ١٤.

(٣) هو أبو عَمْرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ)، إمام مقرىء، أصولي فقيه، نحوي شهير.

(٤) كتب «الأربعينات» يجمع فيها المحدث أربعين حديثاً في موضوع معين، أو أسانيد معينة، أو بلدان معينة. فالأربعون البلدانية: هي أن يجمع المحدث أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً في أربعين بلداً. وعلى غرارها كتب «الثلاثينات».

الغسّاني الصيداوي[1] (ت ٤٠٢ هـ)، له معجم مشهور، وقد طبع.

وقد انتقى الذهبي من «معجم الصيداوي» هذا أربعين حديثاً، وذكرها في مقدمته «للأربعين البلدانية» التي خرجها من «المعجم الصغير» للطبراني، كما ذكرها ـ أيضاً ـ في ترجمة الحافظ أبي بكر بن المقرىء (ت ٣٨١ هـ)، فقال: «... وكذلك انتقيتُ لأبي الحُسين بن جُمَيْع الغساني أربعين بلدية»[2].

٥ ـ أربعون حديثاً بلدانية من معجم شيوخ أبي بكر المقدسي:

أبو بكر المقدسي هو مسنِد الوقت أبو بكر بن أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي (ت ٧١٨ هـ)[3].

قال الذهبي في مقدمة «الأربعين البلدانية» التي خرجها من «المعجم الصغير» للطبراني: «وكنت من نحو ثلاثين سنة تأملتُ معجمَ أبي بكر المقدسي، فخرَّجتُ له من الكتاب أربعين حديثاً في أربعين مدينة».

٦ ـ أربعون حديثاً بلدانية من معجم شيوخ ابن المقرىء:

ابن المُقْرِىء[4] هو: الحافظ الجوال مسنِد الوقت أبو بكر محمد بن إبراهيم الأصبهاني المعروف بابن المقرىء (ت ٣٨١ هـ)، له رحلة واسعة ومعجم كبير في مجلد.

ذكر الذهبي هذه «الأربعين» في ترجمته، فقال: «... وانتقيتُ

(١) سير أعلام النبلاء: ١٥٢/١٧.

(٢) المرجع السابق: ٤٠١/١٦.

(٣) ذيل العبر للذهبي: ٤/٥٠، معجم الشيوخ: ٦٦٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣٩٨/١٦.

من «معجمه» أربعين حديثاً سمعتُها بأربعين بلداً. . .».

وقال في «التذكرة»: «وقد انتقيتُ من «معجمه» أربعين حديثاً بلدية له».

وقال في تاريخ الإسلام: «وقد خرَّجتُ من «معجمه» أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً في أربعين مدينة، سميتها «أربعي البلدان» لأبي بكر بن المقرىء، وسمعناها»[1].

٧ ــ أربعون حديثاً بلدانية من «المعجم الصغير» للطبراني:

الطبراني: هو الإمام الحافظ، محدث الإسلام ومسنِد الدنيا أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ).

و«معجمه الصغير» مرتب على حروف المعجم في أسماء شيوخه، وهو في مجلد يشمل على نحو من ألف وخمس مئة حديث بأسانيدها، لأنه خرج فيه عن ألف شيخ، كل شيخ حديثاً أو حديثين[2].

وقد خرَّج الذهبي من هذا المعجم أربعين حديثاً بلدانية، تكلم على أسانيدها ومتونها. قال في مقدمتها: «وعَنَّ لي الساعة تخريج أربعين بلدية من «المعجم الصغير» لأبي القاسم الطبراني، فإنه أقدم الجماعة وأسندهم، وأوسعهم رحلة. . .».

٨ ــ أربعون حديثاً للأَبَرْقُوهي:

الأبرقوهي: هو المحدث العالم الزاهد أبو المعالي أحمد بن

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٠١/١٦، تذكرة الحفاظ: ٩٧٥/٣، تاريخ الإسلام (وفيات ٣٨١ ــ ٤٠٠ هـ) ص ٤٠.

(٢) الرسالة المستطرفة: ١٣٦.

إسحاق بن محمد بن المؤيد الأَبَرْقُوهي (ت ٧٠١ هـ)، وهو أحد شيوخ الذهبي[١].

ذكر سبط ابن حجر أن الذهبي خرّج له «أربعين حديثاً».

٩ ــ أربعون حديثاً لابنه أبي هريرة:

خرج الذهبي لابنه أبي هريرة عبد الرحمن ــ مسنِد الشام في عصره ــ «أربعين حديثاً»، ذكرها ابن حجر في «الدرر»[٢] و«إنباء الغمر»[٣] في ترجمة عبد الرحمن المذكور، فقال: «وخرَّج له أبوه «أربعين حديثاً»، وحدَّثَ بها في حياة أبيه سنة سبع وأربعين وسبع مئة».

١٠ ــ الأربعون الموافقات:

ذكرها نجم الدين الدين عمر ابن فهد[٤].

١١ ــ أوهام ابن الأَبّار في «الأربعين» له:

ابن الأبار: هو الإمام البليغ الحافظ المجوّد المقرىء أبو عبدالله محمد بن عبدالله الأندلسي البَلَنْسِي، يُقال له: الأَبَّار، وابن الأبار، توفي سنة (٦٥٨ هـ).

قال الذهبي في ترجمته[٥]: «ومن تواليفه «الأربعون» عن أربعين شيخاً، من أربعين تصنيفاً، لأربعين عالماً، من أربعين طريقاً، إلى

---

(١) معجم الشيوخ: ٢٦، المعجم المختص: ١٤، شذرات الذهب: ٤/٦.
(٢) الدرر الكامنة: ٣٤١/٢.
(٣) إنباء الغمر: ٣٥٠/٣.
(٤) معجم الشيوخ لابن فهد: ٨١. وابن فهد توفي سنة (٨٨٥ هـ)، ترجمته في الضوء اللامع: ١٢٦/٦، والبدر الطالع: ٥١٢/١. وغيرهما.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٣٣٦/٢٣ ــ ٣٣٩.

أربعين تابعياً، عن أربعين صحابياً، لهم أربعون اسماً، من أربعين قبيلة، في أربعين باباً»!!.

ثم قال: «رأيتُ له أوهاماً في تيك «الأربعين» نبَّهْتُ عليها».

١٢ ـ أوهام عبد القادر الرُّهَاوي في «الأربعين» له:

الرُّهَاوي: هو الإمام الحافظ الرحّال الجوّال عبد القادر بن عبدالله الرهاوي الحنبلي، (ت ٦١٢ هـ).

قال الذهبي في ترجمته: «وعمل «الأربعين المتباينة الأسانيد» في مجلد كبير يدل على تبحُّرِه وسعة علمه... وله أوهام نبهتُ على مواضع منها في «الأربعين» له»[١].

ـ تجريد جامع الأصول من أحاديث الرسول:

ذكَرَ هذا الكتابَ في جملة مصنفات الذهبي عمرُ رضا كحالة في «معجم المؤلفين»[٢]، وهو وهم منه، فهذا الكتاب ليس للذهبي بل هو للشيخ الإمام شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم بن البارزي، المتوفى سنة (٧٣٨ هـ)، جرَّد فيه «جامع الأصول» لابن الأثير[٣].

١٣ ـ ترتيب «الموضوعات» لابن الجوزي:

كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، من الكتب الواسعة في «الموضوعات»، أخذ غالبه من «الأباطيل» للجَوْرَقاني (ت ٥٤٣ هـ)، لكن ابن الجوزي متساهل في دعوى الوضع، فأدخل في كتابه ما لا دليل على وضعه بل هو ضعيف، بل وفيه الحسن بل والصحيح أيضاً! وقد تعقبه الحفاظ وناقشوه

(١) تذكرة الحفاظ: ١٣٨٨/٤، وانظر: سير أعلام النبلاء: ٧٢/٢٢.

(٢) معجم المؤلفين: ٢٩٠/٨.

(٣) انظر: كشف الظنون: ٣٤٥، ٥٣٦، الرسالة المستطرفة: ١٧٤ ـ ١٧٥.

في تلك المواضع التي أخطأ فيها، كابن حجر في «القول المُسَدَّد»، والسيوطي في «اللآلىء المصنوعة». وقد أنصفه ابن حجر فقال: «غالب ما في كتاب ابن الجوزي موضوع، والذي يُنتقد عليه بالنسبة إلى ما لا ينتقد قليل جداً. وفيه من الضرر أن يظن ما ليس بموضوع موضوعاً، عكس الضرر بمستدرك الحاكم، فإنه يظن ما ليس بصحيح صحيحاً»[1].

وقد لخص الذهبي «موضوعات ابن الجوزي»، ورتَّبه ونقَّحه وهذَّبه، وخفَّف من طول أسانيده، واختصر بعض المتون الطويلة وبعض القول في الرجال، وخالفَ ابنَ الجوزي في غير موضع، لإيراده أحاديث حكم عليها بالوضع وهي ليست كذلك، فبعضها ضعيفة، وبعضها حسنة أو صحيحة، حيث ورد بعضها في «مسند أحمد»[2] والسنن الأربعة وغيرها من الكتب المعتمدة، بل أورد حديثاً هو في «صحيح مسلم»!.

وكتاب الذهبي هذا يقع في نحو (٩٠) ورقة، تأتي في مجلد متوسط الحجم. وهو من الكتب التي اعتمد عليها الإمام أبو الحسن ابن عراق (ت ٩٦٣ هـ) في كتابه القيم «تنزيه الشريعة»[3].

١٤ ـ تلخيص «الأباطيل» للجورقاني:

ذكره ابن عراق في مقدمة كتابه «تنزيه الشريعة»، فقال: «وراجعت حال جمعي لهذا التلخيص: موضوعات ابن الجوزي، والعلل المتناهية له، وتلخيصهما للحافظ الذهبي، وتلخيص «موضوعات الجورقاني» والميزان للذهبي أيضاً...»[4].

---

(١) تدريب الراوي: ١/٢٧٩، الباعث الحثيث: ٧٥.

(٢) ألَّف ابن حجر كتابه «القول المسدَّد في الذبِّ عن مسند الإمام أحمد»، ذكر فيه (٢٤) حديثاً من «المسند» جاء بها ابن الجوزي في «الموضوعات»، وحكم عليها بذلك، ورد عليه ابن حجر ودفع قوله. انظر: كتابنا «ابن حجر» ص: ٤١٩.

(٣، ٤) تنزيه الشريعة: ١/٥.

وفي «دار الكتب الظاهرية» بدمشق مختارات من «كتاب الأباطيل»[1] للجورقاني، لعلها هذا التلخيص المذكور.

١٥ ـ تلخيص «العلل المتناهية» لابن الجوزي:

بعد أن ألف ابن الجوزي كتابه «الموضوعات» صنف «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية»، وقد أتى فيه بموضوعات وقليل من الأحاديث الحسان كما يقول الذهبي. ولمثل هذا يشير الإمام اللكنوي في كتابه «الرفع والتكميل» حيث يذكر أن ابن الجوزي أورد في كتابه «الموضوعات» أحاديث وذكرها بنفسها في كتابه «العلل المتناهية» فناقض نفس.

ولم يلتزم الذهبي في «تلخيصه» بعبارة المؤلف، بل غالب التخريج من كلامه. والكتاب يقع في (٨٥) ورقة. وهو من الكتب التي اعتمد عليها ابن عراق في «تنزيه الشريعة».

ـ تلخيص «المستدرك» للحاكم = مختصر «المستدرك».

ـ تلخيص «موضوعات» ابن الجوزي = ترتيب «موضوعات» ابن الجوزي.

١٦ ـ تنقيح كتاب «التحقيق في أحاديث التعليق» لابن الجوزي:

ألف القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨ هـ) كتابه «التعليق الكبير في المسائل الخلافية بين الأئمة» وهو في (١١) مجلداً، فجاء ابن الجوزي فصنَّف كتابه «التحقيق

---

(١) ضمن مجموع «برقم ٥٤٨٥ عام».

في أحاديث التعليق»[1]، حقق فيه الأحاديث الكثيرة التي استدل بها أبو يعلى، وناقشها وبيَّن صحيحَها من سقيمها.

وقد اعتنى غير واحد من العلماء بكتاب ابن الجوزي هذا، منهم[2] الحافظ الذهبي حيث اختصره اختصاراً شديداً، وتكلم على كثير من الأحاديث ورواتها، ونبه على كثير من أوهام ابن الجوزي من حيث درجات الأحاديث، وحذف أسانيد ابن الجوزي ولم يبق منها إلا راويين أو ثلاثة من آخر الإسناد، واختصر في كثير من المسائل أقوال المذاهب في تلك المسألة، وقد يذكر ترجيحاته في بعض المسائل، ورمز لأصحاب الكتب الستة بالرموز المشهورة. وكتب بخطه على جلد المختصر: «كتاب تنقيح (كتاب التحقيق في أحاديث التعليق) للإمام أبي الفرج بن الجوزي، اختصار محمد بن أحمد بن عثمان ابن الذهبي، عفا الله عنه».

كتبه الذهبي بخطه سنة (٧٢٩ هـ)، وقرأه عليه الصلاح الصفدي سنة (٧٣٥ هـ)، وهو يقع في (١٨٧) ورقة.

١٧ ــ الثلاثون البلدانية:

ذكرها الصفدي في «نَكْت الهِمْيان»، وكتبها بخطه، وقرأها على المؤلف. كما ذكرها ابن حجر في «الدرر»، والشوكاني في «البدر الطالع».

---

(١) وسماه الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٣٦٨/٢١: «التحقيق في مسائل الخلاف». وحاجي خليفة في كشف الظنون: ١/ ٣٧٩: «التحقيق في أحاديث الخلاف». وكلتاهما تسمية بالمضمون.

(٢) ومنهم الحافظ محمد بن أحمد ابن عبد الهادي الحنبلي، ويقع في مجلدين، وهو أعود من مختصر الذهبي وأكثر فوائد.

١٨ ـ ثلاثون حديثاً من «المعجم الصغير» للطبراني:

خرج الذهبي هذه «الثلاثين» من «المعجم الصغير» للطبراني، وتكلم على رجال أسانيدها وعلى متونها. وقد ذكرها سزكين في «تاريخ التراث»[١].

١٩ ـ ثلاثيات[٢] ابن ماجه:

هي تخريج للأحاديث ثلاثية الإسناد التي وقعت في «سنن» الحافظ محمد بن يزيد بن ماجه (ت ٢٧٣ هـ)، وعددها خمسة أحاديث بسند واحد عن أنس رضي الله عنه[٣].

وتوجد منها نسخة كتبت في حياة المؤلف سنة (٧٣٤ هـ).

٢٠ ـ جزء لأحمد بن أيبك الحسامي:

ابن أَيْبَك: هو الإمام الحافظ المفيد أبو العباس أحمد بن أيبك الحسامي الدمياطي، محدث مصر، ولد بها سنة (٧٠٠ هـ)، وتوفي سنة (٧٤٩ هـ).

قال الذهبي: «قدِمَ علينا عام أربعين، واستفدنا منه، وظهرت معرفتُه وحسنُ مشاركته. خرَّجْتُ له جزءاً»[٤].

وقال الحسيني: «وانتقى عليه شيخنا الذهبي جزءاً، حدَّث به بدمشق»[٥].

---

(١) تاريخ التراث العربي: المجلد الأول جـ ١/٣٩٥.

(٢) الثلاثيات: هي الأحاديث المتصلة برسول الله ﷺ بثلاثة رواة فقط.

(٣) الرسالة المستطرفة: ٩٧.

(٤) المعجم المختص: ١٤.

(٥) ذيول تذكرة الحفاظ: ٥٥.

٢١ ـ جزء لأمين الدين الواني :

ذكره الذهبي في ترجمة رفيقه وصاحبه وشيخه المحدث أمين الدين محمد بن إبراهيم بن محمد الواني ثم الدمشقي الحنفي (ت ٧٣٥ هـ)، فقال: «انتقيت له جزءاً حدث به غير مرة»[١].

٢٢ ـ جزء لأبي بكر المرسي :

أبو بكر المرسي هو: مجد الدين أبو بكر بن محمد بن القاسم، المُرْسيّ الأصل التونسي الدار، شيخ القراء والنحاة (ت ٧١٨ هـ)، وهو شيخ الذهبي، تلا عليه ختمة للسبعة، وخرج له جزءاً، وقد حدث به المرسي[٢].

٢٣ ـ جزء لابن الخَلّال :

ابن الخلال هو : بدر الدين أبو علي الحسن بن علي بن الخلال الدمشقي (ت ٧٠٢). ذكره الذهبي في «المعجم المختص»، وذكر أنه انتقى له جزءاً[٣]. وذكر سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ» للذهبي جزءاً باسم «عوالي ابن الخلال»، فلعله هذا الذي ذكره الذهبي.

٢٤ ـ جزء لعبد الوهاب الاسكندراني :

ذكره ابن حجر في ترجمة عبد الوهاب بن محمد بن عبد الرحمن الاسكندراني القروي (ت ٧٨٨ هـ)، فقال: «وقد خرج له الذهبي جزءاً من حديثه»[٤].

---

(١) معجم الشيوخ: ٤٥٥.

(٢) ذكره ابن حجر في الدرر: ١/٤٦١ ـ ٤٦٢. وانظر ترجمته في معجم الشيوخ: ٦٨٠، ومعرفة القرّاء الكبار ٢/٧٤١.

(٣) المعجم المختص: ٨٧.

(٤) إنباء الغمر: ٢/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

٢٥ ــ جزء العفيف المطرِي:

ذكره الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ عفيف الدين عبدالله بن محمد بن أحمد المَطَرِي (ت ٧٦٥ هـ)، فقال: «سمعتُ منه، وانتقيتُ له جزءاً»[١].

وذكره كذلك السبكي[٢] وابن فهد[٣].

٢٦ ــ جزء على ابن جماعة الكناني:

وانتقى الذهبي جزءاً على شيخه الإمام المحدث عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكناني (ت ٧٦٧ هـ)، ذكر ذلك في ترجمته من «معجم الشيوخ» فقال: «قرأتُ عليه أحاديث من الخِلَعِيَّات لابني، وانتقيتُ عليه جزءاً»[٤].

٢٧ ــ جزء علاء الدين الخَرَّاط:

ذكره ابن رافع السَّلاَّميّ في ترجمة علاء الدين أبي الحسن علي بن عثمان بن حسان الدمشقي الخَرَّاط (ت ٧٣٩ هـ) فقال: «سمع منه الحافظ الذهبي، وخرَّج له جزءاً من حديثه، وحدَّثَ به»[٥].

٢٨ ــ جزء للقزويني:

قال الذهبي في ترجمة شيخه أبي العباس أحمد بن عبد المنعم

---

(١) المعجم المختص: ١٢٥.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ١٠/٣٤.
(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ١٤٣.
(٤) معجم الشيوخ: ٣١٩.
(٥) الوفيات: ١/٢٥٦. والخراط: نسبة إلى خرط الخشب.

القزويني (ت ٧٠٤ هـ): «انتخبتُ له جزءاً رواه مرات»[1].

٢٩ ـ جزء لابن الكُويك:

ابن الكويك: هو الإمام الفقيه البارع عبد اللطيف بن أحمد بن محمود التكريتي ثم الاسكندراني، المعروف بابن الكويك (ت ٧٣٤ هـ).

ذكره الذهبي في معجم شيوخه، وأثنى عليه، وقال: «خرجتُ له جزءاً»[2].

٣٠ ـ جزء لابن المحب المقدسي:

ذكره ـ أيضاً ـ الذهبي في ترجمة الإمام الزاهد الصالح أبي العباس أحمد بن عبدالله بن أحمد المقدسي، المعروف بابن المحب (ت ٧٣٠ هـ)، فقال في «معجم الشيوخ»: «. . . وخرجوا له معجماً في أحد عشر جزءاً، وانتخبت أنا له جزءاً حسناً». كما ذكره في «المعجم المختص»[3].

٣١ ـ الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار:

هذا الجزء من تأليف رحلة الآفاق أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحَجَّار (ت ٧٣٠ هـ)، والمُسْنِد الرُّحْلَة أبي محمد عيسى بن عبد الرحمن الصالحي السمسار مطعِّم الأشجار (ت ٧١٩ هـ)، ومسنِد الشام

---

(١) معجم الشيوخ: ٥٥.

(٢) معجم الشيوخ: ٣٢٩، كما أشار إلى ذلك في المعجم المختص: ص ١٥١، لكن المحقق ضبط عبارة الذهبي هكذا: «خُرِّجت له أجزاء»!!.

(٣) معجم الشيوخ: ٣٧، المعجم المختص ٢١.

أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي (ت ٧١٨ هـ)[١]، وتخريج الحافظ الذهبي.

٣٢ ـ جزء لموسى بن علي البكري:

موسى بن علي بن محمد، المقرىء الزاهد أبو عمران البكري الزهراني، ترجمه الذهبي في «المعجم المختص»، وقال: «سمع مني بقراءتي، انتقيتُ له جزءاً»[٢].

٣٣ ـ جزء من حديث التَّلِّي:

التلي: هو العالم المقرىء محمد بن أحمد بن تمام بن حسان، أبو محمد التلي الصالحي (ت ٧٤١ هـ).

قال ابن رافع السَّلَّامي في ترجمته: «... وخرَّج له شيخُنا الذهبي جزءاً ضخماً من حديثه»[٣].

وذكر ابن حجر أن الذهبي خرج له جزءاً كبيراً[٤].

٣٤ ـ جزء من عوالي ابن رافع السَّلَّاميّ:

ابن رافع: هو الإمام العلامة، الحافظ الفقيه، الناقد المفيد، محمد بن رافع بن هجرس الصُّمَيْدي[٥] السلامي، (ت ٧٧٤ هـ)، أخذ عن الذهبي وخلائق.

ذكر غير واحد أن الذهبي خرج له جزءاً، فقال ابن ناصر الدين: «خرج له الحافظ الذهبي جزءاً من العوالي عن طائفة من مشايخه، سمعه

---

(١) انظر تراجمهم في معجم الشيوخ: ص ٩٢، ٤١٠، ٦٦٨ على التوالي.

(٢) المعجم المختص: ٢٨٥.

(٣) الوفيات: ١/٣٥٤. وقد خرج الذهبي له أيضاً «مشيخة» انظر ص: ٤٢٦ من هذا الكتاب.

(٤) الدرر الكامنة: ٣/٣١٢.

(٥) نسبة إلى قرية «صُمَيْد» قرب بصرى من بلاد حوران، ويقال لها الآن: صُماد.

منه جماعة من العلماء، في سنة خمس وثلاثين وسبع مئة»[1].

وقال ابن قاضي شهبة: «وخرج له الذهبي جزءاً من عواليه»[2]. وذكر مثله الحافظ ابن حجر[3].

ـ الرد على ابن القطان = مختصر «بيان الوهم والإيهام» لابن القطان.

٣٥ ـ طرق حديث الرحمة:

حديث: (ارْحَمُوا مَنْ [في] الأرض يَرْحَمْكُم مَنْ في السماء)[4]، جمع طرقه غير واحد، منهم الحافظ الذهبي كما ذكر الكتاني[5].

٣٦ ـ طرق حديث رفع اليدين في الصلاة:

ذكره السخاوي في «الغاية شرح الهداية»[6]، فقال: «حديث رفع اليدين في الصلاة، وقد تتبع طرقه الحافظ الذهبي، فبلغت نيفاً عن أربعين صحابياً».

٣٧ ـ طرق حديث الطير = الكلام على حديث الطير:

حديث الطير رواه الترمذي عن أنس قال: «كان عند النبي ﷺ

---

(١) الرد الوافر: ٨٩.

(٢) طبقات الشافعية: ٣/١٢٥.

(٣) إنباء الغمر: ١/٦١، وذكره أيضاً: النعيمي في الدارس: ١/٩٤، وابن العماد في شذراته: ٦/٢٣٤، والكتاني في فهرس الفهارس: ١/٤٤٠.

(٤) أخرجه أحمد والحميدي وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الحافظان العراقي وابن ناصر الدين الدمشقي.

(٥) الرسالة المستطرفة: ١١٢.

(٦) ورقة ٣١/أ، نقلاً عن «صفحات في ترجمة الذهبي» ص ٣٣.

طير، فقال: (اللهم ائتني بأحبِّ خلقكَ إليكَ يأكل معي هذا الطير). فجاء عليٌّ فأكل معه»[1]. ورواه الحاكم في «المستدرك» عن أنس، وفيه أن أنساً حاول صرفَ عليٍّ مرتين رجاء أن يكون الداخل أنصارياً، وفي المرة الثالثة دخل عليٌّ على النبي ﷺ[2].

وقد جمع الذهبي طرقه كما ذكر هو في غير موضع من كتبه، فقال: «وحديثُ الطير ـ على ضعفه ـ فله طُرق جَمَّة، وقد أفردتُها في جزء، ولم يثبتْ، ولا أنا بالمعتقد بطلانَه»[3].

وقال في «تلخيص المستدرك»: «ولقد كنتُ زماناً طويلاً أظن أن حديث الطير لم يجسر الحاكم أن يودعه في «مستدركه»، فلما علقتُ هذا الكتاب رأيت الهول من الموضوعات التي فيه، فإذا حديث الطير بالنسبة إليها سماء»[4].

وذكر في «التذكرة» أن الحاكم سئل عن حديث الطير فقال: «لا يصح، ولو صحَّ لما كان أحد أفضل من علي رضي الله عنه بعد النبي ﷺ». وعقب الذهبي على ذلك فقال: «ثم تغير رأي الحاكم، وأخرج حديث الطير في «مستدركه»... وأما حديث الطير فله طرق كثيرة جداً قد أفردتُها بمصنف، ومجموعها هو مما يُوجب أن يكون الحديث له أصل»[5].

فالذهبي لا يرى أن الحديث موضوع بل ضعيف، كما يتضح من كلامه.

---

(١) سنن الترمذي: ٥/٦٣٦ ـ ٦٣٧، حديث رقم (٣٧٢١).

(٢) المستدرك: ٣/ ١٣٠ ـ ١٣١، وقال: صحيح على شرط الشيخين!.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٣٣. وذكره الكتاني في الرسالة المستطرفة: ١١٢.

(٤) المستدرك: ٣/١٣١.

(٥) تذكرة الحفاظ: ٣/١٠٤٢ ـ ١٠٤٣، وذكر نحوه في سير أعلام النبلاء: ١٧/١٦٨ ـ ١٦٩.

وخلاصة رأي الذهبي ـ في جزئه هذا ـ نقلها تلميذه الحافظ ابن كثير فقال: «وقال شيخنا أبو عبدالله الذهبي ـــ في جزء جمعه في هذا الحديث، بعدما أورد طرقاً متعددة نحواً مما ذكرنا ـ[1]: ويروى هذا الحديث، من وجوه باطلة أو مظلمة عن حجاج بن يوسف وأبي عصام خالد بن عُبيد و..... ثم قال بعد أن ذكر الجميع: الجميع بضع وتسعون نفساً، أقربها غرائب ضعيفة وأردؤها طرق مختلَقة مفتعَلَة، وغالبها طرق واهية»[2].

٣٨ ـ طرق حديث (من كنت مولاه):

حديث: (مَنْ كنتُ مَوْلاهُ فعليٌّ مولاه) صحيح بشواهده[3]، وقد جمع الذهبي طرقه، قال: «وقد جمعت طرق حديث الطير في جزء، وطرق حديث: (من كنت مولاه)، وهو أصح...»[4]. وقال في «التذكرة»: «وأما حديث: (من كنت مولاه) فله طرق جيدة، وقد أفردت ذلك»[5].

٣٩ ـ عوالي حَمَّاد بن زَيْد:

ذكرها الذهبي في ترجمة الحافظ الثَّبْت حماد بن زيد (ت ١٧٩ هـ)، فقال: «ومن عوالي حماد ـ وقد أفردتُها ـ أخبرنا عبد الحافظ بن بدران...»[6] وقال في موضع آخر: «وقع لي أحاديث عالية من طريق حماد، قد أفردتها»[7].

---

(١) انظر ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/٣٥١ ـ ٣٥٣.

(٢) البداية والنهاية: ٧/٣٥٣.

(٣) كما قال العلامة المحدث شعيب الأرناؤوط، سير أعلام النبلاء: ١٧/١٦٨ هامش.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٧/١٦٩.

(٥) تذكرة الحفاظ: ٣/١٠٤٣. وذكره الكتاني في الرسالة المستطرفة: ١١٢.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٧/٤٦٢.

(٧) تاريخ الإسلام، وفيات: (١٧١ ـ ١٨٠) ص ٩٩.

٤٠ ـ عوالي حماد بن سلمة:

قال الذهبي في ترجمة الإمام القدوة شيخ الإسلام حَمَّاد بن سَلَمة (ت ١٦٧ هـ): وقد وَقَعَ لي من أعلى رواياته بضعةَ عشر حديثاً، أفردتُها قديماً في سنة بضع وتسعين وست مئة». وذكر في موضع آخر أن عدد هذه الأحاديث العوالي «أربعة عشر حديثاً»[١].

ـ عوالي ابن الخلال = جزء ابن الخلال.

ـ عوالي ابن رافع = جزء من عوالي ابن رافع السلامي.

٤١ ـ عوالي زينب بنت الكمال:

ذكرها السخاوي في ترجمة عبد القادر بن محمد بن علي الدمشقي، سبط الذهبي، فقال: «وسمع الكثير على جده لأمّه الحافظ، وابن أبي التائب، . . . وزينب ابنة الكمال، ومما سمعه عليها: مشيخة ابن شاذان الصغرى، وعواليها تخريج الذهبي»[٢].

٤٢ ـ عوالي الشمس ابن الواسطي:

قال الذهبي في ترجمة شيخه المسنِد شمس الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن أحمد ابن الواسطي الصالحي الحنبلي (ت ٦٩٩ هـ): «خرجتُ له عوالي، وخرَّجَ له الحافظ أبو العباس النابلسي مشيخة في جزءين»[٣]. وقال في ترجمته من «تاريخ الإسلام»: «خرجتُ له عوالي في جزء ضخم».

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/٤٥٤، تاريخ الإسلام، وفيات: (١٦١ ـ ١٧٠) ص ١٥٠.
(٢) الضوء اللامع: ٤/٢٩١. وزينب بنت الكمال توفيت سنة (٧٤٠ هـ)، وقد ترجم لها الذهبي في معجم الشيوخ: ص ١٩٩.
(٣) معجم الشيوخ: ٥٣١.

وذكرها سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

٤٣ ــ عوالي الطاووسي:

الطاووسي: هو أحمد بن عبد المنعم بن أبي الغنائم القزويني الطاووسي (ت ٧٠٤). قال الذهبي: «وسمع بحلب من ابن خليل، وخرجتُ له عوالي فيها بالإجازة العامة عن الصيدلاني وأسعد بن سعيد وعفيفة». وقال في موضع آخر: «انتخبتُ له جزءاً رواه مرات»[١].

٤٤ ــ عوالي أبي عبدالله بن اليونيني:

ابن اليونيني: هو العالم الفقيه أبو عبدالله عبد القادر بن أبي الحسين علي بن محمد اليونيني البعلي الحنبلي (ت ٧٤٧ هـ)، ذكره الذهبي في «معجم شيوخه»، وقال: «انتقيتُ له جزءاً»[٢].

وقال ابن رافع: «وخرج له الذهبي جزءاً»[٣]. وذكر ابن حجر مثل هذا[٤]. وقال سبطه في «رونق الألفاظ»: «وخرج عوالي لابن اليونيني».

فيكون الجزء الذي ذكره الذهبي وابن رافع وابن حجر هو من «الأحاديث العوالي». والله أعلم.

٤٥ ــ عوالي علاء الدين ابن العطار:

هو الفقيه المحدث أبو الحسن علي بن إبراهيم بن داود العطار (ت ٧٢٤ هـ)، أخو الذهبي من الرضاعة[٥].

---

(١) معجم الشيوخ: ٥٥، أهل المئة فصاعداً: ١٣٧، وانظر: الدرر الكامنة: ١/١٩٤.

(٢) معجم الشيوخ: ٣٢٣.

(٣) الوفيات: ٢/٢٨.

(٤) الدرر الكامنة: ٢/٣٩٠.

(٥) انظر: ص ٣٤ من هذا الكتاب.

خرج له الذهبي «عوالي» كما ذكر ابن حجر[1].

٤٦ ـ العوالي من حديث مالك:

ذكرها الذهبي في ترجمة الإمام مالك بن أنس من «تاريخ الإسلام»: فقال: «وكذا أفردتُ ما وقع لي عالياً من حديثه في جزء»[2].

وعدد هذه «الأحاديث العوالي» أربعون حديثاً، كما يُفهم ذلك من قول الذهبي: «ووقع لي من عالي حديثه بالاتصال أربعون حديثاً من المئة الشُّرَيحية». وقال في موضوع آخر: «وبيني وبين مالك سبعة أنفس في أربعين حديثاً متصلة لي»[3].

٤٧ ـ العوالي المنتقاة من «جزء أبي مسعود الرازي»:

أبو مسعود الرازي: هو أحمد بن الفرات بن خالد الضَّبِّيّ الرازي، الحافظ الكبير الحجة، محدث أصبهان (ت ٢٥٨ هـ).

وجزؤه قال عنه الذهبي: «جزء ابن الفرات من أعلى شيء يُسمع اليوم»[4]. انتقى الذهبي من هذا الجزء «عوالي» توجد منها نسخة في «دار الكتب الظاهرية» تقع في (٩) ورقات.

٤٨ ـ العوالي المنتقاة من حديث الذهبي:

قال الكتاني ـ وهو يسرد مصنفات الذهبي ـ: «وجزء في عواليه،

---

(١) المعجم المفهرس: ورقة ١٤٢ / ب.

(٢) تاريخ الإسلام، وفيات: (١٧١ ـ ١٨٠) ص ٣٣٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/٥٩، تذكرة الحفاظ: ١/٢٠٧.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٢/٥٤٥.

خرجه لنفسه، وهو عندي في كراسة صغيرة»[1] .

وتوجد من هذه «العوالي» نسخة في «الظاهرية» بدمشق.

٤٩ ــ غرائب سنن ابن ماجه:

ذكرها نجم الدين عمر ابن فهد[2].

ــ الكلام على حديث الطير = طرق حديث الطير.

٥٠ ــ مختصر «بيان الوهم والإيهام» = الرد على ابن القطان:

ألف الإمام العلامة الحافظ الناقد أبو الحسن علي بن محمد المغربي الفاسي المعروف بابن القطان[3] (ت ٦٢٨ هـ) كتاب «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام»، انتقد به كتاب «الأحكام الشرعية الكبرى»[4] للحافظ البارع المجوِّد أبي محمد عبد الحق بن الرحمن الإشبيلي المعروف بابن الخراط[5] (ت ٥٨١ هـ).

---

(١) فهرس الفهارس: ١/٤١٨ ــ ٤١٩.

(٢) معجم شيوخه: ١٢٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢/٣٠٦، تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٠٧، وغيرهما.

(٤) كما قال الذهبي في تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٠٧، وسير أعلام النبلاء: ٢١/٢٠٠، والكتاني في الرسالة المستطرفة: ١٧٨. ويرى الأستاذ قاسم سعد أنه انتقاد «للأحكام الوسطى»، واستدل على ذلك بأدلة منها أن الذهبي لم ير «الأحكام الكبرى». صفحات في ترجمة الذهبي: ٢٨ ــ ٢٩. وهذا عجيب منه، فإذا كان الذهبي لم يرها فهل يعني هذا أن ابن القطان ــ الذي انتقدها ــ لم يرها؟! زد على ذلك أن «الأحكام الوسطى» تقع في مجلدين، ورد ابن القطان في مجلدين كذلك، فهل يُعقل أن يكون بيان الوهم بمقدار الكتاب الأصل، إلا إذا قلنا بأن الكتاب كله وهم!!

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢١/١٩٨، التذكرة: ٤/١٣٥٠.

وقد وقع ابن القطان نفسه بأوهام كثيرة، مما دفع الذهبي إلى اختصار كتابه، والتنبيه على أوهامه وتعنّته، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «طالعت كتابه المسمى بالوهم والإيهام، الذي وضعه على «الأحكام الكبرى» لعبد الحق، يدل على حفظه وقوة فهمه، لكنه تعنت في أحوال رجال فما أنصف، بحيث إنه أخذ يليِّن هشام بن عروة ونحوه»(١). وقال في ترجمة عبد الحق من «النبلاء»: «وصنف الحافظُ القاضي أبو الحسن عليُّ بن محمد بن عبد الملك الحميريُّ الكتاميُّ الفاسي المشهورُ بابن القطان كتاباً نفيساً في مجلدتين سماه «الوهم والإيهام فيما وقع من الخلل في الأحكام الكبرى لعبد الحق» يناقشه فيه فيما يتعلق بالعلل وبالجرح والتعديل، طالعتُهُ، وعلَّقتُ منه فوائد جليلة»(٢).

وقال ابن ناصر الدين في «التبيان»: «ولابن القطان فيه وهم كثير، نبه عليه أبو عبدالله الذهبي في منتقى منه كبير».

وفي «دار الكتب الظاهرية» رسالة بعنوان: «الرد على ابن القطان» وبالتأمل فيما احتوته يتبين أنّها استلال وتلخيص لأحد العلماء من «مختصر بيان الوهم والإيهام» للذهبي، حيث جاء في مقدمة هذه النسخة: «قال الشيخ الإمام أبو عبدالله الذهبي ـ رحمه الله ـ في كتابه «مختصر كتاب الوهم والإيهام» لابن القطان: قال الحافظ العلامة... ابن القطان: الحمد لله كما يحق له ويجب، والصلاة على نبيه محمد المنتخب، فذكر خطبة ابن القطان لكتابه». ويفهم من هذا أن ما تضمنته هذه الرسالة هو جزء من المختصر، وأن المختصر قد احتوى مقدمة ابن القطان، وإذا كان هناك مجرد ردّ وتعقّب فلا داعي لذكر مقدمة ابن القطان بطولها.

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١٤٠٧/٤، وذكر نحوه في تاريخ الإسلام.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠٠/٢١، وانظر: ٣٠٧/٢٢.

كذلك ذُكر ـ قبل ختام «النسخة الظاهرية» هذه ـ المصنِّفون الـذين أخرج عنهم عبد الحق في كتابـه مـرتبين حسب وفيـاتهم ومختصرين. وهذا الترتيب والاختصار من عمل الذهبي لا ابن القطان؛ فلو كانت هذه الرسالة من تأليف الذهبي رداً على ابن القطان، فما الداعي لذكر المصنفين في الرد؟

وجاء في آخر الرسالة: «قال الشيخ أبو عبدالله الذهبي: «فرغنا من ترتيب ما وجدناه في الكتاب بالترتيب الصناعي، بقي علينا أن نذكر جميع ما مرّ ذكره في الأبواب ذكراً مختصراً مرتباً على نسق المصنف ليسهل كشفه». فَسَرَد ذلك في خمس وثلاثين ورقة». وواضح من قوله «فَسَرَد» أنه من كلام الملخِّص.

ومن هذا يُفهم أن الذهبي قد اختصر «بيان الوهم والإيهام»، ولخَّصه ورتَّب ما وجده في الكتاب بالترتيب الصناعي ـ أي على الأحاديث ـ وذكر جميع ما مر ذكره في الأبواب ذكراً مختصراً مرتباً على نسق المؤلّف ليسهل كشفه. وخلال ذلك نبَّه على أوهام ابن القطان وأغلاطه وتعنّته.

وقد مال الدكتور بشار عواد إلى أن الذهبي اختصر الكتاب أولاً، ورد على أغلاط ابن القطان ثانياً[1]. ولسنا نرى ذلك، بل نرجح أن الذهبي اختصر الكتاب، وضَمَّنَه ردوده وتعقباته، آخذين بعين الاعتبار ما ذكرناه آنفاً، ونضم إليه أننا ما عهدنا من الذهبي أنه يعمد إلى مؤلَّف فيختصره في تصنيف لـه، ثم يردّ على أوهامه وأغلاطه في تصنيف آخر. أضف إلى ذلك ما حفظناه من أسلوب الذهبي وطريقته ومنهجه في الاختصار، حيث لا يكتفي بالتلخيص بل يزيده استدراكات وتعقبات

---

(١) الذهبي ومنهجه: ١٧٣، ٢٥٠، حيث اعتبره كتابين.

وإيضاحات وتحقيقات ونقدات وتخريجات، وغير ذلك. وليس ثمة دليل على أن للذهبي كتاباً مفرداً في الرد على أوهام ابن القطان في كتابه «بيان الوهم والإيهام»[1].

٥١ ـ مختصر «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» للمزي:

ذكر هذا الكتاب للذهبي: الصفدي وابن شاكر الكتبي، والسبكي، والزركشي، وابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، والسيوطي، وطاش كبرى، وحاجي خليفة، وابن العماد، والكتاني في «الرسالة المستطرفة».

وكتاب «تحفة الأشراف»[2] من الكتب النفيسة الجليلة في الحديث، وموضوعه هو جمع أطراف[3] أحاديث الكتب الستة، مضافاً إليها تصانيف أصحاب الكتب الستة الأخرى: كمقدمة كتاب مسلم، و«المراسيل» لأبي داود، و«العلل» للترمزي، و«الشمائل» له، و«عمل يوم وليلة» للنسائي، وغيرها.

ومختصر الذهبي يقع في مجلدين كما ذكر ابن شاكر الكتبي والزركشي.

ـ مختصر سنن البيهقي = مهذب سنن البيهقي.

---

(١) وقد مال إلى رأينا الأستاذ قاسم سعد، انظر: صفحات في ترجمة الذهبي: ٢٧ ـ ٢٨، وقد استفدنا مما كتبه.

(٢) وقد طُبع «تحفة الأشراف» وبهامشه «النكت الظراف» لابن حجر، بتحقيق عبد الصمد شرف الدين.

(٣) كتب الأطراف: هي التي يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث الدال على بقيته، مع الجمع لأسانيده، إما على سبيل الاستيعاب، أو على جهة التقيُّد بكتب مخصوصة. وقد قال العلماء: محدث بلا أطراف كإنسان بلا أطراف.

٥٢ ـ مختصر «المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقي:

كتاب «المدخل إلى السنن الكبرى» للبيهقي يقع في مجلد، اختصره الذهبي كما ذكر سبط ابن حجر، ولا نعرف عن هذا المختصر شيئاً.

٥٣ ـ مختصر «المستدرك» للحاكم:

ذكره غير واحد، وهو مشهور مطبوع مع «المستدرك» في كتاب واحد، في أربعة مجلدات كبار.

وقد أودع الحاكم في «مستدركه» الأحاديث التي يرى أنها على شرط البخاري ومسلم، أو أحدهما مما لم يذكراه في صحيحيهما. وقد اختلف الأئمة في تصحيح الحاكم الأحاديث في «مستدركه»: فَبَالَغَ بعضهم فزعم أنه لم ير فيه حديثاً على شرط الشيخين، وهذا غلوّ ـ كما يقول الذهبي ـ. وبعضهم اعتمد تصحيحه مطلقاً، وهذا تساهل. والحقّ ما قاله الحافظ ابن حجر: إنما وقع للحاكم التساهل لأنه سوّد الكتاب لينقحه، فأعجلته المنية.

وقد قام الحافظ الذهبي باختصاره وتنقيد أحاديثه، وأصدر رأيه الإجمالي في «المستدرك» بقوله: «في المستدرك شيءٌ كثير على شرطِهما، وشيء كثير على شرط أحدهما، ولعلَّ مجموعَ ذلك ثلثُ الكتاب بل أقلّ، فإن في كثير من ذلك أحاديث في الظاهر على شرط أحدهما أو كليهما، وفي الباطن لها عللٌ خفية مؤثرةٌ، وقطعةٌ من الكتاب إسنادُها صالحٌ وحَسَنٌ وجيِّد، وذلك نحو رُبُعه، وباقي الكتاب مناكير وعجائب، وفي غُضُون ذلك أحاديثُ نحو المئة يشهد القلبُ ببطلانها، كنتُ قد أفردتُ منها جزءاً، وحديثُ الطير بالنسبة إليها سماء، وبكل

حالٍ فهو كتاب مفيدٌ قد اختصرتُه، ويعوزُ عملًا وتحريراً»[1].

وقد ظهرت في هذا الكتاب براعة الذهبي المحدث الناقد، وطول باعه في نقد الحديث سنداً ومتناً، لكنه لم يعتنِ بالمختصر اعتناء تاماً[2]، بحيث لم يتتبع الأحاديث تتبعاً دقيقاً، وإنما تكلم فيه بحسب ما تيسر له، ولذا فقد فاته أن يتكلم على عدد غير قليل من الأحاديث صححها الحاكم وهي غير صحيحة، أو ذكر أنها على شرط الشيخين أو على شرط أحدهما، وهي ليست كذلك.

ومختصر الذهبي يقع في مجلدين تقريباً.

٥٤ ــ مختصر «المستدرك» للهروي:

ذكره الذهبي في ترجمة الحافظ المجوِّد أبي ذر عَبْد بن أحمد الهَرَويّ، فقال: «له مستدركٌ لطيف في مجلد على «الصحيحين»، علَّقتُ منه».

وقال في موضع آخر: «وله أيضاً مستدرك لطيف في مجلد على «الصحيحين»، علَّقْتُ كثيراً منه، يدل على حفظه...»[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٧/١٧٥ ــ ١٧٦.

(٢) كما يقول العلامة المحدث شعيب الأرناؤوط: سير أعلام النبلاء: ١٧/١٧٦ هامش. وذكر الأستاذ المحدث أحمد شاكر أن الذهبي «له أيضاً أغلاط» في تلخيصه. الباحث الحثيث: ص ٢٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧/٥٥٩ ــ ٥٦٠، تذكرة الحفاظ: ٣/١١٠٦، وكثيراً ما يستخدم الذهبي عبارة «علَّقت منه» «علَّقت الكتاب» «علَّقت منه فوائد»؛ للدلالة على أنه اختصره أو انتخب منه.

٥٥ ـ المستدرك على «مستدرك الحاكم»:

وهو جزء جمع فيه الذهبي ما وقع في «المستدرك» من الموضوعات، وهي نحو مئة حديث.

ذكره الذهبي في أثناء كلامه على درجات أحاديث المستدرك، فقال: «... وفي غضون ذلك أحاديث نحو المئة، يشهد القلب ببطلانها، كنتُ قد أفردتُ منها جزءاً»[١].

وأشار إليه تلميذه ابن كثير ـ عند كلامه على أحاديث المستدرك ـ فقال: «وقد اختصره شيخنا أبو عبدالله الذهبي، وبيَّنَ هذا كله. وجمع فيه جزءاً كبيراً مما وقع فيه من الموضوعات، وذلك يقارب مئة حديث»[٢].

ونحو ذلك ما ذكره حاجي خليفة عند كلامه على «المستدرك»، فنقل كلام البُلْقَيْنِيّ فيه: «وفيه ضعيف، وموضوع أيضاً، وقد بين ذلك الحافظ الذهبي، وجمع منه جزءاً من الموضوعات يقارب مئة حديث»[٣].

ومن هذا الجزء قطعة في «دار الكتب الظاهرية» بدمشق.

٥٦ ـ مختصر «مسند عمر» للإسماعيلي:

قال الذهبي في ترجمة الحافظ الثبت أبي بكر أحمد بن إبراهيم

(١) سير أعلام النبلاء: ١٧/١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) الباعث الحثيث: ٢٧.

(٣) كشف الظنون: ٢/١٦٧٢، ثم ذكر حاجي خليفة «مختصر المستدرك للذهبي»، فهما كتابان لا واحد. وأما فؤاد سزكين ـ في تاريخ التراث: المجلد الأول جـ ١/٤٥٥ ـ فذكر كتابَي الذهبي في مكان واحد هكذا: «تلخيص أو المستدرك على المستدرك» فهما عنده كتاب واحد، والصواب ما قدمناه.

الإسماعيلي الجرجاني: «... وصنَّفَ الصحيحَ وأشياء كثيرةً من جملتها «مسند عمر» رضي الله عنه، هذَّبه في مجلدين، طالعتُه وعلقت منه»[1].

٥٧ ــ مصافحات سليمان بن حمزة المقدسي:

هو مسنِد الشام تقي الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر ابن قدامة المقدسي الحنبلي (ت ٧١٥ هـ). وهو أحد شيوخ الذهبي، وقد ترجم له في أكثر من كتاب[2]، وأثنى عليه جداً.

ذكر الحافظ ابن حجر أن الذهبي خرج له «مصافحات» [3].

٥٨ ــ المنتقى من «الأحاديث المختارة» للضياء:

ألَّف الحافظ الثقة ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣ هـ) كتابه «الأحاديث الجياد المختارة مما ليس في الصحيحين أو أحدهما»، ويعرف بـ «المختارة» ولم يكمل، التـزم فيه الصحة، وقد سُلِّم له فيه إلا أحاديث يسيرة جداً تُعقبت عليه[4].

وقد ذكر ابن حجر أن للذهبي «منتقى من كتاب الأحاديث المختارة للضياء»[5].

٥٩ ــ «المنتقى من جزء أبي الجهم»:

أبو الجهْم العلاء بن موسى بن عطية الباهلي، محدث ثقة، توفي سنة (٢٢٨ هـ)، هو صاحب ذاك الجزء العالي المشهور الذي وصفه

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٩٤٨/٣.

(٢) معجم الشيوخ: ٢١٥، المعجم المختص ١٠٤، ذيل العبر: ٤٢/٤.

(٣) المعجم المفهرس: ورقة ١٥٨/ب.

(٤) الرسالة المستطرفة: ٢٤.

(٥) المعجم المفهرس: ورقة ٦٠/ب.

الذهبي بأنه «أعلى الأجزاء إسناداً في سنة خمس عشرة وسبع مئة»[1].

وقد اعتنى الذهبي به، فسمعه من نيِّف وستين نفساً[2]، وذكر الروداني في «صلة الخَلَف» أن للذهبي «منتقى» من هذا الجزء[3].

٦٠ ـ المنتقى من «جزء ابن عَرَفة»:

ابن عَرَفَة: هو الإمام المحدث الثقة أبو علي الحسن بن عرفة العبدي البغدادي، المعمَّر (ت ٢٥٧ هـ).

وجزؤه مشهور، وللذهبي «منتقى» منه يقع في (١٠) ورقات مع السماعات، توجد منه نسخة في «الظاهرية» بدمشق.

٦١ ـ المنتقى من حديث الأَبَرْقُوهي:

الأبرقوهي: هو المحدث العالم الزاهد أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد بن المؤيد الأبرقوهي، (ت ٧٠١ هـ)، أحد شيوخ الذهبي.

ذكر الروداني في «صلة الخلف» أن للذهبي «منتقى» من حديثه[4].

٦٢ ـ المنتقى من حديث تقي الدين البَعْلي:

تقي الدين البعلي: هو محمد بن محمد بن عيسى. الفقيهُ الإمام قاضي طرابلس. قال الذهبي في ترجمته: «خرجتُ له جزءاً»[5]. وهذا الجزء هو مجموعة الأحاديث المنتقاة من مرويات تقي الدين البعلي، جمعها الذهبي وخرَّجها له، وقد حدث بها البعلي بعد ذلك.

---

(١) تاريخ الإسلام، وفيات: (٢٢١ ـ ٢٣٠) ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥٢٦.

(٣) صلة الخلف: ٤٠٠.

(٤) صلة الخلف: ٣٩٧.

(٥) المعجم المختص: ٢٥٩. والبَعْلي: نسبة إلى بَعْلَبَكّ، يقال: البعلي والبعلبكي.

٦٣ ـ المنتقى من حديث القاسم بن يوسف التجيبيّ:

هو الإمام المحدث الرحّال علم الدين القاسم بن يوسف[١] التُّجَيْبي السبتي. له «برنامج» عظيم في مشيخته، و«رحلة» عريضة في مجلدات.

ترجم له الذهبي في «المعجم المختص»، وذكر هذا «المنتقى» فقال: «انتقيت له مئة حديث عن مئة شيخ»[٢]. وذكره ابن حجر في ترجمة التجيبي هذا فقال: «وقال الذهبي: خرَّجْتُ له مئة حديث عن مئة شيخ»[٣].

٦٤ ـ المنتقى من عوالي القُوْنَوي:

ذكره النجم عمر ابن فهد[٤].

٦٥ ـ المنتقى من «مسند عبْد بن حُمَيْد»:

عبْد بن حُميد: هو الإمام الحافظ الحجة أبو محمد عبد بن حميد بن نصر الِكسي، المتوفى سنة (٢٤٩ هـ). له مسندان: كبير وصغير، والصغير هو المسمى بالمنتخب، وهو الموجود في أيدي الناس في مجلد لطيف[٥].

وقد ذكر الذهبي في غير موضع أن الذي وقع له هو

---

(١) وفي فهرس الفهارس: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥: أبو القاسم بن يوسف.
(٢) المعجم المختص: ١٩٤، وتحرفت العبارة فيه إلى: وَأَثْبَتُّ له رواية حديثٍ عن مئة شيخ» وهو تحريف قبيح!!
(٣) الدرر الكامنة: ٣/ ٢٤٠.
(٤) معجم الشيوخ لابن فهد: ٣٤٨.
(٥) الرسالة المستطرفة: ٦٦ ـ ٦٧.

«المنتخب»[1]، وعلى هذا فمنتقى الذهبي من المنتخب لا من «المسند الكبير». وقد سمع منتقى الذهبي الحافظ ابنُ حجر على شيخه أبي بكر بن إبراهيم ابن العز محمد ابن قدامة المقدسي المعروف بالفرائضي (ت ٨٠٣ هـ)، فقال في «المجمع المؤسس»: «جزء فيه منتقى من مسند عبد بن حميد، انتقاء الذهبي بسماعه على الحجار»[2].

وقول ابن حجر: «جزء في منتقى...» دليل آخر على أنه «منتقى من المنتخب»؛ إذ لا يعقل أن ينتقي الذهبي جزءاً صغيراً من «المسند الكبير».

٦٦ ـ المنتقى من «مسند أبي عوانة»:

أبو عَوَانَة: هو الإمام الحافظ الكبير يعقوب بن إسحاق النيسابوري الإسفراييني (ت ٣١٦ هـ)، له «المسند الصحيح» الذي خرَّجه[3] على «صحيح مسلم» وزاد أحاديث قليلة في أواخر الأبواب.

ومنتقى الذهبي من هذا المسند ذكر ابنُ حجر في «المجمع المؤسس» أنه سمعه على شيخه تقي الدين الصالحي (ت ٨٠٣ هـ) وقال: «وهو جزء كبير يشتمل على مئتين وثلاثين حديثاً».

٦٧ ـ المنتقى من «معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المقلِّين لدَعْلَج»:

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٢/٢٣٥، تذكرة الحفاظ: ٢/٥٣٤، تاريخ الإسلام، وفيات: (٢٤١ ـ ٢٥٠) ص ٣٤١.

(٢) أبو العباس الحجار أحد شيوخ الذهبي، انظر ترجمته: ص ٧٤ من هذا الكتاب.

(٣) التخريج: أن يأتي المصنِّف إلى الكتاب فيخرِّج أحاديثه بأسانيدَ لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب، فيجتمع معه في شيخه أو مَنْ فوقه.

المعجم الأوسط للطبراني: ألفه في أسماء شيوخه، وهم قريب من ألفي رجل، وأكثر فيه من غرائب حديثهم، وهو في ستة مجلدات كبار.

والمعجم الكبير له: ألفه في أسماء الصحابة ـ عدا مسند أبي هريرة فإنه أفرده في مصنف ـ وأورد فيه ستين ألف حديث في اثني عشر مجلداً[1].

و«مسند المقلين» للحافظ المحدث الحجة الفقيه دَعْلَج بن أحمد بن دَعْلَج السجستاني ثم البغدادي المتوفى سنة (٣٥١ هـ)[2].

انتقى الذهبي من هذه الكتب الثلاثة جملة أحاديث وتكلم عليها وعلى رواتها. ومن هذا المنتقى قطعة صغيرة في «دار الكتب الظاهرية»، في (٧) أوراق.

٦٨ ـ مهذب «السنن الكبرى» للبيهقي = مختصر السنن الكبرى:

كتاب «السنن الكبرى» للحافظ البيهقي من كتب الحديث الجليلة، رتبها ترتيباً فقهياً، فاستوعب أكثر أحاديث الأحكام، وصفه الذهبي بقوله: «السنن الكبير في عشر مجلدات، ليس لأحد مثله»[3].

اعتنى الذهبي بهذا الكتاب النفيس وهذبه، فاختصر الأسانيد وأبقى من السند ما يعرف به مخرج الحديث[4]، وأبقى على المتون فلم

---

(١) الرسالة المستطرفة: ١٣٥.

(٢) وله «المسند الكبير» صنفه له الدارقطني.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٨/١٦٥ ـ ١٦٦. وقد طبع هذا الكتاب في عشر مجلدات، وبذيله «الجوهر النقي» لابن التركماني، المتوفى سنة (٧٤٥ هـ).

(٤) وهذه عادة مألوفة للذهبي لاحظناها في «تنقيح كتاب التحقيق» و«مختصر المستدرك» وغيرهما.

يحذف منها إلا القليل الذي يتكرر في الأبواب القريبة من بعضها. ووضع رموزاً على الحديث للدلالة على مَنْ خرجه من أصحاب الكتب الستة، وما لم يرد فيها بيَّن إسناده ومخرجه، وتكلَّم على أسانيد الكتاب بنفائس تدل على عبقريته وإمامته.

وجاء مختصر الذهبي هٰذا في خمسة مجلدات على قدر النصف من حجم الكتاب الأصل، وقد طبع بالقاهرة باسم «المهذب في اختصار السنن الكبير» والعنوان الذي اخترناه أصح لانطباقه على عمل الذهبي من جهة، ولأنه عنوان نسخة في «استنبول» منقولة عن نسخة بخط المؤلف من جهة ثانية.

وقد ذكر هذا الكتاب للذهبي أكثر الذين ترجموا له.

ب ــ كتب المصطلح وعلم الرجال والجرح والتعديل:

٦٩ ــ أسماء الرواة عن مالك:

ذكره الذهبي في ترجمة الإمام مالك بن أنس من «النبلاء» فقال: «وقَد كنتُ أفردتُ أسماءَ الرواة عنه في جزء كبير، يقارب عددهم ألفاً وأربع مئة»[١].

وهو غير كتاب الذهبي في «ترجمة الإمام مالك» لقوله هنا: «أفردت أسماء الرواة عنه». والله أعلم.

٧٠ ــ أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع:

أورد الذهبي فيه أسماء الرواة الذين عُمِّروا، بحيث عاشوا ثمانين

(١) سير أعلام النبلاء: ٥٢/٨.

سنة أو أكثر بعد وفاة أشياخهم، أو بعد سماعهم منهم؛ للدلالة على علو إسنادهم.

وقد ألفه سنة (٧١٧ هـ).

٧١ ــ البيان عن اسم «ابن فلان»:

ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ». ويبدو أنّ موضوع الكتاب فيمن اشتهر «بابن فلان»، نحو قولهم: «ابن الحنفيَّة»، «ابن جُرَيج»، «ابن حبان»، «ابن أبي مُلَيْكة» «ابن أبي ذِئب»، «ابن عُلَيَّة»، ونحوها، فيذكر الذهبي ذلك ثم يذكر أسماءهم الصريحة. والله تعالى أعلم.

٧٢ ــ تذهيب تهذيب الكمال:

صنف الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجَمَّاعيلي (ت ٦٠٠ هـ) كتابه «الكمال في أسماء الرجال»، ورتَّبه على الطبقات، وجعله في «رجال الكتب الستة» لكنه لم يستقصِ الرواة. ويعتبر «الكمال» أصلاً لما جاء بعده من الكتب في هذا الباب.

فجاء بعده الحافظ الجِهْبِذ أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المِزِّي (ت ٧٤٢ هـ)، فهذَّب «الكمال» واستدرك عليه فوائد كثيرة، فزاده قرابة (١٧٠٠) ترجمة، وتوسع في التراجم، واستقصى الرواة، ورتبه على حروف المعجم، وسماه «تهذيب الكمال»، وهو أوسع من «الكمال» بكثير. وهو كتاب جليل لا مثيل له.

وقد اختصر الذهبي «تهذيب الكمال»[1] في كتابه «تذهيب تهذيب

---

(١) اختصر «تهذيب الكمال» واستدرك عليه غير واحد من الأئمة، وأحسن مختصراته وأصحها وأكملها «تهذيب التهذيب» للحافظ. انظر كتابنا «ابن حجر»: ص ٤٤١ ــ ٤٤٤.

الكمال»، وحافظ على ترتيب الأصل على حروف المعجم، وأضاف إليه إضافات جيدة، فعلَّق على كثير من تراجم الأصل من حيث الرواية وضبط الأسماء، والوفيات، وبعض أقوال العلماء في المترجمين. لكن ذلك قليل كما يُفهم من قول الحافظ ابن حجر الذي انتقد عمل الذهبي في «التذهيب»، فقال: «أطال فيه العبارة، ولم يعدُ ما في التهذيب غالباً، وإن زاد ففي بعض الأحايين وفيات بالظن والتخمين، أو مناقب لبعض المترجمين، مع إهمال كثير من التوثيق والتجريح، اللذين عليهما مدار التضعيف والتصحيح»[1].

وقد التقط ابن حجر زيادات الذهبي في «تذهيبه»، وضمَّنها كتابه القيم «تهذيب التهذيب»[2]. واختصر «تذهيب» الذهبي، وزاد عليه زيادات صفيُّ الدين أحمد بن عبدالله الخزرجي الساعدي، جمعه سنة (٩٢٣ هـ)؛ وسمى مختصره: «خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال»[3]. الشهير بخلاصة الخزرجي.

٧٣ ــ تراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق:

وهي رسالة صغيرة في الرجال الذين روى عنهم الإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت ١٥١ هـ)، صاحب «السيرة» الشهيرة، التي هذبها ابن هشام وعرفت به.

٧٤ ــ تسمية رجال «صحيح مسلم» الذين انفرد بهم عن البخاري:

ترجم فيه تراجم مختصرة للرجال الذين انفرد بهم الإمام مسلم في «صحيحه» ولم يخرج لهم الإمام البخاري.

(١ ، ٢) تهذيب التهذيب: ١/٣، ٧.

(٣) الرسالة المستطرفة: ٢٠٨ ــ ٢٠٩.

ذكره فؤاد سزكين[1]، ويقع في (٦) ورقات.

٧٥ ـ تقييد المهمل:

ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

٧٦ ـ التلويح بمن سبق ولحق:

ذكره ابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، وابن العماد.

٧٧ ـ ديوان الضعفاء والمتروكين:

ذكره السبكي، وسبط ابن حجر، والسخاوي، وطاش كبرى، وابن العماد، والكتاني.

تناول الذهبي في هذا الكتاب تراجم الرجال الكذابين الوضاعين، والمتروكين الهالكين، والضعفاء من المحدثين والناقلين، والكثيري الوهم من الصادقين، والثقات الذين فيهم شيء من اللِّين، أو مَنْ لَيَّنَهُم أحدُ الحفاظ، فضلاً عن خلق من المجهولين.

وبذلك أورد الذهبي في كتابه هذا جميع من تكلم فيه حتى وإن كان حافظاً ثقة، وهو صنيع اتبع فيه ابن عدي في كتابه «الكامل».

وقد رتب الذهبي الكتاب على حروف المعجم، ليسهل تناوله والكشف فيه.

وهذا الكتاب غير كتابه «المغني في الضعفاء والمتروكين»: يظهر ذلك بالمقارنة بين الكتابين، والمنهج المتبع في كل منهما، فالمغني أكثر تفصيلاً من «ديوان الضعفاء». أضف إلى ذلك ما جاء في خطبة الكتاب من التصريح بعنوانه، حيث قال الذهبي: «أما بعد، فهذا ديوان

---

(١) تاريخ التراث العربي: المجلد الأول جـ ١/ ٢٧٤.

أسماء الضعفاء والمتروكين وخلق من المجهولين...»، وهي تختلف عن مقدمة «المغني». كذلك فالمغني مرتب على حروف المعجم دون النظر لأي اعتبار آخر، فابتدأ بمن اسمه أبان، ثم إبراهيم... في حين ابتدأ «بالأحمدين» في ديوان الضعفاء. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ما نصَّ عليه غير واحد من العلماء، فقال التاج السبكي بعد أن ذكر كتابي الذهبي في الضعفاء ـ وهما: ميزان الاعتدال، والمغني ـ: «وكتاباً ثالثاً في ذلك»[١]. وقال السخاوي: «كما أن للذهبي في الضعفاء مختصراً سماه «المغني»، وآخر سماه «الضعفاء والمتروكين»، وذيل عليه»[٢]. ونقل عنهما طاش كبرى، فذكر ضمن كتب الذهبي، فقال: «والميزان في الضعفاء ـ وهو من أجلّ الكتب ـ، و«المغني» في ذلك، وكتاب ثالث في ذلك»[٣]. وأشار إليه ابن العماد بقوله: «وله ميزان الاعتدال في نقد الرجال، والمغني في الضعفاء مختصره، ومختصر آخر قبله»[٤]. وصرح بذلك الكتاني فقال: «وكتاب المغني في الضعفاء وبعض الثقات للذهبي... وللذهبي أيضاً ديوان الضعفاء»[٥].

ـ ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق = من تكلم فيه وهو موثق.

٧٨ ـ ذكر من اشتهر بكنيته من الأعيان:

كتاب لطيف ذكر فيه الأعيان المشهورين بكناهم، ويقع في (١٨) ورقة، وقد فرَّق الزركلي[٦] بينه وبين كتاب الذهبي الآخر «المرتجل في الكنى»، فالله أعلم.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٩/١٠٤.
(٢) الإعلان بالتوبيخ: ١١٠.
(٣) مفتاح السعادة: ٢/٣٢٣.
(٤) شذرات الذهب: ٦/١٥٥.
(٥) الرسالة المستطرفة: ٢١٠.
(٦) الأعلام: ٥/٣٢٦. وذكر أن من كتاب «ذكر من اشتهر بكنيته» نسخة في شستربتي ضمن مجموع رقم (٣٤٥٨).

٧٩ ــ ذكر من يُعتمد قوله في الجرح والتعديل:

هكذا جاء عنوان هذه الرسالة على صفحة المخطوطة المحفوظة في «خزانة كتب أيا صوفيا في استنبول»[١]، وسماها الدكتور بشار عواد «ذكر من يؤتمن قوله في الجرح والتعديل»[٢]، وهو سهو وسبق قلم منه، فالعنوان واضح تماماً ليس فيه لبس.

قسم الذهبي المتكلمين في الرجال إلى ثلاثة أقسام من حيث الاستيعاب:

١ ــ قسم تكلموا في أكثر الرواة، كابن معين وأبي حاتم الرازي.

٢ ــ وقسم تكلموا في كثير من الرواة، كمالك وشعبة.

٣ ــ وقسم تكلموا في الرجل بعد الرجل، كابن عيينة والشافعي.

ثم قسمهم بعد ذلك إلى ثلاثة أقسام من حيث أحكامهم في الرجال جرحاً وتعديلاً:

١ ــ قسم منهم متعنِّت في الجرح متثبت في التعديل، يغمز الراوي بالغلطتين والثلاث، ويليِّن بذلك حديثَه، كابن معين وأبي حاتم والجُوْزَجاني.

٢ ــ وقسم في مقابلة هؤلاء، كالترمذي والحاكم والبيهقي: متساهلون.

---

(١) انظر تحقيق العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في «عنوان هذه الرسالة» في «أربع رسائل في علوم الحديث»: ص ١٦٠ ــ ١٦١.

(٢) الذهبي ومنهجه: ١٦٨، مقدمة سير أعلام النبلاء: ١/٧٩.

٣ ــ وقسم كالبخاري وأحمد بن حنبل وأبي زُرْعة وابن عَدِيٍّ: معتدلون منصفون[1].

وعدد الذين ذكرهم من الأئمة في هذه الرسالة (٧١٥) نفساً، أولهم الشعبي وآخرهم أبو الفتح ابن سيد الناس. ورتبهم على ثنتين وعشرين طبقة، تنتهي بطبقة أشياخه.

وهي رسالة قيمة عظيمة النفع[2] لما احتوته من إفادات الذهبي الغالية، ومعارفه العالية، وابتكاره ذلك التقسيم البديع للمتكلمين في الرجال. وعدد صفحاتها (٥٦) صفحة مع هوامش التحقيق.

٨٠ ــ ذيل «ديوان الضعفاء والمتروكين»:

ذكره الحافظ السخاوي في «الإعلان»[3].

استدرك الذهبي في هذا الذيل ما فاته في كتابه «ديوان الضعفاء»، وجاء في أوله: «هذا ذيل على كتابي «ديوان الضعفاء» التقطته من عدة تواليف، وهذا شيء لا سبيل إلى استيعابه، وإنما هو بحسب ما عرفتُ أو اطلعتُ عليه...».

وقد رتبه على ترتيب الأصل على حروف المعجم، لكنه بدأ

---

(١) أربع رسائل: ١٧١ ــ ١٧٢.

(٢) وقد نقل منها السخاوي، انظر: الإعلان بالتوبيخ: ١٦٣ ــ ١٦٨.

(٣) الإعلان بالتوبيخ: ١١٠. وقد ذكر ابن حجر ــ في لسان الميزان: ١/١١١ ترجمة إبراهيم بن المطهر، وفي: ٢/٤٢٩ ترجمة دحيم بن محمد، نقلاً عن «ذيل الميزان» لشيخه العراقي ــ كتاباً للذهبي بعنوان: «ذيل المغني»، وبالتحقيق وبالرجوع إلى «ذيل الميزان» للعراقي، الذي جاء فيه في ترجمة دحيم: «ذيل الضعفاء» ــ تَبَيَّنَ أن المقصود: «ذيل ديوان الضعفاء»، لا «ذيل المغني». انظر للمزيد: صفحات في ترجمة الذهبي: ٣٥ ــ ٣٦ مع الهامش.

«بالأحمدين» من حرف الألف، و«بالمحمدين» من حرف الميم، تكريماً لاسم النبي ﷺ وتيمناً به. ويقع في (١٣) ورقة.

٨١ ـ ذيل «الضعفاء» لابن الجوزي:

٨٢ ـ الذيل على ذيل «الضعفاء» لابن الجوزي:

للإمام ابن الجوزي كتاب كبير في «الضعفاء» اختصره الذهبي أولاً، ثم وضع على «الضعفاء» ذيلاً، ثم عمل على «الذيل» ذيلاً آخر.

قال في مقدمة «الميزان»: «وصنَّفَ أبو الفرج ابن الجوزي كتاباً كبيراً في ذلك، كنتُ اختصرتُه أولاً، ثم ذيَّلْتُ عليه ذَيْلاً بعد ذيل»[1].

وأشار السخاوي إلى هذين الكتابين في أثناء ذكره الكتب المؤلفة في «الضعفاء» فقال: «وابن الجوزي، واختصره الذهبي، بل وذيَّلَ عليه في تصنيفين، جمع معظمهما في ميزانه»[2].

٨٣ ـ الرد على يحيى بن سعيد القطان:

ذكره الروداني في «صلة الخلف»[3].

ـ الرواة الثقات المُتَكلَّم فيهم بما لا يوجب ردهم = معرفة الرواة المتكلَّم فيهم.

٨٤ ـ الزيادة المضطربة:

موضوع هذا الكتاب في أحد أنواع الحديث وهو المضطرب الذي يعرف بأنه: الحديث الذي يروى من قِبل راوٍ واحد أو أكثر، على أوجه

---

(١) ميزان الاعتدال: ١/٢.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٩.

(٣) صلة الخلف: ٢٥٠.

مختلفة متساوية، لا مرجح بينها ولا يمكن الجمع[1]. والزيادة المضطربة: أن يأتي الرواي بلفظ ينفرد به عن رواية الثقات في متن الحديث، ثم تكون تلك الزيادة مضطربة عن الراوي.

ذكر هذا الكتاب ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»، وسبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وابن العماد في «شذرات الذهب».

٨٥ ـ العذب السلسل في الحديث المسلسل:

وهو في الحديث المسلسل بالأولية عن عبدالله بن عَمْرو عن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء».

ذكره حاجي خليفة[2]، والبغدادي[3]، ومحمد بن جعفر الكتاني ضمن الكتب المؤلفة في الأحاديث المسلسلة فقال: «كالمسلسل بالأولية لأبي طاهر. . . السِّلَفِيِّ، . . . وللحافظ الذهبي وهو المسمى بالعذب السلسل في الحديث المسلسل»[4]. وقال عبد الحي الكتاني وهو يتحدث عن «الحديث المسلسل بالأولية»: «وقد أفرد هذا الحديث بالتأليف لأهميته جماعةٌ من المحدثين، كابن الصلاح. . . والذهبي له: العذب السلسل في الحديث المسلسل»[5].

---

(١) انظر في تعريف المضطرب: مقدمة ابن الصلاح: ٩٣ ـ ٩٤، الباعث الحثيث ٦٨، تدريب الراوي: ١/٢٦٢ فما بعدها، أصول الحديث ٣٤٤. وغير ذلك.

(٢) كشف الظنون: ٢/١١٣٠.

(٣) هدية العارفين: ٢/١٥٤.

(٤) الرسالة المستطرفة: ٨١ ـ ٨٢.

(٥) فهرس الفهارس: ١/٩٤.

٨٦ ــ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة:

ذكره أكثر الذين ترجموا للذهبي، وهو مختصر من «تهذيب الكمال»، وقد أفصح الذهبي في خطبة الكتاب عن أصله وموضوعه، فقال: «هذا مختصر نافع في رجال الكتب الستة: الصحيحين والسنن الأربعة، مقتضب من «تهذيب الكمال» لشيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي، اقتصرتُ فيه على ذكر مَنْ له رواية في الكتب، دون باقي تلك التواليف[1] التي في «التهذيب» ودون من ذكر للتمييز، أو كرر للتنبيه»[2].

فرغ الذهبي من اختصاره بعد العصر من يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة (٧٢٠ هـ)، وجاء على قدر عشر الأصل[3]، وكتب هذه النسخة بخطه سنة (٧٢٩ هـ). وقد طبع الكتاب في ثلاثة مجلدات.

وقد ذكر الصفدي في «الوافي»، والسبكي في «الطبقات الكبرى»، وابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات»، وابن تغري بردي في «المنهل» وابن العماد في «الشذرات»، والكتاني في «الرسالة المستطرفة»، أن الذهبي اختصر «الكاشف» من «تذهيب التهذيب» له، وهو خطأ ووهم منهم لأمرين:

الأول: أن الذهبي نصَّ في مقدمة «الكاشف» أنه اختصره من «تهذيب الكمال».

---

(١) انظر عن هذه التواليف: مقدمة تهذيب التهذيب: ١/٥ ــ ٦، وص ٤١٤ رقم ٩٥ هامش «٥» من كتابنا هذا.

(٢) الكاشف: ١/١٠.

(٣) الكاشف: ٣/٤٤٧.

الثاني: أن كتاب «الكاشف» اقتصر على رجال الكتب الستة، في حين كان «تذهيب التهذيب» كأصله قد شمل رجال الكتب الستة وغيرها من تواليف أصحاب الكتب الستة.

فلعل هذا منهم على سبيل التجوُّز.

وتراجم الكاشف من سطرين إلى ثلاثة أسطر على الأغلب، يذكر فيها ــ غالباً ــ اسم الرجل واسم أبيه وجده، وكنيته ولقبه ونسبته، وبعض أشياخه وتلامذته، ومن أخرج له من أصحاب الكتب الستة، وتاريخ وفاته، والتنبيه على من كان صاحب بدعة، مع ذكر الجرح والتعديل بعبارة وجيزة قد لا تتعدى كلمة واحدة كقوله: حجة، ثقة، صدوق، لا بأس به، جيد الحديث، تُكلِّم فيه بلا حجة، ليس بالقوي، صويلح، مقبول، لا يعرف، مجهول، واهٍ، كذاب، ضعفوه...

وبذلك فإن الذهبي قد بثَّ ــ كعادته ــ في هذا المختصر من عقليته الناقدة، ونشر فيه من علمه الغزير، فزيَّنه بالتعليقات والتحقيقات والتدقيقات، وأبان رأيه في الرجال، وخالف أئمة الجرح والتعديل ووافقهم، اعتماداً على معرفته التامة في هذا الفن العزيز. وهذا ما جعل التاج السبكي يصف «الكاشف» بأنه في «مجلد نفيس».

وقد ذكر ابن حجر أن الهمم قصرت عن مطالعة «تهذيب الكمال» لطوله «فاقتصر بعض الناس على الكشف من الكاشف الذي اختصره منه الحافظ أبو عبدالله الذهبي»[1]. وهذا يدل أيضاً على أهمية الكتاب.

وقد اهتم بالكاشف اثنان من الأئمة:

---

(١) تهذيب التهذيب: ١/٣.

فوضع الحافظ أبو زرعة أحمد ابن الحافظ العراقي (ت ٨٢٦ هـ) عليه «ذيلاً» أضاف إليه رجال «مسند أحمد»[١].

ولـلإمام العلامة سبط ابن العجمي (ت ٨٤١ هـ) «حواشٍ على الكاشف»[٢].

٨٧ ـ المجرد في أسماء رجال كتاب «سنن الإمام أبي عبدالله بن ماجه» كلهم سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين:

وهو في (٢٠) ورقة بخط المؤلف كما ذكر فؤاد سزكين[٣]، وتوجد منه نسخة في «الظاهرية» بدمشق.

وقد جعلهم الذهبي في (٨) طبقات، وهم: طبقة الصحابة، طبقة زمن الأعمش وابن عون، طبقة الزهري وأيوب، طبقة ابن المسيب ومسروق، طبقة الحسن وعطاء، طبقة عفان وعبد الرزاق، طبقة ابن المديني وابن حنبل، طبقة البخاري ومن تبقى. ورمز فوق الأسماء بالحمرة للكتب الستة برموزهم المعروفة.

٨٨ ـ المجرد من «تهذيب الكمال».

ذكره غير واحد ممن ترجم للذهبي، وسماه السبكي: «المجرد في أسماء رجال الكتب الستة»، وتابعه على هذه التسمية السيوطي في «ذيل التذكرة»، وطاش كبرى في «مفتاح السعادة» وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، والبغدادي في «هدية العارفين» وهي تسمية بمضمون الكتاب.

جرّده الذهبي من «تهذيب الكمال» للمزي، لكنه اقتصر فيه على

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ٢٨٧.

(٢) المرجع السابق: ٣١٤.

(٣) تاريخ التراث العربي: المجلد الأول جـ ١/٢٨٨.

رجال الكتب الستة، ورتبه على عشر طبقات أولاً، ثم رتب رجال كل طبقة على حروف المعجم ثانياً.

٨٩ ــ مختصر «الضعفاء» لابن الجوزي:

قال الذهبي في مقدمة «الميزان» عند كلامه على الكتب المصنفة في الضعفاء: «وصنف أبو الفرج ابن الجوزي كتاباً كبيراً في ذلك كنتُ اختصرته أولاً»[١].

وذكره السخاوي في الكتب المؤلفة في الضعفاء، فقال: «وابن الجوزي، واختصره الذهبي»[٢].

٩٠ ــ المرتجل في الكنى:

ذكره بروكلمان في «تاريخ التراث العربي»، والزركلي في «الأعلام»[٣].

٩١ ــ المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم:

ذكره أكثر من ترجم للذهبي، وهو من كتبه المشهورة، طبع محققاً في جزءين يقعان في (٦٧٥) صفحة. ألَّفه سنة (٧٢٣ هـ) كما ذكر هو في ترجمة «الجبْرَتي» من المشتبه[٤].

جمع فيه مؤلفه ما يشتبه ويتصحف من الأسماء والأنساب والكنى والألقاب، مما اتفق وضعاً واختلف نطقاً. وهي من المسائل المهمة في

---

(١) ميزان الاعتدال: ١/٢.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٩. وانظر: ص ٣٩٨ رقم ٨١ و٨٢ من كتابنا هذا.

(٣) انظر: ص ٣٩٥ رقم ٧٨ من كتابنا هذا.

(٤) المشتبه: جـ ١/١٨٦.

«علم الرجال» لأن أسماء الرجال شيء لا يدخله القياس، فليس له إلا التقييد والضبط.

رتب الذهبي كتابه على حروف المعجم، فجعل لكل حرف باباً، فباب للهمزة، وآخر للباء، وثالث للتاء... وهكذا. واعتمد فيه على الأمهات المصنفة في هذا الفن، ولخص كتابه من كتاب عبد الغني الأزْدي في «المؤتلف والمختلف»، و«الإكمال» لابن ماكولا، و«إكمال الإكمال» لابن نقطة، وكتاب شيخه أبي العلاء محمود بن أبي بكر الفرضي البخاري[1]، فضلاً عما وقع له وتنبه إليه خلال معاناته الطويلة وممارسته الواسعة لعلم الرجال.

لكن الذهبي اعتمد في ضبط الشكل على ضبط القلم، إلا فيما يصعب ويُشْكِل فيقيده بالحروف وهو نادر. وقد نبه إلى ذلك فقال: «فاعلمْ ــ أرشدك الله ــ أن العمدة في مختصري هذا على ضبط القلم، إلا فيما يَصْعُب ويُشْكِل فيقيَّد ويُشَكَّل، وبالله أتأيَّد وعليه أتوكل. فأتقِنْ ــ يا أخي ــ نسختك، واعتمدْ على الشكل والنقط، ولا بُدَّ؛ وإلا لم تصنع شيئاً»[2].

فصار الكتاب ــ بذلك ــ مبايناً لموضوعه، لعدم الأمن من التصحيف فيه، كما أنه أجحف في الاختصار، وفاته من أصوله أشياء.

والكتاب ــ مع هذا ــ قيم نافع، انتفع به العلماء، واحتل مكاناً مرموقاً عند المعنيين بعلم الرجال، فطالعه الحافظ ابن ناصر الدين (ت ٨٤٢ هـ)، وكتب على هامشه تعليقات هامة، عقب فيها على كثير

---

(١) انظر: تبصير المنتبه ١٥١٢/٤، الرسالة المستطرفة: ١١٨ ــ ١١٩.
(٢) المشتبه: جـ ٢/١.

مما أورده المؤلف، بل زاد عليه. ثم ألّف كتابه الفذ «التوضيح لكتاب المشتبه في الرجال» في ثلاثة أسفار، وضبطه بالحروف، وأوضح ما أهمله الذهبي، وشرح بعض مختصراته، واستدرك عليه استدراكات قيمة تدل على رسوخ قدمه في هذا الفن. كما نبه على أوهام الذهبي في كتاب سماه «الإعلام بما وقع في مشتبه الذهبي من الأوهام»[1].

كذلك اعتنى به أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) حيث وجد فيه إعوازاً من ثلاثة أوجه:

أحدها ــ وهو أهمها ــ: تحقيق ضبطه، لأنه أحال في ذلك على ضبط القلم فما شفى من ألم.

ثانيها ــ إجحافه في الاختصار، بحيث إنه يعمد إلى الاسمين المشتبهين إذا كثرا فيقول في كل منهما: فلان وفلان وفلان وغيرهم، وهذا لا يروي الغُلَّة ولا يَشْفِي العِلَّة، بل يُبقي اللُّبْسَ على المستفيد كما هو، وكان ينبغي أن يستوعب أقلهما.

وثالثها ــ وفيه مالا يرد عليه إلا أن ذلك من تتمة الفائدة ــ: ما فاته من التراجم المستقلة التي لم يتضمنها كتابه، مع كونها في أصل ابن ماكولا وذيل ابن نقطة اللذين لخصهما، وزاد من ذيل أبي العلاء الفرضي وغيره ما استدرك عليهما[2].

فألف الحافظ كتابه «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه»، وهو أحسن وأوفى كتب هذا الفن[3].

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٢٠، ٣٢١، الرسالة المستطرفة: ١١٩.

(٢) تبصير المنتبه: ١/١.

(٣) انظر كلامنا على «تبصير المنتبه» في كتابنا «ابن حجر»: ص ٤٣٤ ــ ٤٣٦.

وممن استدرك على «مشتبه الذهبي» تلميذه الحافظ ابن رافع السلاّمي (ت٧٧٤ هـ)، ذكره ابن حجر فقال: «وقد ذيّل عليه الحافظ تقي الدين ابن رافع ــ تلميذه ــ في هذا المختصر جزءاً قَدْر عشرة أوراق، غالبه لا يرد عليه، لأنه إما أن يكون قد ذكره، أو يكون لا يشتبه إلا على بُعْد»[1].

٩٢ ــ معرفة التابعين من «الثقات» لابن حبان:

ألف الحافظ المجوِّد أبو حاتم محمد بن حِبَّان التميمي الدارمي البُسْتِيّ (ت ٣٥٤ هـ) كتابه «الثقات» ورتبه على الطبقات، وتناول فيه الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ورتب كل طبقة على حروف المعجم. إلا أنه ذكر في هذا الكتاب عدداً كثيراً وخلقاً عظيماً من المجهولين، بل إنه ذكر خلقاً كثيراً هنا في «الثقات»، ثم أعاد ذكرهم في كتاب «الضعفاء والمجروحين»[2].

وقد عُدَّ ابن حبان من المتساهلين في الجرح والتعديل.

قام الذهبي بتلخيص «التابعين» من كتابه، وقال في أول تلخيصه: «معرفة التابعين من «الثقات» لابن حبان، وهو تلخيص من المجلد الثالث من تاريخه. فإذا كان الرجل معروفاً كتبت اسمه مجرداً، وإذا كان ليس بالمشهور علقت قول المؤلف فيه».

وقد حافظ الذهبي على ترتيب الأصل، وكتب تاريخ الوفيات بالأرقام، وعلق على بعض التراجم، وأخذ على ابن حبان أنه لم

---

(١) تبصير المنتبه: ١٥١٢/٤ ــ ١٥١٣، وقد نشر هذا الجزء الدكتور صلاح الدين المنجد، وذكر أن ابن حجر لم يطلع عليه، وهو خطأ فاحش.

(٢) الرسالة المستطرفة: ١٤٦.

يستوعب التابعين في كتابه، وذكر الذهبي أنهم مذكورون في «تهذيب الكمال» للمزي. كما أخذ عليه أنه ذكر في كتابه جماعة ذكرهم ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» لم يمسوا بجرح، ثم قال: «نعم، الذين ذكرهم كثير منهم لم يوثَّقوا، أو كثير منهم لم يرو عن الواحد منهم غير واحد، وهم على قسمين[1]: قسم روى عنه ثقة معروف بالتحري في الأخذ. وقسم منهم دون ذلك، يروون عن كل ضرب. وقسم منهم ثالث ضعفاء لا يُعرف ذلك التابعي إلا من جهتهم، فالتابعي مجهول، والراوي عنه واهٍ، فأنَّى يكون ذلك صدوقاً أو مقبول الرواية»؟!.

وكتاب الذهبي هذا يقع في (٤٩) ورقة[2].

٩٣ ــ معرفة الرواة المُتَكَلَّم فيهم بما لا يوجب الردّ = الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردَّهم:

ذكره السخاوي فقال: «وللذهبي معرفة الرواة المتكلَّم فيهم بما لا يوجب الرد»[3]، والكتاني[4]، والزركلي وسماه «الرواة الثقات»[5].

وللذهبي كتاب آخر باسم «من تُكُلِّم فيه وهو موثَّق»، وقد اعتبرهما

---

(١) كذا، وصوابه: على ثلاثة أقسام.

(٢) قال فؤاد سزكين وهو يتكلم على كتاب «معرفة المجروحين والضعفاء من المحدثين» لابن حبان البستي: «وهناك مختصر من المجلد الثالث بعنوان «معرفة التابعين الثقات» لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، وذكر أنه في (٤٦) ورقة بخط المؤلف. انظر: تاريخ التراث العربي: المجلد الأول ج١/٣٨٢. فهل هذا كتاب آخر للذهبي مأخوذ من «المجروحين»، أم سهو من سزكين وسبق قلم، فسقطت من العنوان لفظة «من» قبل كلمة «الثقات»؟.

(٣) الإعلان بالتوبيخ: ١١٠.

(٤) الرسالة المستطرفة: ٢١٠.

(٥) الأعلام: ٥/٣٢٦.

الدكتور بشار عواد في كتابه «الذهبي ومنهجه» كتاباً واحداً[1]، وهو خطأ، لكنه تنبه لذلك فيما بعد، واعتبرهما كتابين في مقدمته لسير أعلام النبلاء[2]، وهذا هو الصواب، فكتاب «الرواة المتكلم فيهم» غير «من تكلم فيه وهو موثق»، وموضوعهما متباين غير متشابه.

وقد نشر كتاب «معرفة الرواة» عبد المجيد زكريا بالقاهرة باسم «رسالة في الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم» ولم أقف عليها، وأبو عبدالله إبراهيم سعيداي إدريس بعنوان «معرفة الرواة المتكلم فيهم بما لا يوجب الرد». لكن هذا الأخير تخبط في «تحقيقه!»، وتابع الدكتور بشار عواد ـ على رأيه الأول الذي تراجع عنه ـ باعتباره الكتابين كتاباً واحداً. والغريب العجيب أنه ضمَّن كتابه صورة غلاف مخطوطة بعنوان «ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق»[3]، بينما عنون للكتاب على الغلاف باسم «معرفة الرواة...»!! وزاد الأمر خطأ فَلَفَّقَ بين مخطوطة ومطبوعة، فنقل المقدمة من «المطبوعة»، وباقي متن الكتاب من المخطوطة![4].

وبالتأمل يتضح أن ما نقله من المطبوعة هو من كتاب الذهبي «معرفة الرواة»، بخلاف متن الكتاب فمن رسالة «من تكلم فيه وهو موثق»، وأذكر هنا بعض النقول:

---

(١) انظر: ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ٨١، رقم ٩٠ و٩١. وقد استدرك عليه قاسم سعد في رسالته «صفحات في ترجمة الذهبي» ص ٢٢، ولا داعي للاستدراك لأنه تنبه لذلك كما ذكرنا.

(٣) معرفة الرواة: ٢٧.

(٤) معرفة الرواة: ٢٥.

«الحمد لله على الإيمان به، ومتابعة سنة نبيه أبي القاسم ﷺ[1].

هذا فصل[2] مفيد من كلام الإمام الحافظ الناقد أبي عبدالله محمد ابن الذهبي رحمه الله. قال: وقد كتبت في مصنفي «الميزان» عدداً كثيراً من الثقات الذين احتج البخاري ومسلم أو غيرهما بهم، لكون الرجل منهم قد دون اسمه في مصنفات الجرح. وما أوردتهم لضعف فيهم عندي...»[3]. «... وسوف أبسط فصلاً في هذا المعنى يكون فيصلاً بين الجرح المعتبر وبين الجرح المردود إنْ شاء الله.

فأما الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فبساطهم مطوي... وأما التابعون فيكاد يعدم فيهم من يكذب عمداً... أما أصحاب التابعين كمالك والأوزاعي وهذا الضرب فعلى المراتب المذكورة...»[4]. فذكر الإمام مالكاً والأوزاعي والفضيل بن عياض والشافعي، وما طُعن عليهم، وأنه جرح مردود[5].

ثم جاء بعد ذلك نقله عن المخطوطة:

«أما بعد، فهذا فصل نافع في معرفة الثقات الرواة الذين تكلَّم فيهم بعضُ الأئمة، بما لا يوجب رد أخبارهم، وفيهم بعض اللين، وغيرهم أتقن منهم وأحفظ، فهؤلاء حديثهم إن لم يكن في أعلى مراتب الصحيح فلا ينزل عن رتبة الحسن...»[6].

---

(١) هذه الجملة نقلها من المخطوطة.

(٢) من هنا نقله من المطبوعة، وواضحٌ أن الجملة الأولى ليست للذهبي.

(٣) معرفة الرواة: ٤٥.

(٤) معرفة الرواة: ٤٦.

(٥) معرفة الرواة: ٤٧ ـ ٥١. وهذا من مقدمة «معرفة الرواة» على التحقيق.

(٦) معرفة الرواة: ٥١. وهذه مقدمة «من تكلم فيه وهو موثق»!

وها هنا ملاحظات:

١ ـ قوله في أول المقدمة: «هذا فصل مفيد» لا يناسب قول الذهبي: «أما بعد، فهذا فصل».

إذاً لا يُعقل أن يسوق مقدمة في ست صفحات، ثم يقول بعدها: «أما بعد، فهذا فصل».

ويؤكد ذلك أن الصفحة الأولى من مخطوطة «من تكلم فيه وهو موثق» فيها خطبة الكتاب هكذا:

«الحمد لله على الإيمان به، ومتابعة سنة نبيه أبي القاسم ﷺ، أما بعد، فهذا فصل نافع في معرفة الثقات...».

فليس هناك أية كلمة بين «ﷺ» و«أما بعد»، فمن أين جاءت الصفحات الست؟!

٢ ـ منهج الذهبي في الكلام على الرجال في «معرفة الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب الرد» يختلف عما هو عليه في كتابه «من تكلم فيه وهو موثق»، كما يتضح بالمقارنة.

٣ ـ كذلك ترجمته للراوي الواحد تختلف في أحد الكتابين عما هي عليه في الكتاب الآخر.

٤ ـ في رسالة: «من تكلم فيه وهو موثق» يرمز الذهبي لمن أخرج

حديث المترجَم من أصحاب الكتب الستة بالرموز السائرة، يفعل هذا دوماً.

أما في «معرفة الرواة الثقات» فيشير ــ أحياناً ــ لمن احتج بالمترجَم من أصحاب الكتب.

٥ ـ عدد التراجم في رسالة «معرفة الرواة» هو (٩٢) ترجمة، أما في كتاب «من تكلم فيه وهو موثق» فهو (٤٠١) ترجمة.

٦ ـ هناك بعض الرواة المترجَمين في أحد الكتابين، ليس لهم ذكر في الكتاب الآخر.

وقد غفل (المحقق!) عن كل ذلك، والذي أوقعه في هذا الخطأ الشنيع هو تلفيقه ــ دون علم ــ بين الكتابين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية اغتراره بما في كتاب الدكتور بشار عواد، وعدم تنبهه إلى ما أكد عليه بشار نفسه في مقدمته «لسير أعلام النبلاء» من أنهما كتابان وليسا كتاباً واحداً.

هذا وللمحقق في ترجمته للذهبي، وتعليقاته على الكتاب الذي حَشَّاه ــ وهو «من تكلم فيه وهو موثق» على التحقيق ــ أوهام وتحريفات وتصحيفات قبيحة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

وقد حقق محمد إبراهيم الموصلي كتاب «معرفة الرواة»، ويشتمل على (٩٢) ترجمة، آخرها ترجمة أبي إسحاق السبيعي.

وصدر الكتاب عن دار البشائر الإسلامية ببيروت.

٩٤ ـ المغني في الضعفاء[١]:

ذكره أكثر من ترجم للذهبي، وسماه حاجي خليفة والبغدادي والكتاني: «المغني في الضعفاء وبعض الثقات»[٢].

ألفه الذهبي قبل «ميزان الاعتدال» الذي يقول في خطبته: «... فهذا كتاب جليل مبسوط، في إيضاح نَقَلَة العلم النبوي، وحَمَلَة الآثار، أَلَّفته بعد كتابي المنعوت بالمغني»[٣].

جمع فيه مؤلفه ما تفرق في أمهات كتب الضعفاء قبله جمعاً عظيماً، جعل الكتاب ينفرد بكثير من التراجم لا نجدها في غيره من المطولات، حتى «ميزان» الذهبي، و«لسان الميزان» للحافظ.

وقد قصد الذهبي في هذا الجمع إيراد من تكلم فيه، ولو كان ثقة حافظاً لا وجه للكلام فيه، ولا مورد للطعن عليه، وهو المنهج الذي سلكه في «الميزان» له، وتبع في ذلك صنيع ابن عدي في كتابه «الكامل في الضعفاء»، خشية أن ينتقد عليه إن لم يذكر هؤلاء.

وبيَّن الذهبي أهمية هذا الكتاب، ومراتب الرواة الذين اشتمل

---

(١) انظر: ص ٣٩٤ رقم ٧٧، وص ٣٩٧ رقم ٨٠ من كتابنا هذا.

(٢) كشف الظنون: ٢ / ١٧٥٠، هدية العارفين ٢ / ١٥٥، الرسالة المستطرفة: ٢١٠.

(٣) ميزان الاعتدال: ١/١. وتوهَّم ابنُ تغري بردي في «المنهل» وتابعه ابنُ العماد في «الشذرات» أن «المغني» مختصر لميزان الاعتدال، فكيف يصح أن يكون مختصراً له وقد ألفه قبل الميزان؟.

عليهم، فقال في ديباجته: «أما بعد: فهذا كتاب صغير الحجم، كبير القدر، كثير النفع، أسأل الله تعالى فيه حُسْنَ النية والقصد، والعفو عن السهو، والتجاوز عن تجاوز الحد! هذَّبْتُه وقَرَّبْتُهُ، وبالغت في اختصاره، تيسيراً على طلبة العلم المعتنين بالحديث في معرفة الضعفاء. قد احتوى على ذكر الكذابين الوضاعين، ثم على ذكر المتروكين الهالكين، ثم على الضعفاء من المحدثين والناقلين، ثم على الكثيري الوهم من الصادقين، ثم على الثقات الذين فيهم شيء من اللين، أو تَعَنَّتَ بذكرِ بعضهم أحدٌ من الحافظين، ثم على خلق كثير من المجهولين...»[1].

وقد أدخل فيه ـ كما قال في مقدمته ـ: «الضعفاء: لابن معين، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والنسائي، وابن خزيمة، والعُقيلي، وابن عدي، وابن حبان، والدارقطني، والدولابي، والحاكمين[2]، والخطيب، وابن الجوزي». قال: «وزدتُ على هؤلاء ملتقطات من أماكن متفرقات، وأشرت إلى حال الراوي بأخصر عبارة...»[3].

فرغ من تبييضه سنة (٧٢٠ هـ)[4]. ويقع في مجلدين كبيرين، وعدد تراجمه (٧٨٥٤) ترجمة، حققه الدكتور نور الدين عتر تحقيقاً علمياً قيماً.

وهو كتاب جليل نفيس، سلك فيه الذهبي طريق الإيجاز في

---

(١) المغني في الضعفاء: ١/٣٤.

(٢) هما الإمامان: الحاكم أبو أحمد النيسابوري (ت ٣٧٨ هـ)، وتلميذه الحاكم أبو عبدالله النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) صاحب «المستدرك».

(٣) المغني: ١/٣٥ ـ ٣٦.

(٤) المغني: ٢/٥١١.

الكلام على الرواة، وتحرير كلام أئمة الجرح والتعديل، وبَثَّ فيه آراءه الناقدة النافعة، ونشر فيه فوائد جمة يحتاج الباحث في تحصيلها إلى كثير من الجهد والمعاناة في مطولات هذا الفن. ولقد عبر عن ذلك الحافظ السيوطي فقال: «كتاب صغير الحجم، نافع جداً من جهة أنه يحكم على كل رجل بالأصح فيه بكلمة واحدة»[1]. ووصفه في موضع آخر بأنه: «مختصر نفيس»[2].

٩٥ ــ المقتضب من «تهذيب الكمال» للمزي:

ذكره البغدادي بهذا العنوان في «هدية العارفين»[3]، وبيَّن السخاوي موضوعه فقال: «وللذهبي أسماء من أخرج لهم أصحاب الكتب الستة في تواليفهم سواها، ممن لم يذكرهم في الكاشف»[4].

ويفهم من هذا الكلام أن الذهبي اختصر من «تهذيب الكمال» كتاباً آخر خاصاً بأسماء رجال أصحاب الكتب الستة الأخرى[5]، ولم يدخِلْ فيه رجال الكتب الستة. لذا فموضوع هذا الكتاب غير موضوع كتابي الذهبي: «الكاشف» و«المجرد من تهذيب الكمال».

---

(١) تدريب الراوي: ٢/٣٦٨.
(٢) ذيل تذكرة الحفاظ: ٣٤٨.
(٣) هدية العارفين: ٢/١٥٤.
(٤) الإعلان بالتوبيخ: ١١٦.
(٥) وهذه المؤلفات هي: «الأدب المفرد، جزء رفع اليدين، خلق أفعال العباد، جزء القراءة خلف الإمام» كلها للبخاري. «مقدّمة صحيح مسلم». «المراسيل، القدر، الناسخ والمنسوخ، التفرد، فضائل الأنصار، المسائل، مسند مالك» كلها لأبي داود. «الشمائل» للترمذي. «عمل اليوم والليلة، مسند مالك، خصائص علي، مسند علي» جميعها للنسائي. «التفسير» لابن ماجه.

٩٦ ـ المقتنى في سرد الكنى:

ذكره الصفدي في «نَكْت الهِمْيان» وسماه «المقتنى في الكنى»، وسماه في الوافي: «المقتنى من الكنى». وذكره سبط ابن حجر باسم «المقتنى في سرد المنى»، وتابعه على هذه التسمية حاجي خليفة في «كشفه»، والبغدادي في «هدية العارفين»، والكتاني في «الرسالة المستطرفة».

اختصره الذهبي من كتاب «الكنى» لمحدث خراسان الحافظ الجِهْبِذ أبي أحمد محمد بن محمد بن أحمد النيسابوري المعروف بالحاكم الكبير، المتوفي سنة (٣٧٨ هـ).

وكتاب «الكنى» لأبي أحمد الحاكم يقع في أربعة عشر سِفْراً، حرَّرَ فيه وأجاد، وزاد على غيره وأفاد، لكنه يصعب الكشف منه لأنه لم يرتبه على حروف المعجم. فاعتنى الذهبي بهذا الكتاب، وأفصح عن عمله ومنهجه فيه في خطبته فقال: «وقد جمع الحفاظ كتباً كثيرة في الكنى، ومن أجلِّها وأطولها كتاب النسائي، ثم جاء أبو أحمد الحاكم فزاد وأفاد، وعمل ذلك في أربعة عشر سفراً، لكنه يتعب الكشف منه لعدم مراعاته ترتيب الكنى على المعجم، فرتَّبْتُهُ واختصرتُه، وزدتُه وسهَّلتُه».

وقد زاد في آخره جزءاً في كنى النساء. فرغ منه سنة (٧٣٧ هـ)، وقرأه عليه السفاقسي في تلك السنة[1].

٩٧ ـ المقدمة ذات النقاط في الألقاب:

وهو في «الألقاب» كما يدل عليه عنوانه. ومعرفة ألقاب المحدثين

---

(١) انظر: كشف الظنون: ٢/١٤٥٣، ١٧٩٤، الرسالة المستطرفة: ١٢١.

ومَنْ يُذكر معهم من مهمات المشتغلين بالحديث وعلومه، فمن لا يعرف الألقاب يوشك أن يظنها أسامي، وأن يجعل مَنْ ذُكر باسمه في موضع وبلقبه في موضع شخصين[1].

٩٨ ــ مَنْ تُكُلِّمَ فيه وهو موثَّق = ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق: هكذا ذكر الصفدي عنوانه، وذكر أنه كتبه بخطه وقرأه على مؤلفه[2].

وقد أورد تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية» قسماً من هذا الكتاب[3].

وهو غير كتاب الذهبي «معرفة الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب الرد»، وقد اعتبرهما الدكتور بشار عواد معروف في كتابه «الذهبي ومنهجه»[4] كتاباً واحداً، وهذا خطأ منه، ثم تنبه لذلك في «مقدمته لسير أعلام النبلاء» فاعتبرهما كتابين[5] وهذا هو الصواب.

كذلك خلط بينهما إبراهيم سعيداي إدريس، فحقق كتاب «من تكلم فيه وهو موثق» ووضع له عنوان الكتاب الآخر «معرفة الرواة الثقات» ومقدمته أيضاً!!

---

(١) ومن الألقاب الشهيرة: غُنْدَر، عَبْدان، غُنْجار، الأَخْفَش.
(٢) نكت الهميان: ٢٤٢.
(٣) الطبقات الكبرى: ٩/١١١ ــ ١١٥.
(٤) الذهبي ومنهجه: ١٩٢ ــ ١٩٣.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١/٨١ رقم ٩٠، ٩١.

وقد نبهنا على ذلك[1].

وكتاب «من تكلم فيه وهو موثق» يتألف من مقدمة قصيرة في نحو عشرة أسطر، تليها التراجم.

ومنهج الذهبي في تراجمه هنا يمكن إجماله فيما يلي:

يذكر اسم الرجل ونسبته وكنيته.

وأقوال الأئمة فيه جرحاً وتعديلاً.

ويصدر رأيه ـ غالباً ـ في ذلك.

وينبه على من كان صاحب بدعة.

وقد يذكر درجة حديثه صحة وضعفاً.

ويرمز دوماً لمن أخرج للمترجَم من أصحاب الكتب الستة بالرموز المعروفة.

ساق التراجم على حروف المعجم، ولم يخالف ذلك أبداً، فلم يقدِّم «الأحمدين» في حرف الألف، ولا «المحمدين» في حرف الميم، والمعهود ـ غالباً ـ تقديم ذلك.

قَدَّمَ الأسماءَ وأخَّر الكنى، كما هي العادة.

وقد حقق هذا الكتاب تحقيقاً جيداً محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير المياديني، وعدد التراجم عنده (٤٠١) ترجمة، وقد سلم مما وقع فيه إبراهيم سعيداي، وصدر عن مكتبة المنار بالأردن.

وهو كتاب جليل نافع، بينه وبين «معرفة الرواة الثقات» فروق ذكرناها عند حديثنا على «معرفة الرواة». والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر بالتفصيل: ص ٤٠٧ ـ ٤١١ رقم ٩٣ من هذا الكتاب.

٩٩ ـ منية الطالب لأعز المطالب:

ذكره حاجي خليفة[1]، والبغدادي[2].

١٠٠ ـ الموقظة «في علم المصطلح»:

هي رسالة في علم مصطلح الحديث اختصرها الذهبي من كتاب شيخه ابن دقيق العيد، المسمى «الاقتراح في بيان الاصطلاح وما أضيف إلى ذلك من الأحاديث المعدودة من الصحاح». وكان اختصاره حسناً مقبولاً حيناً، ومخلاً مجحفاً حيناً آخر، وله في خلال اختصاره زيادات ومباحث قيمة جاء فيها بالمفيد الفريد. واقتصر في هذه الرسالة على أربعة وعشرين نوعاً من أنواع علم المصطلح، وأغفل بعض أنواع فيه.

وقد حققه الأستاذ العلامة عبد الفتاح أبو غدة، ونبه على ذلك الإجحاف وهذا الإغفال، واستدرك عليه ذلك في موضعه.

وعقد الذهبي بعد النوع الثاني والعشرين (المقلوب) فصلاً تعرض فيه لشرط التحمُّل والأداء، وأعقبه بست مسائل مهمة. وتعرض باختصار (في النوع ٢٣ ـ آداب المحدث) لمباحث متعددة تتعلق بتصحيح النية، والتواضع للطلبة، والامتناع عن التحديث عند الهرم خوف الاختلاط... ثم تعرض للثقة الحافظ وما يمتاز به، وبيان أن الحفاظ

---

(١) كشف الظنون: ٢/١٨٨٦.

(٢) إيضاح المكنون: ٢/٥٩٦، هدية العارفين ٢/١٥٥.

طبقات، وبلَّغها (٢٤) طبقة. ثم عقد فصلاً عرف فيه (الثقة)، وآخر خاصاً بمن أخرج له الشيخان، وقسم رواتهـما على قسمين. ثم عقد فصلاً تحدث فيه عن الثقات الذين لم يخرج لهما في الصحيحين، وتعرض لاصطلاحات بعض المحدثين في عبارات قالوها وكرروها، كالبخاري في قوله: فيه نظر، وأبي حاتم في قوله: ليس بالقوي. ثم قسم المتكلمين في الرجال إلى: متشدد، ومعتدل، ومتساهل. ثم تعرَّض لمن تُكُلِّم فيه لبدعته، وقرر أنه يجب تفقد حال المتكلِّم في الرجال مع مَنْ تكلَّم فيه، مشيراً إلى تأثير الأهواء.

ألف الذهبي هذه الرسالة بعد كتابيه «المغني» و«الميزان»[1]، وهي ـ على صغرها ـ قيمة نافعة، وكأنها وُضعت للمبتدئين في «علم المصطلح»، وتقع في نحو (٧٠) صفحة مع تعليقات المحقق التي تقارب نصف الصفحات.

وقد ألحق محققها بها خمسَ تتمات مهمة نافعة.

١٠١ ـ منتقى من «أسماء الرجال» للسليماني:

قال الذهبي في ترجمة الحافظ أحمد بن علي بن عمرو السليماني: «وقفتُ له على تأليف في أسماء الرجال، وعلَّقتُ منه»[2].

١٠٢ ـ منتقى من «الجرح والتعديل» للعِجْلي:

قال الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ أحمد بن عبدالله بن صالح العِجْلي الكوفي: «وله مصنَّفٌ مفيدٌ في «الجرح والتعديل» طالعتُه،

---

(١) انظر: الموقظة ٨١.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٣/١٠٣٦.

وعلَّقتُ منه فوائدَ تدل على تبحُّره بالصنعة، وسعة حفظه»[1].

١٠٣ ــ ميزان الاعتدال في نقد الرجال:

●● ذكر هذا الكتاب أكثر الذين ترجموا للذهبي، وهو كتاب شهير، يعتبر ــ بحقّ ــ من أجلّ كتب الذهبي وأحسنها وأجمعها في نقد الرجال، وهو يمثل قمة معلومات الذهبي في النقد جرحاً وتعديلاً، ذلك أنه صنفه بعد أن اطلع على الأمهات المؤلفة في «الضعفاء»، وبعد أن اختصر بعض الكتب في هذا الموضوع، وانتقى من كتب أخرى، وذيَّل على «الضعفاء» لابن الجوزي بكتابين، وألف «ديوان الضعفاء والمتروكين» ثم ذيّل عليه، وألّف «المغني في الضعفاء»، فضلاً عن كتبه الأخرى في التراجم، وبخاصة كتابه العظيم «تاريخ الإسلام».

فكان «الميزان» حصيلة هذا الاطلاع الواسع، وتلك الخبرة الطويلة، والمعاناة المستمرة، والقدم الراسخة في «علم الرجال»؛ فصبّ فيه صيِّبَ علمه الغزير العزيز، وآراءه الفذة الناقدة المنصفة، ومعارفه العالية، وفوائده الغالية. و«الميزان» أكسب الذهبي شهرة عالية رفيعة في ميدان النقد، وهو جدير بذلك وحقيق به.

●● اعتمد الذهبي في «ميزانه» معظم المصنفات التي وضعت قبله في «الضعفاء والمجروحين»، أو التي جمعت بين «الضعفاء والثقات»، والتي صنفها كبار أئمة هذا الفن، مثل:

يحيى بن سعيد القطان، وتلامذته: يحيى بن معين، وعلي بن المديني، وأحمد بن حنبل، وعَمْرو بن علي الفلّاس، وأبو خيثمة. ثم تلامذة هؤلاء كأبي زرعة وأبي حاتم الرازيين، والبخاري، ومسلم، وأبي

---

(١) سير أعلام: النبلاء: ٥٠٦/١٢.

إسحاق الجوزجاني السعدي. وخَلْق من بعدهم مثل: النسائي، وابن خزيمة، والدولابي، والعقيلي، وابن حبان، ثم كتاب «الكامل» لأبي أحمد ابن عدي ــ وهو أكمل الكتب وأجلُّها في ذلك ــ وكتاب أبي الفتح الأزدي، و«الجرح والتعديل» لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، و«الضعفاء» للدارقطني، و «الضعفاء» للحاكم النيسابوري، وغيرها[1].

●● رتب الذهبي كتابه هذا على حروف المعجم حتى في الآباء ليقرب تناوله، وأصله وموضوعه في الضعفاء، وفيه خلق من الثقات ذكرهم للذبّ عنهم، ولأن الكلام فيهم غير مؤثر ضعفاً. وقد اتبع فيه منهج ابن عدي في «الكامل»، فأورد في «الميزان» كل من تكلم فيه ولو كان ثقة، خوفاً من أن يتعقب عليه، لكنه التزم ألا يذكر أحداً من الصحابة لجلالتهم، ولأن الضعف إنما جاء من جهة الرواة إليهم. كذلك لم يذكر من الأئمة المتبوعين في الفروع أحداً لجلالتهم في الإسلام وعظمتهم في النفوس، مثل أبي حنيفة والشافعي، فإن ذكر أحداً منهم، فيذكره على الإنصاف، وما يضره ذلك عند الله ولا عند الناس[2].

●● وقد احتوى «الميزان» على عشر طوائف، ذكرهم الذهبي في مقدمة الكتاب[3]، وهم:

١ ــ الكذابون الوضاعون المتعمدون.

٢ ــ الكاذبون في أنهم سمعوا ولم يكونوا سمعوا.

٣ ــ المتَّهمون بالوضع أو بالتزوير.

---

(١) ميزان الاعتدال: ١/١ ــ ٢.

(٢) المرجع السابق: ١/٢ ــ ٣، ٤/٦١٦.

(٣) المرجع السابق: ١/٣.

٤ ـ الكذابون في لهجتهم لا في الحديث النبوي.

٥ ـ المتروكون الهلكى الذين كَثُرَ خطؤهم وتُرك حديثهم، ولم يعتمد على روايتهم.

٦ ـ الحفاظ الذين في دينهم رقة وفي عدالتهم وهن.

٧ ـ المحدثون الضعفاء من قبل حفظهم، فلهم غلط وأوهام، ولم يُترك حديثهم، بل يُقبل ما رووه في الشواهد والاعتبار بهم لا في الأصول والحلال والحرام.

٨ ـ المحدثون الصادقون أو الشيوخ المستورون، الذين فيهم لين، ولم يبلغوا رتبة الأثبات المتقنين.

٩ ـ خَلْق كثير من المجهولين ممن ينصُّ أبو حاتم الرازي على أنه مجهول، أو يقول غيره: لا يعرف، أو فيه جهالة، أو يُجْهَل، أو نحو ذلك من العبارات التي تدل على عدم شهرة الشيخ بالصدق، إذ المجهول غير محتج به.

١٠ ـ الثقات الأثبات الذين فيهم بدعة، أو الثقات الذين تكلَّم فيهم مَنْ لا يُلتفت إلى كلامه في ذلك الثقة، لكونه تعنَّت فيه، وخالف الجمهور من أولي النقد والتحرير.

●● والكتاب من حيث ترتيبه ثمانية أقسام:

١ ـ تراجم الرجال والنساء.

٢ ـ الكنى للرجال.

٣ ـ من عُرف بأبيه، ويبدؤه بـ «ابن»، وألحق به فصلاً من جنسه يبدؤه بـ «ابن أخي».

٤ ـ الأنساب.

٥ ـ مجاهيل الاسم.

٦ ـ النسوة المجهولات.

٧ ــ الكنى للنسوة.
٨ ــ فيمن لم يُسَمَّ من النسوة.

والكتاب يشمل على (١١٠٥٣) ترجمة، في أربعة مجلدات كبار.
والعجيب أن الحافظ الذهبي ــ رحمه الله ــ قد ألف هذا الكتاب العظيم في أربعة أشهر إلا يومين من سنة (٧٢٤ هـ)!! ورجع إليه غير مرة، وزاد حواشي في أربع سنين[١].

●● وقد احتل «ميزان الاعتدال» مكانة مرموقة عند العلماء والحفاظ المعنيين بعلم الرجال والجرح والتعديل، وعوَّلوا عليه، وامتدحوه:

فاعتبره الحافظ ابن حجر من أجمع ما وقف عليه مما أُلِّف في «المجروحين[٢]». وامتدحه السخاوي بأنه «عوَّل عليه من جاء بعده»[٣].

لذا تناوله جملة من الأئمة بالتذييل والتعقيب والاستدراك:

ــ فجرَّدَ الشيخ تاج الدين علي بن عبدالله التبريزي (ت ٧٤٦ هـ) الأحاديث التي في «الميزان»، ورتبها على الأبواب[٤].

ــ وصنف الحافظ أبو المحاسن محمد بن علي الحسيني (ت ٧٦٥) ــ تلميذ الذهبي ــ كتابه: «التعليق على ميزان الاعتدال»، بيَّنَ فيه كثيراً من الأوهام، واستدرك عليه عدة أسماء[٥].

---

(١) ميزان الاعتدال: ٤/٦١٦.
(٢) لسان الميزان: ١/٤.
(٣) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٩.
(٤) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٣٦.
(٥) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٦٥، الدرر: ٤/٦٢.

ـ وألف تلميذه الآخر الحافظُ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) كتابه: «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» جمع فيه بين «تهذيب الكمال» للمِزِّي، و«الميزان» للذهبي، مع زيادات وتحرير عليهما في الجرح والتعديل. وهو في خمسة مجلدات[1].

ـ وللحافظ أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت ٨٠٦) «ذيل» عليه في مجلد[2].

ـ وذيّل عليه أيضاً الحافظ إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي ثم الحلبي، المعروف بسبط ابن العجمي (ت ٨٤١ هـ)، وسماه: «نَثْل الهِمْيَان في معيار الميزان» يشتمل على تحرير بعض تراجمه، وزيادات عليه، وهو في مجلدة لطيفة، لكنه ـ كما قال ابن حجر ـ لم يمعن النظر فيه[3].

ـ وأما الحافظ ابن حجر فقد اعتنى جداً بميزان الذهبي، وألّف عليه ثلاثة كتب: «تحرير الميزان»، و«ذيل الميزان»، و«لسان الميزان»[4]، وهذا الأخير من الكتب المشهورة المطبوعة، وهو كتاب عظيم، ويعتبر أحسن الكتب التي أُلِّفت على «الميزان»، ويخرج منهما كتاب فريد.

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ٥٨، الإعلان بالتوبيخ: ١١٠ ـ ١١١، الرسالة المستطرفة: ٢١٠.

(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ٢٣١، الإعلان بالتوبيخ ١١٠، كشف الظنون: ٢/١٩١٨، الرسالة المستطرفة: ١٤٦، لسان الميزان: ١/٤.

(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣١٤، وذكر له في ص ٣١٣ كتاب «نقد النقصان في معيار الميزان»، فهل هذا غير الذيل أم أنه تحريف؟ وانظر: كشف الظنون: ٢/١٩١٧، الرسالة المستطرفة: ١٤٦، الضوء اللامع: ١/١٤١ وفيه «نيل الهميان» وهو تصحيف.

(٤) انظر كتابنا «ابن حجر»: ص ٤٣٦، ٤٤٥.

والحافظ في «لسان الميزان» أكملَ ما في «الميزان» من نقص، وسدّ ما فيه من خلل، فأضاف عليه تراجم برأسها، وزاد في أثناء التراجم زيادات هامة قد تكون أحياناً أضعاف ما جاء به الذهبي. مع تعقبات قيمة تتلخص في: مزيد بيان من وثّق المترجم أو جرحه، مما فيه موافقة أو مخالفة لما ساقه الذهبي، أو التنصيص حرفياً على لفظ من ينقل عنه الذهبي تحرياً للأمانة العلمية، أو ذكر تتمة كلام مَنْ نقل الذهبي عنه لمزيد الإيضاح، أو بيان لخبر أو حديث أشار إليه الذهبي، وذِكْر درجة إسناده، أو توضيح إشكال قد يلحق بالمترجم، خوف اختلاطه بغيره، أو تصويب لاسم المترجم، أو قال الذهبي: لا أعرفه، فيسوق ابن حجر من ترجم له، أو بيان لإجحاف في الاختصار صدر من الذهبي مما يترتب على ذكره أهمية، أو التصحيف في أسماء الرجال أو تحريفها، أو غلط في معرفة الصحابة وأسمائهم، وتصحيح الأحاديث أو توهيتها، والتنبيه على أسماء انقلبت ولم يتنبه لها الذهبي، وينبه على تناقضاته ــ أحياناً ــ في أسماء الرجال، أو وهم وقع منه، أو سهو طرأ عليه، أو تكرار للترجمة الواحدة، أو زلل في النقل من المصادر، وغير ذلك[1].

١٠٤ ــ النبلاء في شيوخ السنة:

ذكره ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»، وسبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وابن العماد في «شذرات الذهب»، وقالوا: «أخذه من كتاب ابن عساكر، وزاده فوائد ومحاسن». وهو في مجلد.

وابن عساكر: هو الحافظ الكبير المجوِّد محدث الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي، المتوفى سنة (٥٧١ هـ). وكتابه هو: «المعجم المشتمل على أسماء الشيوخ

---

(١) انظر: المرجع السابق: ص ٢٣٣ ــ ٢٤٠ و٤٤٥ ــ ٤٤٦.

النَّبَل[1]»، ذكر فيه باختصار أسماء رجال الكتب الستة، ورتبه على حروف المعجم.

جـ ـ المعاجم والمشيخات:

١٠٥ ـ جزء في أصحاب ابن عساكر الذين رووا لشيوخ الذهبي:

ذكره الذهبي في ترجمة الحافظ ابن عساكر فقال: «وقد روى لشيوخي نحوٌ من أربعين نفساً من أصحاب الحافظ، أفردتُ لهم جزءاً»[2].

١٠٦ ـ مشيخة التَّلِّي:

ذكرها الذهبي، وتلميذه الحسيني.

قال الذهبي: «محمد بن أحمد بن تمام بن حسان، الشيخ العالم، المقرىء الصالح، القدوة الزاهد، بركة الوقت، أبو عبدالله، التَّلِّيّ الصالحي الخياط الحنبلي... انتقيتُ له مشيخة فسمعها خلق. توفي في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وسبع مئة، ودفن بقاسيون»[3].

وقال الحسيني: «استوعب الذهبي شيوخه في جزء»[4].

١٠٧ ـ مشيخة الجَعْبَري:

الجعبري: هو صالح بن تامر بن حامد، تاج الدين أبو محمد،

---

(١) وقد طبع في دار الفكر بدمشق سنة ١٩٨٠ م، بتحقيق الأستاذة سكينة الشهابي.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٥٥٧.
(٣) معجم الشيوخ: ٤٥٧ ـ ٤٥٨. والتلي: نسبة إلى «التَّلّ» بلدة كبيرة من ضواحي دمشق.
(٤) ذيل العبر: ٤/١٢٢.

الإمام القاضي، العالم الفَرَضِيّ، الجعبري الشافعي، المتوفى سنة (٧٠٦ هـ).

قال الذهبي في ترجمته: «خرجتُ له مشيخة، وكان فقيهاً إماماً، خيِّراً متواضعاً، زكي النفس، صحيح النِّحلة، كيِّس الجملة»[١].

١٠٨ ـ مشيخة ابن الزَّرَّاد الحريري:

ذكرها الذهبي في غير موضع في ترجمة شيخه ابن الزراد، فقال: «محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء ابن أبي المعالي، المسنِد العالم الرُّحْلَة، شمسُ الدين أبو عبدالله، ابن الزراد الحريري الصالحي الحنبلي... وخرَّجتُ له جزءاً ضخماً عن مئة شيخ، رواه مرات، وروى كتباً كباراً تفرد بها... مات في شوال سنة ست وعشرين وسبع مئة»[٢].

وقال في «المعجم المختص»: «خَرَّجْتُ له عن مئة شيخ»[٣].

وقال في «ذيل العبر»: «خرجت له مشيخة»[٤].

وذكرها الصفدي[٥]، وابن العماد[٦] نقلاً عن الذهبي، وذكر الوادي آشي أنها «في جزءين كبيرين»[٧].

١٠٩ ـ مشيخة ابن سعد:

هو مسنِد الوقت سعد الدين يحيى بن محمد بن سعد المقدسي ثم

---

(١) معجم الشيوخ: ٢٤٣، وترجمه في المعجم المختص: ١١٣.
(٢) معجم الشيوخ: ٤٨٠.
(٣) المعجم المختص: ٢٢٤.
(٤) ذيل العبر: ٤/٧٨.
(٥) الوافي: ٢/١٤٧.
(٦) شذرات الذهب: ٦/٧٢.
(٧) برنامج الوادي آشي: ٩٠.

الصالحي المتوفى سنة (٧٢١ هـ) بالصالحية. ذكر ابن حجر والكتاني أن الذهبي خرج له مشيخة [١].

١١٠ ـ المشيخة الصغرى لسُنْقُر الزيني:

علاء الدين سُنْقُر بن عبدالله الحلبي القضائي الزيني (ت ٧٠٦ هـ)، أحد شيوخ الذهبي الذين أكثر عنهم.

قال الذهبي: «كان طويل الروح، فيه سكون وحياء ومروءة، وكانوا يثنَون عليه، وخَرَّجْتُ له مشيخة».

وذكرها الحافظ في «الإنباء»، وذكر الكتاني أنها « المشيخة الصغرى» [٢].

١١١ ـ مشيخة عز الدين المقدسي:

قال الذهبي في «معجم شيوخه»: «أحمد ابن العماد عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة بن مقدام، شيخنا عز الدين أبو العباس المقدسي الصالحي الحنبلي... وخرجت له مشيخة في ثلاثة أجزاء، عدم بعضها أيام قازان [٣]». توفي سنة (٧٠٠ هـ).

وذكرها في «تاريخ الإسلام» وصرح بأن الذي عدم منها جزءان. كما ذكرها سبط ابن حجر.

---

(١) المعجم المفهرس: ورقة ٨٩، فهرس الفهارس: ٢/٦٤٤.
(٢) الرد الوافر: ١٦٠ هامش، إنباء الغمر: ١/١٠١، فهرس الفهارس: ٢/٦٤٩ مع هامش ص ٦٤٨.
(٣) معجم الشيوخ: ٤٢.

١١٢ ــ مشيخة علاء الدين القُوْنَوِي:

هو علي بن محمود بن حميد القُونَوِي الحنفي، العلامة البارع (ت ٧٤٩ هـ).

ذكرها الذهبي في ترجمته من «المعجم المختص» فقال: «وخَرَّجْتُ له مشيخة»[١].

١١٣ ــ مشيخة ابن القواس:

ابن القواس أحد أكابر شيوخ الذهبي الذين أكثر عنهم قراءة وسماعاً، وهو: عمر بن عبد المنعم، أبو حفص بن القواس (ت ٦٩٨ هـ)[٢].

قال الذهبي في ترجمته: «خرَّجتُ له مشيخة». وذكرها في «معجم شيوخه»[٣]، وأفاد في «تاريخ الإسلام» أنها «مشيخة صغيرة». وذكرها ابن العماد[٤] نقلاً عن «العبر».

١١٤ ــ مشيخة الكحّال:

وخرّج مشيخة لزين الدين أيوب بن نعمة بن محمد النابلسي ثم الدمشقي، المعروف بالكحال (ت ٧٣٠ هـ). ذكرها ابن حجر[٥].

١١٥ ــ مشيخة محمد بن يوسف الإربلي:

قال الذهبي في ترجمته من «ذيل العبر»: «أبو عبدالله محمد بن

---

(١) المعجم المختص: ١٧٦، وضبطها المحقق هكذا: «وخُرِّجَتْ...»!.

(٢) انظر التعريف به: ص ٧٩ ــ ٨٠ من هذا الكتاب.

(٣) العبر: ٣/٣٩٢، معجم الشيوخ: ٤٠٢.

(٤) شذرات الذهب: ٥/٤٤٢.

(٥) الدرر الكامنة: ١/٤٣٥.

يوسف بن يعقوب الإربلي ثم الدمشقي، كبير الذهبيين، ويكنى أبا الفضل أيضاً. . . خَرَّجْتُ له مشيخة»[1]. توفي سنة (٧٠٤ هـ).

وذكرها ابن العماد[2] نقلاً عن «ذيل العبر».

١١٦ ـ مشيخة المطعِّم:

هو مسند الوقت شرف الدين عيسى بن عبد الرحمن بن معالي، أبو محمد الصالحي السمسار في العقار ومطعِّم الأشجار. توفي سنة (٧١٩ هـ).

خرج الذهبي له «مشيخة»، كما ذكر ابن فهد، وابن طولون، والنعيمي، والكتاني[3].

١١٧ ـ منتخب من «مشيخة القاضي ابن الخُوَيِّي» للإسعردي:

قال الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ تقي الدين عبيد بن محمد بن عباس الإسعردي (ت ٦٩٢ هـ): «كتب الكثير، وبرع في التخريج، وأسماء الرجال، والعالي والموافقة، وانتخب لجماعة. طالعتُ من عمله «مشيخة القاضي ابن الخويي»، وانتخبتُ من ذلك أشياء مفيدة»[4].

---

(١) ذيل العبر للذهبي: ٤/ ١٠.

(٢) شذرات الذهب: ٦/١١.

(٣) معجم الشيوخ لابن فهد: ١٨٧، القلائد الجوهرية لابن طولون: ٢/ ٤٠٨، الدارس للنعيمي: ١/٥٥، فهرس الفهارس للكتاني: ٢/ ٦٤٣.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٧٧.

١١٨ ـ المنتقى من «مشيخة ابن عبد الدائم المقدسي» لجمال الدين الظاهري:

ذكره الوادي آشي فقال: «مشيخة زين الدين أبي العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي، التي خرَّجها له جمالُ الدين أبو العباس أحمدُ بن عبدالله الظاهري. سمعتُ منها قطعة على الشيخ علاء الدين أبي الحسن علي بن عبدالله بن غانم، كان انتقاها الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي...»[١].

١١٩ ـ ١٢٠ ـ ١٢١ ـ معاجم الذهبي الثلاثة:

●● أكثر الذين ترجموا للذهبي ذكروا له ثلاثة معاجم هي: معجم الشيوخ الكبير، المعجم الصغير (اللطيف)، المعجم المختص بالمحدثين.

قال الحافظ ابن حجر: «المعجم الكبير للذهبي تخريجه لنفسه، المعجم اللطيف له، المعجم المختص بالمحدثين للذهبي». وذكر مثل ذلك في «الدرر»[٢].

وذكر السخاوي كثيراً من المعاجم والمشيخات، وذكر معاجم الذهبي فيها، فقال: «والذهبي في ثلاثة: كبير ولطيف ومختص»[٣].

---

(١) برنامج الوادي آشي: ٣٢٢، وانظر ٢٩٤ منه. وابن عبد الدائم توفي سنة (٦٦٨ هـ)، وجمال الدين أحمد بن محمد بن عبدالله الظاهري توفي سنة (٦٩٦ هـ).

(٢) المعجم المفهرس: ورقة ٨٥/أ، الدرر الكامنة: ٣/٣٣٧.

(٣) الإعلان بالتوبيخ: ١١٩، وتحرفت لفظة «ومختص» إلى «ومختصر»، وجاءت على الصواب ص ١٠٢.

وذكر «الكبير والمختص» في موضعين آخرين[1].

وقال السيوطي مثل ذلك: «وله معجم كبير، وصغير، ومختص بالمحدثين»[2].

وكذلك ذكرها السبكي، وطاش كبرى، والشوكاني، والكتاني[3].

●● وثمة فريق ثان من العلماء ذكروا للذهبي ثلاثة معاجم، لكنهم ذكروا «الأوسط» من بينها:

قال ابن تغري بردي: «وكتاب معجم شيوخه الكبير، والمعجم الأوسط، والمعجم المختص»[4].

وقال سبط ابن حجر: «وكتاب معجم شيوخه الكبير، والمعجم الأوسط، والمعجم الصغير»[5].

●● وفريق ثالث من العلماء ذكروا للذهبي أربعة معاجم، وهم:

حاجي خليفة حيث ذكر: «المختص بمحدثي العصر، ومختصر معجم الشيوخ الذي اشتمل على ألف شيخ، والمعجم الكبير، والصغير»[6].

وتابعه البغدادي فذكر: «المختص في محدثي العصر، مختصر

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٢، ١١٣.

(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٤٨ طبقات الحفاظ: ٥٢٢.

(٣) الطبقات الكبرى: ٩/١٠٥، مفتاح السعادة: ٢/٣٢٤، البدر الطالع: ٢/١١٠، فهرس الفهارس: ١/٤١٧ وانظر: ٢/٦١٦.

(٤) المنهل الصافي: مجلد ٣ ورقة ٧٠/ب.

(٥) رونق الألفاظ: ٢ ورقة ٣٦/أ.

(٦) كشف الظنون: ٢/١٦٢٥، ١٧٣٦، ١٧٣٧.

معجم الشيوخ، المعجم الصغير المسمى باللطيف، المعجم الكبير»[1].

وذكر ابن العماد: «معجم شيوخه الكبير، والمعجم الأوسط، والمعجم الصغير، والمعجم المختص»[2].

وتابعه الدكتور بشار عواد[3].

والذي يترجح لدينا أن ذكر «المعجم الأوسط» عند ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد، وذكر «مختصر معجم الشيوخ» عند حاجي خليفة والبغدادي ـ هو وَهَم لحق بهم جميعاً، سببه أن «معجم الشيوخ الكبير» صدر منه عن المؤلف نسختان: الأولى سنة (٧٢٧ هـ) وعدد التراجم فيها (١٢٧٨) ترجمة، والثانية سنة (٧٤٥ هـ) وعدد تراجمها (١٠٤٢) ترجمة. وهذه الأخيرة تمثل النسخة المعتمدة عند المؤلف بعد أن أشار بحذف أصحاب الفخر ابن البخاري، فأسقط من النسخة الأولى (٢٣٦) ترجمة[4]. والإصدار الأخير من «معجم الشيوخ» هو ما يعبر عنه هؤلاء باسم: «المعجم الأوسط» أو «مختصر معجم الشيوخ».

ويؤيد هذا القول ما ذكره حاجي خليفة من أن «مختصر شيوخ الذهبي اشتمل على ألف شيخ»، وهذا على سبيل جبر الكسر، فالنسخة الأخيرة للمعجم فيها (١٠٤٢) ترجمة، وهي الإصدار الأخير للمعجم الكبير وليست مختصراً له على التحقيق.

---

(١) هدية العارفين: ٢/١٥٤، ١٥٥. وكلمة «المختص» تحرفت عنده إلى «المختصر».

(٢) شذرات الذهب: ٦/١٥٦.

(٣) الذهبي ومنهجه: ١٨٥.

(٤) انظر: ص ٧١ ـ ٧٢، ٤٣٤ ـ ٤٣٥ من هذا الكتاب.

لذا فلا داعي لأن نتأول أن «الأوسط» عند ابن تغري بردي هو: «المعجم الصغير»، وعند السبط هو «المختص»[1]، ففي ذلك تحميل لكلامهما ما لا يحتمله، وكون «الصغير» و«المختص» مشهورَيْن لا يبرِّر ذلك التأويل، لأنهما لم يقصدا استيعاب مصنفات الذهبي، ولا اشترطا ذلك، وإلا فماذا نقول فيمن ذكر للذهبي «المعجم الكبير» فقط، وفيهم كبار تلامذته: الحسيني والصفدي؟!

وبهذا يتضح لنا أن للذهبي ثلاثة معاجم، هي: معجم الشيوخ الكبير، والمعجم الصغير أو (اللطيف) والمعجم المختص بالمحدثين. ويؤيد رأينا ما بسطناه قبل قليل، وما ذكره التاج السبكي ـ تلميذ الذهبي وخريجه ـ وابن حجر وهو المعجب بالذهبي والمهتم بتصانيفه قراءة وتذييلاً واستدراكاً، وكذلك ما نص عليه السخاوي والسيوطي والشوكاني والكتاني.

المعجم الكبير:

يوجد من هذا المعجم نسختان: إحداهما بدار الكتب المصرية، والثانية باستنبول في مكتبة أحمد الثالث.

١ ـ النسخة التركية تقع في مجلدين، نُقلت من نسخة المؤلف التي أنهاها في صفر سنة (٧٢٧ هـ) وعدد التراجم فيها يبلغ (١٢٧٨) ترجمة.

٢ ـ النسخة الثانية «المصرية» كُتبت في سنة (٧٤٥ هـ)، حيث قال ناسخها في آخرها: «تمَّ الكتاب بحمد الله وعونه في ضاحي نهار الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وسبع مئة...»[2].

---

(١) كما يرى الأستاذ قاسم سعد، انظر: «صفحات»: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) معجم الشيوخ: ٦٨٩.

وعلى الرغم من تأخر كتابة هذه النسخة عن تاريخ كتابة الأصل الذي نُقلت عنه النسخة التركية، فإنها تعتبر أهم وأعلى قيمة، نظراً إلى أن المؤلف أدخل على هذا الأصل الثاني من «معجمه الكبير» تغييرات هامة، فهي تمثل «آخر نشرة للمعجم من المؤلف». وقد قرئت عليه في مجالس متعددة آخرها يوم السبت (٢٤) رمضان من سنة (٧٤٥ هـ)، أي بعد كتابتها مباشرة، وهي تحتوي (١٠٤٢) ترجمة فقط. وانخفاض عدد التراجم في هذه النسخة لا يفسَّر إلا بما ذكره عبدالله الزرندي فيما كتبه في نهاية الكتاب حيث قال: «قرأت جميع هذا المعجم على مؤلفه... الذهبي أبقاه الله تعالى، في مجالس آخرها يوم السبت رابع عشرين شهر رمضان المعظم سنة خمس وأربعين وسبع مئة. وقوبل بأصل المخرِّج[1]، وأشار بإسقاط جماعة من المكتوبين على حواشي الأصل من أصحاب ابن البخاري[2]، فلم يكتبوا هنا... وكتب عبدالله بن أحمد بن يوسف الزرندي، مصلياً على محمد وآله ومسلِّما»[3].

وهكذا فإن الذهبي عندما وضع معجمه سنة (٧٢٧ هـ) ضمَّنه تراجم أصحاب الفخر ابن البخاري، ثم بدا له أن ينقّح كتابه وينشره نشرة ثانية، فأسقط (٢٣٦) ترجمة، فأصبح عدد تراجم النسخة الأخيرة (١٠٤٢) ترجمة.

وهذا يفسِّر لنا قول كثيرين ممن ترجموا للذهبي حيث أشاروا إلى أن معجم شيوخه يضم (١٣٠٠) شيخاً، وبعضهم يقول (١٠٠٠) شيخ،

---

(١) يعني الذهبي.

(٢) هو فخر الدين علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، المعروف بابن البخاري (ت ٦٩٠ هـ)، صاحب «المشيخة» الشهيرة التي سمعها خلائق.

(٣) معجم الشيوخ: ٦٨٩.

فالفريق الأول عَنَى النسخة الأولى التي صدرت سنة (٧٢٧ هـ)، بينما عنى الفريق الثاني النسخة الأخيرة التي قرئت على المؤلف سنة (٧٤٥ هـ). والله أعلم.

●● هذا وقد بقي الذهبي على صلة مستمرة بهذا المعجم، يحذف ويزيد، ويعدّل ويدقق، ويصوب ويحقق، حتى سنة (٧٤٥ هـ)، كما يدل عليه كلامنا السابق، وتدل عليه بعض الإشارات والإضافات في أثناء بعض التراجم، نحو قوله في ترجمة شيخه ورفيقه ومعلّمه علم الدين البِرْزالي: «. . . فالله يلهمه رشده، ويمدّ في عمره، سمعت منه في سنة أربع وتسعين وست مئة توفي بخليص في ثالث ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وسبع مئة»[١]. فقوله: «ويمدّ في عمره»، ثم قوله: «توفي بخليص. . .»؛ يدل على أنه أضاف العبارة الأخيرة فيما بعد، بعدما توفي شيخه.

●● وقد اشتمل معجم الذهبي هذا على أشياخه بالسماع والإجازة مخلوطين، إلا أنه لم يستوعبهم كما أشار في خطبته[٢]. رتبه على حروف المعجم، وابتدأ «بالأحمدين» في حرف الألف، وبعبدالله في حرف العين، لكنه لم يبدأ «بالمحمدين» في حرف الميم.

وعناصر الترجمة تتناول ـ على الأغلب ـ اسم المترجَم ونسبه ونسبته، ووظيفته وعمله، وعلمه والعلوم التي جوَّدها، وذِكْر بعض أشياخه، وتاريخ ولادته ووفاته، والحكم على سيرته وعدالته. ويسوق ـ غالباً ـ حديثاً أو رواية عنه بسنده، وقد يورد بعض الكتب والأجزاء التي سمعها منه أو قرأها عليه.

---

(١) المرجع السابق: ٤٣٦.

(٢) المرجع السابق: ١٣.

●● حقق المعجم الدكتور محمد الحبيب الهيلة، وصدر في مجلدين: الأول يقع في (٤٤٢) صفحة، والثاني في (٤٢٩) صفحة. وصنع للكتاب فهارس علمية نافعة، وتحقيقه جيد.

كما حققته الدكتورة روحية عبد الرحمن السيوفي، وصدر في مجلد كبير يقع في (٧٣٤) صفحة. وليس فيه أمارات التحقيق، وبخاصة ضبط الأسماء والأنساب، الأمر الذي يعتبر في غاية الأهمية في مثل هذه الكتب، كما وقعت فيه تحريفات وتصحيفات قبيحة!!

المعجم الصغير (اللطيف):

ذكره بعضهم باسم «المعجم الصغير»، وسمّاه آخرون «اللطيف» للطافة حجمه، فقد ذكر الكتاني أنه «في كراسين، افتتحه بالرواية عن ابن النعمة المقدسي بسماعه عليه سنة ٦٩٤ هـ. وكلما أورد حديثاً عقبه بحكمه ورتبته»[(١)].

المعجم المختص بالمحدثين:

ذكره الذهبي في «تذكرة الحفاظ» فقال وقد كنت أَلَّفْتُ معجماً لي يختصُّ بمن طلب هذا الشأن من شيوخي ورفاقي، فاستوعبتُ مَنْ له أدنى عمل وبيَّنت أحوالهم»[(٢)].

وذكره السبكي في «الطبقات الكبرى»، والحسيني في «ذيل التذكرة»، وابن حجر في «المعجم المفهرس» و«الدرر» و«إنباء الغمر»، والسخاوي في «الإعلان»، والسيوطي في «ذيل التذكرة»، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، والبغدادي في «هدية العارفين»، وطاش كبرى في «مفتاح السعادة»، وابن العماد في «الشذرات»، والشوكاني في «البدر

---

(١) فهرس الفهارس: ٢/٦١٦.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٥٠٠.

الطالع»، والكتاني في «فهرس الفهارس»، وغيرهم[1].

●● وهذا الكتاب ليس معجماً لشيوخ الذهبي، بل هو ـ كما يقول مؤلفه ـ: «معجم مختصّ بذكر من جالسته من المحدثين أو أجاز لي مروياته من طلبة الحديث»[2]. فهو موضوع لترجمة طلبة العلم والحديث النبوي في عصر الذهبي، حيث ذكر فيه حتى صغار الطلبة آنذاك.

●● يحتوي هذا المعجم على مقدمة صغيرة، و(٣٩٤) ترجمة، وخاتمة في ثلاثة أسطر قال فيها: «آخر المعجم المختص. قال مؤلفه: خرَّجته في سنة (٧٣١ هـ)، وأنا معتذر مستغفر من الثناء والذمِّ، عارف بالتقصير، غفر الله للكل بمنِّه، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً»[3].

فهو قد فرغ من تأليفه سنة (٧٣١ هـ)، لكنه ـ وهذه عادة طيبة منه ـ كان يعود إليه، ويعمل فيه النظر، ويزيد في بعض التراجم مما له أهمية، ومن أمثلة ذلك ما جاء في ترجمة محمد بن علي بن أيبك السروجي: «ولد سنة أربع عشرة وسبع مئة، وطلب الحديث بعد الثلاثين ـ أي وسبع مئة ـ ... ولئن لازم العلم والطاعة ليسودَنَّ. سمع منه المِزِّي والبِرْزالي. توفي غريباً بحلب عن ثلاثين سنة، وتأسف المحدثون على حفظه وذكائه، في ثامن ربيع الأول سنة أربع وأربعين ـ أي وسبع

---

(١) تحرفت كلمة «المختص» إلى «المختصر» في الإعلان بالتوبيخ: ١١٩، وكشف الظنون: ١٦٢٥، وهدية العارفين: ٢/١٥٤، ومفتاح السعادة: ٢/٣٢٤.
(٢) المعجم المختص: ٥.
(٣) المرجع السابق: ٣١٠.

مئة ـ»[1]. وتأريخ هذه الوفاة كان بعد فراغه من تـأليف «هذا المعجم» بثلاث عشرة سنة على الأقل»[2].

رتبه مؤلفه على حروف المعجم، فابتدأ بالأسماء، ثم أتبعها الكنى بعد ذلك، وعمل فيه الإحالات الكثيرة، فترجم ـ مثلاً ـ البرزالي في حرف الباء، وقال في حرف القاف: «القاسم بن محمد: هو البرزالي الحافظ، مَرَّ في الباء»[3]. وبعكس ذلك عندما ترجم ابن كثير: فترجمه في حرف الهمزة، وقال في حرف الكاف: «ابن كثير: إسماعيل بن عمر، مر»[4].

وقد اختلفت الترجمات طولاً وقِصَراً، بحسب أهمية المترجَم ومكانته في علم الحديث واشتهاره آنذاك، فبعضها جاء وافياً، ومنها ما جاء في بضعة أسطر. وعناصر الترجمة تشبه مثيلتها في «معجم الشيوخ الكبير».

●● والمعجم المختص احتل مكانة مرموقة عند العلماء المعنيين بالتراجم، فاعتُبر مصدراً هاماً في ذلك، بل ربما انفرد ببعض التراجم دون غيره من الكتب في هذا المجال. ولا أدل على أهميته من كثرة الناقلين عنه، فنقل عنه الحسيني في «ذيل التذكرة»، والسبكي في «الطبقات الكبرى» وابن رافع في «الوفيات»، وابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»، وابن قاضي شهبة في «طبقات الشافعية»، وابن حجر

---

(١) المعجم المختص: ٢٤٤.

(٢) انظر أمثلة أخرى: الترجمة: ١٣، ١٤٥، ٢٠٨، ٢٤٦، ٢٨٧، ٣١٩، ٣٢٧، ٣٤١، ٣٨٠.

(٣) المعجم المختص: ٧٧، ١٩٤.

(٤) المرجع السابق: ٧٤، ١٩٨.

في «الدرر الكامنة» فأكثر عنه حتى نقل زيادة على (٩٢) ترجمة، وفي «إنباء الغمر»، وابن فهد في «لحظ الألحاظ»، والسيوطي في «ذيل التذكرة»، وابن العماد في «الشذرات» كثيراً. وغير هؤلاء.

وقد قرأه على مؤلِّفه جملةٌ من العلماء[١].

وطبع الكتاب[٢] محققاً في مجلد يقع في (٣٦٠) صفحة تضم بعض الفهارس التي عملها المحقق.

ولابن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ) منتقى منه اسمه: «منتقى المعجم المختص».

١٢٢ ـ معجم شيوخ ابن البالسي:

هو العالم المسنِد الثقة محمد بن علي بن محمد، عماد الدين أبو المعالي ابن البالسي الدمشقي الشروطي (ت ٧١١ هـ).

قال الذهبي في ترجمته: «وجمعتُ له معجماً نفيساً، سمعه منه جماعة»[٣]. وقال في موضع آخر: «خرَّجتُ له معجماً كبيراً»[٤].

وذكره ابن حجر وسبطه، وابن العماد نقلاً عن «ذيل العبر»[٥].

١٢٣ ـ معجم شيوخ ابن حبيب:

ذكره الذهبي في ترجمة شيخه هذا فقال: «عمر بن حسن بن

---

(١) انظر مقدمة المحقق «للمعجم المختص»، الصفحات «ز، ح، ط، ي، ك، ل، م».

(٢) وقد زعم بعضهم أنه مفقود، وهو تسرع غير محمود!! وقد حققه الدكتور محمد الحبيب الهيلة.

(٣) معجم الشيوخ: ٥٤٠.

(٤) ذيل العبر: ٤/٢٩.

(٥) الدرر الكامنة: ٤ / ٨٣، رونق الألفاظ: الورقة: ١٨١، شذرات الذهب ٦/٢٨.

عمر بن حبيب، المحدث العالم الأجلّ، زين الدين، أبو حفص الدمشقي، أحد الرفاق. . . . وقد خرَّجتُ له معجماً كبيراً مليحاً فيه عن أزيد من خمس مئة شيخ. بلغنا موته بمَرَاغة سنة ست وعشرين وسبع مئة».

وقال في ترجمته من «المعجم المختص»: «خَرَّجْتُ له معجماً عن أزيد من خمس مئة شيخ بالسماع. . . وعاونني على معجمه وتفضَّل».

وقال في ترجمته من «التذكرة»: «خرجتُ له معجماً عن أزيد من خمس مئة نفس»[١].

وذكره ابن ناصر الدين، والسيوطي، وسبط ابن حجر، وأشار له السخاوي، والكتاني[٢].

وذكر الدكتور بشار عواد أن ابن حبيب الذي خرَّج له الذهبي معجماً هو: «بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، الدمشقي الأصل الحلبي المولود سنة ٧١٠ هـ والمتوفى سنة ٧٧٩ هـ»[٣]، وهو وَهَم جدّ ظاهر، والصواب ما قدمناه. والله تعالى أعلم.

١٢٤ ـ معجم شيوخ علاء الدين ابن العطار:

هو علي بن إبراهيم بن داود، علاءُ الدين أبو الحسن ابن العطار الدمشقي الشافعي، أخو الذهبي لأمه من الرضاعة.

---

(١) معجم الشيوخ: ٣٩٩، المعجم المختص ١٨١، تذكرة الحفاظ: ١٥٠٦/٤.

(٢) الرد الوافر: ٢٠٣، ذيل تذكرة الحفاظ: ٣٥٧، رونق الألفاظ: الورقة ١٨١، الإعلان بالتوبيخ: ١١٩، فهرس الفهارس: ٣٥٧/١.

(٣) الذهبي ومنهجه: ٢٦٥.

قال الذهبي: «خرَّجْتُ له معجماً في مجلد». ذكر ذلك في عدة مواضع من كتبه[1].

وذكره ابن حجر في «الدرر»، وسبطه في «رونق الألفاظ»، وابن العماد في «الشذرات».

١٢٥ ـ المعجم العلي للقاضي الحنبلي:

وخرج معجماً لشيخه قاضي القضاة تقي الدين أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي (ت ٧١٥ هـ).

ذكره ابن حجر وقال إنه في جزءين[2].

١٢٦ ـ المنتقى من معجم ابن مُسْدَي:

هو الحافظ العلامة أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى الأندلسي الغرناطي (ت ٦٦٣ هـ)، قال الذهبي في ترجمته: «... وعملَ معجماً في ثلاث مجلدات كبار، رأيتُه وطالعتُه، وعلَّقتُ منه كراريس»[3].

١٢٧ ـ المنتقى من معجم الحافظ المنذري:

المنذري: هو الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦ هـ).

قال الكتاني في ترجمته: «وعمل معجمه في مجلدين، واختصر صحيح مسلم وسنن أبي داود، وله كتاب الترغيب والترهيب... معجمه انتقى الحافظ الذهبي منه جزءًا»[4].

---

(١) معجم الشيوخ: ٣٥٢، المعجم المختص ١٥٧، تذكرة الحفاظ: ١٥٠٥/٤، ذيل العبر: ٧١/٤.

(٢) المجمع المؤسس: الورقة ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١٤٤٩/٤.

(٤) فهرس الفهارس: ٥٦٣/٢.

١٢٨ ـ المنتقى من معجم يوسف بن خليل الدمشقي:

هو الإمام الحافظ الرحَّال يوسف بن خليل بن قراجا الدمشقي الأدمي (ت ٦٤٨ هـ)، جمع لنفسه معجماً عن نحو خمس مئة شيخ.

قال الذهبي: «ومشيخته نحو الخمس مئة، سمعتها من أصحابه»(١). وقال في موضع آخر: «وشيوخه نحو خمس مئة نفس في ثلاثة أجزاء، سمعتُها من صاحبه أحمد بن محمد الحافظ»(٢).

انتقى الذهبي من هذا المعجم جزءاً سمعه الحافظ ابن حجر على حفيد الذهبي محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٣ هـ)، وعلى سبط الذهبي عبد القادر بن محمد (ت ٨٠٣ هـ) أيضاً. قال ابن حجر في «المجمع المؤسس» ذاكراً مسموعاته: «وجزءاً فيه منتقى من معجم يوسف بن خليل انتقاء الذهبي...».

● ● ●

رابعاً ـ مصنفاته في التاريخ والتراجم والسِّيَر

أ ـ التاريخ والتراجم:

١ ـ أخبار السد:

وهو في أخبار السد الذي بناه ذو القرنين، والذي جاء ذكره في القرآن الكريم(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٥٢/٢٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١٤١٠/٤. وأحمد بن محمد: هو الحافظ جمال الدين ابن الظاهري، شيخ الذهبي. ترجمته في معجم الشيوخ: ٧٢، وتذكرة الحفاظ: ١٤٧٩/٤. وغيرهما.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٩٣ ـ ٩٨.

٢ ــ أخبار قضاة دمشق:

ذكره الصفدي، وحاجي خليفة، والبغدادي[1].

٣ ــ الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام:

ذكره كثيرون ممن ترجم للذهبي، وقد تناول فيه مؤلفه وفيات المشهورين من السنة الأولى للهجرة حتى ٧٠٠ هـ، واعتمد فيه على كتابه الشهير «تاريخ الإسلام».

نقل منه ابن تغري بردي كثيراً في «النجوم الزاهرة»، وللحافظ تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي (ت ٨٣٢ هـ) ذيل عليه سماه: «بغية أهل البصارة في ذيل الإشارة»[2].

٤ ــ الإعلام بوفيات الأعلام:

ذكره غير واحد، ووصفه السخاوي بأنه يسمى «درة التاريخ»[3].

رتبه مؤلفه على السنين مبتدئاً بالسنة الأولى للهجرة وحتى سنة (٧٤٠ هـ)، يذكر في كل سنة أسماء أعلام المتوفين فيها، ويبين إذا كان ثمة خلاف في وفاة العَلَم في هذه السنة أو في غيرها بقوله: «بِخُلْفٍ»، ويشير ــ أحياناً ــ إلى أهم الأحداث كالمعارك والفتوح والقحط والجوائح، وذكر في أول الكتاب تواريخ بعض الغزوات المشهورة كبدر وأُحُد والخندق وغيرها. وعدد المتوفين المذكورين في كل سنة مختلف، ففي بعض السنوات يذكر الرجل والرجلين، بينما يذكر في بعضها الآخر عشرين نفساً[4].

---

(١) الوافي بالوفيات: ١/٥٣. كشف الظنون: ١/٢٩، هدية العارفين: ٢/١٥٤.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ: ٢٩٤، وانظر: الإعلان بالتوبيخ: ١٤٨.

(٣) الإعلان بالتوبيخ: ١٤٨.

(٤) انظر مثلاً: سنة ٤٥٧، ٥٧١، ٦٤٣ هـ.

وقد ذكر الدكتور بشار عواد[1] أن من «الإعـلام» نسخة في «الظاهرية» تنتهي بسنة (٧٠٠ هـ)، وهو وهم وسبق قلم أو خطأ مطبعي، والصواب: سنة (٧٤٠ هـ)، لثلاثة أسباب:

أولها: أن نسخة «الظاهرية» تنتهي بذكر وفاة زينب بنت الكمال، وإبراهيم ابن القرشية، والخليفة المستكفي بالله ـ كما هو مثبت في الصفحة الأخيرة من المخطوطة ـ وهؤلاء توفوا سنة ٧٤٠ هـ.

ثانيها: ما ذكره الدكتور بشار من أن الذهبي كتب «الإعلام» قبل هذا التاريخ ـ يعني الذي ينتهي عنده الكتاب، وهو كما ذكر الدكتور ـ وهماً ـ سنة (٧٠٠ هـ) ـ بكثير، وأنه كان يزيد فيه كلما تقدمت السنون، واستدل على ذلك بوجود طبقة السماع على طرة «نسخة الظاهرية» بخط الذهبي المؤرخة بسنة ٧٣٥ هـ. ولا يستقيم كلام الدكتور إلا باعتبار انتهاء الكتاب بسنة (٧٤٠ هـ)؛ إذ كيف تكون سنة ٧٣٥ هـ قبل ٧٠٠ هـ!

ثالثها: اعتباره «الإعلام» مختصراً لكتاب «الإشارة إلى وفيات الأعيان»، وهذا الأخير اعتمد فيه الذهبي على «تاريخ الإسلام» الذي فرغ منه لأول مرة سنة (٧١٤ هـ)، فإذا كان الأصل الأول «تاريخ الإسلام» قد انتهى مؤلفه منه سنة (٧١٤ هـ)، فالإشارة ـ المنتقى منه ـ صدر بعد ذلك، والإعلام ـ مختصر الإشارة ـ بعدهما كذلك.

●● وقد طبع «الإعلام» محققاً[2] عن مخطوطة «الظاهرية» التي

---

(١) الذهبي ومنهجه: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) حققه رياض عبد الحميد مراد وعبد الجبار زكار، ونشرته دار الفكر ـ بدمشق وبيروت.

تتألف من (٣٦) ورقة، وقدم له أحد المحقِّقَيْن بمقدمة وقع له فيها أوهام:

فهو ــ أولاً ــ ذكر أن الكتاب ينتهي بسنة (٧٠٠ هـ)، وهو غلط كبير، لأن النسخة التي حققها هو تنتهي بسنة (٧٤٠ هـ)، وهذا من غرائب الأوهام!!.

ثانياً ــ قوله أن الذهبي وضعه قبل سنة (٧٠٠ هـ)، وكان يزيد فيه، هو غلط آخر، لأن الذهبي فرغ من «تاريخ الإسلام» ــ وهو أصل الإعلام والإشارة والعبر ودول الإسلام ــ سنة (٧١٤ هـ).

وأغلب الظن أن الذي أوقعه في هذين الوهمين هو تقليده للدكتور بشار في وهمه الذي نبهنا عليه آنفاً.

ثالثاً ــ ذكر في موضع أن «الإعلام» مختصر من «تاريخ الإسلام»، وفي موضع آخر أنه مختصر من «الإشارة»[1]، فأيهما الصواب في رأيه؟ ولا يصح أن يكون مختصراً من «تاريخ الإسلام» لأن هذا ينتهي بسنة (٧٠٠ هـ)، و«الإعلام» ينتهي بسنة (٧٤٠ هـ).

●● والذي نرجحه أن الذهبي فرغ من هذا الكتاب سنة (٧٣٥ هـ) أو قبلها بقليل، كما يدل على هذا تاريخ طبقة السماع، وبعد أن فرغ من كتابه «تاريخ الإسلام» وبعض مختصراته، وكان يزيد عليه كلما تقدمت السنون، حتى وصل إلى سنة (٧٤٠ هـ).

والإعلام ــ فيما نحسب ــ مختصر من «الإشارة وذيله»، والله أعلم.

هذا وقد ذيل عليه الحافظ المؤرخ تقي الدين محمد بن أحمد

---

(١) انظر مقدمة «الإعلام» للمحقق: ص ١١، ١٣.

الفاسي (ت ٨٣٥ هـ) بكتاب سماه «إرشاد ذوي الأفهام إلى تكميل كتاب الإعلام بوفيات الأعلام»[1].

٥ ـ الأمصار ذوات الآثار:

رسالة صغيرة الحجم جليلة النفع، تناول الذهبي فيها ذِكْر المدن الكبيرة والأقاليم والأمصار التي كان يوجد فيها علم الحديث والأثر. فأورد تسعاً وعشرين مدينة ومصراً، وذكر تحت كل منها ـ عدا إقليم الجزيرة ـ بعض المشاهير من أعلام محدثيها وأعيان حفاظها، وعني كذلك بذكر أزمنة ابتداء العلم وشيوعه، ونقصه وعدمه. ثم ذكر عدة أقاليم وُجد فيها الحديث بقدر يسير، ولم يسمِّ أحداً من علمائها، كشيراز والأهواز. وأضاف إلى ما سبق معظم الأمصار التي لم تعرف بالحديث.

ثم تناول أوضاع علم الحديث في زمنه، مع ذكر المدن والأقاليم التي بقي فيها ولو بقلّة. ولم يعنَ بترتيب أسماء هذه المدن والأمصار على حروف المعجم، ولا اهتم بتسلسلها ولا بموقعها الجغرافي.

وختم الرسالة بذكر العلوم الشرعية التي انتشرت في الأعصر الآخرة، مع التنبيه على ما كَدَّرَها من علوم مبتدعة، مثل علم الكلام والاعتزال والفلسفة.

وقد انتفع الذهبي كثيراً بكتاب «الإرشاد في علماء البلاد»[2] للحافظ أبي يعلى الخليلي المتوفى سنة (٤٤٦ هـ)، لكنه أضاف إليه

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ: ٢٩٤.

(٢) وسماه الذهبي: «الإرشاد في معرفة المحدثين»، وانتقده ـ في أثناء ترجمة مؤلِّفه ـ بقوله: «ومَنْ نظر في كتابه عرف جلالته... وله فيه أوهام جمة، كأنه كتبه من حفظه». تذكرة الحفاظ ٣/١١٢٤، سير أعلام النبلاء: ١٧/٦٦٦.

فوائد جمة، وزاد عليه زيادات كثيرة نافعة، وذكر بلداناً لم يتعرض لها الخليلي بَتَّةً.

وضمَّنَ السخاويُّ، «كتابَ الأمصار» في كتابه «الإعلان بالتوبيخ»[1].

وحققت هذه الرسالة القيمة تحقيقاً غير علمي، ونشرت في دمشق[2]، وفيها تصحيفات وأوهام ودعاوى! وقد شاع هذا البلاء في هذا الزمان!!

ثم حققها الأستاذ قاسم سعد تحقيقاً علمياً جيداً[3]، ووشَّحها بتعليقاته النافعة، وقدَّم لها بدراسة مسهبة عن النهضة العلمية في ظل الدولة الإسلامية ومواطن ضعفها. وهذه الدراسة أضعاف حجم الرسالة، فكان من الأَوْلى أن تُفرد بالنشر ـ وهي جديرة بذلك ـ لا أن تلصق بهذا الكتيِّب الصغير، وإن كان ثمة علاقة بينهما!

٦ ـ أهل المئة فصاعداً:

ذكره سبط ابن حجر وسماه: «كتاب أهل المئة عام»[4]، وأشار إليه السخاوي عند كلامه على مَنْ أَلَّف في «المعمَّرين» فقال: «أو على المعمرين في الجاهلية وصدر الإسلام، وهم غير واحد من الإخباريين. أو في الإسلام كالذهبي في كراسة، وشيخنا»[5].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ١٣٦ ـ ١٤٤.

(٢) نشرتها دار ابن كثير، (تحقيق) محمود الأرناؤوط. وقد ذكر قاسم سعد بعض تلك الأوهام والمؤاخذات، فلا نطيل بذكرها. انظر: الأمصار: ١٣٤ ـ ١٣٨.

(٣) صدرت عن دار البشائر الإسلامية ببيروت.

(٤) رونق الألفاظ: الورقة: ١٨٠.

(٥) الإعلان بالتوبيخ: ١١٩. وقوله: «وشيخنا» يعني ابن حجر.

بل ذكره الذهبي في غير موضع، فقال في ترجمة الحافظ أبي القاسم البَغَوي (٢١٤ ــ ٣١٧ هـ): «وهو من الذين جاوزوا المئة ــ بيقين ــ كالطبراني والسِّلَفِي. وقد أفردتُهم في جزء خَتَمْتُه بالشيخ شهاب الدين الحَجَّار»[١].

وقال في ترجمة الحافظ أبي طاهر السِّلَفي: «وقد كنتُ أَلَّفتُ جزءاً كبيراً فيمن جاوز المئةَ من المشايخ، ومنهم: أنسُ بن مالك، وأبو الطُّفَيْل، وغيرهما من الصحابة. وسُويد بن غَفَلَة، وأبو رجاء العُطارديُّ، وعدَّة من التابعين. والحسنَ بن عرفة العبديُّ، وأبو القاسم البَغَوي، وبدرُ بن الهيثم، وسليمانُ بن أحمد الطبراني، والفقيهُ عبدُ الواحد الزبيري بما وراء النهر، وشيخُنا ركنُ الدين الطاووسي، وبالأمس مُسْنِد الدنيا شهابُ الدين أحمد ابن الشِّحنة»[٢].

تناول الذهبي في هذا الكتاب مَنْ عُمِّر من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ومن عاصرهم من العصور الأولى، ثم ذكر بعض من جاوز المئة من الصحابة، وبعض المعمرين من المشركين، ثم ذكر التابعين الذين لحِقوا زمن الجاهلية، ثم غيرهم من معمَّري التابعين، وتكلم بعدهم على معمَّري تابعي التابعين، وهكذا حتى عصره فأورد بعض شيوخه المعمرين. ورتب كتابه على الوفيات. وقد حققه ونشره الدكتور بشار عواد.

٧ ــ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام:

يعتبر هذا الكتاب من مفاخر المكتبة الإسلامية في المجال التأريخي، وهو أضخم مؤلفات الذهبي الكثيرة، وأوسع التواريخ العامة

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/٤٥٦.

(٢) المرجع السابق: ٢١/٣٨ ــ ٣٩.

حتى عصره، فقد تناول فيه مؤلفه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة النبوية حتى سنة (٧٠٠ هـ)، فحصر مادة ضخمة جداً في نطاقه الزماني الذي امتد سبعة قرون، وفي نطاقه المكاني الشامل لجميع الرقعة الشاسعة التي انتشر فيها الإسلام من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق، وشمل الحوادث الرئيسة التي مرت بها الجماعة المسلمة منذ الهجرة النبوية، وتعاقب الأحداث والدول في شتى أنحاء العالم الإسلامي حتى نهاية القرن السابع. كذلك تناول تراجم المشهورين في هذه الحقبة الطويلة من الزمن، فشمل جميع الفئات، وترجم لعدد هائل يقدر بنحو أربعين ألف ترجمة، مما لا نجده في كتاب آخر من بابته.

●● قسم الذهبي كتابه إلى وحدات زمنية أمدها عشر سنوات أطلق عليها لفظ «الطبقة»، فتألف كتابه من سبعين طبقة. وتحديد الطبقة «زمنياً» بعشر سنوات يخالف مفهوم «الطبقة» عند المحدثين الذي يعتمد على اللقيا، والذهبي لم يقصد مخالفة هذا المفهوم، فهو قد اعتمده في كتبه الأخرى وجارى فيه الأقدمين، أما في «تاريخ الإسلام» فاستعمل «الطبقة» لتدل على عقد من السنين، وبالتالي فإنه يجب ألا نربط الشكل الذي اتبعه الذهبي في «تاريخ الإسلام» بأدب الطبقات بل بأدب التنظيم على السنين الذي يخضع لتعاقب السنين المفردة.

●● في العقود الأربعة الأولى (من ١ هـ ــ ٤٠ هـ) دمج الذهبي الحوادث والتراجم، وذلك بسبب عدم توافر تواريخ المترجمين من جهة وقلّتهم من جهة أخرى.

وقد التزم في ذكر الحوادث على السنين، لذا فتراه يقطع الخبر ليكمله في سنة أخرى، وهي العادة التي اتبعها معظم مؤلفي الكتب التاريخية المرتبة على السنين.

ولم تكن الكتب التاريخية الأولى تعنى كثيراً بالتراجم، بل تصبّ جل اهتمامها على الأحداث التاريخية، كما يبدو ذلك واضحاً في تاريخ خليفة بن خياط والطبري، مثلاً. وحدث تحول واضح منذ القرن السادس الهجري، سيّما عند المؤرخين المحدِّثين، حيث زاد اهتمامهم بالتراجم، ويظهر ذلك بجلاء في «المنتظم» لابن الجوزي، الذي كان يسوق الحوادث ويتبعها التراجم في كل سنة، وسار على ذلك من جاء بعده. ولم يكن ذلك إلا بتأثير علم الحديث النبوي، واشتداد العناية برواة الآثار الشريفة.

لذا نجد الذهبي في «تاريخ الإسلام» قد صبّ اهتمامه على العناية بالتراجم، بحيث احتلت حيزاً كبيراً من تاريخه يقارب ٨٥٪ من حجم الكتاب.

●● **وقد نظم المترجمين بين سنتي (٤١ ــ ٣٠٠ هـ) في وحدات زمنية أمدها عشر سنوات، أطلق عليها لفظ «الطبقة»، ورتب التراجم على حروف المعجم ضمن هذه الوحدات.**

ومن سنة (٣٠١ ــ ٧٠٠ هـ) ذكر تراجم كل سنة بصفة مستقلة، ورتب المترجَمِين على حروف المعجم ضمن السنة الواحدة.

ولم يعتبر اسم المترجَم فحسب في التنظيم الداخلي للتراجم، بل اعتبر الشهرة واتخذها أساساً في ذلك، سواء أكانت شهرة المترجم في اسمه أو لقبه أو كنيته.

والمعروفون بكناهم أفردهم في آخر «الطبقات» حينما نظم أولاً على الطبقات، وفي آخر السنين حينما نظم بعد ذلك على السنين.

وعمل لذلك الإحالات الكثيرة لتسهيل الكشف على التراجم،

والتخلص من الأوهام التي قد تقع من جراء ترجمة شخص ما بكنيته أو لقبه أو نسبته، ونحو ذلك.

وابتداء من سنة (٥٧٢ هـ) أخذ الذهبي يذكر في نهاية تراجم كل سنة مَنْ ولد فيها من المشهورين، واستمر على ذلك ـ باستثناء أربع سنوات ـ إلى نهاية الكتاب.

●● **أما أسلوب العرض الأدبي**: فقد كانت لغة الذهبي قوية جداً، لا لحن فيها ولا غلط، إلا في النادر جداً مما هو من باب الذهول وسهو القلم. ولم يعنَ بالصنعة البيانية، بل يختار العبارة التي تَزِنُ المترجَم جرحاً وتعديلاً، وهذا شأنه في باقي تواليفه.

●● **وأما طبيعة الحوادث وأسس انتقائها**: فإنه انتقى ما رآه في نظره مهماً حرياً بالذكر جديراً بالتدوين، ويفصّل في الأحداث المهمة التي حولت مجرى التاريخ. كقيام الدولة الإسلامية في المدينة، وحروب الردة، وحركة الفتوحات والجهاد في الأحقاب المتوالية. كذلك عني بذكر أخبار الحركات التي كان الهدف منها تدمير الإسلام، مثل البابكية، والزنج، والقرامطة. كما اهتم بإبراز أعمال الخلفاء والأمراء والملوك المتصلة بنشر الدين، واهتم بالأمور المتعلقة بمصالح المسلمين الدينية والدنيوية. واعتنى بذكر إنشاء دور العلم مثل المدارس ودور الحديث، وخزائن الكتب، وتعيين المدرسين وعزلهم... إلخ.

●● **وأما طبيعة التراجم وأسس انتقائها، فقد اتبع منهجاً راعى فيه ما يلي:**

١ ـ الشهرة العلمية: فذكر المشهورين والأعلام.

٢ ـ الشمول النوعي: حيث تنوعت تراجمه فشملت كل فئات الناس من الخلفاء والأمراء والعلماء والفقهاء، والنحاة والشعراء، والزهّاد

والمتصوفة، والتجار، والصيادلة والأطباء، وأرباب المِلَل والنِّحَل والمتكلمين، وكل من اشتهر بشيء من الأشياء، سواء كان حسن الظن به أو سيِّئَه، ثقة أو كذاباً. ومع ذلك فقد آثر المحدِّثين على غيرهم، وهذا أمر طبيعي إذا تذكرنا نشأة الذهبي وتكوينه الفكري وتوجهه للحديث.

٣ ـ الشمول المكاني: حيث شملت تراجمه المشهورين من كافة أنحاء العالم الإسلامي.

٤ ـ التوازن الزماني: فسار على نمط متقارب في ذكر عدد التراجم في السنة الواحدة لكل عصر من العصور.

٥ ـ الاختصار: فقد كانت أمام الذهبي مادة ضخمة جداً بسبب سعة اطلاعه وتمكنه في الرجال، وكثرة الموارد التي اعتمدها، فاختصر ذلك، حتى لا يخرج الكتاب عن الحدّ الذي قدِّر له.

وعناصر الترجمة تشمل بشكل عام: اسم المترجَم، ونسبه ونسبته، ولقبه وكنيته، ومولده ووفاته أو ما يدل على عمره، ونشأته ودراسته وأخذه عن الشيوخ، وتلامذته، وإنتاجه، ومكانته العلمية.

●● وأما الموارد التي اعتمدها في تأليف كتابه فكان أبرزها:

المشاهدة والملاحظة والمشافهة، المساءلة والمكاتبة، الإجازات، مجاميع الطلبة والشيوخ، مؤلفات المترجَم، المؤلفات السابقة التي من أبرزها: كتب المغازي والسيرة النبوية، كتب التاريخ العام المرتبة على السنين، تواريخ الخلفاء، كتب السير، كتب الأنساب والأخبار، الكتب الأدبية، التواريخ المحلية، كتب الرجال بكافة أشكالها، كتب التراجم بأنواعها، كتب الحديث والأجزاء الحديثية،

والدواوين الشعرية، وكتب العقائد، وغيرها. وحاول جاهداً الإفادة من جميع المؤلفات في كل نوع من هذه الأنواع.

●● النقد: كان الذهبي من المعنيين بالنقد كل العناية[1]، بحيث أصبح يحتل مكاناً بارزاً في كتبه، ولقد اهتم به في «تاريخ الإسلام»، ومارسه في كل أقسامه، واعتبره جزءاً أساسياً من منهجه في الدراسة التاريخية.

ولم يقتصر في النقد على مجال واحد، بل تنوعت مجالات النقد عنده فشملت:

١ ــ نقد الرجال: فالقدماء منهم اعتبر آراء المعاصرين لهم، وقد يرجح رأياً على آخر، وأما الذين عاصرهم فيكون رأيه الشخصي هو الأساس في هذا النقد، نظراً لاتصاله بهم ومعرفته بأحوالهم.

٢ ــ إصدار التقويم والأحكام على الرجال المترجَمين: فقد حوى كتابه فئات متنوعة من خلفاء وملوك وأمراء ومحدثين وعلماء وأدباء وشعراء وأصحاب المهن والحرف وأشباههم، فلم ينظر إليهم بالمنظار الذي نظر به إلى رواة الحديث، بل نظر إلى كل فئة منهم بمنظار يختلف عن الآخر.

٣ ــ نقد الروايات: ويشمل ذلك نقد السند ونقد المتن.

●● فرغ الذهبي من إخراجه الأول في جمادى الآخرة من سنة (٧١٤ هـ)، ثم أضاف إليه كثيراً من تراجم المئة الثانية، وبيض هذا القسم ثانية سنة (٧٢٦ هـ).

---

(١) انظر فصل «الذهبي الناقد الكبير» من هذا الكتاب.

ويعتبر هذا الكتاب أساس مؤلفات الذهبي التاريخية وعمدتها، فمن أجله قام باختصار عدد من الكتب التاريخية، والتي ذكر أسماءها في مقدمة «تاريخ الإسلام»، ومنه اختصر بعض مؤلفاته مثل: العبر، ودول الإسلام، والإشارة إلى وفيات الأعيان، وعليه عوّل في كثير من تواليفه في التراجم مثل: سير أعلام النبلاء، وتذكرة الحفاظ، ومعرفة القراء الكبار.

●● ومن أجل ذلك صار «تاريخ الإسلام» مصدر عظيماً لأكثر المؤرخين الذين جاؤوا بعده وتناولوا نطاقه الزماني، نذكر منهم مثلاً:

الصفدي في «الوافي»، وابن شاكر الكتبي في «عيون التواريخ» وغيره، والسبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»، والإسنوي في «طبقات الشافعية»، وابن كثير في «البداية والنهاية»، وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»، والفيومي في «نثر الجمان»، وابن دقماق في «نزهة الأنام»، وسبط ابن حجر لا سيما في «رونق الألفاظ»، والسخاوي في «الإعلان بالتوبيخ»، وابن عبد الهادي في «معجم الشافعية»، والسيوطي في «بغية الوعاة»، وغير هؤلاء، بحيث يصعب أن نجد مؤرخاً جاء بعده وكتب في نطاقه ولم يستفد من «تاريخ الإسلام».

●● ومن مظاهر عظمة هذا الكتاب واهتمام العلماء به، تلك المختصرات والانتقاءات منه، فمن ذلك:

١ ــ مختصر تاريخ الإسلام لعلاء الدين علي بن خلف الغزي المتوفى سنة (٧٩٢ هـ).

٢ ــ ملخص تاريخ الإسلام لشيخ القراء وإمامهم أبي الخير ابن الجزري المتوفى سنة (٨٣٣ هـ).

٣ ـ المنتقى من تاريخ الإسلام لتقي الدين ابن قاضي شهبة الأسدي (ت ٨٥١ هـ)، ثم ذَيَّلَ عليه وسمى كتابه المكوّن من المختصر والذيل: «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام».

٤ ـ وجمع السخاوي كتاباً أصله من تاريخ الإسلام، حيث قال في «الإعلان»: «وجمعت كتاباً حافلاً على حروف المعجم أصَّلته من تاريخ الإسلام للذهبي، وزدت عليه خلقاً أغفلهم أو تجددوا بعده، ولكن لم أستوفِ فيهم غرضي إلى الآن»[1].

وغير ذلك.

●● ولقد امتدحه الأكابر بما هو جدير به:

فقد وقف عليه الإمام كمال الدين ابن الزَّمْلَكاني جزءاً بعد جزء إلى أن أنهاه مطالعة، وقال: «هذا كتاب علم».

وقال الحافظ ابن حجر: «وجمع تاريخ الإسلام فأربى فيه على من تقدمه، بتحرير أخبار المحدثين خصوصاً».

●● وللدكتور بشار عواد دراسة جيدة، شاملة وافية لهذا الكتاب العظيم، وتبيان خصائصه ومنهج الذهبي فيه، وهي جديرة بالمطالعة[2].

وقد شرع الدكتور عمر عبد السلام تدمري بتحقيق هذا السِّفْرِ الجليل، وصدر منه ـ حتى الآن ـ ثلاثة وعشرون مجلداً، ووصل فيه إلى سنة (٤٠٠ هـ)، وهو عمل عظيم، لكن ـ مع الأسف ـ فيه تصحيفات مزعجة، وتحريفات ليست قليلة، وأخطاء في ضبط الأَنساب، لا تليق بهذا الكتاب وجلالته، وفي أحيان كثيرة يخرّج الحديث فينسبه لابن

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ١١١.

(٢) تقع في (١٨٦) صفحة، وقد استقينا منها ما كتبناه عن هذا الكتاب.

عساكر، وهو في الصحيحين أو أحدهما، أو في الكتب الستة أو بعضها!! ولربما كان الاستعجال هو السبب الرئيس في ذلك، ومثل هذا السِّفْر يحتاج إلى كثير من المقابلة والمراجعة، والتدقيق والتدنيق والتحقيق، والضبط والتوثيق، ويجب أن ينال من العناية كتلك التي نالها «سير أعلام النبلاء»، بل أكثر!!

ـ التاريخ الكبير المحيط:

كان الذهبي يريد أن يؤلف تاريخاً كبيراً جداً، لكنه لم ينهض له، نقل ذلك الحافظ السخاوي فقال: «ورأيتُ بخط الحافظ المؤرخ العمدة أبي عبدالله الذهبي ما نصّه: فنون التواريخ التي تدخل في تاريخي الكبير المحيط، ولم أنهض له، ولو عملتُه لجاء في ست مئة مجلد...» فذكر محتويات هذا التاريخ، وفيه أربعون صنفاً من أصناف المترجَمين، نقلها عنه السخاوي[1].

٨ ـ التاريخ الممتع:

ذكره ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»، وسبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وابن العماد في «شذرات الذهب»، وذكروا أنه يقع في ستة أسفار.

وقد أشار إليه الذهبي في عدة مواضع من «تذكرة الحفاظ»، وأحال إليه بعض التراجم من الذين لم يترجم لهم فيها، فمن ذلك قوله:

«العلاء بن عبد الرحمن: مولى الحرقة، حافظ، ذُكِرَ في الممتع»[2].

«شبابة بن سوار الفزاري: أبو عمرو المدائني، حافظ، ذكر في الممتع»[3].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ٨٤ ـ ٨٦.
(٢) تذكرة الحفاظ: ١/١٣٥.
(٣) المرجع السابق: ١/٣٦١.

«الأبار: العلامة البليغ المنشىء، الحافظ المحدث، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي. ذكرته في الممتع»[1].

ويُفهم من هذا أن الكتاب في التراجم.

وقد ذكر الدكتور بشار عواد أن الذهبي أحال إلى الممتع «بعض التراجم من الرجال الذين لم يترجم لهم في «التذكرة»، ممن هم أقل مرتبة»[2].

وقوله: «ممن هم أقل مرتبة» خطأ واضح، فالذين أحال تراجمهم أئمة حفاظ كما يتضح مما نقلناه. زد على ذلك أن الذهبي لم يستوعب الحفاظ في «التذكرة»، بل ربما فيمن ترك ذكره فيها من هو أجلّ ـ أحياناً ـ ممن ذكره[3].

٩ ـ تجريد أسماء الصحابة:

ذكره غير واحد ممن ترجم للذهبي، وقد اختصر فيه كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ).

والذهبي ـ كعادته ـ لم يختصر «أسد الغابة» حسب، بل زاده من «تاريخ الصحابة الذين نزلوا حمص» لعبد الصمد بن سعيد الحمصي، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«مسند أحمد»، و«مسند بقي»، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد لا سيما في النساء، ومن كتابات ابن سيد الناس، ووضع إشارات لهذه المصادر.

ومن استدراكاته النفيسة أنه علَّم لمن ذُكر غلطاً في الصحابة،

---

(١) المرجع السابق: ١٤٥٢/٤. وانظر أيضاً: ١٣٧/١، ١٩٣، ٢٠٢، ٣٨٨.

(٢) الذهبي ومنهجه: ١٦١.

(٣) انظر كلامنا عن «التذكرة»: ص ٤٦١.

ولمن لا تصح صحبته، لكنه ـ كما قال ابن حجر[1] ـ لم يستوعب ذلك ولا قارب.

والكتاب مطبوع في مجلدين.

١٠ ـ تجريد الحفاظ:

ذكره الحافظ الحسيني في ترجمة تقي الدين محمد بن عبد اللطيف بن يحيى السبكي (ت ٧٤٤ هـ)، فقال: «وذكره شيخنا أبو عبدالله الذهبي في «المعجم المختص»[2]، وأثنى على علمه وديانته، وذكره أيضاً في «تجريد الحفاظ...»[3].

ولعل الذهبي جرده من «تذكرة الحفاظ»، وزاد عليه بعض التراجم.

١١ ـ تذكرة الحفاظ:

هو كتاب شهير جليل، طبع غير مرة، ويقع في مجلدين كبيرين عدد صفحاتهما (١٥٠٨) صفحات. سماه بعضهم «تذكرة الحفاظ»، وأطلق عليه آخرون اسم «طبقات الحفاظ»، بل إن الذهبي نفسه سماه بالاثنين معاً، فقال في ترجمة الحافظ أبي الحسن علي بن الحسن بن عَلّان الحراني من «سير أعلام النبلاء»: «رويتُ له في طبقات الحفاظ حديثاً»[4]. وقال في ترجمة سيد الحفاظ الأثبات أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) الإصابة: ١/٤.

(٢) المعجم المختص: ٢٤١ ترجمة: ٣٠٠.

(٣) ذيل تذكرة الحفاظ: ٥٢.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٦/٢١، وانظر ترجمته في التذكرة: ٣/٩٢٤.

من «سير أعلام النبلاء» أيضاً: «وذكرته في تذكرة الحفـاظ»[1]. ومثله في ترجمة الحافظ أبي قدامة السَّرَخْسِي[2].

وقد ذكر الذهبي الدافع له على تصنيف «التذكرة»، فقال في تـرجمـة الحــافظ علي بن المُفَضَّـل المقــدسي ثم الاسكندرانـي (ت ٦١١ هـ): «رأيت لـه سنـة ست وثمـانين[3] كتـاب «الصيـام» بالأسانيد، وله «الأربعون في طبقات الحفاظ»، ولما رأيْتها تحركتْ همّتي إلى جمع الحُفَّاظ وأحوالهم»[4].

●● رتب الذهبي كتابه على الطبقات فجعله في (٢١) طبقة، ابتدأ فيه بطبقة الصحابة، وانتهى به إلى زمانه، وآخر ترجمة فيه هي ترجمة شيخه ورفيقه الحافظ المزي (ت ٧٤٢ هـ)، وعِدد التراجم (١١٧٦) ترجمة. ثم ترجم لعدد من الأئمة تراجم قصيرة، وفيهم أشياخه وبعض رفاقه في الطلب وسماع الحديث، وعدتهم (٣٦) عالماً، آخرهم الحافظ الأوحد شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي (ت ٧٤٤ هـ).

●● يضاف إلى ذلك أنه يذكر عقب كثير من التراجم جملة من المتوفين في سنة وفاة المترجَم، فيذكر المحدثين والفقهاء وكبار القراء، والأدباء والشعراء، والعبَّاد والزُّهَّاد، والحكام، والمؤرخين والمفسرين والخطباء والقضاة، وغيرهم. كذلك يوجز في نهاية كثير من الطبقات الأوضاع السياسية والعلمية للعالم الإسلامي في الحقبة الزمنية التي في نطاق تلك الطبقة.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦٢٧/٢، وانظر التذكرة: ٣٢/١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١١٣/١٢، والتذكرة: ٥٠٠/٢.

(٣) أي سنة ٦٨٦ هـ، وعمر الذهبي إذ ذاك (١٣) سنة، وهذا يدل على علوّ همته وشغفه بالعلم وبخاصة الحديث ورجاله.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦٧/٢٢.

●● ومنهج الذهبي في «التذكرة» أنه لم يستوعب الحفاظ، بل ربما فيمن تركه مَنْ هو أَجَلّ ممن ذكره، من ذلك قوله في نهاية الطبقة الثانية: «وقد كان في هذا القرن الفاضل خلق عظيم من أهل العلم وأئمة الاجتهاد، وأبطال الجهاد، في أقطار البلاد، وسادة عُبَّاد أبدال وأوتاد، ولعل في من تركناهم من هو أجلُّ وأعلم. . .»[1].
وجاء في نهاية الطبقة الخامسة قوله: «وإنما اقتصرت على إيراد هؤلاء النيّف والسبعين إماماً طلباً للتخفيف»[2]. وقال في موضع آخر: «الطبقة السابعة من حفاظ العلم النبوي، وهم عدد كثير اقتصرت منهم على الأعلام»[3].

وأحال القارىء على كتابه «تاريخ الإسلام»، فقال في نهاية الطبقة التاسعة: «ولقد كان في هذا العصر وما قاربه من أئمة الحديث النبوي خلق كثير ما ذكرنا عشرهم هنا، وأكثرهم مذكورون في تاريخي». كما أحال على كتابه «المعجم المختص»[4].

كذلك لم يستوعب أخبار المترجمين، بل أورد شذرات منها، وقد بين ذلك فقال: «طبقة خامسة من «التذكرة»، وتحتمل تراجمهم أن تعمل في مجلد تام، وإنما لوَّحنا ها هنا بنبذ من أخبارهم»[5]. وقال في ترجمة الحافظ عبدالرزاق بن همام الصنعاني: «ولو ذهبنا نستقصي أخباره لطال الكتاب جداً»[6].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/٧٠.
(٢) المرجع السابق: ١/٢٤٤.
(٣) المرجع السابق: ١/٣٢٩.
(٤) المرجع السابق: ٢/٦٢٧، ٤/١٥٠٠.
(٥) المرجع السابق: ١/١٦٠.
(٦) المرجع السابق: ١/٣٦٤.

وذكر ـ أحياناً ـ من ليس حافظاً، وذلك لسبق قلم منه ـ كما قال هو ـ أو لينبه على ذلك، أو علقه استطراداً[1].

ويسوق ـ غالباً ـ في نهاية كل ترجمة حديثاً بسنده من طريق المترجم.

وقد فرغ من هذا الكتاب ـ بصورته النهائية ـ في منتصف سنة (٧٤٤ هـ) على أقرب تقدير، أو بعد ذلك، لأنه أرَّخَ فيه وفاة شيخه ابن عبد الهادي في جمادى الآخرة من سنة (٧٤٤ هـ)[2].

●● ولقد احتلت «التذكرة» أهمية كبيرة ومكانة رفيعة عند الباحثين والمصنفين وأئمة الحديث، فذيَّلَ عليها تلميذه الحافظ الحسيني (ت ٧٦٥ هـ)، ثم الحافظ تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن فهد (ت ٨٧١ هـ) وسماه «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ»، ورتَّبَ ولدُه النجم عمر بن محمد ابن فهد (ت ٨٨٥ هـ) الأصل والذيول على حروف المعجم، وعمل محمد بن عبد العزيز بن عمر بن محمد ابن فهد (ت ٩٥٤ هـ) ذيلاً على «لحظ الألحاظ» سماه «تحفة الأيقاظ بتتمة ذيل طبقات الحفاظ». واختصر «التذكرة» الحافظ السيوطي (ت ٩١١ هـ)، وذيَّل عليها كذلك. والتقط الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) من التذكرة من ليس في «تهذيب الكمال» وأفرد ذلك في مجلد، وله كذلك «ترتيب تذكرة الحفاظ» رتبه فيه على حروف المعجم، و «ذيل على تذكرة الحفاظ» في كراسة فيها (٢٨) نفساً[3]. وقام حافظ

---

(١) انظر: التذكرة: ١/٣٤٣ ترجمة الكلبي، ٣٤٨ ترجمة الواقدي، ٣٧١ ـ ٣٧٢ ترجمة أبي عبيدة معمر بن المثنى، ٣/١٠٠٠ ـ ١٠٠١ ترجمة أبي زرعة الرازي الأصغر وأبي زرعة الدمشقي الصغير.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/١٥٠٨.

(٣) انظر كتابنا «ابن حجر»: ص ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٦.

بعلبك إسماعيل بن محمد بن بردس (ت ٧٨٦ هـ) بنظم وفيات الحفاظ الواردة تراجمهم في «التذكرة» بحروف الجمل. كما نظم «التذكرة» الحافظ ابن ناصر الدين (ت ٨٤٢ هـ) بمنظومته «بديعة البيان في وفيات الأعيان»، وشرح بديعته هذه بمجلد نفيس سماه «التبيان لبديعة البيان». ولمحدث مصر أحمد رافع الطَّهْطاوي (ت ١٣٥٥ هـ) «التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ» أورد فيه كثيراً من الإيضاحات والإصلاحات لما في «ذيول» الحسيني وابن فهد والسيوطي على «التذكرة»[١].

١٢ ـ تهذيب «تاريخ» علم الدين البِرْزالي:

ذيَّلَ الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي (ت ٧٣٩ هـ) على تاريخ أبي شامة، وسماه «المقتفىٰ لتاريخ أبي شامة»، ابتدأ من سنة (٦٦٥ هـ) ووصل به إلى (٧٣٨ هـ). وعند كلام الصلاح الصفدي على هذا التاريخ ذكر أن الذهبي هذَّبه، فقال: «وقد هذبه الشيخ شمس الدين الذهبي، وزاده أشياء من عنده». وذكر مثل ذلك حاجي خليفة[٢].

وقد نقل من «تهذيب» الذهبي هذا جمالُ الدين عبدُ الرحيم بن الحسن الإسنوي (ت ٧٧٢ هـ) في كتابه «طبقات الشافعية».

١٣ ـ جزء أربعة تعاصروا:

ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

١٤ ـ دول الإسلام:

كتاب مشهور، ذكره معظم الذين ترجموا للذهبي، وقد اعتمد فيه

---

(١) وقد طُبعت ذيول الحسيني وابن فهد والسيوطي وتعليقات الطهطاوي، كلها في مجلد.

(٢) كشف الظنون: ١/٢٨٧.

مؤلفه على كتابه «تاريخ الإسلام»، ويسمى أحياناً «التاريخ الصغير».

تناول فيه أخبار دولة الإسلام من بعد وفاته ﷺ إلى سنة (٧٠٠ هـ)، فابتدأ الكلام بذكر وفاته ﷺ وعمره ومكان دفنه، ثم شرع بالحديث عن أخبار دولة الصدّيق فتناولها بسطور قليلة، ثم خلافة الفاروق وما جرى فيها من كبريات الأحداث، ثم عهد عثمان، فعهد علي، وهكذا الدول التالية.

ومنهجه في هذا الكتاب أنه يذكر أبرز الأحداث بكلمات وجيزة جداً، وعبارات قليلة، لكنها تدل على عبقريته وبراعته، وتمكنه النادر، وإحاطته الكاملة بالأحداث، بحيث يعطيك صورة متكاملة، وفكرة واضحة عن كل عهد بكامله، وعن كل سنة بمفردها. ويشعر القارىء لهذا الكتاب أنه ينظر إلى المسارات العامة والبارزة في كل عام وفي كل دولة، فلا يتيه في شعاب التفصيلات. وبالجملة فهو كتاب قيم لا يُستغنى عنه.

وأما عن التراجم: فقد أسقط كثيراً من الأعلام الواردين في «تاريخه الكبير»، وتراجمه هنا قصيرة جداً، وقد يكتفي منها بذكر أن العلم توفي في تلك السنة، ويذكر عمره ومكان وفاته، وقد يبين أبرز علم برع فيه المترجم أو عمل مارسه، كقوله: «المحدث، شيخ العربية، القاضي، الفقيه، مقرىء الوقت، شيخ الصوفية، الأمير...» والغالب في هذه التراجم أنها لا تتجاوز السطر، ما عدا الصحابة وكبار الأعلام ممن بعدهم.

والكتاب مطبوع مع «ذيله» للذهبي، في مجلد كبير.

١٥ ــ ذيل «الإشارة إلى وفيات الأعيان»:

وقف الذهبي في كتابه «الإشارة» عند سنة (٧٠٠ هـ)، فمن

الطبيعي أن يذيِّلَ عليه. وقد ذكر هذا الذيل الحافظ السخاوي[1].

وذيَّلَ تقي الدين الفاسي على «الإشارة»، والظاهر أنه ذيل على «ذيْل الإشارة» للذهبي[2].

١٦ ــ ذيل دول الإسلام:

وقف الذهبي في كتابه «دول الإسلام» عند سنة (٧٠٠ هـ) باعتباره مختصراً من «تاريخ الإسلام»، فذيَّل المؤلف على «الدول» من سنة (٧٠١ هـ) وحتى سنة (٧٤٤ هـ). واتبع في «الذيل» النهج الذي سار عليه في «الأصل»، ولكن تبدت شخصيته بوضوح أكثر هنا باعتباره شاهداً لأحداث هذه الحقبة ومعاصراً لرجالها، وقد اكتملت آلات العلم والبحث عنده.

وقد ذيَّل الحافظ السخاوي على «دول الإسلام وذيله» بكتابه الذي سماه «وجيز الكلام في ذيل دول الإسلام»[3]، ابتداءً من سنة (٧٤١ هـ) ووصل به إلى سنة (٨٩٥ هـ). بل إن حاجي خليفة ذكر أن السخاوي ذيل على «دول الإسلام» من سنة (٧٤١ هـ) إلى (٩٠١ هـ) وسماه «الذيل التام بدول الإسلام»[4]. ويفهم من هذا أن السخاوي قد زاد كتابه هذا فيما بعد إلى قريب وفاته.

ومن أجل أن السخاوي ابتدأ ذيله من سنة (٧٤١ هـ) اعتبر الدكتور بشار عواد أن «ذيل الذهبي» ينتهي عند سنة (٧٤٠ هـ)، وأن ما جاء في

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ١٤٨.

(٢) انظر: ص ٤٤٤ رقم ٣ من هذا الكتاب.

(٣) الإعلان بالتوبيخ: ١٤٨.

(٤) كشف الظنون: ١/٧٦٢ و٨٢٩.

بعض النسخ من أنه استمر به إلى سنة (٧٤٤ هـ) هو من إضافة النسَّاخ أو غيرهم[1].

ونحن نخالفه في ذلك لعدة أمور:

١ ــ أن المنهج واللغة والأسلوب في هذه السنوات الأربع لم يتغير عما سبق في الكتاب وذيله.

٢ ــ ذكر في حوادث سنة (٧٤٢ هـ) وفاة المزّي وهو شيخ الذهبي، فقال: «وفي شهر صفر توفي شيخنا شيخ الإسلام الحافظ جمال الدين المزي، صاحب التصانيف، عن ثمان وثمانين سنة، رحمه الله».

فكيف يتفق هذا مع قولنا: إن هذا من النساخ؟ ولا يصح ذلك إلا أن يُقال: هذا الناسخ هو تلميذ آخر للمزي، ولا داعي لهذا التأويل.

٣ ــ لا يعقل من الحافظ الذهبي أن يقف في التأريخ عند سنة (٧٤٠ هـ) ويترك ثمان سنوات دون تدوين حوادثها وترجمة أبرز رجالاتها، خاصة وقد علمنا أنه ترجم في «تذكرة الحفاظ» لشيخه ابن عبد الهادي وأرَّخَ وفاته بسنة (٧٤٤ هـ).

فلعل الذهبي وقف في أول تذييل له على «دول الإسلام» عند سنة (٧٤٠ هـ)، ثم بعد ذلك زاد هذه السنوات الأربع، ومن هنا جاء اختلاف النسخ. ويكون السخاوي قد وقف على النسخة الأولى التي وقفت عند سنة (٧٤٠ هـ) فذيَّل عليها. والله تعالى أعلم.

١٧ ــ ذيل سير أعلام النبلاء:

أشار إليه السخاوي وهو يذكر بعض مصنفات الذهبي، فقال:

---

(١) الذهبي ومنهجه: ١٧٠.

«وسير النبلاء في مجلدات، ودول الإسلام في مجيليد، والإشارة دونه، وله ذيله على كل منها»[1].

وذكره حاجي خليفة وقال إنه في مجلد[2]، وعدَّه الحافظ ابن حجر من بين مصادره الرئيسة في «الدرر»[3].

وقد جمع الحافظ تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢ هـ) ذيلاً عليه سماه: «تعريف ذوي العلاء لمن لم يذكره الذهبي في النبلاء»، ترجم فيه إلى عصره، ويقع في مجلدين[4].

١٨ ــ ذيل العبر في خبر من عبر:

وقف الذهبي في كتابه «العبر» عند سنة (٧٠٠ هـ)، ثم ذيَّل عليه إلى سنة (٧٤٠ هـ)، وذكر أنه كتب هذا الذيل سنة (٧٤٤ هـ)، كما نقل ذلك النعيمي[5].

وقد نهج المؤلف في هذا الذيل منهجه في أصله «العبر»، ولكثير من العلماء ذيول على «ذيل العبر» للذهبي[6].

والجدير بالملاحظة أن النعيمي في «الدارس»، وابن طولون في «قضاة دمشق» يطلقون اسم «العبر» ــ وهو الأصل ــ على «ذيل العبر» أيضاً.

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ١٤٨.
(٢) كشف الظنون: ٢/١٠١٥.
(٣) الدرر الكامنة: ١/٥.
(٤) ذيول تذكرة الحفاظ: ٢٩٤، الإعلان بالتوبيخ: ١٤٨، كشف الظنون: ٢/١٠١٥.
(٥) الدارس: ١/١٩٠.
(٦) انظر كلامنا على «العبر»: ص ٤٨٠ ــ ٤٨٢ من هذا الكتاب.

والغريب حقاً أن النعيمي ينقل وفيات وحوادث وقعت في سنتي (٧٤٧، ٧٤٨ هـ)، وينسبها للذهبي في «ذيل العبر»! وبالتحقيق تبيَّن أنه وهم منه، فمن ذلك قوله: «وقال الذهبي في «مختصر تاريخ الإسلام»[1] في سنة سبع وأربعين: وفي هذا العام أنشيء[2] الجامع السيفي يلبغا بدمشق. وقال في سنة ثمان وأربعين وسبع مئة: وفي جمادى الأولى جاء الخبر إلىٰ دمشق بمسك جماعة من كبراء أمراء مصر، منهم آق سنقر...»[3].

وكل هذا العَزْو وَهم من النعيمي، فهذا الكلام هو نصّ ما جاء في «ذيل»[4] الحسيني على «ذيل العبر» للذهبي.

١٩ ــ ذيل «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»:

هو ذيل لطيف للذهبي على كتابه الشهير «معرفة القراء»، ويتضمن سبع تراجم فقط. نُشر هذا الذيل في مجلة المجمع العلمي بدمشق[5].

٢٠ ــ كتاب الزلازل:

ذكره ابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، وابن العماد، وذكر الحافظ السخاوي كتاب «الزلازل والفتن»[6] من بين الكتب المؤلفة في

---

(١) يعني «العبر».

(٢) في الدارس: أنشأه.

(٣) الدارس: ٢/٤٢٣ ــ ٤٢٥.

(٤) انظر «ذيل العبر» للحسيني: ٤/١٤١، ١٤٤ ــ ١٤٥. وانظر مثالاً آخر في الدارس: ١/٤٤٥ وفاة شمس الدين ابن الصلاح (ت ٧٤٩ هـ)، وقد صوبها المحقق إلى (٧٤٧ هـ)، وهذا وهم من النعيمي في نسبة النص للذهبي، وخطأ من محقق «الدارس» في تصويب وفاته إلى (٧٤٧ هـ)، فابن الصلاح هذا مذكور في ذيل الحسيني ــ وفيات ٧٤٩ هـ.

(٥) المجلد ٤٩، بتحقيق إيفيت صوفان.

(٦) الإعلان بالتوبيخ: ١٤٤.

التاريخ على الحوادث، لكنه لم يشر إلى مؤلفه، فلعله كتاب الذهبي هذا؟

٢١ ـ سير أعلام النبلاء[١]:

●● **اختلفت تسمية الكتاب عند من ترجم للذهبي، فجاءت** هكذا: «تاريخ النبلاء»، «تاريخ العلماء النبلاء»، «كتاب النبلاء»، «أعيان النبلاء»، «سير النبلاء»، وأما «سير أعلام النبلاء» فقد جاء مخطوطاً على طرر المجلدات في «مكتبة أحمد الثالث» باستنبول، وهي النسخة الأولى التي نسخت عن نسخة المؤلف التي بخطه، وكتبت في حياته ما بين سنتي ٧٣٩ ـ ٧٤٣ هـ. وهذا العنوان الأخير هو أحسنها وأكثرها دقة وشمولاً وتعبيراً عن مضمون الكتاب.

●● **أما تاريخ بدئه بتأليف الكتاب وانتهائه منه:**

فقد جزم الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمته للجزء الأول من «السير»[٢] بتأليف الكتاب سنة (٧٣٩ هـ)، اعتماداً على أن الناسخ ابن طوغان قد بدأ بنسخ نسخته في هذه السنة.

ويرى الدكتور بشار عواد أن الذهبي بدأ بتأليف الكتاب سنة (٧٣٢ هـ) أو قبيلها بقليل، وفرغ منه سنة (٧٣٩ هـ) أو قبلها[٣].

ونحن نرى أن كلاهما مخطىء، ونرجح أن الذهبي قد فرغ من إخراجه الأول للكتاب قبل هذا التاريخ بكثير، ثم زاد عليه بعض

---

(١) قدّم الدكتور بشار عواد دراسة جيدة للسير، نشرت في المجلد الأول ص ٩١ ـ ١٤٦، استفدنا منها في هذا التعريف.

(٢) ج: ١/٣٨.

(٣) مقدمته للسير: ١/٩٢ ـ ٩٣.

التراجم، وأضاف في تراجم أخرى، ودليلنا على ذلك ما يلي:

ـ يقول الذهبي في ترجمة الإمام البخاري ـ في المجلد ١٢ ـ: «وأما «الصحيح» فهو أعلى ما وقع لنا من الكتب الستة في أول ما سمعت الحديث، وذلك في سنة اثنتين وتسعين وست مئة، فما ظنُّك بعلوِّه اليوم، وهو سنة خمس عشرة وسبع مئة؟!...»[1].

ـ وقال في ترجمة الإمام النَّسائي ـ في المجلد ١٤ ـ: «ومما يُروىٰ اليومَ في عام أربعةٍ وثلاثين وسبع مئة من السنن عالياً جزءان...»[2].

ـ وقال في ترجمة الحسن بن عَرَفَة ـ في المجلد ١١ ـ: «قلتُ: انتهى علوّ الإسناد اليوم، وهو عام خمسة وثلاثين[3] إلى حديث الحسن بن عرفة...»[4].

ـ وقال في ترجمة المحدث المعمّر عبد الخالق بن الأنجب النِّشْتَبْرِيّ ـ في المجلد ٢٣ ـ: «والآن، وهو سنة سبع وثلاثين وسبع مئة، تروي عنه بالإجازة بنتُ الكمال التي كتب بها إليها في سنة سبع وأربعين وست مئة...»[5].

واعتماداً على هذه النصوص نقول:

١ ـ ما جاء في (المجلد ١٢) يشير إلى أن المؤلف وصل في الكتاب إلى هذا الموضع في سنة (٧١٥ هـ) بينما الذي في (المجلد ١٤) يوضح أنه وصل إلى هذا الموضع سنة (٧٣٤ هـ)؛ ولا

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٠٠.

(٢) المرجع السابق: ١٤/١٣٣.

(٣) أي: وسبع مئة.

(٤) المرجع السابق: ١١/٥٥٠.

(٥) المرجع السابق: ٢٣/٢٤٣.

يعقل أن الذهبي مكث (١٩) سنة في تصنيف هذين المجلدين!.

٢ ــ في (المجلد ١٤) ألمح إلى أن تصنيفه له كان سنة (٧٣٤ هـ)، بينما كان تصنيف (المجلد ١١) سنة (٧٣٥ هـ)، فكيف يؤلف (المجلد ١٤) قبل (المجلد ١١) بسنة؟ والكتاب مرتب على الطبقات، ولا بد فيه من التوالي في التصنيف، فيكون قد كتب المجلد ١١ ثم ١٢ ثم ١٣ ثم ١٤.

٣ ــ أشار كلامه في آخر (المجلد ٢٣) إلى أن زمن تأليفه هو عام (٧٣٧ هـ)؛ فنلاحظ ما يلي:

المدة الزمنية بين المجلد ١٤ وبين ٢٣ هي (٣ سنوات).

وبين المجلد ١١ و٢٣ هي (سنتان)!.

أما المدة بين المجلد ١٢ و٢٣ فهي (٢٢ سنة)!!.

من هنا يمكننا القول:

أ ــ اعتماداً على ما جاء في (المجلد ١٢) فإن الذهبي قد شرع في تصنيف «سير أعلام النبلاء» عند فراغه من الإخراج الأول لكتابه «تاريخ الإسلام» الذي كان في جمادى الآخرة (٧١٤ هـ)، فوضع مسودة «النبلاء»، حيث كانت المادة الرئيسة له جاهزة ومعدَّة بين يدي المؤلف، لا تتطلب كبير بحث ولا كثرة عناء ومطالعة.

ب ــ التفاوت الزمني بين تصنيف المجلدين ١٤ و١١، والذي يشير إلى تأليف المجلد (١٤) قبل المجلد (١١)، ثم التفاوت الملفت للنظر في المدة الزمنية بين تأليف المجلدين ١١ و٢٣ ــ وهي سنتان ــ من جهة، وبين تأليف المجلدين ١٤ و٢٣ ــ وهي ٣ سنوات ــ من جهة ثانية، وكذلك التفاوت الكبير جداً في المدة بين تصنيف المجلدين (١٢

و١٤) و(١٢ و٢٣)؛ كل ذلك لا يمكن تفسيره إلّا إذا قبلنا بما جاء في (أ)، ثم القبول بأن الذهبي بعد أن أصدر مسودة الكتاب كان يضيف إليها ويزيد في تراجمها، ومن هذه الزيادات تلك السير المفردة التي وضعها لكثير من الأئمة، وتكون هذه النسخة الأخيرة هي الإصدار النهائي من «سير أعلام النبلاء»، وهي النسخة التي نسخت عنها «نسخة مكتبة أحمد الثالث» المعتمدة في تحقيق الكتاب الصادر عن مؤسسة الرسالة. والله أعلم.

●● **يتألف الكتاب من أربعة عشر مجلداً، أفرد الذهبي منها المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين، ولم يعد صياغة هذين المجلدين، بل أحال على كتابه «تاريخ الإسلام».**

وقد طبع الكتاب محققاً ابتداءً من المجلد الثالث، باعتبار أن المجلدين الأول والثاني يُضمان إليه من «تاريخ الإسلام»، كما أشار الذهبي المصنِّف إلى ذلك في طرة المجلد الثالث، فقال: «في المجلد الأول والثاني سير النبي ﷺ والخلفاء الأربعة، تكتب من تاريخ الإسلام».

ومما يجدر ذكره أن «المجلد الرابع عشر من مخطوطة السير» لم يطبع مع الكتاب الذي حُقق وانتشر بين الناس الآن (١)، وهذا المجلد يحتوي تراجم المتوفين بين سنتي (٦٦١ ــ ٧٠٠ هـ)، وهو المتمم لكتاب «سير أعلام النبلاء»(٢).

---

(١) صدر عن مؤسسة الرسالة في (٢٣) مجلداً، بتحقيق جماعة من أهل العلم، وبإشراف الأستاذ المحدث شعيب الأرناؤوط. وهي طبعة غاية في الجودة، إخراجاً وتحقيقاً، ليت «تاريخ الإسلام» أُخرج على منوالها.

(٢) انظر الأدلة التي ساقها بشارعواد في مقدمته للسير: ١/ ٩٤ ــ ٩٧. وهي أدلة قوية مقنعة.

●● نظم الذهبي كتابه على الطبقات فجعله في أربعين طبقة تقريباً، وذلك لخدمة الحديث النبوي، ومعرفة السند ونقده. وقد كان نظام «الطبقات» على غاية من الأهمية في عصور الرواية، حيث لم يعتن المصنفون بضبط مواليد الرواة ووفياتهم، بل كانت تحدد طبقاتهم بمعرفة أشياخهم وتلامذتهم. ولكننا نجد أنه كلما مضى الزمن بالكتاب ـ «السير» ـ صرنا لا نشعر بوجود الطبقة شعوراً واضحاً، بل نجد نوعاً من التسلسل الزمني في الأقسام التي تلت تلك العصور الأولى، خاصة وأن في الكتاب عدداً غير قليل من التراجم الذين لا علاقة لهم بالرواية أو العلم فضلاً عن اللقيا، مثل الحكام والخلفاء والوزراء والشعراء والأطباء والمتكلمين ونحوهم.

●● ومن الملامح البارزة للكتاب أنه عند ترجمته للخلفاء يذكر خلاصات جيدة قيمة للأحداث البارزة في خلافتهم، كذلك عندما ترجم لأصحاب الثورات سطر صفحات مفيدة لما لحق بالدولة المسلمة من جراء ذلك.

وجمع ـ غالباً ـ تراجم الأقرباء في مكان واحد، ولا سيما الإخوة والآباء والأبناء. كذلك جمع ـ أحياناً ـ تراجم الخلفاء والملوك، ومن أمثلة ذلك ترجمته للخلفاء العباسيين[1]، والعبيدين[2]، والعادل وبنيه[3].

●● وأما أسس انتقاء التراجم، فيمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ العَلمية: قد وجدنا أن الذهبي ترجم في تاريخه الكبير

---

(١) النبلاء: ١٥/٩٨ ـ ١٤٠.

(٢) النبلاء: ١٥/١٤١ ـ ٢١٥.

(٣) النبلاء: ٢٢/١١٥ ـ ١٤٣.

«المشاهير والأعلام»، أما هنا في «السير» فأسقَطَ المشاهير وأبقى الأعلام، واستعمل لفظ «الأعلام» ليدل على المشهورين جداً بعرفه هو لا بعرف غيره، إذ إن مفهوم «العَلَم» يختلف عند مؤلف وآخر، استناداً إلى عمق ثقافته ونظرته إلى البراعة في علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو عمل من الأعمال، أو غير ذلك. وقد وسَّع الذهبي هذا المفهوم بحيث وجدنا عنده تراجم رجال لم نجدهم في كتب تناولت المشهورين، مثل «المنتظم» لابن الجوزي، و«البداية والنهاية» لابن كثير.

٢ ـ **الشمول النوعي**: فالذهبي لم يقتصر في هذا الكتاب على نوع معين من «الأعلام»؛ بل شملت تراجمه كثيراً من فئات الناس، من الخلفاء والأمراء، والمحدثين والفقهاء، والأدباء والشعراء، واللغويين والنحاة، والمفتين والقضاة، والعبّاد والزهاد، والفلاسفة والمتكلمين، وأرباب المِلَل والنِّحَل والخطباء والوعاظ، وغيرهم.

ومع هذا فإننا نجده قد آثر المحدثين على غيرهم، وذلك ـ فيما نرى ـ أمر طبيعي لما عرفنا من تربية الذهبي ونشأته وتكوينه الفكري، فقد كان شديد الإكبار للمحدثين، عظيم الكلف بهم.

٣ ـ **الشمول المكاني**: فقد شمل كتابه أعلام الأمصار الإسلامية من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق، وحقق فيه نوعاً جيداً من التوازن، وهو منهج سار الذهبي عليه في كثير من كتبه، سيّما «التاريخ الكبير»، وهذا يدل على شمول نظرته وعمق ثقافته.

٤ ـ **التوازن الزماني**: حاول الذهبي أن يوازن في عدد المترجَمين على امتداد الفترة الزمنية الطويلة التي تناولها. ومع أننا نجد شيئاً من التفاوت في عدد المترجمين بين طبقة وأخرى، لكننا لو رتبنا الكتاب

على وفيات المترجمين، ثم نظرنا إلى عدد المذكورين في كل سنة؛ لوجدنا نوعاً من التوازن والتناسق في عدد المترجمين في كل سنة. صحيح أن هذا ينخرم في مواضع، لكنه لا يناقض المسار العام للكتاب.

٥ ـ **طول التراجم وقصرها**: التفاوت في طول التراجم وقصرها واضح بيِّن، وقد راعى الذهبي ـ في أكثر الأحايين ـ قيمة الإنسان ومكانته وشهرته، دون تعصب عقائدي، ولا هوى[1].

٦ ـ **صياغة التراجم وعناصرها**: تختلف المادة الموجودة في ترجمة ما عن الأخرى، حسب طبيعة المترجَم، لكنها تتوحد في الأسس العامة التي اتبعها الذهبي في معظم التراجم، حيث يذكر: اسم المترجم، ونسبه ولقبه، وكنيته ونسبته، وما يدل على عمره، ونشأته ودراسته، وشيوخه وتلامذته، وما خلف من آثار علمية أو أدبية، أو اجتماعية، ثم منزلته العلمية وعقيدته، وآراء الثقات فيه جرحاً وتعديلاً.

وللذهبي أسلوبه المتميز في صياغة التراجم، وأساليب عرضها، يختلف عن الموارد التي ينقل منها، فكثيراً ما يعيد صياغة المادة المنقولة بأسلوبه، لكنه التزم بنقل النصوص بألفاظها في الحالات التي تستوجب ذلك، مثل: النصوص الحديثية، وألفاظ الجرح والتعديل، والقطع الشعرية، ونحوها.

وأسلوبه الأدبي متميز ـ كذلك ـ يتسم بالعذوبة والرشاقة والحبك، ويبتعد عن التكلف في تنميق الألفاظ، فيختار الكلمة المعبرة الدالة على واقع المترجَم، والتي تزنه بدقة، مقدماً المعنى على الصنعة البلاغية، فأسلوبه علمي قبل أي اعتبار.

---

(١) انظر فصل «الذهبي الناقد الكبير» من كتابنا هذا.

٧ ـ المنهج النقدي[1]:

قد علمنا من سيرة الذهبي أنه من المعنيين جداً بالنقد في كل مجال، وتبدى هذا واضحاً في «السير»، ويتجلى فيما يلي:

أ ـ نقد المترجمين: فهو لم يكتفِ بنقد رواة الحديث والآثار، بل سحب منهجه النقدي على معظم المترجمين، لكنه نظر إلى كل فئة بمنظار مناسب، ولم يطبق عليهم ما يطبقه على المحدثين: فينظر إلى الخلفاء بما كانوا عليه من عدل وإنصاف وتطبيق لأحكام الإسلام، ونحو ذلك. وأما الشعراء، فبمدى تجويدهم لأشعارهم، وبُعْدهم عن الفحش وقول الزور، أو قربهم منه. وينقد العبّاد والزهّاد بمدى الالتزام بتعاليم الإسلام ومفاهيمه وهديه. والقضاة يزنهم بمدى عدلهم بين الرعية، وتواضعهم، وابتعادهم عن الشبهات ومراعاة خصم ضد آخر. وهكذا... وتعدد المناظير في النقد لا يعني الاضطراب، بل يدل على أفق واسع، ونظرة عميقة، وتدقيق بارع، وحصافة نادرة، وشمول يعزّ نظيره.

ب ـ نقد الأحاديث: وقد أولى الذهبي هذه الناحية اهتماماً بارزاً في هذا الكتاب، وفي غيره من الكتب، ويتناول ذلك:

ـ نقد السند: فيستعمل العبارة الدالة على قوة الإسناد أو ضعفه، أو يبين سبب الضعف، ويصدر أحكاماً دقيقة تبين مرتبة الحديث.

ـ نقد المتن: حيث ردّ روايات كثيرة وأبطلها بنقده المتين، وأسلوبه المتزن الرصين.

جـ ـ التعصب والإنصاف في النقد: كان من منهج الذهبي أنه

---

(١) انظر فصل «الذهبي الناقد الكبير» من كتابنا هذا.

ينقل آراء المخالفين والموافقين في المترجَم، ليقدم صورة متكاملة عنه، وقد يترك ذلك دون تعليق، وغالباً ما يصدر رأيه وحكمه، وبخاصة إذا رأى حيفاً، أو تساهلاً، أو مجاملة، وحقق بذلك قدراً كبيراً من الإنصاف لمترجَميه.

●● الفروق بين «السير» و«تاريخ الإسلام»:

١ ــ تراجم الصدر الأول حافلة غزيرة المادة في «السير»، ولا تقارن بمثيلاتها في «تاريخ الإسلام».

٢ ــ أدخل في «السير» معظم مادة «السير المفردة» التي ألّفها، وهذه ليست موجودة في «تاريخ الإسلام».

٣ ــ الإضافات في تراجم الأعلام في الأقسام المتوسطة والأخيرة في «السير» قليلة عما في «تاريخ الإسلام»، لكن هناك في «السير» إضافات وتصويبات ونقدات، وإعادة صياغة الترجمة والانتقاء.

٤ ــ كذلك أضاف عناصر جديدة للترجمة في «السير» مما لم يذكره في «تاريخ الإسلام»، ومن ذلك ذكره عدد الأحاديث التي رواها أصحاب كتب السنة المشهورة للمترجَم.

٥ ــ فرغ الذهبي من الإصدار الأخير لكتابه «السير» بعد تأليف عدد من كتبه الأخرى، وبخاصة كتب الرجال مثل «معرفة القراء» و«ميزان الاعتدال» و«تذكرة الحفاظ»، وهذه تعطي الكتاب بعداً آخر يتمثل في الإضافات الجديدة وإعادة التنظيم من جهة، وإعطاء الترجمة الشكل النهائي الذي يرضى عنه المؤلف من جهة أخرى.

●● أهمية الكتاب:

تتجلى أهمية هذا الكتاب وجلالته بأنه يعطي فكرة جيدة متكاملة

لأحوال المجتمع الإسلامي، والأفكار والمذاهب التي انتشرت في حقبة طويلة امتدت سبعة قرون.

وأيضاً يبرز الاهتمام الكبير الذي أولاه المؤرخون المسلمون للمبرزين في المجتمع، الذين لعبوا دوراً كبيراً في صناعة الأحداث والأمجاد على اختلاف أنواعها، ويدلل على النظرة العادلة لهؤلاء المؤرخين، حيث خلّدوا ذكر هؤلاء الأعلام، دون النظر إلى الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، فكثيراً ما وجدنا الذهبي يمدح فقيراً ويذمّ غنياً، ويثني على عبد ويقدح بسيّد، ويوثّق مغموراً، ويجرح مشهوراً.

كذلك فإن «السير» قد حصر بين دفتيه مادة ضخمة مع الشمول الزماني والمكاني، ويعتبر أحد أبرز الكتب في التراجم، التي يعز وجود نظيرها.

هذا وقد بلغ عدد الذين ترجم لهم الذهبي فيه (٥٩٢٥) نفساً[١].

٢٢ ـ طبقات الحفاظ:

نظم ابن ناصر الدين الدمشقي «تذكرة الحفاظ» بمنظومة سماها «بديعة البيان في وفيات الأعيان»، امتدحها ابن طولون فقال: «وهي أولى من طبقات الحفاظ لأبي عبدالله الذهبي، فإن رموز هذه في الوفيات لها معنى كرموز القراء في «حرز الأماني»، بخلاف التي للذهبي، فإنه لا معنى لها»[٢].

---

(١) موزعة حسب تسلسل المجلدات من ١ ـ ٢٣ على النحو التالي: ٩١، ١٢٦، ١٤٥، ٢٤٧، ٢١٥، ١٧٠، ١٦٩، ١٤٢، ٢٢٤، ٢٥٧، ١٦٧، ٢٥٣، ٣٠٣، ٣٢٦، ٣٥١، ٤١٦، ٤٥٩، ٣٢٦، ٣٧٦، ٣٧٥، ٢٦٦، ٢٥٠، ٢٧١.

(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٢١ هامش.

ويفهم من هذا الكلام أن للذهبي كتاباً ـ غير التذكرة ـ اسمه «طبقات الحفاظ» نظماً، وهو على غرار «بديعة البيان» لابن ناصر الدين.

٢٣ ـ طبقات الشيوخ:

ذكره الذهبي في «تذكرة الحفاظ»، فقال في ترجمة الحافظ علي بن حَمْشاذ: «متقن رحّال، ذكرناه في «طبقات الشيوخ»، ولو نُقل إلى هنا لساغ، فإن له مسنداً في ثلاث مئة جـزء أو أكثر. توفي في سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة. أكثر عنه الحاكم»[1].

وبالتأمل في هذا النص يظهر لنا أن هذا الكتاب يشتمل على تراجم المحدثين ممن هم دون الحفاظ مرتبة.

لكن (محقق)[2] العبر في خبر من عبر ذكر في مقدمته للكتاب أن «طبقات الشيوخ في شيـوخ الذهبي خاصة»! وهو خطأ فاحش، ونعوذ بالله أن نقول بغير علم.

ـ طبقات القراء = معرفة القراء الكبار.

٢٤ ـ العباب في التاريخ:

ذكره ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»، والزركلي في «الأعلام».

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٨٧٦/٣. لكن الذهبي كان ذكره قبـل هذا المـوضع بقليـل جـ: ٨٥٥/٣ ـ ٨٥٦، فكأنه اقتصر على ذكره هنا، ثم عاد فألحق ترجمة وافية له في موضعها من الطبقة، وبقي ما هنا على حاله. أو أنه من السهو.

(٢) أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ العبر جـ ١ الصفحة ك.

٢٥ ــ العبر في خبر من عبر:

ذكره غير واحد، وهو كتاب مشهور، وقد طبع في الكويت وبيروت[1] باسم «العبر في خبر من غبر»[2].

وقد بيَّن الذهبي أهمية الكتاب وخطته فيه، فقال في خطبته: «. . . وبعد: فهذا تاريخ مختصر على السنوات، أذكر فيه ما قدِّر لي من أشهر الحوادث والوفيات، مما يتعين على الذكي حفظه، وينبغي للطالب ضبطه، ويتحتم على العالم إحضاره».

لخص الذهبي «العبر» من كتابه «تاريخ الإسلام»، لكننا بالمقارنة بين «العبر» وأصله نجد أن الذهبي لم يتقيد بما ذكره في «التاريخ»، فنجد في «العبر» من الحوادث والوفيات ما ليس مذكوراً في «التاريخ»، كذلك نجد في هذا ما ليس مذكوراً في «العبر»، وهذا يعني أن المؤلف لا يلخص حسب، بل يختار ويؤلف، ويستدرك ويزيد، ويحقق ويدقق، وهذا أمر مألوف فيما يختصره من كتبه أو كُتب غيره.

ومنهجه في «العبر» أنه يذكر أولاً الحوادث المهمة في كل سنة،

---

(١) طبعة الكويت بتحقيق فؤاد سيد والدكتور صلاح الدين المنجد. أما طبعة بيروت (فحققها) أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، وعند هذا من التصحيفات والتحريفات والأخطاء في ضبط الأعلام الشيء الكثير، ولا يصح أن يسمى عمله تحقيقاً، فلا حول ولا قوة إلا بالله!.

(٢) هكذا بالغين المعجمة، وقد بيَّن الدكتور بشار عواد أن الصواب بالعين المهملة، وما حققه هو الوجه، فمعنى «غبر» بقي، وأما «عبر» فبمعنى مات، وأقوى دليل على ذلك ما جاء في التنزيل الحكيم في غير موضع بشأن امرأة لوط، مثل قوله تعالى: ﴿فأَنْجَيْناه وأَهْلَهُ إلاَّ امرأتَهُ كانتْ من الغَابِرينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ٨٣: أي أنجينا لوطاً من العذاب الذي حلَّ بقومه وأهله المؤمنين به، إلا امرأته فلم تنجُ، وكانتْ من الباقين في ديارهم الهالكين حين جاءهمُ العذاب.

ثم يتناول وفيات الأعيان في تلك السنة، وقد رتب الأسماء على حروف المعجم، وربما يختل هذا الترتيب أحياناً[1]، خاصة في القسم الأول من الكتاب.

ويعرف «العبر» بـ «التاريخ الأوسط»، وقد احتل مكانة مرموقة عند المؤرخين والعلماء والباحثين فوصفه السبكي بأنه «حسن جداً»، واعتمده كثير من العلماء ممن جاء بعد المؤلف، فقد سلخه النعيمي في «الدارس»، وابن العماد في «شذرات الذهب».

ويتجلّى اهتمام العلماء بهذا الكتاب باختصارهم له، أو بالتذييل عليه، ومتابعة تأريخ الحوادث وترجمة الوفيات على وجه الاختصار كما فعل الذهبي.

ـ فاختصره ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ).

وأما الذيول عليه فكثيرة:

ـ فأول من ذيَّل على العبر ـ بعد تذييل الذهبي عليه من سنة ٧٠٠ إلى ٧٤٠ هـ ـ أبو المحاسن الحسيني (ت ٧٦٥ هـ) فابتدأه من سنة (٧٤١ هـ) وانتهى به إلى سنة (٧٦٤ هـ).

ثم ذيَّل على ذيل الحسيني أبو العباس محمد بن موسى بن محمد بن سند اللخمي المعروف بابن سند (ت ٧٩٢ هـ)، وقد ذيّل إلى قريب سنة (٧٨٠ هـ).

وذيّل على ذيل العبر للذهبي مباشرة الحافظُ عبدُ الرحيم بن الحسين العراقي (ت ٨٠٦ هـ)، فابتدأ من سنة (٧٤١ هـ) ووصل به إلى سنة (٧٦٣ هـ).

---

(١) انظر مثلاً: وفيات سنة ١٠٠، ١٠١، ١٢٥ هـ.

وجاء ابنه الحافظ أبو زرعة (ت ٨٢٦ هـ) فذيّل على ذيل أبيه، وابتدأ به من سنة مولده في عام (٧٦٢ هـ) ووصل به إلى سنة (٧٨٦ هـ).

وذيَّل الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) على ذيل الحسيني، فابتدأ به من سنة (٧٦٣ هـ)، فكتب هذه السنة وبعض التي تليها.

٢٦ ــ عنوان السير في ذكر الصحابة:

ذكره حاجي خليفة[١] والبغدادي[٢]، ولا نعلم فيما إذا كان هو «تجريد أسماء الصحابة» أو آخر غيره، وإن كنا نرجح أنهما كتابان لأمرين: الأول: لم يشر أحد ممن ذكر «التجريد» إلى هذا الاسم. الثاني: أن حاجي خليفة ذكر «التجريد» في موضع و«عنوان السير» في موضع آخر، وكذلك غاير بينهما البغدادي. فالله أعلم.

٢٧ ــ فوائد من تاريخ الكازروني:

الكازروني: هو علي بن محمد بن محمود، ظهير الدين الكازروني ثم البغدادي، الإمام المؤرخ الشاعر، (ت ٦٩٧ هـ). له «روضة الأريب» في تاريخ بغداد، يقع في سبعة وعشرين مجلداً[٣].

قال الذهبي في ترجمته: «علّقتُ فوائد من تاريخه»[٤].

---

(١) كشف الظنون: ٢/١١٧٥.

(٢) هدية العارفين: ٢/١٥٤.

(٣) انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٦/٢٤٢. ولابن قاضي شهبة: ٢/١٨٥، وكشف الظنون: ١/٩٢٣، والأعلام للزركلي: ٤/٣٣٤.

(٤) المعجم المختص: ١٧٢.

٢٨ ـ القبان «في أصحاب ابن تيمية»:

ذكره السخاوي[1].

٢٩ ـ المختار من تاريخ ابن الجزري:

ابن الجزري: هو شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري (ت ٧٣٩ هـ). وكتابه يسمى: «حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه»، وهو من الكتب التاريخية التي تعنى بتسجيل الحوادث والوفيات معاً، فيسرد في كل سنة الأحداث السياسية الكبرى، ويتبعها الأحداث الأقل أهمية، ثم يتطرق لبعض الظواهر الطبيعية كحدوث زلزلة، وسقوط صاعقة، ويؤرخ للحالة الاقتصادية والاجتماعية والمعاشية، ثم يذكر وفيات جماعة من الأعيان في تلك السنة من محدثين وفقهاء وسلاطين وأمراء... إلخ. وهو من التواريخ الحافلة الغنية بالمعلومات المفصلة، وقد امتدح البرزالي الكتاب ومؤلفَه بأنه «ذكر فيه أشياء حسنة لا توجد في تاريخ غيره».

ونطاقه الزماني ما بين سنتي ٥٩٣ ـ ٧٣٨ هـ. وهو ـ مع الأسف ـ مفقود، ولم يصلنا منه سوى قطعتين: الأولى تناولت حوادث ووفيات سنة (٦٨٩ ـ بداية ٦٩٩ هـ)، والثانية: ـ وهي القسم الأخير من هذا التاريخ ـ تناولت حوادث ووفيات سنة (٧٢٦ ـ ٧٣٨ هـ). ومن هنا تأتي أهمية «انتقاء» الذهبي منه.

اختار الذهبي منه نبذة فوائد تستغرق أحداث ووفيات نحو مئة عام، وهي ما بين سنتي (٥٩٣ ـ ٦٩٨ هـ)، تتخللها بعض السنوات التي لم يختر منها شيئاً.

---

(١) الإعلام بالتوبيخ: ١٤٨.

وقد أشار الذهبي إلى هذا المنتخب في ترجمة حياة بن قيس الحراني (ت ٥٨١) من «تاريخ الإسلام» فقال: «نقلت كثيراً من ترجمته من تاريخ صاحبنا العدل الجليل شمس الدين أبي المجد محمد بن إبراهيم بن الجزري، وهو تاريخ مفيد، استفدت منه أشياء مطبوعة لا تكاد توجد إلا فيه. وقد كنت انتخبت منه مجلداً هو الآن ملك الفقيه المحدث الأوحد صاحبنا صلاح الدين خليل بن كيكلدي الشافعي المذهب».

وقد وصل إلينا كتاب الذهبي هذا، وطُبع بأخرة في مجلد[1].

٣٠ ــ مختصر «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقِفْطِيّ:

كتاب «إنباه الرواة» للقاضي الأكرم جمال الدين أبي الحسين علي بن يوسف الشيباني القِفْطيّ (ت ٦٤٦ هـ). اختصره الذهبي، ذكر ذلك السخاوي[2] وحاجي خليفة[3].

٣١ ــ مختصر «الأنساب» للسمعاني:

كتاب «الأنساب» للحافظ الكبير أبي سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور السَّمْعاني (ت ٥٦٢ هـ)، هو من أعظم كتب هذا الفن وأنفسها، لذا اعتنى به العلماء تلخيصاً واستدراكاً ونقلاً منه.

وقد اختصره الذهبي، كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه «تاريخ الإسلام[4]»، وأشار إليه سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

---

(١) حققه خضير عباس المنشداوي، ونشرته دار الكتاب العربي.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٢.

(٣) كشف الظنون: ١/ ١٧٠.

(٤) تاريخ الإسلام ــ السيرة النبوية: ص ١٥.

٣٢ ـ مختصر «تاريخ بغداد» للخطيب:

ألف الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) كتابه القيم «تاريخ بغداد[١]» في (١٤) مجلداً.

وقد ذكره الذهبي في مقدمة «تاريخ الإسلام» مع الكتب التي اختصرها. وذكره غير واحد ممن ترجموا للذهبي، وأشار الصفدي وابن شاكر الكتبي إلى أنه في مجلدين.

٣٣ ـ مختصر «تاريخ دمشق» لابن عساكر:

يعتبر «تاريخ مدينة دمشق» أعظم وأضخم التواريخ المحلية، وشهرة الكتاب ملأت الآفاق، وهو يقع في نحو (٨٠) مجلداً!! ومؤلفه هو حافظ الدنيا أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، الشهير بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ).

عكف العلماء عليه يقتبسون منه، ويختصرونه، ويذيلون عليه[٢]، وممن اختصره إمامنا الذهبي في (١٠) مجلدات.

وقد أشار الذهبي إلى «مختصره» هذا في عدة مواضع[٣]، وذكره الصفدي، والكتبي، وابن تغري بردي، والسخاوي ـ وقد رآه بخط الذهبي ـ وابن العماد، والكتاني في «فهرس الفهارس».

ـ مختصر تاريخ القطب اليونيني = مختصر «ذيل مرآة الزمان».

---

(١) تناول في قسم من المجلد الأول خطط مدينة بغداد، ثم ترجم لأهلها ورتبهم على حروف المعجم، مقدِّماً الرجال، ومخصِّصاً القسم الأخير منه للنساء.

(٢) انظر: كشف الظنون ١/٢٩٤، ومن أشهر مختصراته: مختصر العلامة ابن منظور ـ صاحب لسان العرب ـ وهو في (٢٩) مجلداً، وقد طبع.

(٣) انظر مثلاً: تاريخ الإسلام: السيرة: ص ١٥، وفيات (٣٥١ ـ ٣٨٠) ص ٤٦٨، معرفة القراء الكبار: ١/٢٦٦.

٣٤ ـ مختصر «تاريخ مصر» لابن يونس: ألّف الحافظ المتقن أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري (ت ٣٤٧ هـ) تاريخين: أحدهما كبير يسمى «تاريخ علماء مصر»، والثاني صغير وهو في «ذكر الغرباء الواردين على مصر».

والذي اختصره الذهبي هو الأول، فقد قال في ترجمة ابن يونس من «سير أعلام النبلاء»: «صاحب «تاريخ علماء مصر». . وقد اختصرتُ «تاريخه»، وعلّقتُ منه غرائب»[1]. وأشار إليه في ترجمته من «التذكرة» فقال: «أبو سعيد ابن يونس. . . صاحب «تاريخ مصر»، اختصرت «تاريخه»، وعلقت منه أحاديث»[2]. كذلك ذكره في مقدمة «تاريخ الإسلام»[3].

٣٥ ـ مختصر «تاريخ نيسابور» للحاكم:

الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري، الشهير بالحاكم والمعروف بابن البيع، صاحب «المستدرك»، المتوفى سنة (٤٠٥ هـ).

وكتابه «تاريخ نيسابور» ابتدأه بذكر خراسان وما ورد من أحاديث وأخبار في مدحها، ثم ذكر من نزلها من الصحابة ثم التابعين. . . وهكذا، فجعله على ست طبقات، ويقع في ستة مجلدات. وقد وصفه الكتاني بأنه «التاريخ الذي تخضع له جهابذة الحفاظ، من نظره عرف تفنن الرجل في العلوم جميعها»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٥/٥٧٨ ـ ٥٧٩.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٣/٨٩٨.

(٣) تاريخ الإسلام ـ السيرة النبوية: ص ١٥.

(٤) الرسالة المستطرفة: ١٣٣، وعبارته الأخيرة مقتبسة من السبكي في طبقاته: ٤/١٥٥.

ذكر الذهبي في مقدمة «تاريخ الإسلام» أنه اختصر «تاريخ أبي عبدالله الحاكم»[1]، وهو هذا.

كذلك ذكره معظم الذين ترجموا للذهبي، وقال الصفدي وابن شاكر الكتبي والزركشي أن هذا المختصر في مجلد.

٣٦ ـ مختصر «تقويم البلدان» لأبي الفداء:

كتاب «تقويم البلدان» للمؤرخ الجغرافي أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود، الملك المؤيد صاحب حماة، (ت ٧٣٢ هـ)، وقد طبع في مجلدين.

ذكر الصفدي والكتبي والكتاني في «فهرس الفهارس» أن الذهبي اختصر «تقويم البلدان»، بينما ذكر ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد والبغدادي كتاب «تقويم البلدان» من بين مصنفات الذهبي، وأغلب الظن أن هذا منهم من باب التجوّز، وما قصدوا غير هذا المختصر. والله أعلم.

٣٧ ـ مختصر «التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار»[2]:

قال الذهبي في ترجمة ابن الأبار من «النبلاء»: «الإمام العلامة، البليغ، الحافظ المجوِّد المقرىء، مجدُ العلماء أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر.... القُضاعي الأندلسي البَلَنْسِيّ الكاتب المُنْشِىء، ويقال له: الأَبَّار وابن الأبار.... وله تصانيف جمّة منها

---

(١) تاريخ الإسلام ـ السيرة: ص ١٥.

(٢) ألف أبو الوليد ابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) كتابه: «تاريخ علماء الاندلس»، فذيَّل عليه أبو القاسم ابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) بكتابه: «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم»، وجاء ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) فذيَّل عليه بكتابه «التكملة لكتاب الصلة». كشف الظنون: ١/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

«تكملة الصلة» في ثلاثة أسفار، اخترتُ منها نفائس»[1].

وذكره في ترجمته من «تاريخ الإسلام» فقال: «كمَّل «الصلة» البشكوالية بكتاب في ثلاثة أسفار، اختصرته في مجلد».

٣٨ ــ مختصر «التكملة لوفيات النقلة» للمنذري:

ألّف أبو الحسن علي بن المُفَضَّل المقدسي (ت ٦١١ هـ) كتابه «وفيات النَّقَلَة» ووصل به إلى سنة (٥٨١ هـ)، فجاء تلميذه الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦ هـ) وذيَّل عليه بكتابه «التكملة»[2] من سنة (٥٨١ هـ) إلى أثناء سنة (٦٤٢ هـ).

وقد ذكر ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد أن الذهبي اختصر «تكملة المنذري»، بل إن الذهبي أثبت خطه على المجلدة الثانية من إحدى نسخ «التكملة» فكتب: «نظره وعلَّق منه العبد محمد بن أحمد الذهبي»[3].

٣٩ ــ مختصر «ذيل تاريخ بغداد» للسمعاني:

ذيَّلَ غير واحد من العلماء على «تاريخ بغداد» للخطيب، منهم أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، وهو كتاب كبير قريب من حجم «تاريخ بغداد»، فقد ذكر السخاوي أن تاريخ الخطيب في «عشر مجلدات» ثم وصف ذيل السمعاني بأنه في «عشر مجلدات فأقل»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٣/٣٣٦ ــ ٣٣٧.

(٢) حققه الدكتور بشار عواد تحقيقاً علمياً قيماً، وصدر في طبعته الأخيرة عن مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، في أربعة مجلدات، الرابع منها للفهارس.

(٣) التكملة للمنذري: ١/٢٨ مقدمة المحقق.

(٤) الإعلان بالتوبيخ: ١٢٣.

وقد ذكر سبط ابن حجر وابن العماد أن الذهبي اختصر «ذيل السمعاني» هذا، وأشار إليه الذهبي نفسه في مقدمة «تاريخ الإسلام»[1].

٤٠ ــ مختصر «ذيل مرآة الزمان» لليونيني:

ذكره الذهبي مع التواريخ التي اختصرها قبل تأليف كتابه «تاريخ الإسلام» الذي قال في مقدمته: «وتاريخ الشيخ قطب الدين بن اليونيني[2]، وتاريخه ذيل على «تاريخ مرآة الزمان» للواعظ شمس الدين يوسف سبط[3] ابن الجوزي، وهما على الحوادث والسنين»[4].

وأشار إليه في مقدمة كتابه «المختار من تاريخ ابن الجزري» فقال: «هذه نبذة فوائد من تاريخ المولى شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري، أبقاه الله، وذلك كالتتمة لما نقحتُ من «المذيل على الروضتين»، ومن تاريخ شيخنا قطب الدين»[5].

---

(١) تاريخ الإسلام ــ السيرة النبوية: ص ١٥. وذكر محققه الدكتور عمر عبد السلام تدمري أن ذيل السمعاني هو «ذيل على تاريخ الطبري»، وكذلك الأستاذ عبد الرحمن نحلاوي في كتابه عن الذهبي ــ ص ١٨ ــ وقد نقل ذلك عن «أعلام التاريخ والجغرافيا» للدكتور صلاح الدين المنجد، وكل ذلك وَهم منهم.

(٢) واسمه موسى بن محمد بن أحمد اليونيني (ت ٧٢٦ هـ)، ترجم له الذهبي في «معجم شيوخه» ص ٦٢٣، فقال: «واختصر التاريخ الكبير الملقب بمرآة الزمان، ثم ذيَّل عليه أربع مجلدات».

(٣) توفي سنة: ٦٥٤ هـ.

(٤) تاريخ الإسلام ــ السيرة النبوية: ص ١٥.

(٥) المختار: ٦١، والعجيب أن الدكتور بشار عواد لم يذكر هذا الكتاب مع مصنفات الذهبي، مع أنه ذكره غير مرة في كتابه «الذهبي ومنهجه»، مثلاً ص ٢٥.

٤١ ـ مختصر: «الروضتين وذيله» لأبي شامة:

صنف الحافظ المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ) كتابه: «الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية» ثم «الذيل على الروضتين»[١].

وقد اختصر الذهبي هذين الكتابين، فذكر «كتاب الروضتين» في مقدمته لتاريخ الإسلام مع الكتب التي اختصرها فقال: «وتاريخ العلامة شهاب الدين أبي شامة»[٢]. وأشار في مقدمة «المختار من تاريخ ابن الجزري» إلى أنه اختصر الذيل، فقال: «هذه نبذة فوائد من تاريخ المولى، شمس الدين... وذلك كالتتمة لما نقحت من «المذيل على الروضتين»...»[٣].

٤٢ ـ مختصر «صلة التكملة لوفيات النقلة» للحسيني:

ذكر ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد أن الذهبي اختصر «وفيات الشريف النسابة».

والشريف المعني بقولهم هو: عز الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشريف الحسيني الحلبي ثم المصري (ت ٦٩٥ هـ)، مؤرخ من الحفاظ، وهو تلميذ الحافظ المنذري.

وكتابه: «صلة التكملة لوفيات النقلة»، ذيَّلَ به على كتاب شيخه

---

(١) سماه ناشره «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» وهو من باب التجوّز، فهذا الذيل يشتمل على الحوادث والوفيات على ترتيب السنين من (٥٩٠ ـ ٦٦٥ هـ).

(٢) السيرة النبوية: ص ١٥.

(٣) المختار: ٦١. وقد تردد بشار عواد في كون الذهبي اختصر الكتابين، أم أنه اقتصر على اختصار الأصل فقط دون الذيل، ثم رجح الأول، وما ذكرناه هنا يبتُّ في الأمر.

المنذري «التكملة»، مبتدئاً من سنة (٦٤٠ هـ) فكتب مجلدين بلغ فيهما سنة (٦٧٥ هـ)، ولم يشر إلى انتهاء الكتاب[١].

قال الذهبي في ترجمته من «تاريخ الإسلام»: «وله «وفيات» ذيّل بها على شيخه المنذري إلى سنة أربع وسبعين وست مئة، هذا الذي اتصل بنا، ولعلّه ذيَّلَ إلى حين وفاته ولم نره»[٢].

وطبيعي أن يختصر الذهبي هذا الكتاب، فيصبح مكملاً لمختصره لكتاب «التكملة» للمنذري.

٤٣ ـ المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيْثي:

ابن الدبيثي: هو الحافظ المؤرخ شيخ القراء أبو عبدالله محمد بن سعيد الدُّبَيْثي[٣] ثم الواسطي الشافعي (ت ٦٣٧ هـ).

وتاريخه هو ذيل على «ذيل تاريخ بغداد» للسمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، وقد سار ابن الدبيثي على خطة الخطيب والسمعاني، ووصل به إلى زمانه، وهو في ثلاثة مجلدات.

وقد أخذ شمس الدين الذهبي تاريخ ابن الدبيثي ولخصه واختصره في نصفه[٤]، وذلك في سنة (٧٠٤ هـ). وحافظ على شخصية المؤلف

---

(١) وقف العلامة خير الدين الزركلي على هذه المخطوطة، وأفاد بأنها تنتهي بوفاة أحد المترجم لهم في ١٧ ذي القعدة من سنة (٦٧٥ هـ). وأما ابن تغري بردي فذكر أن «صلة» الحسيني تنتهي بسنة (٦٧٤ هـ)، ونقل ذلك عنه حاجي خليفة، فلعل النسخة التي وقف عليها ناقصة ورقتين أو ثلاثاً من الآخر. انظر: الأعلام ١/٢٢١، كشف الظنون: ٢/٢٠٢٠.

(٢) تاريخ الإسلام: وفيات (٦٩٥ هـ). وانظر الحاشية السابقة.

(٣) نسبة إلى «دبيثا» من نواحي واسط.

(٤) كشف الظنون: ١/٢٨٨.

الأصلي، لكنه لم يذكر جميع التراجم، بل انتقى، واعتنى بالمحدثين، فقد يترك شاعراً مشهوراً ولا يترك محدثاً مغموراً. لكن الذهبي ـ كما عهدناه ـ لم يكتفِ بالاختصار، بل خرج كثيراً من تراجمه، وأضاف إليها أشياء لا سيما تلاميذ المترجم، وكتب أغلب هذه التخريجات في هامش النسخة[1].

٤٤ ـ مختصر «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي:

اختصر الذهبي كتاب «المعجب» للمؤرخ عبد الواحد المَرَّاكُشِي (ت ٦٤٧ هـ)، وذكر ذلك في ترجمة ابن تومرت من «تاريخ الإسلام» فقال: «ونقل عبد الواحد بن علي التميمي في «كتاب المعجب» الذي اختصرته، أن ابن تومرت رحل إلى بغداد...»[2].

٤٥ ـ مختصر «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان:

كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» للمؤرخ الحجة الأديب الماهر أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلِّكان (ت ٦٨١ هـ)، كتاب شهير جليل.

ذكر الذهبي في مقدمة «تاريخ الإسلام» أنه اختصر هذا الكتاب[3].

---

(١) وقد حقق الكتاب الدكتور مصطفى جواد في ثلاثة أجزاء، وأدخل «تخريجات الذهبي» في صلب الكتاب عند طبعه.

(٢) تاريخ الإسلام: وفيات سنة (٥٢٤ هـ).

(٣) السيرة النبوية: ص ١٥.

٤٦ ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار = طبقات القراء:

ذكره الذهبي في بعض كتبه[١]، كما ذكره معظم الذين ترجموا له، وكثيراً ما يطلقون عليه اسم: «طبقات القراء»[٢]، وهو من باب التجوز وتسمية الكتاب بما يدل على مضمونه، وعنوانه الحقيقي هو «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار» كما جاء في طرة النسخ التي وصلت إلينا.

●● رتب المؤلف هذا الكتاب على «الطبقات»، فجعله في ثمان عشرة طبقة [٣] حسب اللقيا، بدءاً بالصحابة أهل الطبقة الأولى وانتهاء بعصره.

وقد فرغ من تأليف هذا الكتاب بعد سنة (٧١٧ هـ) وقبل انتهاء سنة (٧١٩ هـ)، وذلك بالنظر إلى أنه لما ترجم الإمام المقرىء محمد بن علي الموْصلي الحنبلي المعروف بابن خروف قال: «ثم قدم علينا دمشق في سنة سبع عشرة وسبع مئة»، وأرخ وفاة المقرىء عثمان بن سيف القواس في ربيع الآخر من سنة (٧١٧ هـ)، بينما لما ترجم الشيخ نصر بن سلمان المَنْبِجي في أواخر الكتاب قال: «ثم خمل

---

(١) مثلاً: تذكرة الحفاظ: ١/١٥٤، وفي سير أعلام النبلاء ذكره في معظم الأجزاء، انظر فهارسه: ٢٤/٧١٤.

(٢) وقد ذكره الزركلي مرتين: مرة باسم «طبقات القراء»، ومرة باسم «معرفة القراء الكبار» فاعتبره كتابين، وهو خطأ. انظر: الأعلام ٥/٣٢٦.

(٣) ذكر الطبقة (١٦) في جـ: ٢/٦٦٨، ثم ذكر «طبقة بين الطبقتين» ص ٧١٨، ثم قال في ص ٧٤١: «الطبقة الثامنة عشرة»، وهي عبارة ثابتة في الأصول؛ فكأنه عَدّ «طبقة بين الطبقتين» طبقة مستقلة هي الطبقة (١٧).

وانطفأ، وهو حي يرزق»، والشيخ نصر هذا توفي في جمادى الآخرة من سنة (٧١٩ هـ)[١].

●● ومع أن الذهبي أراد أن يكون كتابه خاصاً بالقراء الكبار ـ كما يدل عليه عنوانه ـ إلا أنه ترجم فيه للكبار والصغار، فقال في ترجمة محمد بن عبدالله الخِرقي: «شيخ لا يعرف كالثلاثة قبله». بل قال في ترجمة أحمد بن زيدان: «هذا مجهول لا يعرف، روى عنه نكرة لا يتعرف، وكتبناه للفرجة»[٢].

ولم يعنَ المؤلف بتفصيل أخبار المترجمين في كتابه هذا مما ليس له علاقة بفن القراءة، بل اقتصر على إبراز المهم المتعلّق بهذا الأمر، ولو أراد أن يستقصي أخبارهم لجاء كتاباً كبيراً، كما يومىء إلى ذلك قولُه في نهاية طبقة الصحابة ـ وهم سبعة ـ: «واختصرتُ أخبارهم، فلو سُقْتُها كلها لبلغتْ خمسين كُرَّاساً»[٣].

وطوَّل تراجم مشاهير القراء، في حين اختصر تراجم غيرهم، بحيث وجدنا تراجم لا تتجاوز الواحدة منها نصف الصفحة، وأحياناً ثلاثة أسطر.

وقد بلغ عدد تراجمه (٧٣٤) ترجمة، وطبع الكتاب طبعة مجوَّدة ممتازة في مجلدين[٤].

---

(١) معرفة القراء: ٢/ ٧٢٧ ترجمة ٦٩٢، ٧٤٠ ترجمة ٧١٥، و ٧٣٦ ترجمة ٧٠٨.
وأما ما ورد في متن الكتاب من تأريخ بعض الوفيات بسنة (٧١٩هـ) ـ مثلاً الترجمة: ٦٨٣، ٦٨٧ ـ فهي من الزيادات التي زادها الذهبي فيما بعد، ووجدت في بعض النسخ، لذا وضعها المحققون بين حاصرتين[ ].

(٢) معرفة القراء: ١/ ٣٣٨، ٣٧٦.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٢.

(٤) بتحقيق الأفاضل: شعيب الأرناؤوط وبشار عواد وصالح مهدي عباس، منشورات مؤسسة الرسالة.

●● ولقي هذا الكتاب تقديراً كبيراً من المعنيين بالقراءات ورجالها، فامتدحه ابن الجزري فقال في ترجمته للذهبي: «وكتب كثيراً، وألف وجمع، وأحسن في تأليف طبقات القراء»[١]. ووصفه السخاوي بأنه كتاب حافل[٢].

وقال فيه صلاح الدين الصفدي:

عليكَ بِهذَه الطبقاتِ فاصعَدْ	إليها بالثَّنَا إنْ كنتَ رَاقِي
تجدْهَا سبعةً مِنْ بعدِ عَشْرٍ	كنَظْمِ الدُّرِّ في حُسْن اتّساقِ
تُجَلِّي عنكَ ظلمةَ كلِّ جهلٍ	به أَضحَى مقالُكِ في وَثاقِ
فنُور الشمسِ أحسنُ ما تراهُ	إذَا مَا لاحَ في السَّبْعِ الطِّباقِ

وبلغ من أهمية هذا الكتاب أن ابن الجزري سلخه بأجمعه في كتابه «غاية النهاية» كما صرح بذلك في خطبة كتابه فقال: «وأتيت فيه على جميع ما في كتابي الحافِظَيْن أبي عَمْرٍو الدّانيّ وأبي عبدالله الذهبي رحمهما الله»[٣].

وقد ذيل عليه تاج الدين أحمد بن عبد القادر ابن مَكْتُوم (ت ٧٤٩ هـ) في جزء فيه عشرون ترجمة[٤]. وللحافظ أحمد بن إسماعيل بن خليفة الدمشقي الشهير بابن الحُسْبَاني (ت ٨١٥ هـ) كتاب «ترتيب طبقات القراء للذهبي»[٥].

---

(١) غاية النهاية: ٢/٧١.
(٢) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٢.
(٣) غاية النهاية: ١/٣.
(٤) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٢.
(٥) ذيول تذكرة الحفاظ: ٢٤٥، الضوء اللامع: ١/٢٣٩.

وقام الحافظ عبدالعزيز ابن الحافظ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد المكي (ت ٩٢٠ هـ) بترتيب «معرفة القراء» على حروف المعجم[1].

٤٧ ـ المُعين في طبقات المحدثين:

رتب الذهبي كتابه هذا على الطبقات، بدءاً بالصحابة وانتهاءً بطبقة شيوخه، وابتدأ أولاً بذكر النبي ﷺ ثم الخلفاء الراشدين وبقية العشرة ثم باقي أعلام الصحابة، مرتبين على حروف المعجم، وذكر بعد ذلك أكابر التابعين وجعلهم طبقة، ثم ذكر الطبقة الثانية منهم، ثم طبقة أخرى هي طبقة الزهري. . . وهكذا.

والكتاب مختصر جداً يكاد يقتصر على الأسماء، وأشار هو إلى ذلك في مقدمته فقال: «فهذه مقدمة في ذكر أسماء حملة الآثار النبوية، تبصِّر الطالب النبيه، وتذكِّر المحدث المفيد، يقبح بالطلبة أن يجهلوهم. . .». وأحال في نهاية هذا الكتاب على كتابه «تاريخ الإسلام».

وعدد الطبقات (٢٨) طبقة، ذكر فيه (٢٤٢٤) نفساً، والكتاب يقع في (٥٥) ورقة، وقد طُبع.

٤٨ ـ المنتخب من تاريخ ابن النجار:

ذيَّل الحافظ المؤرخ البارع محب الدين محمد بن محمود البغدادي المعروف بابن النَّجَّار (ت ٦٤٣ هـ) على تاريخ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) نفسه، ووصل به إلى زمانه، وسماه: «التاريخ

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ١٠٢، الكواكب السائرة: ١/٢٣٨ ـ ٢٣٩، شذرات الذهب: ٨/١٠٢، وذكره الأخير في وفيات (٩٢١ هـ). وجاء في مقدمة «معرفة القراء»: ـ ١/١٤ ـ للمحققين أن وفاة ابن فهد هذا كانت سنة (٩٤٤ هـ)، وهو وَهَم منهم.

المجدَّد لمدينة السلام وأخبار فضلائها الأعلام ومَنْ وردها من علماء الأنام». وهو كتاب عظيم، جمع فيه فأوعى، وقد أفاد السخاوي أنه في (١٧) مجلداً[١].

ومن هذا الكتاب انتخب الذهبي، كما ذكر سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ» فقال: «وانتخب كثيراً من تاريخ ابن النجار في مجلد».

٤٩ ـ منتقى «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر:

ذكره الذهبي في ترجمة الصحابي أبي رِفاعة العَدَوِيّ من «تاريخ الإسلام» فقال: «أخباره في الطبقات، علَّقها في منتقى الاستيعاب»[٢].

٥٠ ـ المنتقى من «تاريخ خُوَارَزْم» لابن أرسلان الخُوَارَزْميّ:

ألف الحافظ الفقيه المؤرخ مُظْهِر الدين أبو محمد محمود بن محمد بن العباس بن أرسلان العباسي ـ نسبة إلى جده ـ الخوارزمي (ت ٥٦٨ هـ) كتاباً في «تاريخ خوارزم» يقع في ثمان مجلدات.

انتقى الذهبي من «المجلد الأول» منه فقط، وأدلة ذلك ما يلي:

ـ قال الذهبي في كتابه «الأمصار ذوات الآثار»: «خُوَارَزْم: بلد كبير، رأيتُ المجلد الأول من تاريخها، لرجل معاصر لأبي القاسم بن عساكر، من ثمان مجلدات...»[٣].

ـ ونقل السبكي[٤] عن الذهبي قوله: ووقفت على الجزء الأول منه. ثم قال السبكي: ووقفت على المجلد الأول من «تاريخه»، وهو

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ١٢٣.
(٢) تاريخ الإسلام ـ عهد معاوية، وفيات (٤١ ـ ٦٠ هـ) ص: ١٣٥.
(٣) الأمصار: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٤) في الطبقات الكبرى: ٧/٢٨٩.

الذي وقف عليه شيخنا الذهبي، وهو من قسمة ثمانية أجزاء ضخمة.

ـ وذكر التقي الفاسي[1] أنه نقل ترجمة محمد بن أحمد بن أبي سعيد الملكي من خط الحافظ الذهبي، فيما انتقاه من المجلد الأول من «تاريخ خوارزم» للحافظ الرحال محمود بن محمد بن عباس بن أرسلان الخوارزمي.

كل هذا يدل على أن الذهبي انتقى من المجلد الأول فقط، وهو الذي وقف عليه من الكتاب.

وأما ما ذكره حاجي خليفة[2] من أن الذهبي اختصر هذا الكتاب، فهو خطأ منه. وقد تردد الدكتور بشار عواد في الأمر، ومال[3] إلى رأي حاجي خليفة، وهو ميل غير صائب.

٥١ ـ المنتقى من «تاريخ أبي الفداء»:

تاريخ الملك المؤيد أبي الفداء (ت ٧٣٢ هـ) يعرف باسم «المختصر في أخبار البشر»، أورد فيه شيئاً من التواريخ القديمة، ثم تناول التاريخ الإسلامي ـ معتمداً الكامل لابن الأثير حتى سنة ٦٢٨ هـ ـ وانتهى فيه إلى سنة (٧٢١ هـ).

قال السخاوي: «للملك المؤيد صاحب حماة تاريخ انتقى منه الذهبي»[4].

---

(١) العقد الثمين: ١/٢٩٢.

(٢) كشف الظنون: ١/٢٩٤، وذكر أن هذا الكتاب في ثمانين مجلداً، وهو خطأ آخر.

(٣) الذهبي ومنهجه: ٢٥٦.

(٤) الإعلان بالتوبيخ: ١٤٧.

٥٢ ـ المنتقى من «معرفة الصحابة» لابن منده:

انتقى الذهبي مجيليداً في جزءين من كتاب «معرفة الصحابة» للحافظ أبي عبدالله محمد بن إسحاق ابن منده[1] (ت ٣٩٥ هـ).

وقد أشار إلى هذا «المنتقى» الحافظُ ابن حجر في «المجمع المؤسس»، وذكر أنه سمعه على الحافظ أبي هريرة ابن الذهبي. قال الحافظ ذاكراً مسموعاته على أبي هريرة: «... ومنتقى الذهبي من «معرفة الصحابة» في جزءين، سمعها على أبي القاسم ابن عساكر، بإجازته من محمود بن إبراهيم بن منده، قال: أخبرنا أبو الخير الباغبان، قال: أخبرنا عبد الوهاب بن أبي عبدالله بن منده، قال: أخبرنا أبي».

ـ نبذة فوائد من تاريخ ابن الجزري = المختار من تاريخ ابن الجزري.

٥٣ ـ هالة البدر في عدد أهل بدر:

ذكره غير واحد ممن ترجموا للذهبي.

ب ـ السِّيَر والتراجم المفردة:

تمهيد:

أفرد الذهبي كثيراً من الرجال البارزين في التاريخ الإسلامي في «أجزاء مفردة مستقلة»، وأشار هو إلى بعضها في كتبه، كما ذكر من ترجم له كثيراً منها.

وقول الصفدي في «الوافي»، وابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات»: «وله في تراجم الأعيان لكل واحد مصنف قائم الذات، مثل

---

(١) هو أبو عبدالله بن منده مؤلف «معرفة الصحابة».

الأئمة الأربعة ومن جرى مجراهم، ولكنه أدخل الكل في تاريخ النبلاء»، لا يعني أنه أدخل هذه التراجم والسِّيَر المستقلة بأكملها في «سير أعلام النبلاء»، كما لا يعني أنه أدخل الكل، بل قد يكون أدخل مختصرات أكثرها، وأدله ذلك:

أولاً: نص الذهبي في بعض كتبه ـ ومنها «سير أعلام النبلاء» ـ على إفرادها، وأحال عليها أحياناً.

ثانياً: أنّنا ما عهدنا الذهبي يكرر تواليفه؛ بل يختصر ويلخص، وينتقي ويستدرك، ويصحح ويدقق.

ثالثاً: أن بعض هذه السِّيَر أفردها بعد تأليفه «سير أعلام النبلاء».

رابعاً: اختياره عناوين مستقلة لبعضها، مثل: سير الراشدين، وقضِّ نهارك بأخبار ابن المبارك، ونفض الجعبة في أخبار شعبة.

خامساً: ظهور السماعات على أصل هذه السير المفردة.

سادساً: المقارنة بين مادتها وما في «سير أعلام النبلاء»، تبيِّـن أن بينهما اختلافاً واضحاً، فالمادة التي احتوتها «السيـر المفردة» هي ـ أحياناً ـ أكثر بكثير مما في «النبلاء»، خاصة إذا علمنا أن بعض هذه السير يقع كل منها في مجلد.

٥٤ ـ أخبار أبي مسلم الخراساني:

هو عبد الرحمن بن مسلم الخراساني (ت ١٣٧ هـ)، كان سفاكاً للدماء، يزيد على الحَجَّاج في ذلك. وقد طول الذهبي ترجمته في «سير أعلام النبلاء»[١].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/٤٨ ـ ٧٣.

ذكر الصفدي والكتبي والبغدادي [1] أن الذهبي أفرده في مصنف.

٥٥ ـ أخبار أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

ذكره الذهبي في ترجمتها من «التذكرة» فقال: «وقد أفردت أخبارها في مصنف، رضي الله عنها» [2].

٥٦ ـ بلبل الروض:

كتاب «الروض الأُنُف» للإمام العلامة الحافظ اللغوي أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله السُّهَيْلي (ت ٥٨١ هـ)، شرح فيه «السيرة النبوية» لابن هشام، وهو كتاب نفيس بالمرة، قال فيه الصفدي: «وهو كتاب جليل، جوَّد فيه ما شاء».

ولأهمية هذا الكتاب اختصره الذهبي في كتابه «بلبل الروض»، وقد ذكره سبط ابن حجر [3]، والسخاوي [4]، وفؤاد سزكين وأفاد بأنه في (٥٧) ورقة [5].

٥٧ ـ التبيان في مناقب عثمان بن عفان:

قال الذهبي في ترجمة الخليفة الراشد عثمان من «التذكرة»: «وقد أفردت سيرته في مصنف» [6].

---

(١) الوافي: ٢/١٦٢ ونَكْت الهِمْيان: ٢٤٣، فوات الوفيات: ٣/٣١٦، هدية العارفين: ٢/١٥٤.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/٢٩.

(٣) رونق الألفاظ: الورقة ١٨١.

(٤) الإعلان بالتوبيخ: ٨٨.

(٥) تاريخ التراث العربي: المجلد الأول: جـ ٢/١٠٩.

(٦) تذكرة الحفاظ: ١/٩.

وذكره الصفدي وابن شاكر الكتبي وحاجي خليفة والبغدادي والكتاني[1]. قال حاجي خليفة: «تواريخ الخلفاء: أما الخلفاء الراشدون خاصة ففيهم كتب كثيرة، منها تأليف الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي المتوفى سنة ثمان[2] وأربعين وسبع مئة، وهو في أربع مجلدات، جعل في كل منهم مجلداً». وقد ذكر الكتبي والكتاني أن «التبيان» في مجلد.

٥٨ ـ ترجمة أحمد بن حنبل:

ذكرها الصفدي، وأشار إليها ابن شاكر الكتبي بقوله: «وله في تراجم الأعيان لكل واحد منهم مصنف قائم الذات، مثل الأئمة الأربعة...»[3].

وقد طوَّل ترجمته جداً في «سير أعلام النبلاء»[4].

٥٩ ـ ترجمة البِرْزَالي:

ذكر ابن قاضي شهبة في ترجمة الإمام الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي (ت ٧٣٩ هـ) أن الذهبي ترجمه في «جزء مفرد»[5]. وذكرها أيضاً السخاوي[6].

---

(١) الوافي: ٢/ ١٦٤ ونكت الهميان ٢٤٣، فوات الوفيات: ٣/٣١٦، كشف الظنون: ١/ ٢٩٣، إيضاح المكنون: ١/ ٢٢٤ وهدية العارفين: ٢/ ١٥٤، فهرس الفهارس: ١/ ٤١٨.

(٢) في كشف الظنون: ١/ ٢٩٣: «ست»، وهو خطأ.

(٣) انظر: الحاشية (١).

(٤) النبلاء: ١١/ ١٧٧ ـ ٣٥٨.

(٥) طبقات الشافعية: ٢/ ٢٨٠.

(٦) الجواهر والدرر: الورقة ٢٩٧/أ.

ـ ترجمة أبي بكر الصديق = توقيف أهل التوفيق.

ـ ترجمة ابن تيمية = الدرة اليتيمية.

ـ ترجمة الحسن البصري = الزخرف القصري.

٦٠ ـ ترجمة أبي حنيفة:

ذكرها الذهبي في غير موضع من كتبه، فقال في «تاريخ الإسلام»: «وأخبار أبي حنيفة رضي الله عنه ومناقبه لا يحتملها هذا التاريخ، فإني قد أفردت أخباره في جزءين»[١]. وذكر مثل ذلك في «التذكرة»، و«دول الإسلام»، لكنه قال: «في جزء»[٢]. وأشار إليها السخاوي في «الجواهر والدرر»، وسزكين[٣].

وقد وصلت إلينا هذه الترجمة، ونشرها العلامة الكوثري[٤] رحمه الله.

٦١ ـ ترجمة الخضر:

ذكرها سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

٦٢ ـ ترجمة السِّلَفِيّ:

هو الإمام الحافظ المفتي المعمَّر أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني الجَرْوَانيُّ (ت ٥٧٦ هـ)[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام: وفيات (١٤١ ـ ١٦٠) ص ٣١٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ١٦٩، دول الإسلام: ٩٢، حوادث سنة ١٥٠ هـ.

(٣) تاريخ التراث العربي: المجلد الأول: جـ٣/ ٣٥، وسماها: «مناقب الإمام أبي حنيفة».

(٤) نشرها مع ترجمتي صاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن، ثلاثتها للذهبي.

(٥) طوَّل الذهبي ترجمته في سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٥ ـ ٣٩.

ذكر الذهبي أنه أفرد ترجمته فقال: «وقد أفردتُ أخباره في جزء»[1]. وذكرها سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وأورد ابن العماد في تصانيف الذهبي «كتاب ترجمة السلف»[2]، وأغلب الظن أن لفظة «السلف» محرفة عن «السلفي».

٦٣ ـ ترجمة الشافعي:

ذكرها الصفدي، وأشار ابن شاكر الكتبي إلى أن الذهبي أفرد لكل من الأئمة الأربعة مصنفاً قائم الذات.

ـ ترجمة شعبة = نفض الجعبة في أخبار شعبة.

٦٤ ـ ترجمة عبد القاهر البغدادي:

قال الذهبي في ترجمته من «سير أعلام النبلاء»: «عبد القاهر بن طاهر، العلّامة البارع، المتفنِّن الأستاذ، أبو منصور البغدادي، نزيل خراسان، وصاحبُ التصانيف البديعة، وأحدُ أعلام الشافعية... وكنتُ أفردتُ له ترجمةً، لم أظفر الساعة بها»[3].

٦٥ ـ ترجمة عبدالله بن أحمد بن حنبل:

ذكرها الذهبي في أثناء ترجمة أبيه، فقال ـ وهو يتكلم على أبناء الإمام أحمد ـ: «وأما الولد الثاني فهو الحافظ أبو عبد الرحمن عبدالله بن أحمد، راوية أبيه، من كبار الأئمة، مات سنة تسعين ومئتين عن سبع وسبعين سنة. وله ترجمة أفردتُها»[4].

---

(١) العبر: ٣/٧١.

(٢) شذرات الذهب: ٦/١٥٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧/٥٧٢ ـ ٥٧٣.

(٤) المرجع السابق: ١١/٣٣٣.

ـ ترجمة عثمان بن عفان = التبيان في مناقب عثمان.

٦٦ ـ ترجمة ابن عُقْدة الكوفي:

هو حافظ العصر، والمحدث البحر، أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي، الشهير بابن عقدة (ت ٣٣٢ هـ).

قال الذهبي في ترجمته من «التذكرة»: «وقد أفردتُ ترجمته في جزء»[١].

ـ ترجمة علي بن أبي طالب = فتح المطالب.

ـ ترجمة عمر بن الخطاب = نِعْمَ السمر.

٦٧ ـ ترجمة قتيبة بن سعيد البَغْلاني:

هو أبو رجاء قُتَيْبة بن سعيد بن جميل الثقفي مولاهم، البَلْخِي البَغْلَانيّ ـ من أهل قرية بَغْلان ـ الإمام الثقة، الحافظ الجوال، المتوفى سنة (٢٤٠ هـ).

قال الذهبي في ترجمته: «وقد كنتُ عملتُ له ترجمةً معها نحوٌ من ثمانين حديثاً من العَوالي، وحدَّثْتُ بذلك، وأحببتُ الآن عملها على أنموذج نظرائه»[٢].

٦٨ ـ ترجمة مالك بن أنس:

ذكر الذهبي في أكثر من موضع من كتبه أنه أفرد ترجمة إمام دار الهجرة مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ). قال في «تاريخ الإسلام»: «ومناقب مالك وسيرته يطول شرحها، وقد أفردتُ له ترجمة في جزء

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٣/٨٤١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١١/١٤.

ضخم»[1]. وقال في ترجمته من «التذكرة»: «قد كنتُ أفردتُ ترجمةَ مالك في جزء، وطوّلتها في تاريخي الكبير»[2]. وأشار إليها في ترجمة مُسْنِد البصرة أبي رَوْق أحمد بن محمد بن بكر الهِزّانيّ البَصْريّ، فقال: «وقع لي حديثه عالياً في «معجم» ابن جُمَيْع، وقد رويتُ ذلك في سيرة مالك»[3].

٦٩ ــ ترجمة محمد بن الحسن الشَّيْبَانيّ:

هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، فقيه العراق، صاحب أبي حنيفة (ت ١٨٩ هـ).

قال الذهبي في ترجمته من «النبلاء»: «وقد سقتُ أخباره في جزء مفرد»[4]. وقال في ترجمته من «تاريخ الإسلام»: «وقد أفردتُ له ترجمة حسنة في جزء»[5]. وذكر مثل ذلك أيضاً في ترجمة القاضي أبي يوسف من «التذكرة»[6].

وذكرها أيضاً السخاوي في «الجواهر والدرر»، وسزكين[7].

٧٠ ــ ترجمة الموفق ابن قدامة:

هو الإمام القدوة العلامة المجتهد موفق الدين عبدالله بن أحمد بن

---

(١) تاريخ الإسلام: وفيات (١٧١ ــ ١٨٠) ص ٣٣٢.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/٢١٢. وترجمته في «تاريخ الإسلام» في خمس عشرة صفحة، وهي في «سير أعلام النبلاء» أضعاف ذلك. انظر: ٨/٤٨ ــ ١٣٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٥/٢٨٦.

(٤) المرجع السابق: ٩/١٣٥.

(٥) تاريخ الإسلام: وفيات (١٨١ ــ ١٩٠) ص ٣٥٩.

(٦) تذكرة الحفاظ: ١/٢٩٣.

(٧) تاريخ التراث العربي: المجلد الأول جـ٣/٥٦.

محمد بن قُدامة المقدسي الجَمّاعيلي ثم الدمشقي (ت ٦٢٠ هـ)، صاحب «المغني».

ذكر السخاوي في «الجواهر والدرر» أن الذهبي أفرد له ترجمة.

٧١ ـ ترجمة أبي يوسف القاضي:

هو الإمام المجتهد المطلق، العلامة المحدث أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي، صاحب أبي حنيفة، (ت ١٨٢ هـ).

قال الذهبي في ترجمته من «النبلاء»: «وقد أفردتُ له ترجمة في كراس»[(١)]. وذكر مثل ذلك في «تاريخه الكبير»[(٢)]. وقال في ترجمته من «التذكرة»: «قد أفردته، وأفردت صاحبه محمد بن الحسن ـ رحمهما الله ـ في جزء»[(٣)].

٧٢ ـ توقيف أهل التوفيق على مناقب الصدِّيق:

ذكره الذهبي في ترجمته من «التذكرة» فقال: «قد أفردتُ سيرته في مجلد وسط»[(٤)].

وذكره الصفدي، وابن شاكر الكتبي، وحاجي خليفة، والبغدادي، والكتاني[(٥)].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/٥٣٨.

(٢) تاريخ الإسلام: وفيات (١٨١ ـ ١٩٠) ص ٥٠٣.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١/٢٩٣.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/٢.

(٥) الوافي: ٢/١٦٤ ونكت الهميان: ٢٤٣، فوات الوفيات: ٣/٣١٦، كشف الظنون: ١/٢٩٣، إيضاح المكنون: ١/٣٤٠ وهدية العارفين ٢/١٥٤، فهرس الفهارس: ١/٤١٨.

٧٣ ـ الدرة اليتيمية في سيرة ابن تيمية:

ذكرها البغدادي فقال: «الدرة اليتيمية في سيرة التيمية: أعني تقي الدين أحمد ابن تيمية». وقال في موضع آخر: «الدرة اليتيمية في سيرة ابن تيمية، أعني تقي الدين أحمد»[1].

وقال الكتاني في ترجمة ابن تيمية: «أفرد ترجمة المترجم جماعة من الأعلام بالتصنيف، منهم الحافظ الذهبي»[2].

وقد ذكر بشار عواد هذا الكتاب ـ نقلاً عن البغدادي ـ لكنه قال فيه: «وهو في آل تيمية»![3] فمن أين جاء بذلك ونص البغدادي واضح لا لبس فيه؟!.

ونتيجة لهذه «الزيادة» منه قام الأستاذ قاسم سعد فاستدرك عليه ذِكْرَ «ترجمة ابن تيمية»[4]، ولا داعي للاستدراك. والله تعالى أعلم.

٧٤ ـ الزخرف القصري «في ترجمة الحسن البصري»:

قال الذهبي في ترجمته من «التذكرة»: «وقد كنتُ أفردتُ ترجمته في جزء سميته: الزخرف القصري»[5].

وذكره الكتاني[6]، واستدركه قاسم سعد[7] على بشار عواد، مع أن

---

(١) إيضاح المكنون: ١/٤٦٢، هدية العارفين: ٢/١٥٤.
(٢) فهرس الفهارس: ١/٢٧٦.
(٣) الذهبي ومنهجه: ٢٠٧.
(٤) صفحات في ترجمة الذهبي: ٣٢ رقم ٥.
(٥) تذكرة الحفاظ: ١/٧٢.
(٦) فهرس الفهارس: ١/٤١٨.
(٧) صفحات في ترجمة الذهبي: ٣١ رقم ١.

الأخير ذكره في «مقدمته لسير أعلام النبلاء»[1].

٧٥ ــ سيرة الحلاج:

هو الحسين بن منصور بن مَحْمِي الفارسيُّ البيضاويُّ الصوفيّ، الزنديق المفتون، (ت ٣٠٩ هـ).

قال الذهبي في ترجمته: «... ثم بدت منه كفريات أباحت دمه، وكسرت صنمه، واشتبه على الناس السحر بالكرامات، فَضَلّ به خلق كثير، كدأب من مضى ومن يكون... وقد جال هذا الرجل بخراسان وما وراء النهر والهند، وزرع في كل ناحية زندقة»[2].

ولشهرة هذا الرجل وضلاله وشدة خطورته على المسلمين وعقيدتهم؛ فقد طوَّلَ الذهبي ترجمته جداً في «النبلاء»[3]، بل أفردها بالتصنيف. وقد أشار إلى هذا المصنَّف في ترجمة المحدِّث الواعظ شيخ الصوفية إبراهيم بن محمد بن أحمد الخراسانيّ النَّصْراباذِيّ، فقال: «قُتل الحلاَّج بسيف الشرع على الزَّنْدَقَة، وقد جمعت بلاياه في جزءين»[4]. كما أشار إليها في ترجمة الحلاج من «تاريخ الإسلام»[5].

فهو قد أفرد سيرته لينبه على ضلاله وانحرافه وزندقته، وقد استغرب بشار عواد[6] إفراد الذهبي لسيرته، وفي قول الذهبي: «وقد جمعتُ بلاياه» ما يزيل الاستغراب.

---

(١) مقدمة سير أعلام النبلاء: ١/٨٢ رقم ١٠٩.

(٢) العبر: ١/٤٥٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٤/٣١٣ ــ ٣٥٤.

(٤) المرجع السابق: ١٦/٢٦٥.

(٥) تاريخ الإسلام ــ وفيات سنة ٣٠٩ هـ.

(٦) الذهبي ومنهجه: ٢٠٨.

وقد ذكر هذه السيرة ــ أيضاً ــ ابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، وابن العماد، والبغدادي، والكتاني.

٧٦ ــ سيرة سعيد بن المسيب:

ذكرها الذهبي في ترجمته من «التذكرة» فقال: «قد أفردتُ سيرة سعيد في مؤلَّف»[١].

٧٧ ــ سيرة الطبراني:

وأفرد الذهبي ترجمة للحافظ الكبير أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني ــ نسبة إلى طبرية ــ المتوفى سنة (٣٦٠ هـ).

وقد ذكرها الذهبي في مقدمة «الأربعين البلدانية» التي خرجها من «المعجم الصغير» للطبراني، فقال: «وقد أفردتُ سيرته، وذكرتُ أنه مات في سنة ستين وثلاث مئة...».

٧٨ ــ سيرة عمر بن عبد العزيز:

ذكرها الذهبي في ترجمته من «دول الإسلام» فقال: «قد أفردتُ سيرته في مجلد»[٢].

٧٩ ــ سيرة لنفسه:

قال السخاوي في «الجواهر والدرر» عند الكلام على من ألف في السير المفردة: «وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، جمعها لنفسه».

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/٥٦.

(٢) دول الإسلام: ٦١.

ـ السيرة النبوية:

ذكر الحافظ الذهبي سيرة النبي ﷺ ومغازيه في أول كتابه «تاريخ الإسلام»، باعتبارها الحلقة الأولى في التاريخ الإسلامي، لكن الحافظ السخاوي ذكر هذه السيرة ـ التي في أول تاريخ الإسلام ـ ثم عدَّدَ بعد ذلك جماعة ممن أفرد «السيرة النبوية» بتأليف، وذكر معهم الذهبي[1]. وأيضاً ذكر الكتاني هذه السيرة للذهبي مع الكتب التي أفردت في «السيرة النبوية»، وسمّاها: «السيرة السَّرية في شمائل خير البرية للذهبي»[2].

وهذا يقتضي أن الذهبي أفرد «السيرة النبوية» بكتاب مستقل، لكننا نعلم أنه قد أذن للنسّاخ أن يفردوا «السيرة» ويستلّوها من «تاريخه الكبير»، وهي تشمل المغازي والترجمة النبوية[3]. ونضيف إلى ذلك قوله ـ في أثناء كلامه على بعض كتب السيرة، وإصدار رأيه فيها ـ: «وقد لخَّصْتُ أنا الترجمة النبوية، والمغازي المدنية، في أول تاريخي الكبير، وهو كامل في معناه إن شاء الله»[4].

ومن هنا يمكننا أن نقول: إن «السيرة النبوية» التي ألفها الذهبي هي تلك التي في أول كتابه «تاريخ الإسلام»، وإذا قبلنا بقول من قال بأنه أفردها، فإننا نعتقد بأنها ليست أكثر من إفراد للمادة المتعلقة بها من «تاريخ الإسلام»[5]. والله أعلم.

٨٠ ـ فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب:

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ٨٩.

(٢) الرسالة المستطرفة: ١٩٨.

(٣) وقد طبعت الآن في مجلدين كبيرين ضمن كتابه «تاريخ الإسلام».

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/١١٦.

(٥) لذا لم أعطها رقماً مستقلاً في تعداد كتب الذهبي.

ذكره الذهبي في غير كتاب من كتبه، فقال في ترجمته من «التـذكرة»: «ومناقب هذا الإمام جمة، أفردتها في مجلدة، وسميته بفتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[1]. وذكره في ترجمة الـزبير بن العوام، وأشار إليـه في ترجمـة أم المؤمنين عائشـة من «النبلاء»[2]. كمـا أشار إليه في ترجمته من «معرفة القراء» و «دول الإسلام»[3].

وقـد ذكره الصفـدي، وابن شاكـر الكتبي، وحاجي خليفـة، والبغدادي، والكتاني[4].

٨١ ــ قضِّ نهارك بأخبار ابن المبارك:

ذكره الصفدي، والكتبي، والبغدادي، والكتاني، وهو ترجمة الإمام الحافظ العلامـة، شيـخ الإسلام، فخـر المجاهـدين، قدوة الـزاهـدين، أبي عبـد الـرحمن عبـدالله بن المبـارك المـروزي (ت ١٨١ هـ).

٨٢ ــ مختصر «مناقب سفيان الثوري» لابن الجوزي:

هـو سيِّـد الحفـاظ أبـو عبـدالله سفيـان بن سعيـد الثـوري (ت ١٦١ هـ). ذكره الذهبي في ترجمته من «التذكرة»، فقال: «مناقب هذا الإمام في مجلد لابن الجوزي، وقد اختصرته»[5].

٨٣ ــ معرفة آل منده:

بنو منده من أعلام حفاظ الحديث، واشتهر منهم غير واحد، حتى

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/١٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/٦٠، ٢/١٧٨.

(٣) معرفة القراء الكبار: ١/٢٧، دول الإسلام: ٢٤.

(٤) وسماه الكتاني في فهرس الفهارس: ١/٤١٨: «منح الطالب. . . .» وهو تحريف.

(٥) تذكرة الحفاظ: ١/٢٠٦.

قال الذهبي: «وما علمتُ بيتاً في الرُّواة مثلَ بيت بني مَنْدَه، بقيتِ الروايةُ فيهم من خلافة المُعتصم وإلى بعد الثلاثين وست مئة»[1].

لذلك ألف الذهبي كتاباً خاصاً بهم، وأشار إليه في ترجمة أبي عبدالله محمد بن إسحاق ابن منده (ت ٣٩٥ هـ) من «النبلاء»، فقال: «وقد أفردت تأليفاً بابن منده وأقاربه»[2]. وقال في ترجمته من «التذكرة»: «واستوفينا ذكر أبي عبدالله في كتاب آل منده»[3].

٨٤ ــ مناقب الإمام البخاري:

قال الذهبي في ترجمته من «التذكرة»: «قد أفردتُ مناقب هذا الإمام في جزء ضخم فيها العجب»[4]. وقال في آخر ترجمته من «تاريخ الإسلام»: «ومناقب أبي عبدالله رضي الله عنه كثيرة، وقد أفردتها في مصنف، وفيها زيادات كثيرة هناك»[5].

وذكره فؤاد سزكين[6].

٨٥ ــ نِعْمَ السمر في سيرة عمر:

هو في ترجمة أمير المؤمنين الفاروق أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، ذكره الذهبي في ترجمته من «التذكرة»، فقال: «فيا أخي، إن أحببت أن تعرف هذا الإمام حق المعرفة، فعليك بكتابي:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٧/٣٩.

(٢) المرجع السابق: ١٧/٣٨.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٣/١٠٣٥.

(٤) المرجع السابق: ٢/٥٥٦.

(٥) تاريخ الإسلام ــ وفيات (٢٥١ ــ ٢٦٠ هـ) ص ٢٧٤. وترجمته هنا في (٣٦) صفحة، وطوَّلها جداً في سير أعلام النبلاء: ١٢/٣٩١ ــ ٤٧١.

(٦) تاريخ التراث العربي: المجلد الأول جـ ١/٢٢٣.

«نعم السمر في سيرة عمر»، فإنه فارق فيصل بين المسلم والرافضي. . .»[1]. وأشار إليه في ترجمته من «دول الإسلام» بقوله: «ومناقبه وسيرته، وزهده وشجاعته، وهيبته وإخلاصه، في مجلد كامل»[2].

وذكره أيضاً الصفدي، وابن شاكر الكتبي، وحاجي خليفة، والبغدادي، والكتاني، وقالوا إنه في مجلد [3].

٨٦ ـ نفض الجعبة في أخبار شعبة:

هو في ترجمة أمير المؤمنين في الحديث أبي بِسْطام شُعبة بن الحَجَّاج بن الوَرْد الأزدي العَتَكي مولاهم الواسطي، المتوفى سنة (١٦٠ هـ).

ذكره الصفدي، وابن شاكر الكتبي، والبغدادي، والكتاني [4].

• • •

خامساً ـ مصنفاته في الفقه وأصوله

١ ـ تحريم أدبار النساء:

نُقل عن الإمام الحافظ الثبت الناقد أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ) قولُه: «لا يصحُّ في الدُّبُرِ شيءٌ، لكنْ

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٦/١.

(٢) دول الإسلام: ١٠.

(٣) الوافي: ١٦٤/٢ ونكت الهميان ٢٤٣، فوات الوفيات: ٣١٦/٣، كشف الظنون: ٢٩٣/١، إيضاح المكنون: ٦٦١/٢ وهدية العارفين: ١٥٥/٢، فهرس الفهارس: ٤١٨/١.

(٤) المراجع السابقة: نفس المواضع، عدا إيضاح المكنون: ٦٧٣/٢.

حدَّث محمدُ بن كعب القُرَظي عن ابن عباسٍ قال: «اسقِ حَرْثَك حيثُ شئتَ»، فلا ينبغي أن يُتجاوز قولُه»[1].

والحق أنه ثبت عنه ﷺ تحريمُ إتيان النساء في أدبارهن، وللذهبي في هذا الموضوع مصنَّف جليل، ذكره في أكثر من موضع، فقال في ترجمة النسائي من «التذكرة» ـ معقباً على قوله ـ: «قال ابن الذهبي: ثبت نهيُ المصطفى ﷺ عن أدبار النساء، ولي فيه مصنف»[2].

وقال في ترجمته من «النبلاء»: «قد تَيَقَّنا بطُرُقٍ لا مَحيدَ عنها نهيَ النبي ﷺ عن أدبار النِّساء، وَجَزَمْنا بتحريمه، وليَ في ذلك مصنَّفٌ كبير»[3].

وقال في ترجمة نافع مولى ابن عمر من «النبلاء» عند كلامه على هذه المسألة: «وقد أوضحنا المسألة في مصنف مفيد، لا يُطالِعُهُ عالِمٌ إلا ويقطع بتحريم ذلك»[4].

وذكره غير واحد ممن ترجم للذهبي، وذكروا أنه في جزءين[5].

٢ ـ تشبيه الخسيس بأهل الخميس:

ذكره البغدادي وقال: «وموضوعه التحذير من التشبه بأهل الكتاب في أعيادهم». وهو في مجلد[6].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/١٢٨.
(٢) تذكرة الحفاظ: ٢/٦٩٩.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٤/١٢٨.
(٤) المرجع السابق: ٥/١٠٠.
(٥) إلا البغدادي في هدية العارفين: ٢/١٥٤ فقال: في مجلدين!!
(٦) إيضاح المكنون: ١/٢٨٩، هدية العارفين ٢/١٥٤.

٣ ــ جزء في الخضاب:

ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

٤ ــ جزء في صلاة التسبيح:

ذكره ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»، وسبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وابن العماد في «شذرات الذهب».

٥ ــ جزء في القهقهة:

ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ». ولعله رد على من يقول: إن القهقهة في الصلاة تبطل الصلاة والوضوء.

٦ ــ حقوق الجار:

أورد فيه مجموعة أحاديث في الوصية بالجار، وبعض حقوقه.

٧ ــ ذكر الجهر بالبسملة مختصراً:

للحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) كتاب اسمه: «الجهر بالبسملة»، في جزءين. اختصره الذهبي وسماه: «ذكر الجهر بالبسملة مختصراً».

٨ ــ الرخصة في الغناء والطرب بشرطه:

صنف أبو الفضل كمال الدين جعفر بن تغلب الأُدْفُوي (ت ٧٤٨ هـ) كتابه: «الإمتاع في أحكام السماع»، تناول فيه أقوال المجيزين الغناء وسماعه وأدلتهم، وأقوال المانعين وأدلتهم وبيَّنَ أن الغناء المجرد عن الآلات الموسيقية قد أباحه غير واحد من العلماء؛ بشرط ألا يكون باعثاً على تهييج الشهوة، وألا يكون في معين.

وقد قام الذهبي باختصار هذا الكتاب، وتكلم على بعض أحاديثه

ويوجد من هذا المختصر نسخة في «الظاهرية» بعنوان: «رسالة الرخصة في الغناء والطرب بشرطه» في (٥٤) ورقة.

ذكره سبط ابن حجر، وبيَّن أن الذهبي اختصر فيه كتاب «السماع» للأُدْفُوي، كما ذكره ابن تغري بردي وابن العماد، وقالا إنه اختصر كتاب «جواز السماع» لجعفر الأدفوي، ولم يذكرا العنوان وهو هذا.

٩ ــ صلاة الضحى:

أشار إليه الذهبي في ترجمة خليل بن أَيْبَك الصَّفَدِي (ت ٧٦٤ هـ) من «المعجم المختص»، فقال: «حدثني خليل الفارسي[١]، أنا محمد بن أبي عمرو الحافظ، أنا العز الحراني، أنا ابن الخريف، وذكر حديثاً هو في مجموع صغير ترجمته (كذا) في صلاة الضحى»[٢].

١٠ ــ فضائل الحج وأفعاله:

ذكره ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»، وسبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وابن العماد في «شذرات الذهب».

١١ ــ كتاب اللباس:

ذكره ــ أيضاً ــ ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد.

١٢ ــ مختصر «الرد على ابن طاهر» لابن المجد:

---

(١) ذكر الذهبي في ترجمة الصفدي المذكور أنه «من موالي الأمير الكبير فارس الدين الألبَكِي» فالنسبة إليه، وزعم محقق «الوفيات» لابن رافع ــ جـ: ٢ / ٢٦٩ ــ أن هذه النسبة خطأ، وصوّبها «الفاري» نسبة إلى «الفار» بلدة من نواحي إرمينية!! والصفدي عربي منسوب إلى «صفد» بفلسطين، فما له ولإرمينية؟!

(٢) المعجم المختص: ٩٢. وأظن أن كلمة «ترجمته» محرفة، لعلها: «جمعته». وقوله «أنا»: يعني أخبرنا.

هكذا ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وأشار إليه الذهبي في «تذكرة الحفاظ».

فقد صنف الحافظ أبو الفضل محمد[1] بن طاهر المقدسي الظاهري المعروف بابن القيسراني (ت ٥٠٧ هـ) كتاباً في «السماع»، حاول فيه تبيان جواز سماع الغناء بكافة أنواعه، واستدل على ذلك بالأدلة النقلية والعقلية.

فجاء الحافظ المتقن سيف الدين أبو العباس أحمد[2] بن مجد الدين عيسى بن عبدالله المقدسي الصالحي الحنبلي (ت ٦٤٣ هـ) عن (٣٨) سنة، فصنف كتاباً في الرد على ابن القيسراني.

قال الذهبي في ترجمة سيف الدين ابن المجد من «التذكرة»: ألّف السيف ـ رحمه الله تعالى ـ مجلداً كبيراً في الردِّ على الحافظ محمد بن طاهر المقدسي لإباحته للسماع، وفي أماكن من كتاب ابن طاهر في «صفوة أهل التصوف»، وقد اختصرتُ هذا الكتاب على مقدار الربع، وانتفعت كثيراً بتعاليق الحافظ سيف الدين»[3].

١٣ ـ كتاب مسألة الاجتهاد:

ذكره سبط ابن حجر[4].

١٤ ـ كتاب مسألة خبر الواحد:

ذكره ـ أيضاً ـ سبط ابن حجر[5].

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء: ١٩/٣٦١ ـ ٣٧١.

(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء: ٢٣/١١٨ ـ ١١٩.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٤٧.

(٤، ٥) رونق الألفاظ: الورقة ١٨٠.

١٥ ـ كتاب مسألة السماع:

ذكره ابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، وابن العماد[١]، وذكروا أنه في جزء.

وقد سبق أن ذكرنا للذهبي كتابين في هذا الموضوع هما: الرخصة في الغناء والطرب بشرطه، ومختصر «الرد على ابن طاهر» لابن المجد، فلعل هذا الكتاب هو خلاصة رأي الذهبي في هذه المسألة.

١٦ ـ المستحلى في اختصار «المُحَلَّى» لابن حزم:

صنف الإمام البحر عالم الأندلس أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ) تصانيف جليلة، منها «المحلى» في الفقه، وهو من كتب الإسلام العظيمة، لذا اهتم العلماء به، واختصره عدد منهم[٢].

وقد ذكر الصفدي، والكتبي، والسبكي، والزركشي، وابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، والسيوطي، وحاجي خليفة، وابن العماد، والبغدادي، والكتاني، أن الذهبي قد اختصر «المحلى» في كتاب سماه «المستحلى». وذكر بعضهم أن هذا المختصر في ثلاثة أسفار.

١٧ ـ المنتقى من «كتاب الأموال» لأبي عُبيد:

كتاب «الأموال» للإمام الحافظ المجتهد أبي عُبيد القاسم بن سَلَّام

---

(١) المنهل الصافي: ورقة ٧٠، رونق الألفاظ: الورقة ١٨١، شذرات الذهب: ١٥٦/٦.

(٢) كمحيي الدين ابن عربي ـ صاحب «الفصوص»! ـ المتوفى سنة (٦٣٨ هـ) وسماه: «المعلى في مختصر المحلى»، وأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) وسمّاه: «النور الأجلى في اختصار المحلى». انظر: كشف الظنون ١٦١٧/٢، فوات الوفيات: ٧٨/٤.

(ت ٢٢٤ هـ) مصنف جليل، وهو «من أحسن ما صُنِّف في الفقه وأجوده»[١].

ذكر الروداني في «صلة الخلف» أن للذهبي «منتقى» منه[٢].

١٨ ــ كتاب الوتر:

ذكره حاجي خليفة، وقال إنه في مجلد، وذكره البغدادي أيضاً[٣].

• • •

سادساً ــ مصنفاته في الرقائق

١ ــ التعزية الحسنة بالأعزة:

رسالة لطيفة، ذكرها حاجي خليفة بهذا العنوان، وسماها البغدادي[٤]: «التعزية الحسنة بالآخرة»، ولعل كلمة «بالآخرة» محرَّفة.

٢ ــ جزء في محبة الصالحين:

ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

٣ ــ دعاء المكروب:

ذكره ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»، وسبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»، وابن العماد في «شذرات الذهب».

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/٤٩٤.

(٢) صلة الخلف: ٣٩٩.

(٣) كشف الظنون: ٢/١٤٦٨ ــ ١٤٦٩، هدية العارفين: ٢/١٥٤.

(٤) كشف الظنون: ١/٤٢٢، هدية العارفين: ٢/١٥٤.

٤ ــ ذكر الولدان:

ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ».

٥ ــ الكبائر:

ذكره معظم الذين ترجموا للذهبي، وهو كتاب جليل مشهور.

وقد طبع الكتاب بتحقيق وتعليق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ــ رحمه الله ــ وذكر فيه أن للذهبي في هذا الموضوع كتابين: الكبائر الكبرى، والكبائر الصغرى. وهذا ليس بصحيح[1].

وصوِّر الكتاب وطُبع مرات عديدة في أماكن كثيرة عن تلك الطبعة، بعد حذف اسم المحقق المذكور!

وطبع الكتاب في حلب باعتناء عبد الرحمن فاخوري، وبذل في خدمته جهداً جيداً، لكنه لم يعتمد أصلاً موثقاً، بل بنى على الطبعات السابقة!

وأخيراً تمكن أخونا الأستاذ محيي الدين مستو من الوقوف على الأصل الموثَّق لكتاب الكبائر، والذي تصحُّ نسبتُه ــ هو دون غيره مما سبق ــ للإمام الحافظ الناقد الذهبي، فحققه على ثلاث نسخ خطية.

●● وبين الكبائر المخطوط الموثق وبين «المطبوع المنتشر» فروق واختلافات أوجزها فيما يلي:

١ ــ في «المخطوط» عدد الكبائر (٧٦) كبيرة، وأما في المطبوع فعددها (٧٠) فقط.

٢ ــ خلو «المخطوط» من الأحاديث الموضوعة، وإيراد الأحاديث الضعيفة بصيغة التمريض، مع بيان علة الضعف بعبارة موجزة. بخلاف «المطبوع» الذي احتوى أزيد من أربعين حديثاً باطلاً، ذُكرت مصدَّرة

---

(١) كما سنوضح بعد قليل.

بصيغة الجزم! وهذا ينافر أسلوب الذهبي وعلمه ومنهجه في التصنيف، بل هو قد حكم بوضع هذه الأحاديث في بعض كتبه مثل «تلخيص المستدرك» و«ميزان الاعتدال».

٣ ــ ختم «المخطوط» بفصل ذكر فيه ما يحتمل أن يكون من الكبائر، وهذا الفصل ليس في المطبوع.

٤ ــ ظهور شخصية الذهبي في «المخطوط» في كل صفحة، بل في كل فقرة، بالنقد والتمحيص، والبعد عن الحشو، والاكتفاء بالنافع المفيد. بخلاف المطبوع الذي تتبدى فيه روح واعظ متصوف يجمع الآثار والأقوال والحكايات جمعَ حاطب ليل[1].

●● و«الكبائر المطبوع» فيه أشياء كثيرة منكرة، وحكايات باطلة، ما عوَّدنا الذهبي أن يوردها دونما نقد: كتلك التي تزعم أن أرواح المؤمنين تجمع في «بئر زمزم»، وأرواح الكفار تجمع في «بئر

---

(١) انظر مقدمة الأستاذ محيي الدين مستو للكتاب: ص ١٢ ــ ١٣. لكنه ذكر من بين الاختلافات بين «المخطوط والمطبوع» وجود عبارة «رضي الله عنه» للتابعين فمن بعدهم، وذكر أن هذا لم يعهد في عرف المحدثين، ولا عند الذهبي في كتبه الأخرى. ونحن نقول: إن هذا ليس بصحيح، فقد دأب أكابر المحدثين على ذكر عبارة «رضي الله عنه» لغير الصحابة، وممن استعملها البيهقي، والطحاوي، وابن الصلاح، والحاكم، والمنذري، والنووي، وابن تيمية، والذهبي، وابن حجر، وغيرهم. وانظر أمثلة لذلك عند الذهبي في: معرفة القراء الكبار: ١/٦٩، ٢/٦٢٠، ٧١٩. ميزان الاعتدال: ٣/١٥. سير أعلام النبلاء: ٥/٣٤، ٢٨٦، ٦/٤٠٣، ٧/١٤٣، ٢٧٠، ٣٥٩، ١٣/٣٧٧. تذكرة الحفاظ: ٣/٧٩٠، ٤/١٤٤٦، ١٤٨٢. وقد مر بعض الأمثلة في كتابنا هذا. وانظر عند غير الذهبي، مثلاً: المستدرك: ١/٢، ٣، ١٨٨. مقدمة ابن الصلاح: ١٢٩. التكملة للمنذري: ٢/٦. شذرات الذهب: ٥/٣٧٧، ٣٧٩. وغير ذلك كثير جداً.

برهوت» باليمن[1] !! إضافة لتلك الأحاديث الباطلة التي لم تجرِ للذهبي عادة بإيرادها إلا لهتكها وبيان بطلانها. لذا زاد حجم الكتاب المطبوع كثيراً، فبلغ (٢٦٠) صفحة، مع أنه ينقص (٦) كبائر والفصل الأخير، في حين أن الكتاب الموثق يقع في أقل من (١٥٠) صفحة، بدءاً من مقدمة المصنِّف إلى نهاية الكتاب، مع هوامش التحقيق!

ومن تلك الفوارق الاختلاف في حجم الكلام حول الكبيرة الواحدة، فالكبيرة الرابعة ـ مثلاً ـ وهي «ترك الصلاة»: جاءت في الأصل الصحيح الموثق في أقل من (٤) صفحات، بينما بلغت في المطبوع (١٧) صفحة. والكبيرة السابعة عشرة «اللواط»: في الأصل الموثق تقع في صفحة واحدة، وفي المطبوع بلغت (١١) صفحة!!

●● **والتفسير المنطقي** ـ كما يرى الأستاذ محيي الدين مستو[2]، ونحن نميل إلى رأيه ـ أن «الكبائر المخطوط» وقع في يد أحد الوعاظ المولعين بالجمع والحكايات والغرائب، فأخذ ما أورده الذهبي من آيات وأحاديث، وحذف تعليقاته ونقداته، وأضاف من عنده ما في جعبته من أحاديث ضعاف وحكايات ومنامات وغرائب وأشعار، وترك ذكر اسمه، ربما تزهداً! ووقع الكتاب في يد من جاء بعده، فأثبت اسم الذهبي عليه؛ لاشتهار أن الكبائر من تصنيفه.

وقد راج هذا الأمر على (المحققين) ومن تابعهم، وقَبِلَه الدكتور بشار عواد الذي رأى أن الذهبي مشى على طريقة من كتب في «الترغيب والترهيب»، فتساهل في إيراد الأحاديث غير الصحيحة إلى جانب

---

(١) الكبائر المطبوع: ٥٣.
(٢) الكبائر بتحقيقه: ١٤.

الصحيحة، باعتبار أن ذلك لا يحلِّل حراماً ولا يحرِّم حلالاً[1]!! وهذا خطأ منه، وغريب أن يصدر عنه، وهو المتمرس بالذهبي وأسلوبه، وممن سبر غور شخصيته ومنهجه!

●● والكتاب يتألف من: مقدمة، يليها ذكر ست وسبعين كبيرة، ثم فصل جامع لما يحتمل أنه من الكبائر، ذكر فيه زهاء سبعة وأربعين حديثاً.

ـ نبه في المقدمة على العدد التقريبي للكبائر، وتعريف الكبيرة، وأن بعض الكبائر أكبر من بعض.

ـ ثم ذكر الكبائر واحدة تلو الأخرى، ومنهجه في ذلك: التعريف ـ أحياناً ـ بالكبيرة، ومعناها وفقهها، ومجالاتها، ومدلولها. ثم يذكر الآيات التي وردت بشأنها، إن كان ثمة آيات تخصّها، ثم الأحاديث الواردة في ذلك، وعدد الأحاديث يختلف كثرة أو قلّة من كبيرة إلى أخرى. وفي النادر يذكر أقوال الصحابة والتابعين والسلف، أو يشرح معاني الكلمات الغامضة. ويبين ـ أحياناً ـ الحكم الشرعي على فاعل تلك الكبيرة، مثل حكم السحر وتعلمه، وحكم مؤخر الصلاة أو تاركها بالكلية، وحدّ اللوطي.

ـ وينقد أسانيد الحديث في الغالب، وقلَّما يترك ذلك، وهذه من ميزاته العظيمة رحمه الله ورضي عنه.

●● ولعل هذا التعريف بهذا الكتاب يردّ إليه شيئاً من اعتباره، وينفي عن الذهبي الظلمَ الذي لحق به بنسبة الكتاب الكبير المطبوع إليه. وليت اسمه يحذف من ذلك الكتاب المنسوب إليه!!

---

(١) الذهبي ومنهجه: ١٥٠.

٦ ـ كشف الكربة عند فقد الأحبة:

يقع في كراستين، ذكره حاجي خليفة والبغدادي[1].

٧ ـ مختصر «كتاب الزهد» للبيهقي:

من مصنفات الحافظ أبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) كتابه «الزهد الكبير». وقد ذكر ابن تغري بردي وسبط ابن حجر وابن العماد أن الذهبي قد اختصره.

٨ ـ مختصر «كتاب سلاح المؤمن» لابن الإمام:

ابن الإمام: هو المحدث محمد بن محمد بن علي بن هُمَام أبو الفتح تقي الدين العسقلاني المصري (ت ٧٤٥ هـ).

وكتابه «سلاح المؤمن في الأدعية المأثورة» بوَّبه على واحد وعشرين باباً، وقد اشتهر في حياته.

قال ابن حجر: اشتهر «سلاح المؤمن» في حياة مصنفه، ورأيت الذهبي قد ظفر به، واختصره بخطه في سنة نيف وثلاثين»[2]. وقال نحو ذلك ابن قاضي شهبة[3]. وذكره أيضاً ابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، وحاجي خليفة، وابن العماد، والبغدادي.

● ● ●

---

(١) كشف الظنون: ١٤٩٤/٢، هدية العارفين: ١٥٤/٢.
(٢) الدرر الكامنة: ٢٠٣/٤.
(٣) طبقات الشافعية: ٦٦/٣.

سابعاً ـ مصنفات متنوعة

١ ـ الإمامة الكبرى:

تَفَرَّد الزركلي بذكره، وأفاد بأن منه نسخة مخطوطة[1].

٢ ـ بيان زغل العلم والطلب:

رسالة لطيفة[2] بيَّن فيها الذهبي آراءه في مختلف العلوم وطلابها وأوضاع المهتمين بها، وقال في المقدمة: «اعلمْ أن في كل طائفة من علماء الأمة ما يُذَمُّ ويُعاب، فتجنَّبْه».

وذكر بأسلوبه السلس وعبارته الرشيقة تلك العيوب، مخصصاً لكل علم نصيباً من الكتاب، فتناول فيه: القراءة والتجويد، والحديث، والفقه وفقهاء المذاهب الأربعة، ووجه إلى أهل كل مذهب نصحه، وبين فيهم رأيه، ثم النحو واللغة، والتفسير، وأصول الفقه، وأصول الدين، والمنطق، والحكمة، والفرائض، والإنشاء، والشعر، وعلم الحساب، والشروط، والوعظ.

والرسالة ـ على صغرها ـ بالغة الأهمية لأنها تصور الحالة العلمية في عصر الذهبي، وتطالع القارىء بصور طريفة عن أوضاع بعض العلوم وعلمائها وأسلوب تفكيرهم، وأحياناً نقائصهم وعيوبهم.

٣ ـ التمسك بالسنن:

ذكره ابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، وابن العماد.

---

(١) الأعلام: ٥/٣٢٦.

(٢) نشرها حسام الدين القدسي، وعلّق عليها العلامة الكوثري.

٤ ـ جزء في فضل آية الكرسي:

ذكره ـ أيضاً ـ ابن تغري بردي، وسبط ابن حجر، وابن العماد.

٥ ـ الطب النبوي:

ألّف غير واحد من المحدثين في «الطب النبوي»[1]، وهو الطب المعتمد على الأحاديث النبوية الشريفة.

وللذهبي مصنف في ذلك، وقد طبع.

٦ ـ كتاب العلوم:

ذكره الدكتور صلاح الدين المنجد في «أعلام التاريخ والجغرافيا»[2].

ولعل الذهبي بسط فيه رأيه في «العلوم» بأنواعها، والمهتمين بها وطلابها، على غرار ما فعل في رسالة «بيان زغل العلم» لكن بصورة موسعة؟

٧ ـ كسر وثن رَتَن:

رتن الهندي شيخ دجال ظهر بعد سنة (٦٠٠ هـ) وادعى أنه من أصحاب النبي ﷺ! مما حدا بالذهبي إلى هتك باطله، فصنف هذا الكتاب.

وقد أشار إليه في أكثر من موضع من كتبه، فمن ذلك قوله في «الميزان»: «رَتَن الهندي: وما أدراك ما رَتَن؟! شيخ دجَّال بلا ريب،

---

(١) انظر: كشف الظنون ٢/١٠٩٥.

(٢) ص ١٣٩. وأشار إلى وجود نسخة منه في رامبور: رقم ١٢٥٢، والجزء الثالث في «الظاهرية» رقم ٣٢٠ حديث.

ظهر بعد الست مئة فادَّعى الصحبة، والصحابةُ لا يكذبون، وهذا جريء على الله ورسوله، وقد أَلَّفتُ في أمره جزءاً. وقد قيل: إنه مات سنة اثنتين وثلاثين وست مئة»(١).

وقال في ترجمته من «تاريخ الإسلام»: «وقد أفردتُ جزءاً فيه أخبار هذا الضالّ، وسميتُه: كسر وثن رَتَن»(٢).

وجاء في ترجمته من «النبلاء»: «وقد أفردتُه في جزء، وهتكتُ باطله» (٣).

وقال في ترجمة الصحابي أبي الطُّفَيْل عامر بن وَاثِلَةَ اللَّيْثِي، المتوفى سنة (١١٠ هـ): «خاتم مَنْ رأى رسول الله ﷺ في الدنيا، واستمرّ الحالُ على ذلك في عصر التابعين وتابعيهم، وهلمَّ جرا، لا يقول آدمي: إنني رأيتُ رسول الله ﷺ، حتى نَبَغَ بالهند بعدَ خمس مئة عام بابا رَتَن! فادَّعى الصحبةَ، وآذى نفسه، وكذَّبه العلماء. فمن صدَّقه في دعواه، فبارَكَ اللهُ في عقله، ونحنُ نحمدُ الله على العافية»(٤)!!

وقد وقف الحافظ ابن حجر على هذا الجزء الذي جمعه الذهبي، ونقل منه مقتطفات في كتابيه: «الإصابة» و«لسان الميزان»(٥).

قال ابن حجر: «وما زلتُ أطلب الجزء المذكور حتى ظفرتُ به بخطّ مؤلِّفه، فكتبتُ منه ما أردتُه هنا من خطِّه بلفظه، وأوله: بسم الله الرحمن الرحيم، سبحانك هذا بهتان عظيم! قال شيخُ الشيوخ ـ ومن

---

(١) ميزان الاعتدال: ٢/٤٥.

(٢) تاريخ الإسلام: وفيات سنة (٦٣٢ هـ).

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣٦٧/٢٢.

(٤) المرجع السابق: ٣/٤٦٧ ـ ٤٦٨.

(٥) الإصابة: ١/٥١٥ ـ ٥٢٠، لسان الميزان: ٢/٤٥٠ ـ ٤٥٥.

خطه نقلت ــ واسمه محمد أبو القاسم بن عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الكريم الحسيني الكاشغري: حدثني الشيخُ القدوة مهبطُ الأسرار الربانية، منبعُ الأنوار السبحانية، همام الدين السهركندي، حدثني الشيخ المعمَّر بقيةُ أصحاب سيد البشر خواجا رَطَن بن ساهوك بن جكندريق الهندي البترندي قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت شجرة أيام الخريف. . .»[1].

ثم ذكر عن الكاشغري عن تاج الدين الخراساني عن موسى بن مجلى الصوفي عن رتن (٤٠) حديثاً رتنيات ثابتات! وأن رتن حضر زفاف السيدة فاطمة الزهراء ورقص فيه. ثم ذكر الذهبي أنه وقف على نسخة مروية عن رتن فيها (٣٠٠) حديث. ثم بيَّنَ رأيه في رتن، ثم ذكر أقلَّ ما يروى في عصره من العدد إلى النبي ﷺ، واستطرد إلى غلاة الصوفية ومن يقول منهم: حدثني قلبي عن ربي! ونقض وجود رتن عقلياً ونقلياً وتاريخياً.

وقد نازع في ذلك الصفدي، فقوَّى وجود رتن، وأيضاً مال الفِيرُوزَ ابادي إلى تصديق وجوده، وأنكر على الذهبي إنكاره وجود رتن!

وأما الحافظ ابن حجر فانتصر لرأي الذهبي وأيده بقوله: «لأنا معشر أهل الحديث نقطع بكذب من ادَّعى الصحبةَ بعد أبي الطّفَيل عامر بن واثلة، والله الهادي إلى الصواب، متمسكين بالحديث المتواتر عنه ﷺ أنه على رأس مئة سنة من حين مقاله لا يبقى على وجه الأرض ممن هو إذ ذاك عليها أحد، فدخلَ في العموم رَتَن على تقدير أن لو كان موجوداً حينئذٍ. والله تعالى أعلم».

---

(١) الإصابة: ١/٥١٥.



الفَصل الرابع عَشر
وَفَـاتُهُ وَمَراثِيـهِ

ضعف بصره ثم عماه:

بقي الذهبي طيلة حياته المباركة في عمل متواصل، وجهد متصاعد، يدأب في العلم ويجتهد في خدمته، يقيم ويرحل، ويَسمَع ويُسمِع، ويَقرأ ويُقرأ عليه، ويطالع ويصنف، وينتقى ويختصر، ويحقق ويدقق، في عزيمة لا تعرف الكسل، ونفس تأبى الملَل، فأتعب نهاره، وأسهر ليله، حتى أوهن جسمه وأوهاه، ودخل في العجز، وهاجمه ضعف البصر! وصدق الحافظ ابن أبي حاتم عندما قال: «لا يُستطاع العلم براحة الجسد»[1].

ولقد أشار الذهبي إلى ضعف بصره في أثناء ترجمته للإمام عبدالله بن أحمد بن حنبل، وهو يتكلم على مسند أبيه فقال: «فلعلَّ الله يقيِّضُ لهذا الديوان العظيم من يرتِّبه ويهذِّبه، ويحذِف ما كُرِّر فيه، ويُصلح ما تصحَّف، ويوضح حالَ كثير من رجاله، وينبِّه على مُرْسَله، ويوهِّن ما ينبغي من مناكيره، ويرتِّب الصحابةَ على المُعْجَم، وكذلك أصحابهم على المعجم، ويَرمِزُ على رؤوس الحديث بأسماء الكتب السِّتَّة، وإنْ رتَّبه على الأبواب فَحَسَنٌ جميلٌ. ولولا أنِّي قد عَجِزت عن ذلك لِضَعْفِ البَصَر، وعدم النيّة، وقُرْبِ الرَّحيلِ؛ لعملتُ في ذلك»[2].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٣/ ٨٣٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٥٢٥.

وبقي نور عينيه يضعف حتى أُضِرَّ قبيل وفاته بسنوات قليلة، بماء نزل في عينيه، فكان يتأذى ويغضب إذا قيل له: لو قدحت هذا لرجع بصرك، ويقول: ليس هذا بماء، وأنا أعرف بنفسي، لأنني ما زال بصري ينقص قليلاً قليلاً إلى أن تكامل عدمه[1]!

وقد ذكر تلميذه الحسيني أنه عمي في سنة (٧٤١ هـ) قبل وفاته بسبع سنين، وتابعه على ذلك النعيمي والزركلي وبشار عواد[2]. أما السبكي فيرى أن شيخه أُضِرَّ قبل موته بيسير، وتابعه الحافظ السيوطي وابن العماد[3].

ونحن نرجح هذا الرأي الأخير، ونرجح أن الذهبي قد عمي في أواخر سنة (٧٤٤ هـ)، أو بعدها، وذلك لعدة أمور:

أولها: أن الذهبي قد أرخ وفاة شيخه ابن عبد الهادي في جمادى الأولى من سنة (٧٤٤ هـ)[4].

ثانيها: ذَيَّلَ الذهبي على كتابه «دول الإسلام»، فكتب حتى سنة (٧٤٤ هـ)[5].

ثالثها: نقل النعيمي في «الدارس» عن الذهبي أنه كتب «ذيل العبر» سنة (٧٤٤ هـ)، فقال: «وقد ذكرت في الذيل الذي كتبته سنة

---

(١) نَكْت الهِمْيان: ٢٤٢، البدر الطالع: ٢/١١٢.

(٢) انظر: ذيول التذكرة ٣٦ وذيل ذيل العبر: ٤/١٤٨، الدارس: ١/٧٩، الأعلام: ٥/٣٢٦، الذهبي ومنهجه: ١٣٧.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٩/١٠٥ ــ ١٠٦، ذيول التذكرة: ٣٤٩ وطبقات الحفاظ: ٥٢٢، شذرات الذهب: ٦/١٥٥.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٤/١٥٠٨.

(٥) انظر: ص ٤٦٥ ــ ٤٦٦ من كتابنا هذا.

أربع وأربعين جماعة من أولاد القاضي محيي الدين. . .»[1].

من خلال ذلك نستنتج أن الذهبي أُضِرَّ بعد هذا التاريخ ـ أي بعد سنة ٧٤٤ هـ ـ إذ لا يعقل أن يكتب في كتبه الثلاثة هذه وهو أعمى، ولم يُعرف أن له كاتباً يكتب له، والنص الأخير لا يحتمل التأويل. ونجد أن قول السبكي ـ ومن تابعه ـ أدنى إلى الصواب.

وفاته والصلاة عليه:

أجمعت مصادر ترجمته على أنه مات في ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة (٧٤٨ هـ) بدمشق، ودفن بمقبرة الباب الصغير[2]، وحضر الصلاة عليه جملة من العلماء منهم تلميذه السبكي.

وقد نقل لنا تاج الدين السبكي صورة مؤثرة عن آخر ساعات شيخه الذهبي، فقال: «توفي ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة الاثنين، ثالث ذي القعدة بالمدرسة المنسوبة لأم الصالح، في قاعة سكنه، ورآه الوالد[3] قبل المغرب وهو في السياق، ثم سأله: «أَدَخَلَ وقت المغرب؟ فقال له الوالد: ألم تصلِّ العصر؟ فقال: نعم، ولكن لم أصلِّ المغرب إلى الآن. وسأل الوالدَ ـ رحمه الله ـ عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديماً؟ فأفتاه بذلك، ففعله. ومات بعد العشاء قبل نصف الليل، ودفن بباب الصغير. حضرت الصلاة عليه، ودفنه، وكان قد أضر قبل موته بمدة يسيرة».

---

(١) الدارس: ١/١٩٠.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٩/١٠٥ ـ ١٠٦، ذيل التذكرة للحسيني: ٣٦ وذيل ذيل العبر له: ٤/١٤٨، البداية والنهاية: ١٤/٢٢٥، الرد الوافر: ٦٦، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٣/٥٧، ذيل التذكرة للسيوطي: ٣٤٨ ـ ٣٤٩، البدر الطالع: ٢/١١٢، الدارس: ١/٧٩ وفيه «الثلاثاء» وهو خطأ أو تحريف.

(٣) هو تقي الدين السبكي والد التاج.

وذكر ابن كثير أنه «توفي بتربة أم الصالح، وصلي عليه يوم الاثنين صلاة الظهر في جامع دمشق[1]، ودفن بباب الصغير».

مـــراثـيـــه:

رثاه غير واحد من تلامذته، منهم الصفدي، ومن ذلك قوله[2]:

أشمسَ الدينِ غبتَ وكلُّ شمسٍ ... تغيبُ، وزالَ عنّا ظِلُّ فَضْلِكْ

وكمْ ورَّخْتَ أنتَ وفاةَ شخصٍ ... ومـا وَرَّخْتَ قطّ وفـاةَ مِثلكْ

ورثاه التاج السبكي بقصيدة يقول فيها[3]:

مَنْ للحديثِ وللسَّارينَ في الطَّلَبِ ... مِنْ بعدِ موتِ الإمامِ الحافظِ الذهبي

من للروايـة للأخبـارِ ينشـرُهـا ... بين البريَّةِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ

من للدِّرايـةِ والآثـارِ يَحفـظهـا ... بالنقدِ من وَضْع أهل الغيِّ والكذِبِ

من للصناعةِ يدري حلَّ مُعضِلها ... حتّى يُريك جلاءَ الشكِّ والرِّيَبِ

من للجماعةِ أهلِ العلم يُلْبِسُهُم ... أعلامه الغُرَّ من أبرادِها القُشُبِ

من للتَّخاريجُ يُبديها ويَدخُلُ في ... أبوابها فـاتحاً للمُقْفَـل الأشِبِ

من في القراءات بين الناس نافِعهُم ... وعاصمٌ ركنَها في الجَحْفَل اللَّجِبِ

من لِلخطابة لمّا لاحَ يَرْفُلُ في ... ثوبِ السّواد كبَدْرٍ لاحَ في سُحُبِ

---

(١) أي: المسجد الأموي. ومقبرة الباب الصغير: هي مقبرة دمشق العظمى، تبدأ من جنوب شرقي دمشق إلى شرقي جامع المصلى، ومن قبلي وغرب جامع جراح حتى شارع ابن عساكر جنوباً، ويحدها من الغرب طريق الميدان. وقد اقتطع منها عدد من الشوارع والمنازل، ومخفر الشيخ حسن وسجنه المشهور (تسميه العامة: كركون الشيخ حسن).

(٢) الوافي بالوفيات: ٢/١٦٥. وفي البيت الثاني مبالغة ومجازفة لا تليق!

(٣) الطبقات الكبرى: ٩/١٠٩ ـ ١١١.

بالله يا نفسُ كوني لي مُساعدةً ... وحاذِري جزَعَ الأوصابِ والرُّعُبِ

فهـذهِ الدارُ دارٌ لا ذِمـامَ لهـا ... ليستْ بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ

وإن تغِبْ ذاتُ شمسِ الدين لا عجبٌ ... فأيُّ شمسٍ رأيناها ولم تَغِبِ؟!

هو الإمامُ الـذي روَّتْ روايتُه ... وطبَّقَ الأرضَ من طلَّابهِ النُّجُبِ

مهذَّبُ القولِ لا عِيٌّ ولَجْلَجَةٌ ... مُثَبَّتُ النَّقْلِ سامي القصدِ والحَسَبِ

ثَبْتٌ صدوقٌ خبيرٌ حافظٌ يَقِظٌ ... في النقلِ أصدقُ أنباءً من الكتـبِ

اللهُ أكبـرُ مـا أقـرا وأحفـظَهُ ... من زاهدٍ ورعٍ في الله مُرْتَغِبِ

* * *



الخاتمة

إنّ الباحث في سيرة الإمام الذهبي ليستعيد تلك الصورة المضيئة لعلماء الإسلام في القرون الفاضلة، والجهود الخارقة التي قدّمها عباقرة المحدثين في عصر الرواية.

ولئن وُجِد الذهبي في عصر غلب على علمائه الجمود والكودنة، واستشرى فيه التقليد وقلّة الإبداع؛ فإنّ هذا الإمام قد استطاع أن يتجاوز ذلك، ويضع لنفسه ذاك المنهج النقدي الفريد، الذي شُيِّد عليه صرح السنّة من ذي قبل.

وإذا كان كثير من معاصريه ما استطاعوا أن يحدثوا جديداً، فإنّه تمكّن أن يؤسّس مدرسة يمكن تسميتها باطمئنان «المدرسة الذهبية»! تلك التي تخرّج فيها كثير من تلامذته، فكانوا أعيان العلماء فيما بعد، وجاء مَنْ بعدهم فنهج منهجهم، وأصّلَ تأصيلهم، وعلى رأسهم شيخ السنّة في عصره الحافظ ابن حجر العسقلاني، وتلميذه الحافظ السخاوي.

وفضلاً عن ذلك «المنهج الذهبي» الذي أبدعه هذا الإمام، وقدّمه لأمّته، فإنّه ــ كذلك ــ خَلَّفَ لها تراثاً علمياً ضخماً، فريداً مفيداً، اعتمدته من بعده الأئمة، ونهلت من معينه الأمة، فأصبحت تواليفه موارد للمحدثين والمؤرّخين، وعمدة للمؤلّفين والباحثين، ومراجع مهمة تحتل مكان الصدارة منذ عصره وحتى وقتنا الحاضر، فأقبل الجميع على تلك التصانيف الماتعة، لا يستغني عنها مؤلّف، ولا عالم، ولا طالب علم، وازدانت بها المكاتب العامة والخاصة، وتنافس في تحصيلها الكبير

والصغير، فَتَجَدَّدَ له بذلك الذكر الحسن والثناء الجميل، وهذا من دلائل القبول ـ إن شاء الله ـ لعمل هذا الإمام، ومن أمارات الوفاء من الأمة لعلمائها.

إنّ حياة الذهبي تدعو إلى التأمّل والتفكّر، وتبعث على الإكبار والإعجاب، حياة ملء سمع الدنيا وبصرها، ونهاية كأنّ الأمة ما علمت بها، فالذهبي لا يزال يعيش معها، بتصانيفه البديعة، وبحوثه الرائعة، وكلماته النافعة، وآرائه المعتمدة، التي يطالعها الدارسون، ويكثرون الرجوع إليها، والاعتماد عليها، ويجدّدون الترحم على صاحبها، وتلك هي الحياة بمعناها السامي البعيد!

وإنّ من الوفاء لأئمّتنا أن نخلّد ذكرهم، وننشر على الدنيا عبير سِيَرِهم، ليقتدي الأحفاد بالأجداد، ويستقرئوا التاريخ لاستعادة بناء الأمجاد.

ونرجو أن يكون هذا البحث إسهاماً خيراً في هذا المجال، وأن يوفي بعض حق هذا الإمام على أمّته، وهو الذي قدّم لها حياته ووقته، وعقله وفكره، فبقي يصنّف ويؤلّف حتى انطفأ نور عينيه، يبتغي وجه الله والنصح للمسلمين.

وأسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علّمنا، ويعلّمنا ما ينفعنا، ويزيدنا علماً. كما وأدعوه ـ جلّ جلاله ـ أن يكتب لعملي هذا القبول عنده، والنفع للمسلمين به، وأن يجعله في صحيفة الحسنات، ويغفر الزلّات، ويجزل المثوبة، ويحطّ الخطيئة، إنّه سميع قريب، جواد كريم، مجيب الدعاء.

سيبقى الخط بعدي في الكتاب ... وتبلى اليد مني في التراب
فيا ليت الذي يقرا كتابي ... دعا لي بالخلاص من الحساب

فيا أخي قارىء هذا الكتاب أسألك أن تدعو لي بالقبول والمغفرة، وتسدي ـ إن قدرت ـ لي النصيحة، خالصة لوجه الله تعالى.

ربّنا عليك توكّلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير. والحمد لله رب العالمين.

عبد الستار الشيخ
عفي عنه

ليلة الجمعة: غرة صفر الخير ١٤١٣ هـ.

٣١/٧/١٩٩٢ م.



المَــرَاجع

١ ـ **ابن حجر العسقلاني**، للمؤلّف، دار القلم ـ دمشق، بيروت.

٢ ـ **أربع رسائل في علوم الحديث** (للسبكي والسخاوي والذهبي)، بعناية عبد الفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

٣ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٤ ـ **الأعلام** لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت.

٥ ـ **الإعلام بوفيات الأعلام**، للذهبي، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وعبد الجبار زكار، دار الفكر ـ بيروت، دمشق.

٦ ـ **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ**، للسخاوي، عني بنشره القدسي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٧ ـ **الأمصار ذوات الآثار**، للذهبي، تحقيق قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

٨ ـ **إنباء الغمر بأنباء العمر**، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩ ـ **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، لإسماعيل باشا البغدادي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٠ ـ **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**، لابن كثير، تأليف أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١ ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير، مكتبة المعارف ـ بيروت.

١٢ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، للشوكاني، دار المعرفة ـ بيروت.

١٣ ـ **برنامج الوادي آشي**، لمحمد بن جابر الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي ـ أثينا، بيروت. وبرنامج الوادي آشي،

لمحمد بن جابر الوادي آشي، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة، جامعة أم القرى ـ مكة المكرّمة.

١٤ ـ **تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام**، للذهبي، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٥ ـ **تاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٦ ـ **تبصير المنتبه بتحرير المشتبه**، لابن حجر، تحقيق البجاوي والنجار، المكتبة العلمية ـ بيروت.

١٧ ـ **تجريد أسماء الصحابة**، للذهبي، دار المعرفة ـ بيروت.

١٨ ـ **تدريب الراوي**، للسيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر.

١٩ ـ **تذكرة الحفاظ**، للذهبي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٠ ـ **تقريب التهذيب**، لابن حجر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة ـ بيروت.

٢١ ـ **التكملة لوفيات النقلة**، للمنذري، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢٢ ـ **تلخيص المستدرك**، للذهبي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢٣ ـ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**، لابن عراق، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبدالله محمد الصديق، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٤ ـ **تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق**، لابن عبد الهادي، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري، المكتبة الحديثة ـ الإمارات العربية المتحدة.

٢٥ ـ **تهذيب التهذيب**، لابن حجر، دار الفكر ـ بيروت.

٢٦ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر ـ بيروت.

٢٧ ـ **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، للسخاوي، الجزء

الأول، تحقيق الدكتور حامد عبد المجيد وطه الزيني، لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة.
٢٨ ـ **الدارس في تاريخ المدارس**، لعبد القادر النعيمي الدمشقي، تحقيق جعفر الحسيني، مكتبة الثقافة الدينية بمصر.
٢٩ ـ **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، لابن تغري بردي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى ـ مكة المكرّمة.
٣٠ ـ **دول الإسلام مع الذيل**، للذهبي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.
ودول الإسلام مع الذيل، للذهبي، باعتناء عبدالله إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي ـ قطر.
٣١ ـ **الذهبي (دراسة موضوعية تحليلية تربوية)**، لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر ـ دمشق.
٣٢ ـ **الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام**، للدكتور بشار عواد معروف، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٣٣ ـ **ذيل تذكرة الحفاظ**، للحسيني.
٣٤ ـ **ذيل تذكرة الحفاظ (لحظ الألحاظ)**، لابن فهد.
٣٥ ـ **ذيل تذكرة الحفاظ**، للسيوطي. ثلاثتها باعتناء العلّامة محمد زاهد الكوثري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٣٦ ـ **ذيل العبر في خبر من عبر**، للذهبي والحسيني، (تحقيق!) محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٣٧ ـ **ذيل العبر في خبر من عبر**، لأبي زرعة ابن العراقي، تحقيق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٣٨ ـ **ذيل ميزان الاعتدال**، للحافظ العراقي، تحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي، جامعة أم القرى ـ مكة المكرّمة.
٣٩ ـ **الرد الوافر**، لابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٤٠ ــ **الرسالة المستطرفة**، لمحمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.
٤١ ــ **الروضتين مع الذيل**، لأبي شامة المقدسي، دار الجيل ــ بيروت.
٤٢ ــ **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، تحقيق جماعة من أهل العلم وإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.
٤٣ ــ **السيرة النبوية**، (مأخوذة من تاريخ الإسلام) للذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، دار ومكتبة الهلال ــ بيروت.
٤٤ ــ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، دار الفكر ــ بيروت.
٤٥ ــ **شرح نخبة الفكر**، لابن حجر، علق عليه محمد غياث الصباغ، مكتبة الغزالي ــ دمشق.
٤٦ ــ **صفحات في ترجمة الحافظ الذهبي**، لقاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.
٤٧ ــ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، للسخاوي، دار مكتبة الحياة ــ بيروت.
٤٨ ــ **طبقات الحفاظ**، للسيوطي، دار الكتب العلمية ــ بيروت.
٤٩ ــ **طبقات الشافعية**، لابن قاضي شهبة، تحقيق عبد العليم خان، عالم الكتب.
٥٠ ــ **طبقات الشافعية الكبرى**، للسبكي، تحقيق الطناحي والحلو، مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة.
٥١ ــ **طبقات المدلسين**، لابن حجر، تحقيق الدكتور عاصم القريوتي، مكتبة المنار ــ عمان.
٥٢ ــ **العبر في خبر من عبر**، للذهبي، (تحقيق) محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ــ بيروت.
٥٣ ــ **علوم الحديث لابن الصلاح**، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، دار الفكر ــ دمشق.

٥٤ ـ **غاية النهاية في طبقات القرّاء**، لابن الجزري، عني بنشره ج برجستراسر، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٥٥ ـ **فتح الباري**، لابن حجر، المكتبة السلفية.
٥٦ ـ **فهرس الفهارس والأثبات**، لعبد الحي الكتاني، باعتناء الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.
٥٧ ـ **فوات الوفيات والذيل عليها**، لابن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت.
٥٨ ـ **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي، مكتبة النوري ـ دمشق.
٥٩ ـ **قواعد التحديث**، لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار إحياء الكتب العربية.
٦٠ ـ **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة**، للذهبي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٦١ ـ **الكبائر**، للذهبي، تحقيق محيي الدين مستو، دار ابن كثير ـ دمشق. **الكبائر** (منسوب للذهبي)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٦٢ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، لإسماعيل بن محمد العجلوني، علّق عليه أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٦٣ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٦٤ ـ **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، لنجم الدين الغزي، تحقيق الدكتور جبرائيل سليمان جبّور، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.
٦٥ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار الفكر (مصورة عن طبعة دار صادر) ـ بيروت.

٦٦ ــ **لسان الميزان**، لابن حجر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (مصوّرة عن طبعة حيدر آباد).
٦٧ ــ **المختار من تاريخ ابن الجزري**، للذهبي، تحقيق خضير عباس المنشداوي، دار الكتاب العربي ــ بيروت.
٦٨ ــ **مختصر «العلو» للذهبي**، اختصار وتحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ــ بيروت.
٦٩ ــ **المستدرك**، للحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي ــ بيروت.
٧٠ ــ **المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم**، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ــ عيسى البابي الحلبي.
٧١ ــ **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية ــ بيروت.
٧٢ ــ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار الفكر ــ بيروت (مصوّرة عن دار صادر).
٧٣ ــ **معجم الشيوخ**، للذهبي، تحقيق الدكتورة روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية ــ بيروت. **ومعجم الشيوخ**، للذهبي، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق ــ الطائف.
٧٤ ــ **المعجم المختص بالمحدثين**، للذهبي، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق ــ الطائف.
٧٥ ــ **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث**، صنفه لفيف من المستشرقين، دار الدعوة ــ استنبول.
٧٦ ــ **معجم المؤلّفين**، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

٧٧ ــ **المعجم الوسيط**، لأحمد حسن الزيات وزملائه، مجمع اللغة العربية بمصر، نشر دار الدعوة ــ استنبول.

٧٨ ــ **معرفة الرواة المتكلّم فيهم بما لا يوجب الرد**، للذهبي.
تحقيق محمد إبراهيم الموصلي، دار البشائر الإسلامية، ــ بيروت.

٧٩ ــ **المغني في الضعفاء**، للذهبي، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، إدارة إحياء التراث الإسلامي ــ قطر.

٨٠ ــ **معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والأعصار**، للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وبشار عواد وصالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

٨١ ــ **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، لطاش كبرى زاده، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٨٢ ــ **المقاصد الحسنة**، للسخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي ــ بيروت.

٨٣ ــ **المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال**، وهو مختصر ما يعرف باسم منهاج السنّة النبوية لابن تيمية، اختصره الذهبي، وحققه محب الدين الخطيب، الرياض.

٨٤ ــ **الموقظة**، للذهبي، باعتناء عبد الفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

٨٥ ــ **ميزان الاعتدال**، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة ــ بيروت.

٨٦ ــ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لابن الأثير، تحقيق الزاوي والطناحي، المكتبة العلمية ــ بيروت.

٨٧ ــ **هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين**، للبغدادي، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

٨٨ ــ **الوفيّات**، لابن رافع السلاّمي، تحقيق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

٨٩ ــ **وفيات الأعيان**، لابن خلّكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الفكر ــ بيروت (مصوّرة عن دار صادر).

٩٠ ــ **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، لابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، ــ بيروت.

٩١ ــ **ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق**، للذهبي، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي، مكتبة المنار، الأردن.

٩٢ ــ **صلة الخَلَف بموصُول السَّلَف**، لمحمد بن سليمان الرّودَاني، تحقيق الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ــ بيروت.

٩٣ ــ **نكْت الهِمْيان في نُكَت العميان**، للصفدي، تحقيق أحمد زكي، عني بطبعه ونشره أسعد طرابزوني.

وغير ذلك.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
هذا الرجل	٥
المقدمة	٧
الفصل الأول ـ عصر الحافظ الذهبي	١٧ ـ ٢٦
الفصل الثاني ـ أخباره الشخصية	٢٧ ـ ٤٣
اسمه ونسبه ونسبته وولادته	٢٧
أسلافه	٢٧
نسبته: الذهبي وابن الذهبي	٢٩
نشأته	٣١
عناية عائلته به	٣٥
أسرته	٣٨
الفصل الثالث ـ طلبه العلم ورحلاته ومسموعاته	٤٥ ـ ٧٠
طلبه العلم	٤٥
رحلاته	٤٧
أولاً: رحلاته داخل البلاد الشامية	٤٨
ثانياً: رحلته إلى الديار المصرية	٥٤
ثالثاً: رحلته إلى الديار المقدسة	٥٩
بعض مسموعاته	٦٥
استمراره في طلب العلم طيلة حياته	٦٩
الفصل الرابع ـ شيوخه وأقرانه	٧١ ـ ٩٢
أولاً: شيوخه وتراجم بعض أعيانهم	٧١
شيخاته	٨٣

الموضوع	الصفحة
ثانياً: أقرانه	٨٤
الفصل الخامس ـ العلوم التي برع فيها	٩٣ ـ ١٩٨
أولاً: الذهبي المقرىء المجوِّد	٩٤
ثانياً: الذهبي المحدث الجهبذ	١١٢
ثالثاً: الذهبي المؤرخ البارع	١٤٥
رابعاً: الذهبي الفقيه	١٦٥
خامساً: الذهبي اللغوي الأديب	١٨٢
الفصل السادس ـ الذهبي الناقد الكبير	١٩٩ ـ ٢٦٣
مجالات النقد عنده	٢٠٠
أولاً: ناقد شمولي	٢٠٠
ثانياً: ناقد حديثي وتاريخي بارع	٢٠٦
ثالثاً: نقده المصادر	٢١٤
رابعاً: نقده كل ما لا يراه صحيحاً	٢١٩
خامساً: إنصافه في تراجمه	٢٢٤
سادساً: ما انْتُقِدَ به الذهبي	٢٣٤
الفصل السابع ـ مناصبه	٢٦٥ ـ ٢٧١
أولاً: الإقراء	٢٦٦
ثانياً: الخطابة	٢٦٧
ثالثاً: مشيخة دور الحديث	٢٦٨
الفصل الثامن ـ عواملُ تكوين شخصيته ومنهجُه	٢٧٣ ـ ٢٨٥
أولاً: عوامل تكوين شخصيته	٢٧٣
ثانياً: منهجه	٢٨٠

الموضوع | الصفحة

الفصل التاسع ـ عقيدته .... ٢٨٧ ـ ٣١٤
الفصل العاشر ـ أخلاقه .... ٣١٥ ـ ٣٢٥
الفصل الحادي عشر ـ تلاميذه .... ٣٢٧ ـ ٣٣٢
الفصل الثاني عشر ـ مكانته العلمية والثناء عليه .... ٣٣٣ ـ ٣٤١
أولاً: مكانته العلمية ٣٣٣
ثانياً: ثناؤهم عليه ٣٣٥
ثالثاً: كثرة المترجمين له ٣٤٠
الفصل الثالث عشر ـ مصنفاته: قيمتها: ومجالاتها، ونواحي الإبداع فيها، والتعريف بها .... ٣٤٣ ـ ٥٣٠
بقي نصف قرن يصنف ٣٤٣
مجالات مصنفاته وحجمها واكتمالها ٣٤٤
مميزات كتبه ٣٤٥
أهميتها واهتمام الدارسين بها وثناء العلماء عليها ٣٤٦
عددها ٣٤٧
عدد كتبه عندنا ومنهجنا في تصنيفها ودراستها ٣٤٨
أولاً: مصنفاته في العقائد ٣٥٠
ثانياً: مصنفاته في القراءات ٣٥٩
ثالثاً: مصنفاته في الحديث وعلومه:
أ ـ الحديث والأجزاء والعوالي ٣٥٩
ب ـ كتب المصطلح وعلم الرجال والجرح والتعديل ٣٩١
جـ ـ المعاجم والمشيخات ٤٢٦
رابعاً: مصنفاته في التاريخ والتراجم والسير:
أ ـ التاريخ والتراجم ٤٤٣

الموضوع	الصفحة

ب ـ السِّيَر والتراجم المفردة ٤٩٩
خامساً: مصنفاته في الفقه وأصوله ٥١٤
سادساً: مصنفاته في الرقائق ٥٢٠
سابعاً: مصنفات متنوعة ٥٢٦
الفصل الرابع عشر ـ وفاته ومراثيه .... ٥٣١ ـ ٥٣٥
الخاتمة ٥٣٧
المراجع ٥٤١
الفهرس ٥٤٩